

بقلم
فائق الشيخ علي

مذكرات
وريثة العروش

الأميرة بديعة إبنة الملك علي حفيدة ملك العرب الشريف حسين بن علي
تروي سيرة أهلها ملوك وملكات الشام والحجاز والأردن والعراق

أهم وثيقة عربية في القرن العشرين

دار الحكمة
لندن



المؤلف في سطور

- محامٍ عراقي، من مواليد النجف الأشرف عام ١٩٦٣م لأسرة علمية مرموقة، كانت تمثل المرجعية الدينية في العراق حتى عام ١٩٥١م.
- صحافي مشهور، نشر العديد من البحوث والتحليلات السياسية المهمة، في كبريات الصحف والمجلات العربية الصادرة بلندن، كـ «الحياة» و«الوسط» وغيرهما.
- سياسي مستقل، لم ينتمِ الى أي حزب أو جهة سياسية في حياته. قاوم ـ وما يزال ـ نظام صدام بقوة.
- تخرّج من كلية القانون والسياسة ـ قسم القانون في جامعة بغداد سنة ١٩٨٦م/١٩٨٧م، ومارس مهنة «المحاماة» للفترة ١٩٨٩م ـ ١٩٩١م.
- ثار ضد صدام ونظامه في آذار (شعبان) ١٩٩١م، واضطر الى مغادرة بلده العراق بعد استباحة قوات النظام الحاكم المدن الثائرة، وارتكابها المجازر المروعة بحق أبناء الشعب العراقي.
- لجأ الى مخيم «رفحاء» في المملكة العربية السعودية، ومنه غادر الى مخيم «جهرم» في جمهورية ايران الاسلامية، ثم الى لندن ليعيش لاجئاً سياسياً فيها منذ عام ١٩٩٣م.
- من كتبه المنشورة «اغتيال شعب».



ملك العرب وقائد الثورة العربية الكبرى الشريف حسين بن علي، بين أنجاله
الملوك علي وعبد الله وفيصل الأول والأمير زيد،
في حفل تأميره على مكة المكرمة. قلعة أجياد سنة ١٩٠٨م.

مذكرات
وريث العروش

بقلم
فائق الشيخ علي

هذا الكتاب

قرن من الزمان مرَّ على تأريخ بني هاشم السياسي الحديث - حتى اليوم - وما يزال يكتنفه الكثير من الغموض والغبن والتشويه. لا نحسب ان احداً ينكر هذه الحقيقة.

في عام ١٩٠٨م أمَّرَ الأتراك العثمانيون الشريف حسين بن علي أميراً على مكة المكرمة. وبعد (٨) ثمانية أعوام فقط (١٩١٦م) أعلن (رحمه الله) ثورته العربية الكبرى عليهم، ليكون - فيما بعد - ملكاً على العرب، وليتوزع أنجاله الثلاثة (علي، عبد الله، فيصل الأول) ملوكاً على الحجاز والاردن والشام، ومن ثم العراق.

انتهى حكمهم في ثلاث دول، وما زالوا يحكمون رابعة (الاردن)، وهم يأملون استعادة عرش دولة أخرى (العراق). غير ان أفظع نهاياتهم وأبشعها، تلك التي كانت ببغداد في ١٤ تموز ١٩٥٨م، حيث لم ينجُ من «مذبحة قصر الرحاب» غير أميرة من العائلة المالكة، هي الأميرة بديعة ابنة الملك علي، حفيدة الشريف حسين بن علي. في (٨٢) الثانية والثمانين من عمرها الآن، تعيش بلندن.

تحمل على أكتافها ذكريات وهموم وأحزان جدِّها وأبيها وأعمامها الملوك (الحسين، علي، عبد الله، فيصل الأول، الأمير زيد) وأبنائهم وأحفادهم الملوك (غازي وفيصل الثاني، طلال وحسين) وغيرهم من الأمراء والأميرات. ترويها للتاريخ، وتروي معها سيرة أخيها الأمير عبد الإله، وأمها الملكة نفيسة، وأخواتها، الملكة عالية والأميرتين عبدية وجليلة.

انه كتاب رائد في مجاله، فريد في مادته ومعلوماته، معزز بنحو (١٧٠) مائة وسبعين صورة، معظمها يُنشر لأول مرة.

لن يستطيع - بعد الآن - أي أكاديمي، أو سياسي، أو قارئ الاستغناء عن «مذكرات وريثة العروش» ما دام يبحث عن الحقيقة، فهذا الكتاب هو المصدر الآخر لها.

ISBN: 1 898209 62 6

مُذكرات

وزيشة العرُوش

مركز
البحوث والدراسات
الاستراتيجية العراقي
لندن

بقلم
فائق الشيخ علي

مذكرات وريثة العروش

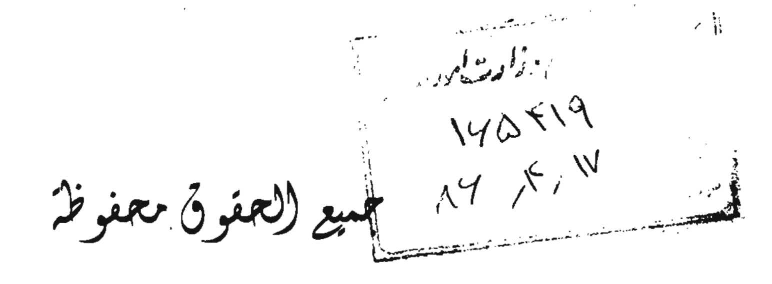
الأميرة بديعة ابنة الملك علي حفيدة ملك العرب الشريف حسين بن علي
تروي سيرة أهلها ملوك وملكات الشام والحجاز والأردن والعراق

أهم وثيقة عربية في القرن العشرين



دار الحكمة
لندن





مذكرات وريثة العروش

المؤلف: المحامي فائق الشيخ علي

الطبعة الأولى ٢٠٠٢م

إصدار: مركز البحوث والدراسات الاستراتيجية العراقي ـ لندن
Email: alsheakhali@hotmail.com

الناشر: دار الحكمة ـ لندن
88 Chalton Street, London, NW1 1HJ
Tel: 44 (0) 20 7383 4037 Fax: 44 (0) 20 7383 0116
E-Mail: al_hikma_uk@yahoo.co.uk

ISBN 1 898209 62 6

تصميم الغلاف: المؤلف

التنفيذ والاخراج الفني: M & B Graphics - London

صور الكتاب من مجموعات:

١ـ العائلة العراقية المالكة

٢ـ الحاج مقداد حاجم السعد

٣ـ كاتب المذكرات


بسم الله الرحمن الرحيم

شجرة النسب الشريف للأميرة بديعة وأهلها ملوك وأمراء بني هاشم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قل لا اسئلكم عليه اجراً إلاّ المودة في القربى﴾

صدق الله العلي العظيم

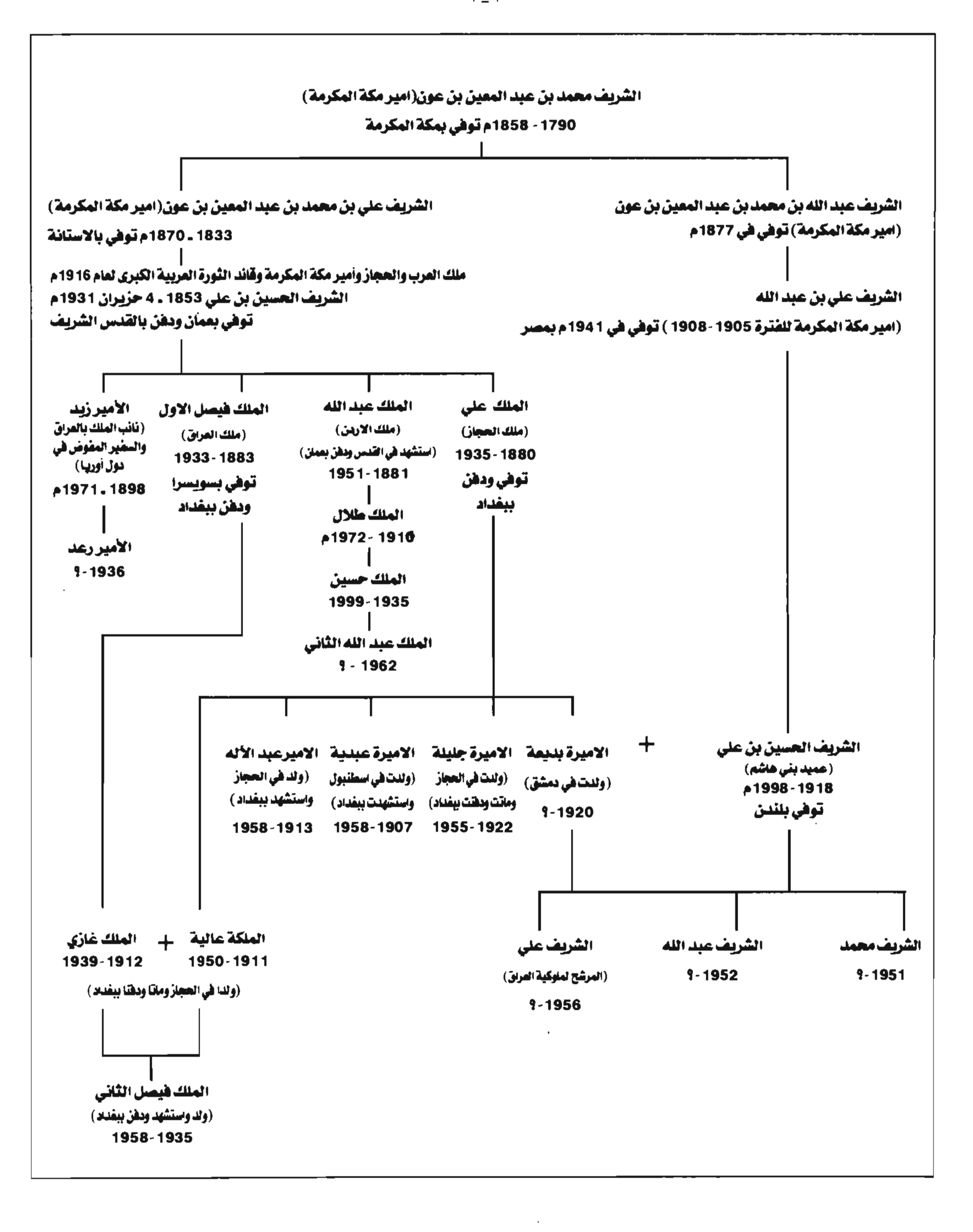
١ ـ ٢

قريش، فهر
غالب
لؤي
كعب
مرة
كلاب
قصي، ملك مكة المكرمة
عبد مناف
هاشم (جد الهاشميين)
عبد المطلب
عبد الله — أبو طالب
الرسول محمد (ص)
فاطمة الزهراء (ع) + علي بن أبي طالب (ع)
الحسن السبط (ع)
الحسن المثنى
عبد الله المحض
موسى الجاون
عبد الله
يونس
محمد (الثائر الأول)
عبد الله
موسى
محمد (الثائر الثاني)
عبد الله
علي

سليمان
الحسين
عيسى
عبد الكريم
مطاعن
ادريس
قتادة، امير مكة المكرمة
علي
الحسن، امير مكة المكرمة
محمد ابو نمي الأول، امير مكة المكرمة
رميثة، امير مكة المكرمة
عجلان، امير مكة المكرمة
علي
الحسن الثاني، امير مكة المكرمة
بركات الأول، أمير مكة المكرمة
محمد، أمير مكة المكرمة
بركات الثاني، أمير مكة المكرمة
محمد ابو نمي الثاني، امير مكة المكرمة
الحسن، امير مكة المكرمة
عبد الله (جد العبادلة)، امير مكة المكرمة
الحسين
عبد الله
محسن
عون (راعي الهدلاء)
عبد المعين
محمد، أمير مكة المكرمة

تكملة شجرة النسب الشريف

٢ _ ٢





مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

قبل عشرين عاماً كانت البداية

عرفتُ - لأول مرة - بمصير الاميرة بديعة «الناجية الوحيدة من مذبحة قصر الرحاب ببغداد في ١٤ تموز (يوليو) ١٩٥٨م» مطلع الثمانينات من القرن الماضي بالعراق ، من انها ما تزال على قيد الحياة وتعيش بلندن . ذلك يوم سمح صدام بالنشر عن العهد الملكي ، تثمينا لموقف ملك الاردن (الراحل) حسين بن طلال ، المساند له في حربه المدمِّرة على ايران .

ومن يومها ـ قبل عشرين عاماً ـ تمنيتُ في داخلي ان التقي «آخر الاميرات» لأسألها عمّا حدث ، ولتحكي لي قصتها وقصة اهلها ملوك وامراء

الشـــام والحـجـاز والاردن والعـــراق . فـقـد قـرأتُ الكثـيـر مما كُـتب عنهم ، وسمعتُ الكثير من الاصوات ، العالية منها والخفيضة ، الا صوتهم ظلَّ غائبا لم يسمعه احد!

الوصول الى لندن

مطلع العـام ١٩٩٣م وصلتُ الى لندن ، بعـد رحلة شـاقـة من اللجـوء الى بلدان الجوار (السعودية وايران) في اعقاب انتفاضة العراق في الاول من آذار عام ١٩٩١م . كان اول سؤالي في عاصمة الضباب عن الاميرة بديعة ، فقيل لي بأن مجلسا تأبينيا يُقيمه زوجها (الراحل) الشريف حسين بن علي ، في ١٤ تموز من كل عام هنا ، على ارواح شهداء العائلة العراقية المالكة .

آثرتُ وقطعتُ عهـدا على نفسي ، بأن احضر ذلك المجلس في كل عام ، بدلا من حضور حفل يقيمه عراقيـون آخرون فرحا بـ (ثورة تموز)! لا لشيء سوى لاننا ـ كعراقيين ـ اعتدنا على حضور المآتم والعزاءات اكثر من ارتيادنا مجالس الفرح والمسرّات ، فحياتنا في العراق منذ وُلدنا والى يوم نموت عبارة عن احزان وعذابات . ثم لشعوري ـ ولشعور كل العراقيين ـ بظليمة ما تعرَّض له البيت العراقي المالك من جريمة ابادة منكرة عام ١٩٥٨م .

على مـدى ست سنوات من تواجـدي المتـواصل (للاعـوام ١٩٩٣م ـ ١٩٩٨م) بالمجلس التـأبيني ، كنت اجلس في خـانة الرجـال المعـزِّين قـبـالة الاميرة المعزّاة ، في صالة كبيرة لأحد الفنادق الفخمة وسط لندن . انظرُ اليها مجللة بالسواد من قمة رأسها الى أخمصَيْ قدميها .

لا ارى سوى دموع براقة ، تنحدر بحرارة ، وتنساب بغزارة على خدَّيها من دون توقف ، وحسـرات تتكسر في صـدر سيـدة وقـور محـترمـة ، وبدنٍ يرتعش ويهتـز لأرق الكلمـات والمعـاني ، على ايقـاع ترتيل خاشع لآي من الذكر الحكيم . . انظر اليها فأنفجع لمنظرها ويقشعر له بدني .

في يوم الاثنين ١٤ تموز (يوليو) ١٩٩٧م تُلِيَت كلماتٌ مؤثرة في المجلس التأبيني ، ابكت الاميرة بمرارة ، ما دفعني في ختامها الى التقدم اليها لمواساتها والسلام عليها شخصيا . اغتنمت الفرصة وقلتُ لها : أما آن الاوان يا سمو الاميرة ان تحكي قصتك للتأريخ؟ لا اظن يصح ان تظل الوقائع والاحداث حبيسة صدر لا يعلم متى سيرحل عن هذا العالم الغريب!

صادف في نفس ذلك اليوم بالضبط ، ان نشرت لي صحيفة «الحياة» اللندنية مقالا مطولا عن الاوضاع في تركيا ، وخرجت مجلة «الوسط» اللندنية ايضا بمقابلة صاخبة ، اجريتها مع رئيس وزراء العراق الأسبق في العهد الملكي (المرحوم) الدكتور محمد فاضل الجمالي . احاطت الاميرة علما بها منذ الصباح . . ولهذا حينما تقدمت اليها بطلبي ، اطرقت قليلا ثم رفعت رأسها وقالت : نعم سأحكي لك ما تريد .

مشروع كتابٍ

لم تكن الاميرة بديعة تتصور ـ لأول وهلة ـ بأن طلبي منها ، هو في حقيقته مشروع كتاب بروايتها عن العهد الملكي ، انما اقصى ما تَصَوَّرْتُهُ هو انني سأجري معها مقابلة صحفية لنشرها في الصحف والمجلات ، لا اكثر! ولذا حينما اعربتُ لها ـ منذ اول زيارة لي في بيتها ـ عن فكرة تطوير موضوع المقابلة الصحفية الى كتاب ، فكَّرت قليلا ثم ابتسمت ، حتى وافقت في نهاية المطاف .

اما من ناحيتي فقد قلت في نفسي لو انها تكتمت ، او امتنعت عن الادلاء بمعلوماتها ، فسوف اكتفي بنشر ما تجود به في احدى الصحف او المجلات في تموز (يوليو) من العام القادم ١٩٩٨م ، تحت عنوان مثير وضعتُه

مسبقا : «بعد اربعين عاما من الصمت على مجزرة قصر الرحاب ، الاميرة بديعة تروي قصتها للتأريخ» . ولكن ما ان شرعنا بالحديث عن الذكريات ، حتى انطلقت الاميرة تروي حكايات يعود عمرها الى نحو مائة عام خلت!

في ١٤ تموز (يوليو) ١٩٩٨م اعلنتُ (في كلمتي بآخر مجلس تأبيني عام تعقده العائلة العراقية المالكة بلندن) عن كتاب للاميرة سيصدر بعنوان «مذكرات سيدة الاميرات» وهو الذي اختاره الشريف علي بن الحسين (نجل الاميرة) بدلا من «مذكرات بنت الملوك» .

كان الشريف محقا في اختياره ذاك ، بيد ان تأخر صدوره طوال تلك المدة منحني فرصة لاختيار عنوان «مذكرات وريثة العروش» . كيف لا وهي وريثة ملوك وملكات بني هاشم؟

تسجيل المذكرات

استغرقت عملية تسجيل المذكرات حوالي أربع سنوات متقطعة ، امتدت من صيف عام ١٩٩٧م الى صيف عام ٢٠٠١م . اعتمدت على ظرفينا (الاميرة وانا) من مشاغل والتزامات ، امراض ، سفرات ، حوادث طارئة حالت بعضها دون لقائنا لفترة طويلة ، خاصة بعد وفاة (زوج الاميرة) المرحوم الشريف حسين بن علي في مطلع تموز (يوليو) عام ١٩٩٨م ، فضلا عن التوقيت السياسي الملائم لنشرها ، الذي كنت انتظره على مضض طوال تلك السنوات ، وها هو قد حان الآن .

تمَّ التسجيل على اشرطة (كاسيت) في اغلب الاحيان ، او تدوينها على الورق خلال اللقاءات ، او استقبال الملاحظات اثناء المكالمات الهاتفية في بعض الاحيان . اتبعتُ تارة طريقة المباغتة في الحديث ، كي استكشف مكنون الاميرة وأسجل ردَّ فعلها بعفوية ، واخرى طريقة التهيئة والإعداد

للموضوع ، كأن اقول لها سنتكلم في المرة القادمة عن هذه المسألة او تلك ، حتى تستحضر ذكرياتها .

كثيرة هي المواقف المحرجة التي مررنا بها ، فكم من مرة انتابتني هواجس مخيفة وانا انظر الى الاميرة تبكي بحرقة ، خاصة حينما تستذكر حدثا مؤلما ، او انسانا عزيزا عليها رحل عن عالمنا مغدورا . غير ان ما كان يبدد تلك الهواجس لديَّ امران ، الاول : هو ان بكاءها ينهدر بكبرياء واعتداد بالنفس ، لا بكاء الضعفاء والمنكسرين .

الثاني : هو انني كنت اسارع الى اخراجها من ذلك الجو المفجع الكئيب ، الى اجواء الافراح والمسرّات ، كأن اسألها مثلا عن طفولتها ، او ايام عرسها ، او حُبِّها للشريف حسين ، او ما الى ذلك من اسئلة ، ليتغير الجو مؤقتا حتى نعود الى اكمال الموضوع! وبالرغم من هذا كله فأنا لا اكتم من انني ابقى متوجسا في نفسي عليها ، من ان يحصل اي مكروه لها ـ لا قدَّر الله ـ سيّما وهي سيدة كبيرة ومريضة ، فأكون أنا السبب في ازعاجها ، او إيلامها من دون قصد .

كتابة المذكرات

حينما أؤلف كتابا اكون انا مصدره وراويه ، اتمتع بحُرّية كاملة في البحث والنقل والعرض والنتائج التي اخلص اليها . بينما حينما اكتب كتابا لغيري ، اشعر بمسؤولية اخرى تثقل كاهلي ، ففضلا عن الدقة في البحث والامانة في النقل والقوة في العرض ، تبرز مشكلة كيفية ايصال حقيقة ما يود الراوي ايصاله الى المتلقين ، من مشاعر ومعلومات وتعابير . وتتضاعف المشكلة عندما يكون الراوي (سيدة) والناقل رجلاً (كما نحن عليه الآن) اذ كيف يستطيع الرجل (هنا) ان يتقمص احاسيس وخلجات امرأة ، ليعكسها بصدق وموضوعية الى الناس؟!

لذا آمل بأنني قد وُفقت في اداء هذه المهمة ، بغض النظر عن مدى اتفاقي او اختلافي مع الاميرة (صاحبة المذكرات) فيما روت ، او قَيَّمت . اذ ليس بالضرورة انه يتعين عليَّ ان اتبنى ، او حتى اتخلى عن كل ما ورد هنا . بيد ان شيئا مهما واحدا اتحمله دون مواربة ، وهو المسؤولية الكاملة عن كتابة المذكرات ونشرها .

وهذا ما يدفعني لاحقاً الى ان أُشَجِّعَ كُتّاباً عربا آخرين ، الى ان يكتبوا بانصاف ، او يجروا مقابلات تأريخية مع رجال العهود السابقة في بلدانهم ، ويقارنوا بما آلت اليه اوضاعهم الحالية في ظل انظمة جمهورية ديكتاتورية استبدادية بغيضة . فأنا على يقين من انهم سيكتشفون بأنفسهم ، بأنهم كانوا ضحية سياسات تثقيفية مزيَّفة ، طوال خمسة عقود من القرن الماضي ، وفي اكثر من بلد عربي!

مُنهج البحث

لم نسجل الحوادث والتواريخ بانتظام وفقا للتسلسل الزمني ، انما تمَّ ذلك طبقا لما كانت تستذكره الاميرة من وقائع ، فتسردها ، على ان اتكفل انا بأمر اعادة صياغتها وترتيبها ووضعها في مكانها المناسب لاحقا .

بديهي ان الاميرة بديعة لم تطَّلع على كل ما كُتِب عن العهد الملكي بالعراق وغيره من البلدان ، بسبب الحظر الذي فرضه عليها زوجها الراحل الشريف حسين بن علي ـ كما تذكر هي ـ احتراما وحماية لها ، من ان تؤذيها او تزعجها كلمة ما ، من هذا الكاتب او ذاك . ولكنها ما ان شَرَعَت تسرد مذكراتها ، حتى بدأتُ أنا أزوِّدها بالمصادر التي لم يَتَسَنَّ لها قراءتها من قبل ، لا بل رحتُ احيانا اتلو على مسامعها بنفسي بعض القراءات ، كي ترد عليها .

عندها صرنا امام ثلاثة خيارات . وهي اما ان تردَّ الاميرة على كل ما

كُتب بحقهم ـ كعائلة مالكة ـ من اتهامات واراجيف ، فقرة بفقرة وجملة بجملة . وهذا سيتطلب وقتا وجهدا مضنيين ، ليس هناك من امل معهما ان نفرغ من هذا المشروع في المنظور القريب . . لهذا صرفنا النظر عن هذا الخيار .

او أن تروي الاميرة ما حصل ، على ان اقوم انا بتوسعة البحث وتحقيقه وتعضيده بالروايات والمراجع والهوامش ، ليكون اقرب الى البحث الاكاديمي منه الى الشهادة التأريخية . . وهذا ما لم نفضِّله ، لأننا لم نكن بصدد الحصول على اجازة جامعية!

او ـ هذا هو الخيار الثالث الذي اخذنا به ـ ان تحكي الاميرة قصتها للتأريخ كمصدر وحيد وفريد لرواية الحدث ، على ان اقوم أنا بصياغته . اذ من خلال هذا الطريق تستطيع ان تقول اشياء كثيرة ، وان تردَّ على الكثير من الاساءات والطعون التي قيلت بحق العائلة المالكة ، وإن من دون ان تشير الى اسماء محددة بالذات ، الا في حالات نادرة ولاعتبارات سياسية وتأريخية خاصة .

. . وهكذا كان . وعليه لا بد من التنويه الى ان كل كلمة وردت في هذه المذكرات تتضمن معنيين . الاول : هو الرواية الحقيقية التي تتبناها الاميرة بديعة والعائلة المالكة . الثاني : هو الرد على المزاعم الباطلة التي وردت في الكتب والمؤلفات . ولذا فان أي مناقشة مستقبلية لهذه المذكرات ، سوف لا تعدو الاجابة عليها مما ورد هنا في هذا الكتاب .

خطة البحث

نستطيع القول بأنه كان لدينا ـ منذ البداية ـ تصور كامل حول خطة البحث ، اي كيف نبدأ بتدوين المذكرات وكيف ننتهي منها ، وما هي الصورة الاولى التي ستُطبع في ذهن القارئ ، وما هي الصورة الاخيرة التي سيخرج بها . . لهذا لم نُلاقِ أية صعوبة في اعداد الخطة .

كنا قد ارتأينا تقسيم الكتاب الى خمسة فصول ـ أول الامر ـ الا ان اعتبارات فنية وشكلية (ليست موضوعية) هي التي اضطرتنا الى تقسيمه الى ستة فصول فيما بعد ، تخللتها مباحث رئيسة صيغت عناوينها بخط مميز ، ثم مطالب فرعية كي لا نثقل على القارئ الكريم بطول السرد بسبب تباعد العناوين وقلّتها .

لم نلتزم منهجا محددا واحدا لم نُحِدْ عنه خلال البحث ، كأن يكون السرد مثلا وفقا للتسلسل الزمني للاحداث فقط ، او وفقاً لوحدة الموضوع وأهميته فقط (بغض النظر عن عامل الزمن) ، او وفقا لأسماء الشخصيات الواردة في المذكرات . انما خلطنا ـ في الحقيقة ـ بين هذه المناهج ، فمرة تحكَّم بنا عامل الزمن واخرى أهمية الموضوع وثالثة مكانة الشخص . . وهكذا .

توقفنا في الكتاب عند محطات تأريخية مهمة وقعت في القرن الماضي ، سواء بالعراق او بالبلدان الاخرى التي حكمها انجال ملك العرب الشريف الحسين بن علي . . كقصة رحيل الاشراف عن موطنهم الاصلي (الحجاز) ، وحياة القصور بما فيها من افراح واتراح ، وحقيقة وفاة الملك غازي ، وخفايا حركة رشيد عالي الگيلاني كأول نكبة سياسية تعرضت لها العائلة المالكة ، ومذبحة قصر الرحاب ، وقصة مغادرة الاميرة بديعة العراق بعد ١٤ تموز (يوليو) ١٩٥٨م ، وعشرات القصص والموضوعات الاخرى ، التي كُتب عنها والتي لم يُكتب عنها الى اليوم .

لقد طرقنا ابواب لا تخطر على بال أحد . تحدثنا عن رجال ونساء لعبوا ادوارا خطيرة في التأريخ ، وكان لهم شأنهم في الاحداث ، لم يُكتب عنهم بانصاف وموضوعية حتى الآن . فتحنا موضوع «وطنية الاشراف» الذي ظلَّ على مدى قرن من الزمن يُطرق من باب الاتهام والتخوين ، من دون ان يدافع

عنهم أحد ، او بالاحرى من دون ان يدافعوا هم عن انفسهم ، حتى صدحت الأميرة بديعة بالرد الصاعق والجريء!

لا شكّ في أن هناك مَنْ يستحقون الشكر على ما قدموه لنا من دعم ومساندة لاخراج المذكرات ، لعل أولهم زوج الأميرة بديعة الراحل الشريف حسين بن علي ، الذي لم يبخل هو الآخر علينا ببعض ذكرياته ، والذي آمل أن يأتي اليوم الذي ننشرها فيه بإذن الله .

كما نشكر أنجال الأميرة ، الشريف محمد بن الحسين على مساندته لي ، وتشجيعه لوالدته الأميرة على بوح الكثير من الأسرار ، والشريف عبد الله بن الحسين الذي تابعها من بعيد ، وكذلك الشريف علي بن الحسين الذي ظلّ يسأل عن المذكرات باستمرار . وأخيراً وليس آخراً الوزير في العهد الملكي الأستاذ عبد الغني الدلّي ، الذي راجع المذكرات وأبدى ملاحظاته القيّمة بشأنها . لهؤلاء ولكل من وقف معنا أو حثّنا على انجاز المشروع ، أو انتظر المذكرات بفارغ الصبر الشكر الجزيل .

قيمة المذكرات

لهذه المذكرات ميزة خاصة ، انفردت بها عن كل ما كُتب وقيل الى اليوم عن العهد السابق ـ سنتحدث عنها بعد قليل ـ غير ان الجرأة والصدق والعفوية مميزات اخرى غَلّفت المذكرات .

لا تكاد صفحة من صفحاتها خلت من نقد ، او تقييم سياسي لاذع احيانا ، او خفيف في احيان اخرى . وقد يظن قارئها ـ لأول وهلة ـ بأن الاجتماعيات طغت على السياسيات فيها ، وربما فاته أن الاجتماعيات هنا ذات ايحاءات ومدلولات سياسية ، ناهيكم عن كون المذكرات سياسية في الاصل .

اما ميزتها الخاصة والفريدة ، تختزلها ما خُطَّ على الغلاف من انها «أهم وثيقة عربية في القرن العشرين» .

مصدر هذه الاهمية متأتٍّ من أهمية ومكانة راوية المذكرات . فهي الاميرة الوحيدة الناجية من «مذبحة قصر الرحاب» عام ١٩٥٨ ، وما تزال تعيش الى اليوم . وهي الحفيدة الوحيدة ـ الباقية على قيد الحياة ـ لملك العرب وقائد الثورة العربية الكبرى عام ١٩١٦ وأمير مكة المكرمة الشريف الحسين بن علي . وهي الابنة الوحيدة لملك الحجاز علي بن الحسين (١٩٢٤ ـ ١٩٢٦) بعد رحيل اخيها الامير عبد الاله ، واخواتها الاميرة عبدية والاميرة جليلة والملكة عالية ، وامها الملكة نفيسة . وهي خالة الملك فيصل الثاني ، وابنة عم الملك غازي والملك طلال . اعمامها ملك سورية والعراق فيصل الاول ، وملك الاردن عبد الله ، والامير زيد بن الحسين . . ولا نطيل .

لقد مرَّت حتى الآن اربع واربعون سنة على مغادرتها العراق ، لم يستطع أحد خلالها ان يستنطق الاميرة بديعة ، لتروي له قصة اهلها ملوك وملكات ، امراء واميرات ، اشراف وشريفات الشام والحجاز والاردن والعراق . كل الناس اعطوا رأيهم فيما جرى ، الا اصحاب الشأن وارباب القضية . . ولهذا لأول مرة في التأريخ تحكي لنا القصة من اولها ، آخر الاميرات بديعة .

فائق الشيخ علي

لندن في (الأحد) الثلاثين من شهر حزيران (يونيو) ٢٠٠٢م

مَدخل

بسم الله الرحمن الرحيم

حينما اقلعت بنا الطائرة (أنا وزوجي وأولادي الثلاثة) من بغداد ، في ذلك اليوم القائض ، الثاني عشر من شهر آب (اغسطس) عام ١٩٥٨م ، حسبتُ بأن الطيّار سيُحَلِّق ـ مثل كل مرة ـ فوق «قصر الرحاب» ليُمَكِّنني من القاء نظرة عليه . وهي ستكون نظرة الوداع في هذه المرة ، لأُشاهدَ ما عبث الانقلابيون فيه . لعلّي المحُ أحداً من أهلي ، ربما نسوا أن يقضوا عليه ، فانزوى مختبئاً هنا أو هناك!

غير ان الطيار خيَّبَ ظني للأسف ، كأنه رأفَ بحالي ، وهو يعلم بأن الراكبة معه ، هي الأميرة الوحيدة الناجية من مذبحة العائلة العراقية المالكة في «قصر الرحاب» . فلم يشأ ان يفزعني ، او يحرق قلبي ، حتى لمجرد مشاهدة اطلال قصر ، او بقايا عائلة حكمت العراق لـ (٣٧) سبعة وثلاثين عاما .

أو كأنه ـ وهذا ما أرجِّحُهُ ـ أراد (مأموراً) ان يجعل من تلك الأُمنية غصَّة في صدري ، وجرحاً غائراً لن يندمل ، يبقى يؤرقني ما حييت! . . لهذا استدار مائلاً على الجهة الاخرى ، وطار ، ليتركني اسيرة دموعي وأشجاني ، اتأملُ بغداد الجميلة واهلها الطيبين ، وأرقُّ لحالهما من قسوة حكامهما الجدد .

* * *

لم أحمل معي من العراق ، سوى بضع حقائب ، احتوت على بعض صور وذكريات ، وملابس بَلَتْ وتبدلت ، لم يبقَ مما حملته شيء ، عدا ذكريات عالقة في الذهن ، كنتُ ارويها لأولادي الاشراف ، محمد وعبد الله وعلي ، واتذاكرها مع زوجي المرحوم الشريف حسين بن علي ، ولم يخطر في بالي بأني سأحكي قِصتنا للناس يوماً ، وإن كنت قد تمنيتُ ذلك ، حتى باغتني كاتب هذه المذكرات .

لا أدري كيف أقنعني بضرورة تدوين ما جرى! وكل ما اعلمهُ هو انه قال لي : «لا أظنُّ يصحُّ ان تظلَّ الوقائع والأحداث حبيسة صدر ، لا يعلم متى سيرحل عن هذا العالم الغريب» .

* * *

اربعون عاما كانت قد مرّت حتى عام ١٩٩٧م على انقلاب ١٤ تموز ١٩٥٨م في العراق ، ولم يسأل عنّي أحد ، ولم يطلب مني احد ـ شخصياً ـ أن أروي له ما حدث . وكل ما حصل هو ان البعض طلب من ولدي الشريف علي ، وليس مني ، ان يجري معي مقابلة . وقبل فترة وجيزة ومتأخرة جداً (أي بعد ان تمَّ الاعلان عن البدء بتسجيل مذكراتي) اتصلت بعض المحطّات

الفضائية العربية ، تطلب اجراء مقابلات تلفزيونية معي ، للتحدث عن العهد الملكي ، فرفضت .

لقد قَصَّرَ الاعلام بحقنا تقصيراً بَيِّناً ، طوال تلك السنين ، حتى التقاني فائق الشيخ علي ، وعرض عليَّ فكرته ، فوافقت .

. . وهكذا راح يزورني ويهاتفني ، يداهمني بسيل من الأسئلة والاستفسارات . كم من مرة تركني اتململ ، لا يغفو لي جفن ، ولا يهدأ لي بال ، استذكر حدثاً أغفلتُه ، او واقعة تجاوزتُها ، ظانةً عدم أهميتها . كم من مرة سهرتُ ليلي استثيرُ ذاكرتي ، منقبةً عن بعض خباياها وخفاياها ، تلك التي زواها الزمن بعيداً عني .

كل ذلك من أجل ان أرويها للتأريخ ، كي يطَّلع عليها الناس ، سواء أولئك الذين عاصرونا ، او الذين جاؤوا بعدنا ، وليتعرفوا على حياة اسرةٍ ، حكمت ـ وما زالت وستبقى بحول الله ـ تحكم دولاً وشعوباً في عالمنا العربيِّ .

* * *

لا أظنُّ انني اتذكّرُ كل ما جرى في حياتنا ، ولا ان كل ما أقوله هو الحقيقة المطلقة ، التي لا تقبل الوجه الآخر لها . فأنا سيدة وأميرة هاشمية عَلَوية ، وُلِدتْ وتربَّتْ ، نشأَتْ وتَرَعرَعَتْ في بيوت ، او سمّوها «قصور» محافظة لأشراف العرب . لم يكن من شأنها ان تسأل عن كل شيء ، ولا من هواياتها حبُّ الاطلاع والفضول . ولعل الأمر الذي بقِيَت نادمةً عليه منذ ١٩٥٨م والى الآن ، هو انها لم تسأل أهلها عن اشياء ، ودَّت اليوم ان تعرفها!

لذا فان ما أرويه ، هو عبارة عن وقائع واحداث عشتُها بنفسي ، ومشاهدات شاهدتُها بعينيَّ ، وحكايات سمعتُها بأُذنيَّ من أهلي .

اسردها كما هي ، وعلى سجيّتي ، من دون تصنّعٍ أو غايات ، واترك لكاتبها حريّة صياغتها ، او تبويبها ، او البحث عنها في بطون الكتب والوثائق كما يشاء ، وللآخرين أمر تفسيرها ، أو تأويلها ، أو اتخاذ المواقف منها ، كما يريدون .

* * *

لم أقل في الكتاب كل ما عندي ، ولكن ما في الكتاب هو معظم ما قلتُه ، وبعضه في صدري ، أو صدر كاتبه ، ربما لا تسمح الظروف لكشفه الآن . غير ان ما قلتُه هو الذي يرضيني ، واحسبه سيرضي أهلي وأحبابي . وقبل هذا وذاك ، فاني لا أبغي سوى مرضاة الله (سبحانه وتعالى) فهو القاضي وهو الحكم ، واليه انيب ، وعليه توكلت ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم .

بديعة

بديعة بنت علي

لندن في السبت

١٤/٧/٢٠٠١

الفصل الأول

بداية المأساة.. الرحيل عن الوطن



قصة آخر الأميرات

في عام ١٩٢٠م كان العالم قد خرج لتوّه ، من حرب كونية مدمرة ، استمرت لأربعة اعوام متتالية (١٩١٤م ـ ١٩١٨م) من دون توقف . تكبَّدَت فيها البشرية خسائر فادحة بالأرواح والأموال . انهارت دول ونشأت اخرى . انهزمت دول وانتصرت اخرى ايضا .

خلال تلك الحرب ، وفي العاشر من شهر حزيران (يونيو) من سنة ١٩١٦م ، اعلن جدي (ملك العرب) الشريف الحسين بن علي ثورته العربية الكبرى ، من مكة المكرمة ضد الدولة العثمانية ، بعد نحو خمسة قرون من حكمها العرب والمسلمين ، ليحررهم من سيطرتها ، ولينجز استقلالهم .

قاد الثورة بنفسه ، يعاونه انجاله الامراء (الملوك) علي وعبد الله وفيصل الأول ، والامير زيد ، خاضوا المعارك ، وحاصروا المدن والقلاع ، فاوضوا الدول الكبرى ، وقاوموا سياساتها الرامية الى فرض سيطرتها على العرب (بدلاً من الدولة العثمانية) . تارةً بالطرق الدبلوماسية ، وأخرى بالسلاح .

بذلوا كل ما في وسعهم من جهد وقدرات ، لتحقيق تطلُّعات العرب

وطموحاتهم . حكموا اربع دول ، من دولهم الناشئة في الشرق يومذاك : سورية والحجاز والأردن والعراق .

ربما نجحوا ، وربما أخفقوا ، فأنا لا أدري ما هو معيار النجاح والاخفاق لدى الناس ، او حتى لدى المؤرخين ، اولئك الذين ما برحوا مبهورين بمنطق القوة والباطل والغَلَبَة ، المتغاضين عن مبادئ العدالة والحق والتسامح . فكيف وهم يعالجون احداثاً ، وقعت قبل أكثر من (٨٠) ثمانين عاماً ، وغاب صُنّاعُها وابطالُها؟! . . لذا فأنا من هناك تبدأ قصتي .

لقاء بعد الفتح

بعد حصار شاق وطويل تكلل بالنصر ، فتح والدي الملك علي ، أكبر أنجال الشريف الحسين بن علي «المدينة المنورة» وسلَّم الاتراك العثمانيون مواقعهم واسلحتهم له . ما كاد يستريح فيها ، حتى طلب من والدتي الملكة نفيسة ابنة الشريف عبد الاله باشا ، وإبنتيه (عبدية وعالية) وابنه (عبد الاله) ان يلتحقوا به ، لأنه لم يرهم منذ سنين . كنا نسكن «مكة المكرمة» وطال فراقنا لأبي واعمامي ، الذين انهمكوا بالثورة العربية الكبرى .

وصل أهلي «المدينة المنورة» صيفاً في حزيران (يونيو) عام ١٩١٩م محمولين على ظهور الجمال ، وحصل اللقاء الميمون بين ابي وأهلي ، ويبدو ان احدى ثمراته كانت تكوُّني كجنين في رحم امي . ما كاد الأهل يطمئنون على والدي ويستريحون في كنفه بضعة اشهر ، حتى طلبت منه جدته «بزميجيهان» ان يسيِّرها الى الشام ، كي تلتقي حفيدها وعزيزها عمي الملك فيصل الاول ، الذي طال فراقها له ، فاشتاقت الى رؤيته ، وصممت على لقائه قبل ان يوافيها الاجل المحتوم .

عمي ملك سورية

لم تكن الرحلة من «المدينة المنورة» الى الشام عام ١٩٢٠م ، تتم بنفس الوسيلة من «مكة المكرمة» الى «المدينة المنورة» على ظهور الجمال ، انما كان «الخط الحديدي الحجازي» يربط ما بين هذه الاقطار . ويبدو ان والدتي قد استلطفت فكرة زيارة الشام واستسهلتها ، لذا لم تعرب لأحد عن تخوفها من موضوع حملها ، ولم تعبأ بالمخاطر التي من الممكن ان تصاحب رحلتهم ، وهي على مقربة من حالة الوضع ، فسافرت .

وصل أهلي «دمشق» بالقطار ، وتشاء الاقدار بعد اسبوعين فقط ، من مبايعة عمي الملك فيصل الاول ملكاً على سورية ، ان اولد في بيته يوم السبت ، العشرين من شهر اذار (مارس) من عام ١٩٢٠م .

اهدى امي «گردانا» قلادة مصنوعة في فرنسا ، حمداً لله على سلامتها ، ظلت تحتفظ بها حتى عام ١٩٣٤م يوم زواج اختي الملكة عالية .

بقينا في «دمشق» فترة من الزمن ، عانى خِلالها عمي معاناة رهيبة من الفرنسيين ، ولاقى الويل منهم . طاردوه وحاصروه وحاربوه ، حتى اضطر الى مغادرة الشام ، بعد ان احبه السوريون وهتفوا لحياته .

حققت جدة ابي الشركسية «بزميجيهان» حلمها ، برؤية حفيدها ملكاً على الشام ، ومن ثم ملكاً على العراق فيما بعد . فهي لم تقدر على فراق احفادها ، لأنها هي التي تكفّلت تربية اولاد جدي (ملك العرب) الشريف الحسين بن علي ، الملوك (علي ، عبد الله ، فيصل) من جدتي الشريفة «عبدية» ابنة الشريف «عبد الله» امير مكة المكرمة ، بعد وفاتها في الـ(٢٧) السابعة والعشرين من عمرها .

كان لها مولود رابع «محسن» مات طفلاً . اما عمي الامير «زيد» بن الحسين ، فهو اخوهم غير الشقيق من «الملكة عديلة» .

وتشاء الاقدار ايضاً ، ان تموت تلك الجدة المتفانية في حُبٍّ احفادها ببغداد ، كأول امرأة تدفن بالمقبرة الملكية في منطقة «الاعظمية» . لتجرً من بعدها حفيديها الملكين فيصل الأول وعلي ، ليدفنا على التوالي مع بقية الاسرة الى جانبها .

عدنا بالقطار من «دمشق» الى «المدينة المنورة» ولكوني مولودة جديدة من الاشراف ، وجدي وابي (من بعده) مَلِكَيْ الحجاز ، فقد مَنَّ الله (سبحانه وتعالى) عليَّ بالتشرف في الدخول الى حجرة جدي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) المدفون فيها . وهي مكان مقدس لا يسمح لأي كان ان يدخل اليها .

الحجاز : تنازل ملكين

بقينا فترة وجيزة في «المدينة المنورة» ثم حُملنا في محمل بـ «الشگدف» كما يسميه اهل الحجاز ، الى «مكة المكرمة» على ظهور الجمال واقتابها . اخبرتني امي عندما كبرت ، بأنني لم اتجاوز الاربعين يوماً من عمري ، كنت ابكي عند ركوب الجمل ، لذا تضطر مربيتي ان تنزلني منه لتركب البغل ، كي اسكت!

لا اتذكر أشياء كثيرة عن السنوات الاربع الاولى من عمري ، التي قضيناها في «مكة المكرمة» . سأروي نتفاً منها ، اما ما عداها ، فانها روايات اهلي وحكاياتهم .

أتخيَّلُ ان بيتنا كبير ، يطل على شارع رئيس ، يقع في حارة «القشاشية» . كنت انظر من فتحات شبابيكه الصغيرة ، الى الحجّاج والمعتمرين الطائفين والمصلِّين في «البيت العتيق» .

لعل احدى عادات الأشراف التي دثرها الزمن ، هي حُبُّ التزاور بين عوائلهم . كان يُحظَر على نسائهم الخروج في النهار ، انما يخرجن في المساء بعربات ، يمشي الى جانبها الخدم والعبيد . يطلبون من اصحاب المحلات والدكاكين ، اغلاق ابوابها واطفاء الفوانيس ، حتى تمرَّ قافلة النساء الشريفات . ولا يتم ذلك الاّ بشرط ، ان يبتن ليلتهن تلك في البيت الذي يزرنه ، لا أن يَعُدْنَ الى بيوتهن في الليلة نفسها ، كي لا يتسببن في مضايقة الناس وإحراجهم .

في فصل الصيف يصطاف اهلي في «الطائف» القريبة من مكة المكرمة ، لنا فيها قصر عظيم يطلُّ على «وادي العقيق» موئل تغنّي «عمر بن ابي ربيعة» وشعراء الغزل على مر العصور .

لهذا القصر قصة ، حيث قاتل جدنا الشريف محمد بن عون الى جانب ابراهيم باشا (نجل محمد علي باشا والي مصر) ضد النجديين . وبعد انتصارهم عليهم ، وجهوا له دعوة رسمية لزيارة مصر محمد علي باشا ، فنزل في «شُبرى» وهي منطقة زراعية جميلة ، فتأثر بها وبأسمها .

لما عاد جدنا الى الحجاز ، اشترى قطعة ارض زراعية كبيرة في الطائف ، سماها «ركبان شُبرى» . بنى فيها ولده الشريف عبد الله قصراً منيفاً ، سمّاه «قصر شبرى» .

لم يسكن فيه الاّ سنة واحدة ، فآل الى ولده الشريف علي باشا ، الذي اصبح اميراً على مكة المكرمة (١٩٠٥م ـ ١٩٠٨م) ثم عُزل ، حتى مات في مصر سنة ١٩٤١م . روى ابنه (زوجي الشريف حسين بن علي) بانه قرأ يوماً رسالة ، بخط والدي الملك علي ، معنونة الى ابيه الشريف علي باشا ، يطلب منه ان يوافق على نزول اهلي في قصره ، للاصطياف بضعة ايام ، فوافق .

مازلتُ الى الآن اتذكر ذلك القصر ويوم نزلنا فيه . كنت طفلة صغيرة لم اتجاوز الرابعة من عمري ، مشيتُ بين بساتين الكروم والفواكه ، واقتطفتُ من أشجارها بعض ثمارها .

بعد سنين باع الشريفان (حسن وحسين) ولدا الشريف علي باشا بن عبد الله «شبرى» في الخمسينات ، الى (الأمير) الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود بنحو (٤) اربعة الآف جنيه من الذهب ، ويقال انه متحف الآن . بينما بيعت «ركبان شبرى» وحدها الى آخرين .

في عام ١٩٢٤م حاصر «الاخوان» مدينة الطائف ، ثم وقعت فيها مذبحة مروعة ، لذا خاف الناس في مكة المكرمة ، فغادروها الى «جِدَّة» على ظهور الجمال والبغال والحمير .

* * *

تنازل جدي (ملك العرب) الشريف الحسين بن علي عن عرش الحجاز لنجله الاكبر (والدي) الملك علي ، دفعاً للضرر الذي لحق بمملكته ، جرّاء مواقفه المتصلبة مع الانگليز ونكثهم لوعودهم معه . الاّ انهم ايضاً منعوا عن ابي السلاح والتموين ، وحاصروا «جِدَّة» حصاراً مقيتاً ، ما رجحت معه كفة «الاخوان» فأضطر الملك علي الى التنازل (آخر عام ١٩٢٥م) خشية من ان يموت أهل جِدَّة جوعا .

هذا الموقف السامي لأبي ، يدفعني الى أن اقول : لو كان اليوم لبعض الحكام العرب ذرة من شرف ، او وازع من ضمير ، لتنازلوا عن حكمهم اللاشرعي اصلاً ، ولرحموا شعوبهم بدلاً من اذاقتهم حصاراً مزدوجاً رهيباً يمارسونه عليهم هم أنفسهم ، بالتواطؤ مع المجتمع الدولي . . ولكن أين رؤساء اليوم من ملوك الأمس؟!

جدِّة : خروج الاشراف

خرج الاشراف من الحجاز ، قبل خروج والدي الملك علي على دفعتين ، الاولى : مع جدي (ملك العرب) الشريف الحسين بن علي ، على ظهر يخته «بالرقمتين» الى ميناء «العقبة» الاردني ، ومنه الى «قبرص» . الثانية : تلك التي كنا نحن فيها ، حيث اخرَجَنا والدي الى «جِدَّة» ومنها ركبنا البحر الى العقبة .

لم تحمل امي معها من «مكة المكرمة» كل ما نملكه ، انما اخرجت معها صندوقين ، فيهما من الصور التي ملأت عليَّ حياتي ـ فيما بعد ـ وعرَّفتني بآبائي واجدادي ، وبعض الوثائق التي تؤرخ لنا حياتنا وتراثنا ، وشيئاً من «تحويشة العمر» .

لا اتذكر شيئاً من «جِدَّة» سوى بحرها الأحمر ، ويبدو انني اعجبت به ، ولهذا ما زال عالقاً في ذاكرتي ، حيث مكة المكرمة لا ماء ولا شجر .

كانت مربيتي تأخذني الى الشاطئ للنزهة ، ونبحث عن الاصداف وانظر الى «البحر الاحمر» بتأمل طفلة ذات اربع سنوات ، لاهمَّ لها سوى ان تعبث بذرات رمله الذهبية . سمعت فجأة باننا سنغادر الميناء ، في باخرة بدت لي كبيرة ، ولعلها لم تكن كذلك . ركبنا زورقاً صغيراً اقلَّنا اليها ، حيث تلوح لنا في عرض البحر ، لانه ما من رصيف ترسو عليه الباخرة «رضوى» .

غادرت النساء والاطفال «جِدَّة» بينهن عماتي وعمات والدي وكبيرات الاشراف ، وبقي الرجال في مكة المكرمة ، بينما التحق بنا اخي الامير عبد الاله ، لأنه كان صغيراً لا يقوى على القتال .

ما زالت مشاهد الالم والتأثر ، التي بدت على وجوه الراحلين والمودعين ماثلة امامي . دموع الفراق تنهمل من تلك العيون الساهمة ، التي لا تعرف الى اين سينتهي بهم المطاف . فلا الرجال الباقون يدركون مصيرهم ، ولا

النساء الراحلات يعرفن قرارهن . الكل في وداع ، والكل بين راحلٍ الآن او غداً .

لا اتذكر كم دامت الرحلة الى العقبة ، ولكني اذكر الناس الذين ركبوا الباخرة معنا ، كانوا يحملون معهم افرشة واغطية وحقائب وحاجيات اخرى .

* * *

. . في كانون الثاني من عام ١٩٢٦م غادر أبي مملكته (الحجاز) من «جِدَّة» ليحلَّ ضيفاً على عمي الملك فيصل الأول في «بغداد»

الاردن :أول محطات الرحيل

وصلنا «العقبة» ليلاً ، ونجيء لنا بسيارة حمل «لوري» فرشوا في داخلها بعض السجاد واركبونا فيها . تأذيتُ من ذلك السجاد الخشن ، وبقيتُ طوال الطريق احكُّ رجلي بسببه .

وصلنا «عمّان» وكان عمي الملك عبد الله اميراً على «شرق الاردن» كما كانوا يسمونها ، وقد هيأ لنا بيتاً كبيرا . نزلنا كلنا فيه ، وبقينا تحت رعايته نحو سنة ونصف السنة .

لا ادري لماذا كنت ارى «عمّان» مضيئة ، وهي ليست كذلك؟! يبدو بسبب فرحتي لمشاهدة ابنتي عمي الاميرتين «مقبولة ومنيرة» وهما من أقراني يكبرنني بسنتين وثلاث ، لكنهما اصغر اطفال عمي الملك عبد الله .

توفيت «منيرة» بينما ظلت «مقبولة» تعيش في «عمّان» وتزور لندن بين فترة واخرى والتقي بها ، حتى وافتها المنية مطلع عام ٢٠٠١م .

كنت العب معهما ، ونذهب سوياً الى عمي في مقره . احسست بالمتعة معهما ، واراد عمي ان يزيدنا متعة وبهجة ، فبعثنا الى «القدس الشريف» . نزلنا في مسكن قسيس انكليزي ، ومكثنا فيه نحو اسبوع ، نحن بنات الملك علي واخي عبد الاله وبنات عمي الملك عبد الله والامير نايف .

كم هي جميلة القدس؟ لفتت نظري فيها مناظر غابات الصنوبر ، والاشجار الباسقة ، وجوُّها اللطيف . وكطفلة جاءت من مكة المكرمة الى جِدَّة ، ومن ثم الى «عمّان» ادخلت (سفرتنا هذه الى القدس) الفرح والسرور في حياتي ، وشعرت ببعض التغيير فيها . اكلنا الكيك هناك في احد محلات اليهود ، ومازال مذاقه الطيب تحت لساني .

عدنا الى «عمّان» وبقينا هناك ، حتى طلبنا والدي ، الذي كان ترك الحجاز عن طريق جِدَّة ، وركب البحر ونزل في «البصرة» ومنها الى بغداد ، حيث استقر به المقام الى ان رحل عن الدنيا .

غادرنا «عمّان» الى بغداد بالسيارات ، عبر الطريق الصحراوي الطويل . اقلتنا نحو عشرين سيارة ، بما معنا من خدم وعبيد وجوارٍ .

مازال مشهد كلبنا يؤلمني كلما مرَّ شبحه في خاطري . ربما هو الوحيد الذي خلفناه وراءنا في الاردن ، وقد ربّاه البوّاب . حينما شرعنا بالمسير تبعنا يلهث خلفنا وينبح ، نظرتُ اليه وتمنيتُ لو نأخذه معنا ، لكنني لا ادري ماذا حصل له بعد ذلك .

استغرق الطريق نحو يومين في صحراء قاحلة ، تشقها قافلة من السيارات ، فيتصاعد الغبار الى انوفنا ليخنقنا ، وليشوش على قدرتنا في الرؤية وإجالة البصر . بتنا ليلة او اكثر في الصحراء ، حتى وصلنا «الرمادي» العراقية ، متعبين منهكين .

العراق : خيار الاستقرار

وقف في استقبالنا متصرِّف (محافظ) لواء الدليم، وقد هيأ للنساء القادمات منّا العباءات العراقية، لأنهن كن يرتدين «الشراشف» التركية. بينما زي النساء العراقيات يختلف عن زي النساء في سوريا والاردن، فعباءاتهن متميزات عن غيرها من العباءات.

تناولنا طعام الغداء في منزل المتصرف في «الرمادي» ثم غادرناها ظهراً الى بغداد. وعلى مقربة منها (بعد مدينة الفلوجة) خرج لاستقبالنا عمي الملك فيصل الاول ووالدي الملك علي. لذا عزلونا نحن البنات الصغيرات (انا واختي الاميرة جليلة) واخي الامير عبد الاله في سيارة خاصة. ألبسونا ملابس جديدة، كي نذهب للسلام على عمِّنا ووالدنا، ولم يُسمح للنساء الكبيرات ما سُمح لنا.

لم اعرف ابي، وإن كنت قد شاهدته من قبل في الحجاز. اما مشاهدتي الثانية له بعد غياب، كانت في العراق. نظرتُ من بعيد واذا بسيارة مكشوفة، فيها عمي ـ كما عرفتُ فيما بعد ـ يرتدي «السِدارة الفيصلية» (التي سُمِّيت باسمه) على رأسه، والى جانبه والدي يرتدي «الجُبَّة والعمامة».

نزلنا من السيارة وسلَّمنا عليهما، فقبَّلانا وبادلناهما القبلات. لم نميِّز اياً منهما ابانا أو عمنا!

* * *

تخيلوا ملكاً عظيماً يفارق اهله واحباءَه في مملكته (الحجاز)، ثم ليلقاهم في مملكة اخيه (العراق) لاجئاً، فكيف سيكون اللقاء وكيف ستكون المشاعر؟! اصطحبانا معهما في سيارتهما واتجهنا الى عاصمة العراق.

.. في الثلاثين من حزيران (يونيو) ١٩٢٠م ، ثار العراقيون ضد الاحتلال البريطاني لبلدهم ، في ثورتهم المعروفة بـ «ثورة العشرين» فقمعها الانكليز ، ما حدا بقادتها الى مغادرة العراق صوب الحجاز ، والنزول في ضيافة جدي (ملك العرب) الشريف الحسين بن علي .

طلب القادة العراقيون منه ان يقدّم احد انجاله (عمي الملك عبد الله أول الأمر) ليبايعوه ملكاً عليهم ، فمانع في البداية ، حتى وافق في الأخير على ترشيح ولده الأصغر منه (عمي الملك فيصل الأول) .

في الثالث والعشرين من شهر آب (اغسطس) عام ١٩٢١م ، المصادف للثامن عشر من شهر ذي الحجة سنة ١٣٣٩هـ ، اعتلى عمي الملك فيصل الاول عرش العراق .

يوم وصلنا بغداد مساء السادس من ايار (مايو) ١٩٢٦م ، كانت قد مرت اقل من خمس سنوات على تتويجه . كان الجو صافياً في سماء بغداد ، وقد خيَّم الظلام عليها ، لكنها تحدَّته بأضويتها الكهربائية ، على النقيض من «عمّان» التي كانت تضاء بالفوانيس .

انبهرتُ بها وبدجلة الخير وبجسريها العتيق والجديد . احببتُها وتعلقتُ بها من اول نظرة ، وانا ابنة الست سنوات ، القادمة من الصحراء الى بلد أول حضارة في التاريخ .

استَقْبَلَنا في ليلة وصولنا «صفوت افندي العوّا» وعائلته . وهو صديق عمي الملك فيصل الأول منذ ايام الدراسة في اسطنبول ، رافقه الى الشام وعيَّنَهُ ناظراً للخزينة ، وهو استاذ والدي واعمامي ، درَّسهم بعض العلوم . ظل عمّي الملك عبد الله يناديه «صفوت أفندي» .

كانت امي واخواتي يعرفن بيت «العوا» منذ ايام الشام ، ولذا فرشوا لنا بيتنا الجديد وهيأوه لنسكن فيه . وهو يعود لأحد اليهود العراقيين ، استأجره

والدي منه . يقع في منطقة «باب الشرقي» ببغداد ، حيث يملك اليهود العراقيون بيوتا جميلة وفي مواقع رئيسة .

لم يكن «شارع الرشيد» مُعَبَّداً . . صحيح ان بغداد كانت متأخرة في ذلك الوقت ، ولكنها اجمل من «عمّان» .

بقينا في بيت اليهودي هذا نحو سنة ونصف السنة ، حتى انتقلنا الى «كرادة مريم» ونزلنا في «قصر آغا جعفر» وهو من وجهاء البصرة .

لم يكن قصراً بالمعنى الحقيقي ، انما هكذا تعارف عليه الناس في حينها ، ربما لكونه كبيرا ، ويقع على النهر . عشنا فيه سنوات حلوة . . أو مُرَّة .

قصر الملك علي

سُمّي قصراً مجازاً ، وهو يعود بالأصل الى والد عبد اللطيف آغا جعفر (الذي أصبح نائباً عن البصرة فيما بعد) وعندما استأجرناه منه اطلق الناس عليه «قصر الملك علي» .

بُني على «مسنّاية» سدّة مرتفعة رحيبة ، في منطقة «كرادة مريم» على نهر دجلة ، كان يسكنها انگليز ، حيث اشترى اخو ضياء جعفر المكان فيما بعد . احتوى على بنيان منعزل ، احيط بسياج خارجي مرتفع ، وهو عبارة عن بيتين متلاصقين ، احدهما للنساء شغَلناه نحن العائلة ، والآخر للرجال شغله ابي ، وعمل منه «خانة» او ديوانية . اول ما يواجه القادم من الشارع الرئيس المؤدي الى القصر ، هو منزل النساء ثم ديوانية الرجال .

اعود الى العشرينات من القرن الماضي وكيف كنا نطرق باب الدار القديمة ، فيأتي الخادم الذي نتحسس وقع اقدامه ، على خرخشة المفاتيح وطقطقة الأقفال وصوت المزلاج ، ليفتح لنا الباب .

ندخل تحت «المجاز» وهو ممر واسع مظلم ، يقودنا الى صحن الدار ، وقد نُصبت عند نهايته باب ثانوية خشبية متحركة ذات ذراعين ، لتعزله عن الباب الرئيس . فللمجاز في العراق وظيفتان ، الأولى : لتلطيف الهواء الساخن الداخل عبره الى صحن الدار .

والثانية : للحيلولة دون مشاهدة المارة لمن هم في داخل المنزل ، والغالب ان يكون المجاز منحنياً أو ملتويا .

في صحن الدار ثلاث غرف (او حجرات) اثنتان منها على جهة اليمين والثالثة على الشمال ، ثم «ايوان» جميل واسع يطل عليه ، مفتوح من جهة الصحن . كان من عادة العراقيين ـ كما هو في اغلب البيوتات الشرقية ايام زمان ـ ان ينصبوا فيها «تخوتاً قديمة» او حصراناً في بعض الأحيان ، ليفطروا عليها خلال صباحات الصيف الأولى المنعشة ، او ليستريحوا فيها بعض الأوقات خلال صباحات الشتاء المشمسة .

ثم حجرتان اخريان واطئتان ، نصفاهما تحت الأرض ننزل اليهما عبر سلَّمين ، كل واحد منهما ذو اربع درجات . لا يمكن اعتبارهما سردابين ، لقربهما من أرض القصر ، ولا يمكن في الوقت نفسه من تعميقهما أكثر لوجود «النزيز» . يسمى هذا النوع من البناء بـ «نيم» نصف سرداب ، ولذا خلا القصر من اي سرداب!

في وسط القصر سلالم عِتيقة مهشمة ، يتبعها سياج يؤدي الى احدى الغرف ، التي تعقبها حديقة صغيرة ، توسطتها شجرة «دفلة» .

غرفتنا الطويلة (انا والاميرة جليلة) في الطابق العلوي ، تحولت الى غرفة لأخي الامير عبد الاله ، ومنه الى اختي الملكة عالية . . وهكذا كنا نتخاصم عليها . ثم غرفة واسعة اخرى ذات موقع خلاّب على النهر ، أُعطِيت لأختي الاميرة عبدية كونها الكبيرة فينا .

بعدها غرفة ثالثة ، وممر ضيق يربط منزل النساء بمنزل والدي (المخصص للرجال) لا يمر عبره احد منهم سوى ابي ، بينما كنا نحن البنات الصغيرات نركض فيه احياناً ، ذاهبات او عائدات من لقائه .

استغلت والدتي صالة كبيرة ، وعَمَلَتها صالة جلوس واستقبال لضيوفنا . وقد استقلت مع والدي في غرفة نوم تشرف على طارمة واسعة ، بنى فيها أبي حماماً . ثم هناك طارمة صغيرة اخرى وثلاث غرف ، تقع احداها في

مواجهة منزل الرجال ، حُجزت عنه بستارة خشبية ، واخرى صغيرة ، وثالثة تُسمى بغرفة الصناديق والفرش ، استغليناها كمخزن .

تطلُّ غرفة الطعام على الشط مباشرة . اتَذكَّرُ كيف كانت مياه دجلة تجري تحتنا ، حينما يرتفع منسوبها ، فيمرُّ «البلاّمة» اصحاب الزوارق وهم ينقلون اللاهين والعابثين ، يصدحون بالأغاني والموّالات وسط فضاء ندي هادئ .

ملك يسكن بالايجار

قبل ان أصف منزل ابي الملاصق لمنزل النساء وصفاً مختصراً ، لا بد ان اذكر ـ ولو سريعاً ـ بأن والدي استأجر داراً مجاورة له ، استغل ساحتها كمرآب لوقوف السيارات ، وحديقتها كأسطبل للخيول ، وغرفها لسكن عبيدنا ، سالم عسيري وسعيد سكران وغيرهما .

بينما اقتصر منزل ابي على صالة كبيرة للجلوس واستقبال الضيوف والزوّار ، يجلس فيها كل يوم . ثم غرفة مخصصة لطبيب والدي المصري الدكتور محمد الحسيني ، حيث رافق ابي من الحجاز ، وبقي معه في العراق حتى وفاته ، الى ان غادر الى «عمّان» وعاش هناك . مع غرفة اخرى لأخي عبد الاله يستقبل فيها اصدقاءه وزوّاره . وقد آثر خادمنا «وارد» ان ينام في غرفة مستقلة له ، وليس في منزل العبيد والخدم المجاور .

هُيئَت صالة الطعام الكبيرة ، لكي يتغدى فيها والدي مع ضيوفه يومياً . حيث يتم الطبخ في منزله ، ويأتي الخدم بطعامنا من عنده عبر الباب الخارجية الرئيسة .

يمتاز منزل أبي بطارمة او «بالكون» جميلة تطل على نهر دجلة . يجلس

ويسهر فيها ليلياً ، سيّما اثناء زيارات عمي الملك فيصل الأول المتكررة له . ولا أنسى بأن عمي نفسه ، هو الذي أثّث «قصر الملك علي» . أما أبي فقد حمل معه بعض اثاثنا الذي نعتزُّ به ، من منزلنا السابق في باب الشرقي .

كان بناء منزل او قصر آغا جعفر قديماً ، ذا سطوح فسيحة ، وقد واجهتنا طوال فترة بقائنا فيه (١٩٢٨ ــ ١٩٣٦م) مشاكل عدة ، كثيراً ما شكونا وتبرّمنا من تصرفات وكيل مالكه . حيث كان ممسكاً وشحيحاً ، لا يرضى ان يصرف «بيزةً» على الدار ، ليصلح سقفها المتفطِّر المخروم الذي يسيل على رؤوسنا ، او جدرانها المتهاوية الآيلة الى السقوط ، او ما الى ذلك من العيوب والنواقص . . وبالرغم من هذا كله فقد كان قصراً جميلاً ، وادعاً ، انيساً ، رحيباً . تربينا وسعدنا فيه . قضينا سنين من بواكير عمرنا فيه .

* * *

فجأة ومن دون سابق انذار او توقّع ، شعرنا بأن فضاء القصر ينحبس علينا ، وأن السماء تنكمش أمام عيوننا ، فقررنا الرحيل الى دور «السكك الحديد» قرب الاذاعة القديمة ، ذلك لأن عمود القصر وحاميه قد رحل عنّا . . فلقد مات فيه ابي الملك علي .

مدارس اميركية ببغداد!

ذهبنا في البداية الى مدرسة للاطفال في «باب الشرقي» ثم انتقلنا الى مدرسة الست «أمَت السعيد» ولكننا لم نكن تعودنا على الدوام الرسمي والمواظبة على الدراسة ، من نهوض في الصباح الباكر ، وذهاب الى المدرسة ، ثم العودة الى البيت ظهراً .

هذا الروتين المجهد تسبب في امراضنا نحن البنات ، وتعرضنا لوعكات صحية ، ارقدتنا في البيت بالتناوب . لذا قررت والدتي عدم ارسالنا الى المدرسة ، واقترحت علينا الدراسة في البيت .

لم يكن ذلك «دلالاً» او تدللاً ، بقدر ما هو مراعاة من أُم تنظر الى اطفالها بدأوا يمرضون ويذبلون ، بسبب وضع هي قادرة على ايجاد البديل عنه .

اكتشفنا بعد ذلك حاجتنا لتعلم اللغة الانكليزية ، فرأينا ان ندرس في احدى المدارس الاميركية ببغداد . واذا بمدرّس لبناني ، اسمه «دبّاس» كان علَّم عمي (الملك فيصل الأول) اللغة الانكليزية ووالدي (الملك علي) اللغة الفرنسية ، يقترح على ابي عدم ارسالنا الى تلك المدرسة ، بحجة انهم يدرِّسون «الكتاب المقدس» .

فأحد شروط الدراسة في المدارس الاميركية ، هو قراءة الانجيل ، ما يعني انهم سيُدخِلون في عقولنا بعض العقائد المسيحية الغريبة علينا ، التي لا يهضمها هذا المدرس المسيحي!

بعد فترة استشففنا انه كان ينوي باقتراحه ذاك ، ان يزجَّ بزوجته الى بيتنا لتدرِّسنا ، ولهذا لم يحصل لاهذا ولا ذاك . بقينا ندرس اللغة العربية في البيت مرتين في الاسبوع ، على يد الاستاذة «سلمى صبحية» وهي من اصل لبناني (والدة بديع صبحية) بالاضافة الى استاذة اخرى تدرِّسنا القرآن الكريم .

اما اخي عبد الاله فذهب في البداية الى «القدس الشريف» للدراسة ، لكنه لم يأتلف فيها ، فغادر الى مصر ليلتحق بـ «فكتوريا كولدج» في الاسكندرية .

حلوى الطفولة

اجمل ما كان يمتعنا ونحن صغار ، هو اننا (انا وجليلة) كنا نتوسل بوالدي كي يأذن لنا بركوب الزوارق النهرية ، لنتفسح ونتنزه في مياه دجلة قرب بيتنا .

يمانع في بعض الاحيان خوفاً علينا ، ولكنه عندما يبدي موافقته يبعث معنا كاتبه وصديقه «الحاج سالم» وعبدنا «وصل الله» والبلاّم «خضيري» الذي نرتاح اليه لطيبته .

يأخذنا الى جسر مود (سُمِّي على اسم الجنرال البريطاني الذي احتل بغداد) حيث بعض المقاهي والكازينوهات ، التي يبيع فيها السوريون واللبنانيون «الآيس كريم» او «الدوندرمة» كما نسميها في العراق . وهو الذُّ ما كنا نأكله في تلك الايام ، ثم نعود الى البيت بعد رحلة ممتعة .

لا يخفى مدى تعلق الإطفال بالحلوى . ما زالت انشودة احد الباعة المتجولين بين أزقَّة وحارات بغداد ترنُّ في رأسي ، كان يحمل بين يديه حلوى منفوشة ، شبيهة بالقطن تماماً ، تسمى «شعر بنات» بلونيها الابيض والوردي ، ويصيح :

شعر بنات
وين اولي وين ابات؟
ابات بالدربونة
والهايشة صغيرونة
عتوي لحگ بزونة

ومعناها : هذه حلوى كـ «شعر البنات» اين اولي وجهي منها واين ابيت

ليلتي هذه؟ سأبيت في الزقاق ، قرب بقرة صغيرة ، لأرى كيف يطارد القط قطته!

. . ويمر بعده بائع «الگرگري» وهي نوع من الحلوى المصنوعة كهيئة الدراهم المعدنية ، على شكل حصان او كلب او قطة ، صلبة ، ذات مذاق خاص ، تتحول في الفم الى لباد لزج ، يبقى يلوكها الاطفال برهة ، على عكس «شعر بنات» الذي يذوب مباشرة في الفم .

من الطريف ان هؤلاء الباعة كانوا يتعمدون الصياح بصوت عالٍ ، ويبطئون من سيرهم ، عندما يمرون في شارعنا ، لعلمهم بوجود بيت الملك علي فيه! وكنا نحن البنات الصغيرات نهرع الى امّنا ، ونتوسل بها ونتخضع كي تعطينا مالاً ، لنشتري به الگرگري او شعر بنات .

تعطينا بعض المال ، لكنها تعلّق : يوجد عندنا في البيت ما هو اطيب واصح ، نأتي به من الخارج ، او نشتريه من الاماكن الراقية ، وانتن لا تأكلنه ، بينما تفضلن هذه الحلوى ، التي يحملها البائع على رأسه مكشوفة ، فتكون عرضة للاوساخ والحشرات!

نقتلع الـ «قران» او الـ «روپية» من امي لنعطيه الى احد «صبيان الدَرَج» ليشتري لنا الحلوى . فهم واسطتنا ورسلنا الى خارج المنزل ، يعملون «بين الحرم والسُلُمْ لُك» وتتراوح اعمارهم بين (١١ــ١٣) الحادية عشرة والثالثة عشرة ، غير مسموح لنا نحن البنات الخروج الى الشارع ، كما ان الباب مقفول علينا .

كنا انا واختي جليلة وثلاث عبدات عندنا ، واحدة «جاوية» من جاوة ، واثنتان سوداوان ، نتقاسم الحلوى فيما بيننا . كان اقرب العطارين الينا بعيداً عن بيتنا في الحقيقة ، فنرسل اليه الصبيان ليأتونا باقراص النعناع المستوردة من الهند ، وعليها صورة ملك بريطانيا جورج الخامس ، او ليشتروا لنا حلوى

«ضروگ جريدي» براز الفأر! والملَبَّس وحبة الحلوة . غير ان ألذّ ما كنا نأتي به من السوق ، هو البقلاوة والزلابية ، سيَّما في ايام شهر رمضان الكريم .

يمرُّ في منطقتنا «كرادة مريم» احد باعة الكبَّة المسلوقة ، كنت اتشوق لأكلها ، الاّ ان امي لم تسمح لنا يوماً ان نشتريها ، وان كان بعض عبيدنا وصبياننا ينسلون واحداً تلو الآخر ، ليشتروا منه ويأكلوها . ما زال شكل بائع الكبة في مخيلتي ، ربما لأنني لم اذق طعم كبته . كان بدينا ، احمر الوجه ، يميل الى القِصَر .

اظن ان السبب الرئيس وراء طلبنا شراء مثل تلك الاشياء ، هو ليس لأننا اطفال فقط ، انما ايضاً حُب الانسان للتغيير ، والاطلاع على ما لم يعرفه او يتذوقه من قبل . فمن عادة البشر ، الضجر من الاعتياد على نمط واحد من الحياة .

اليوم اتلمس شتى الاعذار لأحفادي ، حينما يطلبون مني ان يأكلوا «برگر» مثلاً خارج المنزل ، بينما ما نعمله لهم في البيت اطيب والذّ من ذاك مرات ومرات!

اشاعات وأخبار

الكثير من الأخبار والاشاعات كانت تصل الى بيوتنا ، ربما قبل ان تصل الى بيوت الآخرين احيانا . ليس عن طريق الوشاية ، أو أجهزة أمن واستخبار خاصة ، كما قد يُخيَّل الى البعض ، وإنما عن طريق العبيد الصغار والخدم ، الذين يخرجون يومياً الى الشوارع والأسواق ، ويعودون الى بيوتنا . يحملون معهم ما يسمعونه في الخارج ، ليرددوه في الداخل ، فنلتقطه نحن عنهم .

أتذكر وأنا طفلة ابنة سبع سنين ، دخلتُ على أهلي (اهوِّس) بهذه المقطوعة :

تمَّن (رز) على تمَّن . . فيصل ما يتثمن
تِمَّن (رز) على تِمَّن . . فيصل ما يتأمن!

وفيصل هو عمي الملك فيصل الأول ، أصيح في بيته وبيت أخيه (والدي) بأنه لا يؤتمن على حكم العراق . فهل كان عمي يا ترى ، في حاجة الى ان يسمع ما يردده عنه بعض المغرضين ، أو الحاقدين من المناوئين لحكمه ، من آخرين؟ ها هي ابنة اخيه الصغيرة تطوعت لايصال الخبر اليه ، قبل ان يشيع في اوساط العراقيين!

لم نكن نحن مقطوعين عن الشارع العراقي ، بل كنا على تواصل معه ، وأهلي قريبون منه . فباستطاعة الناس الوصول الينا ، والتظلم عند ملوكهم وأمرائهم ، واسماعهم اصواتهم . لم يكن هناك حُجُبٌ ، أو ممنوعات ، أو سيطرات تفتيش مرعبة ، أو أجهزة حماية ورصد ومراقبة .

* * *

وبدلاً من ان تساهم هذه السياسة ، في خلق أجواء ثقة ومحبة وتآلف بين أبناء الشعب وحكومته ، سَمَّمها البعض (بعد ان استغلوا نقاط الضعف فيها) وقادوا انقلاباً ضدنا ، لتحلَّ أجواء الخيانة والحقد والخوف بين الطرفين محلها . وأصبح الحاكم اللاشرعي بعيداً عن شعبه ، يسومه سوء العذاب والمصير .

دجلة .. الجُزُر الوسطية

ننتظر بفارغ الصبر موسم انحسار المياه عن نهر دجلة ، لتطفو الجزر الزراعية في وسطه ، فاحداها قريبة من بيتنا ، يستغلها الفلاحون في زراعة الخيار والبطيخ والرقي والخضروات الاخرى في الصيف .

كانت عادة والدي الملك علي عندما لا يسافر الى بلد اجنبي ، يحلُّ ضيفاً على عمي الملك عبد الله في «عمّان» خلال الصيف ، لانها ابرد من بغداد في جميع الاحوال . فكنا نحن نستغل فترة غيابه ، لنعمل بعض الدعوات للاقارب والاصدقاء ، في الجزر الوسطية بنهر دجلة مساءً ، خاصة في الليالي المقمرة بالصيف . نتجنب النهار ، لارتفاع درجات الحرارة اللاهبة في شهري تموز (يوليو) وآب (أغسطس) .

نتعشى ونشرب الشاي ونلعب ونضحك ونمرح ونتحدث ، ثم نعود الى بيتنا في الزوارق تحت ضوء القمر . ما اجمل ضوء القمر المنير ، حينما يسطع على مياه دجلة في الصيف الحار؟!

ربما كان احد اجمل مناظر بغداد النهرية ، التي لا تفارق مخيلتي ، هو حينما نجلس في «الشرفة» الخلفية لبيتنا المطل على النهر ، عصر ايام الخميس من كل اسبوع في اشهر الصيف . ننظر الى الزوارق النقّالة للعوائل والشباب ، تجوب دجلة طولاً وعرضاً ، رواحاً ومجيئاً ، يغنون ويرقصون ويصفِّقون ويضربون الدفوف والطبول ، يزغردون ويرددون اغاني سليمة باشا!

لُقِّبَت (بالباشا) لقوة شخصيتها ونفاذها ، وهي «سليمة مراد» مطربة عراقية مشهورة ، زوجة المطرب العراقي المشهور ناظم الغزالي . كان يوم الخميس يوم المتعة والمرح في بغداد ، لكن والدي يمنعنا من الخروج فيه ، على ان يسمح لنا في المقابل بالتنزه ايام منتصف الاسبوع .

يقع بيتنا في منطقة سميت بـ «سبع قصور» . وهي اجمل من منطقة سكن عمي الملك فيصل الاول ، ولهذا كانت امي المَلكة نفيسة غالباً ما تدعو بنات عمي «راجحة وعزة» الى العشاء في بيتنا ، ليستمتعن بتلك المناظر الخلاّبة في الليالي المقمرة ، فنعمل لهن «المسگوف» السمك المشوي العراقي الذائع الصيت .

صديقات الصِّبا

صديقات الطفولة حجازيات وشاميات وعراقيات . معظمهن صديقات الصبا والشباب والكهولة وحتى الشيخوخة . كنت ألعب مع سعاد ابنة ارشد العمري ، وبوران ابنة صفوت أفندي العوّا ، وماجدة ولمعان ابنتي داوود الحيدري ، بيد ان علاقتنا مع هذه الاسرة الاخيرة ، ظلّت متذبذبة بين مدٍّ وجزر .

احببتُ عقيلة ساطع الحصري ، تلك السيِّدة التركية الوقور التي لا تجيد العربية ، بينما كريمته (سلوى) صديقتي وفي سنّي . ومثلها سلوى كريمة علي جودت الأيوبي (عقيلة عدنان مزاحم الباچچي) . وابنتي جميل المدفعي ، سعاد (حرم الدكتور نجيب اليعقوبي) وسلمى (زوجة اركان عبادي) .

هاته البنات وغيرهن ، كُنَّ كلهن يزرننا في بيتنا بكرادة مريم ، ايام والدي الملك علي . واستمرين يزرننا في القصر بعد رحيله ، بصحبة امهاتهن ، خاصة ايام السبت من كل اسبوع ، حيث لدينا «قبول» فيه . ولا يمنعنا فارق السن ، من الجلوس مع امهاتهن .

لم نكن نتطرق في بيوتنا الى اية احاديث مذهبية او دينية او عنصرية ، ولم نسمع اهلنا انهم طرقوا مثل هذه الموضوعات يوماً . ولذا نشأنا ونحن

نتجنب الخوض فيها ، لا بل كنا ـ ومازلنا ـ بعيدين عنها ، وعليه تأسست عندنا علاقات طيبة ، مع مسيحيّي العراق ويهوده وغيرهم من الأقليات . وفي الوقت الذي اكتشفنا فيه ، بأن بعض العوائل المسيحية ، قد جرَّت انفسها عنّا بعد ١٩٥٨م للأسف ـ سيّما في الثمانينات حيث أخذوا يصدّرون السلاح الى صدام من اوربا واميركا ـ وجدنا يهود العراق أكثر اخلاصاً!

بيوت فتّال ، ابراهيم الكبير ، ليونيه ، الساعاچي وغيرها من يهود العراق ، شغل بعض أبنائها مناصب رفيعة في المملكة العراقية ، وما زالوا يتحدثون باللهجة البغدادية في بيوتهم بلندن . وهم على اتصال بي ، حتى ان «مارسيل جودة» ابنة روبين سوميخ (نائب يهودي في البرلمان الملكي آنذاك) احتفت بي قبل فترة ، واقامت لي مأدبة غداء ، دعت اليها الكثير من اليهوديات العراقيات ، وجلسنا نستعرض الحاضر ونقارنه بأيام زمان .

وعودة الى تلك الأيام ، فبعِد ان كبرت البنات ، تفرّقْنَ بين مَنْ تزَوَّجَت ، أو مَنْ انشغلت بالدراسة . ولهذا خفَّت علاقاتنا بعدد منهن في الخمسينات ، ولم تبقَ غير مديحة وهاجر الداغستاني ، اللتين كانتا لآخر ليلة يتناولن طعام العشاء ، مع اهلي على مائدة قصر الرحاب ، قبيل مذبحهم في صباح اليوم التالي!

هوايات الشباب

اعتدنا حتى عام ١٩٣٩م قبل وفاة الملك غازي ، ان نخرج الى السينما لمشاهدة احد الافلام . حيث تتصل بدالة قصر الزهور باحدى دور السينما وتحجز لنا «لوج» مقصورة ، ولا يصحبنا الاّ حرس ملكي واحد . فندخل الى صالة العرض كسائر النساء العراقيات ، نرتدي العباءات

و«البواشي» نغطي بها وجوهنا . وما ان تُطفأ الانوار وترتفع الستارة ويبدأ العرض وسط ظلام دامس ، نرفع الاغطية من على وجوهنا ، ونشرع في متابعة الفيلم .

توقفنا عن هذه العادة بشكل كامل بعد وفاة الملك غازي في نيسان ١٩٣٩م ، بسبب حزننا الشديد عليه ، وايضاً لوجود سينما بديلة خاصة بنا في القصر .

من هواياتي وبعض ذكرياتي مع اخي عبد الاله في مراحل الطفولة ، خاصة حينما يعود من مصر الى العراق في العطلة الصيفية ، كان منعادته أن يركب الخيل يومياً في الصباح ، وانا قريبة منه اخرج معه راكبة على حمار كبير ، لأنني لا اجيد ركوب الخيل ، حتى نصل الى المطار في منطقة «ام العظام» .

كان يهوى قيادة السيارات المكشوفة ، خاصة في فترات ما بعد الظهيرة ، فكنتُ أذهب معه الى منطقة «العلوية» مصطحباً بعض اصدقائه احياناً . لم نكن نشعر بأية مضايقات من قِبَل الآخرين ، فالناس يعرفوننا من علامة السيارة ، وهم ـ على أية حال ـ قليلون في الشوارع ، وبما اننا نسوق فلا يحصل الاحتكاك بهم .

كانت عادتنا في طريق عودتنا الى البيت ، نضغط على مُنَبِّه السيارة ثلاث مرات ، تحديداً عندما نصل الى موقع الساعة في باب الشرقي ، لنُشعِرَ والدي بقدومنا ، لأنه طوال فترة غيابنا عن البيت يبقى قلقاً علينا . يسمع صوت المُنَبِّه وهو جالس في «شرفة الدار» مع ضيوفه وزواره الذين لا ينقطعون عنه ، فيطمئن علينا .

كنا (انا واخي عبد الاله) نخرج في بعض الاحيان ، للتنزه في احدى مزارع بغداد الجميلة . نرتِّبُ موعداً مع اهلي ، نلتقي بهم هناك في ساعة

محددة ، ونحن نحمل معنا الفاكهة وبعض الاكلات . ففي تلك المزرعة فسحة واسعة ، يرغب اخي ان يسوق فيها بِحُرِّية ، في سيارته الوحيدة التي يملكها في ذلك الوقت .

بعدها يذهب للعب «الكريكت» مع ابن عمي وزوج اختي الملك غازي ، الذي يكبره بأقل من سنتين . ومن ثم يلعبان «الپولو» على ظهور الجياد . وحصل ان دعا اخي عبد الاله ، ابن عمي الملك غازي ومرافقه «عبيد عبد الله المضايفي» وبعض اصدقائه ، عدة مرات الى ولائم في النهر .

ترويح عن النفس

أحببنا الاستماع الى محمد عبد الوهاب ، الذي زار العراق خلال المعرض العراقي عام ١٩٣٢م ، وقد استضافه عمي الملك فيصل الاول في «قصر الحرم» ، وغنى فيه قصيدة أحمد شوقي ، التي يقول فيها :

يا شراعاً وراء دجلة يجري ... في دموعي تجتنبكَ العوادي
أمّة تُنشئ الحياة وتبني ... كبُناة الأبوّة الأمجادِ
ملك الشطّ والفراتين والبطحاء ... أعظِم بفيصلَ والبلادِ

اما من المغنيات العراقيات اللواتي كنا نستمع الى اغانيهن بشغف ، عفيفة اسكندر وسليمة مراد وزهور حسين ، بينما تفضّل امي الانصات الى حضيري ابو عزيز . في حين ظلّت اختي الأميرة عبدية ، تحتفظ بمعظم اسطوانات اغاني صديقتها الخاصة ام كلثوم .

عشق اخي الامير عبد الاله الطرب التركي الاصيل ، واعتاد أن يأتينا ببعض المغنين الى بيتنا ، ويعقد سهرة راقية ، ممتعة فيه .

نتخذ نحن النساء المحجّبات مقاعدنا في غرفة منعزلة مظلمة ، تطل على صالة العزف والطرب ، نرى مَنْ فيها وهم لا يروننا . واتذكر انه جيء يوماً بأختين (خانتني الذاكرة في اسميهما) واحدة تغني والاخرى «مونولوجست» اديتا اداءاً جميلا .

. . تلك ايام خلت ، على رغم متعتها وبهجتها ، الاّ انها تجللت بالوقار والاحتشام .

ملوك بلا تيجان

اعتاد عمي زيارة ابي في بيتنا ، مرتين بالاسبوع على الاقل . يجلسان وحدهما في الشرفة ، ليتحدثا ساعات بالسياسة والاوضاع الدولية وهموم العرب والعراق .

لم يكن مسموحاً لنا الدخول عليهما ، وتعكير صفو خلوتهما وفترة مناجاتهما ، لكنني كنت صغيرة ادخل للسلام على عمي وتقبيل يده الكريمة ، فاسمع في بعض الاحيان شكواهما من الانكليز ، وبعض رؤساء الوزراء العراقيين ، والمسؤولين والمشاكل في البلد ، وإن كنت لا افهم على وجه الدقة مغزى كلامهما ومراميه .

يبقى عمي يناجي ابي حتى الليل ، ريثما يحين موعد العشاء ، فيتعشى معنا ، ومن ثم يغادر الى منزله .

اتذكر انه اناب والدي (الملك علي) في ادارة المملكة العراقية ، اكثر من مرة خلال سفره الى اوربا . وحصل في يوم استقلال العراق المصادف

٣ تشرين الأول (اكتوبر) سنة ١٩٣٢م ، ان خرجنا الى الشوارع نستقبل ونحيي عمي الملك (فيصل الأول) . كنا في شارع الصالحية ، وجاء عمي ووالدي من المطار ، في سيارة مكشوفة يحييان الجماهير .

زغردت النسوة فرحاً باستقلال العراق ، واذا باحداهن تقف الى جانبي وهي لا تعرفني ، نظرت الى عمي وصاحت مستغربة مبتهجة : «ايه . . لا يلبس الملك فيصل تاجاً على راسه!» .

. . لم تكن تلك المرأة المحيية البسيطة ، تعلم ان الملك فيصل الأول لا يملك تاجاً! فآبائي واجدادي ملوك بلا تيجان أو حلل ، هم التيجان وهم الحلل اينما حلّوا أو ارتحلوا .

المطبخ الملكي

من ذكرياتي عن طفولتنا ، ان اهلنا كانوا بسبب ضعف اجسادنا ووهن عظامنا ، يجبروننا على ان نأكل كي نسمن ونقوى . عندما كبرنا واصبحنا فتيات يافعات ، بقيت اجسامنا نحيفة ، لكنها اكثر قوة من ذي قبل .

اغلب الظن ، هو لأننا حافظنا على برنامج التقليل من تناول الطعام . فمثلاً لا اتذكر اننا (انا واختي جليلة) افطرنا يوماً في الصباح ، رغم اننا كنا نستيقظ ما بين الساعة (١٠,٠٠ ـ ١٠,٣٠) العاشرة الى العاشرة والنصف صباحاً . ولا نبقى متأخرات في نومنا ، الاّ اذا سهرنا في الليل سهرة طويلة ، لسبب او لآخر .

لم تكن عند اهلي ساعة محددة لِتناول طعام الافطار في الصباح ، فكل مَنْ يستيقظ يطلب فطوره . ثم نبقى جميعنا في انتظار الغداء ، لحين عودة اخي الامير عبد الاله من البلاط الى «قصر الرحاب» ما بين الساعة (٣,٠٠ ـ ٣,٣٠) الثالثة الى الثالثة والنصف ، من بعد ظهر كل يوم .

اذا ما مسنا الجوع خلال ساعات النهار ، نتناول بعض الحلوى ، كالچكليت والفستق او الكرزات ، ونرتشف القهوة او العصير ، لنسدَّ به رمقنا حتى يحين موعد الغداء .

احبَّ (جدي لأمّي) الشريف «عبد الاله باشا» امي كثيراً ، ودللها في اسطنبول ، فعيَّن لها طباخاً تركياً خاصاً . اتذكره كان من الاناضول ، ذا عينين زرقاوين وشوارب غليظة ، كنا نخشاه في طفولتنا . يطبخ اكلاً فاخراً ،

طيباً ، شهياً ، يوزعه اهلي بالصواني على البيوتات ، وسرى هذا التقليد في الحجاز ايضاً ، ايام جدي (ملك العرب) الشريف الحسين بن علي . الاّ ان امي كانت تمتنع عن تناول هذا الطعام ، فتطبخ هي اكلها بيديها ، ويحمله اليها العبيد والجواري .

طباخون من مطابخ شتى

بقي هذا الطبّاخ في خدمة والدتي في اسطنبول والحجاز ، واصطحبته معها الى بغداد . الاّ ان تقليد حمل الاكل بالصواني الى البيوتات لم يستمر بالعراق ، لأن العراقيين كلهم يطبخون في بيوتهم ، ولا يفضلون الاكل في ، او من بيوت الاخرين .

خمسة اصناف ضرورية من الطعام كانت تدخل يومياً الى «الحَرَم» من مطبخ الطبّاخ التركي ، هي عبارة عن رز ولحم ونوعين من المرق وبرگ وحلو . لقد بقي معنا يطهو لنا طعامنا ، حتى وفاة والدي الملك علي في بغداد عام ١٩٣٥م ، حيث جاءنا اخي الامير عبد الاله بطبّاخ مصري ، سرعان ما شعرنا معه بافتقادنا لطباخنا التركي ، وندمنا ندماً شديداً على استغنائنا عن طبخاته .

عاش طباخو مصر في قصور الملوك والامراء والباشوات ردحاً من الزمن ، ولذا فهم يتمتعون بخبرات وفيرة في فن الطبخ ، ويجيدون الاكلات العربية والإفرنجية والتركية وغيرها . لاادري لماذا يشكوا الناس اليوم منهم؟! كان باشوات مصر في ايام عزِّها وخيرها العميم يأكلون جيداً ، ولهذا نراهم من ذوي الاوزان الثقيلة ، بينما جيرانهم الافارقة من اوزان الديك او ريشته!

لقد غيَّر المصري مطبخنا المعتاد ، وأدخل فيه اكلاتهم المصرية الخاصة

بهم ، وعمل لنا اكلات اوروپية جديدة ، ربما لم نستذوقها او نتقبلها ، وإن اغرانا ببعض الجلي والكاسترد والحلوى .

ومن الطريف انه كان للملك غازي (ايام ملوكيته في الثلاثينات) طبّاخ هندي مسلم في «قصر الزهور» اسمه «عبدو» . لم ندعه يستخدم التوابل والبهارات الهندية الحارة في طبخاته ، ولذا لم نستذوق اكلاته ، بالرغم من ان للمطبخ الهندي نكهته الخاصة المميزة .

تنوَّعَ المطبخ الملكي العراقي تنوعاً متعدداً ، من التركي الى الهندي ، الافرنجي ، والمصري وحتى الشامي ، لكنه لم يحصل ان دخله طبّاخ عراقي ، ولذا فهو لم يختص بالاكل العراقي . . ربما لعدم توفر طبّاخين عراقيين معروفين وقتذاك ، اذ لم يعتد المجتمع العراقي على الاعتماد على رجال طهاة في البيوت (كما هو حاصل في مصر التي تشكو من فائض منهم) فالسيدات العراقيات ماهرات في اعداد وجبات الطعام الشهية .

وبالرغم من ان بعض عبيدنا يجيدون أكَلة (القوزي على تمن) لحم على رز العراقية المشهورة ، الاّ اننا كنا عندما نشتهي الاكلات العراقية الاخرى ، نطلبها من خارج القصر ، او تأتينا بها صديقاتنا من منازلهن .

لم تدخل القصر او بيوتنا فاكهة اجنبية او مستوردة ، ربما باستثناء الموز ، ولا ادري ما إذا كان يزرع في العراق وقتذاك ام لا ؟ غير ان الأسواق العراقية كانت مليئة به . نشتهي الرقي (البطيخ كما يسمونه في بعض الاقطار) والبطيخ (الشمّام) . تأتي هذه الفاكهة الصيفية الى اسواق بغداذ بالمراكب ، او «الگُفَّة» (مركب دائري مرتفع ، يستخدم في النقل النهري) من البساتين القريبة المتوازية على ضفتي نهر دجلة ، فيشتريها لنا الخدم .

نأكل العنب «ديس العنز».والخوخ والمشمش وخيار الماء (والعطروزي كما

في بعض المدن العراقية ، أو الطعروزي في مدن أخرى) ولم نستسغ «الصابوري» (فاكهة مطعمة بين الخيار والشمّام) .

لم نزرع فاكهة او خُضاراً في قصور العائلة المالكة (الحارثية ، الزهور ، الرحاب) انما زرعنا بعض انواع الگوجة والمشمش ، في مزرعة «ام العظام» .

وزرع اخي الامير عبد الاله نوعاً من «الخوخ» في مصيف «سرسنك» فأثمر .

ربينا بعض الابقار في «قصر الحارثية» لغرض الاستفادة من حليبها ، فبدلاً من ان نشتريه من السوق ، كنا نشربه طازجاً ، بيد ان هذه الهواية لم تستمر .

يأتينا التمر والرطب في مواسمه من ملاّكي البساتين المحيطة ببغداد وكربلاء والبصرة بسلال من خوص النخيل ، أو بصناديق من الخشب .

وبالرغم من ان النجف الاشرف مشهورة بطرشيِّها (فاكهة وخضار مخللة) الاّ ان «احمد عجيل الياور» كان يزودنا بكميات كبيرة من طرشي الموصل ، في علب صفيح . . لا احسب ان هناك فاكهة اطيب واحلى من فاكهة العراق ، ولا خيراً كالخير في العراق .

السُفرة الملكية

طريقة تقديم السفرة في القصور الملكية ، هي ان يقدِّم السفرجية لنا الشوربة اولاً ، خاصة في شهر رمضان المبارك وفصل الشتاء ، ولا شوربة في الصيف .

ثم السلاطات والبرگ والمعكرونة ، قبل تناول الوجبة الرئيسة . بعدها يأتون بالاكل ، رز ، خضار ، لحم ، بطاطة . . وما الى ذلك . ويكرر السفرجية تقديم الاكل لمن يرغب في تناول المزيد . ثم ترفع الصحون لتستبدل بصحون

اخرى نظيفة ، ليؤتى بالحلوى ، ومن بعده بالفاكهة ، وان كان قسم منها موجوداً اصلاً على المائدة ، في متناول مَنْ يشعر بجوع ، او يشتهي ثمرة معينة خلال اليوم .

عادة ما يكون روّاد المائدة اليومية ، هم كل من : الملك ومرافقه وأخي ومرافقه وامي واخواتي وانا . بينما يتناول الضابط المناوب ـ لتلك الليلة ـ غداءه في بيت المرافقين ، القريب من «قصر الحارثية» .

طوال مدة تناول طعام الغداء ، يبقى (السفرجية) واقفين على المائدة ، ليلبوا حاجات من يطلب أكلاً . ولعله من سلبيات هذه الطريقة ، هي اننا كنا نشعر بضيق وحرج شديدين . لا نستطيع ان نتكلم بِحُرِّية ، ولا ان نبوح بما في دواخل بعضنا للبعض الآخر .

ليس بسبب شعورنا بغربة مَنْ يقف على رؤوسنا ، فلا وجود لمثل هذا الشعور ، لأن الخدم والسفرجية هم من اهل البيت ، وانما بسبب الاحساس في اللاوعي ، بان ثمة مَنْ يراقبنا ويحصي علينا انفاسنا!

من المعروف ان العوائل لا تجتمع الاّ على مائدة الطعام ، وعندما يحين موعد الافطار ، او الغداء ، او العشاء ، يحلو الكلام ويتذكر الانسان بعض الحوادث والوقائع ، التي يتمنى سردها ، او اعلام اهله بها ، لكنه لايستطيع ذلك عند وجود الآخرين حوله .

لهذا فاني اقلعت اليوم عن هذا التقليد ، بحيث لا أُبقي احداً من (السفرجية) او الخدم ، واقفاً عند رأسي اثناء تناولي الطعام ، كي لا احس بالاختناق ، بينما هم في الحقيقة يعرفون كل ما يجري في داخل البيت!

بعد انتهائنا من تناول طعام الغداء ، ننهض ــ نحن النساء ــ عن المائدة لنصعد الى الطابق العلوي ، بينما ينتقل اخي الامير والمرافقون الى الصالة الاخرى ، ليشربوا الشاي او القهوة .

لقد وضعت لنا امي قرب غرف سكننا في «قصر الرحاب» ثلاجة ، عبأتها ببعض الفاكهة والعصائر ، منها عصير الطماطم الذي افضله . وكنا اذا ما جعنا أو عطشنا ليلاً ، لا تسمح لنا بان نضغط على الجرس لاستدعاء الخدم ، كي يأتونا بما نطلب ، فتقول (رحمها الله) : «حرام ، لقد ناموا . قُمنَ انتنَّ وكُلن واشربن ما تُردن بأنفسكن» . وحتى هي ان اشتهت شيئاً ليلاً ، اما ان تقوم بنفسها ، او نناولها نحن اياه ، من دون ان توقظ خادماً او جارية من النوم .

طبخ الملكات والأميرات

امي سيدة بيت اصلاً ، فهي تجيد صنع المربى مثلاً . اما اختي الاميرة عبدية فلم تطبخ ، الاّ حينما تكون في قصر «ستانويل» ببريطانيا ، وقد جربت بعض الاكلات هناك .

وحصل ان اختي الملكة عالية اثناء مرضها ، بدأت تشعر بالضعف والذبول ، نتيجة امتناعها او عدم تقبُّل جسمها للأكل ، صارت تشتهي بعض الأكلات ، فاخذت تعملها بيدها . بينما كانت اختي الاميرة جليلة الوحيدة بيننا ، التي ترغب في ان تقترب من المطبخ ، وقد اجادت عمل الرز الاحمر بالطماطم ، بطريقة شهية .

اما انا ، فلأني بقيتُ الوحيدة من اهلي على قيد الحياة ، فلي قصص مع الاكل والمطبخ . بعد زواجي من الشريف حسين ، اصبحتُ حرة ومستقلة في حياتي من جهة ، واضطررت الى مسايرته واتباع طريقته في الغذاء من جهة اخرى . فهو على عكسي ، يفطر صباحاً ، وصرت افطر معه ، جبن ، قيمر عراقي ، فول مصري ، زيتون ، حلوى ، طبق مخلمة (اومليت) عبارة عن بيض

مخفوق مقلي باللحم المفروم والبصل والطماطم . . وما الى ذلك .

ومن الطريف انني لم اكن اجيد عمل اية أكلة ، مهما كانت بسيطة ، فحتى قلي البيض ، او عمل فنجان قهوة لا اعرف كيفيته ، لأنني لم اقترب من المطبخ في حياتي .

بعد الانقلاب عام ١٩٥٨م اخبرني «تحسين قدري» في سويسرا ، بأن يونانياً صاحب حانوت يبيع بعض المأكولات الشرقية ، فذهبت اليه واشتريت منه «راشي» دهن السمسم . بعد حمله الى البيت ، لم اعرف كيف اعمله ومع ماذا آكله! فاقترح عليّ تخفيفه بالخل والماء لعمل «حمص بطحينة» منه!

الا انني في لندن وجدت نفسي ـ في بعض الاوقات ـ بحاجة الى ان استخدم يدي لعمل بعض الاكلات والقهوة التي اشربها يومياً . لذا تعلمت الطبخ من السيدة مديحة الجميل ، والهام (حرم رشدي بن عبد الهادي الچلبي) فأجَدْتُ طبخ «تمن باقلاء» رز بالباقلاء ، والدولمة بالزيت .

* * *

اليوم عندما أهِمُّ بالدخول الى المطبخ ، اتوقف برهةً لأسأل نفسي : لمن اطبخ؟ ومَنْ سيشاركني في طعامي؟ لقد رحل عني اهلي ، وفارقني مَنْ ظل يقاسمني عزائي فيهم ، ويهدّئُ من خاطري اربعين عاماً بعد رحيلهم ، فما من جليس على مائدتي . . سواي!

آغوات القصور

«آغوات» مفردها بالتركية «آغا» وهم عبارة عن رجال «فاقدي الذكورة» نتيجة عمليات جراحية وحشية معقدة ومؤلمة ، يجرونها لهم في صغرهم لاخصائهم . حدثني زوجي الشريف حسين (رحمه الله) بأن بعض قبائل الأفارقة تعمد الى «خصي» الشباب ، ممن يأسرونهم أثناء القتال والمعارك التي تنشب بينهم . وان اعداداً منهم قد يموتون اثناء اجراء العمليات الجراحية المفزعة لهم .

اصول بعض «الآغوات» من الاحباش وبعضهم الآخر من الأفارقة ، يشترونهم من الاسواق . كانت قصور الذوات وبيوت كبار الشخصيات مليئة بهم ، يعيشون الى جانب الحريم وكأنهم نساء . فلا احد يستحي منهم او يتغشى عند رؤيتهم ، واذا ما مرضت احدى النساء او البنات ، يصحبها الآغا الى الطبيب من دون اي حرج أو تمنُّع .

ايام الحجاز ، كان الآغا يركب معنا في العربة كحارس للنساء . وكذلك خلال حياة والدي (الملك علي) في العراق ، حينما نذهب الى «قصر الحَرَم» يجلس الآغا الى جانب السائق . ثم جرى التقليد بذلك ، فلا نركب سيارة وحدنا ، ما لم يكن الآغا في المقدمة .

لم يكن مسموحاً لنا كنساء ، ان نتحدث مع السائق مباشرة ، انما نمرر طلباتنا من خلال «الآغا» وهو الذي يتكفل باصدار الامر الى السائق . ولا يستطيع الاخير ان يخالف امره او يناقشه .

ثمة مهمة اخرى للآغا ، وهي انه واسطة بين «الحرم لُك» صالون

النسـاء «والسُلم لُك» صـالون الرجال . فحينما كانت امي (الملكة نفيسة) تريـد شيئـاً من «الحاج سـالم» كـاتب ابي مثـلاً ، ترسل الآغـا اليـه ليعـود اليهـا بطلبها .

كـان الآغـوات يباعـون في اسـواق الحجـاز ايـام زمـان ، وباسـتطاعـة كل مَنْ يرغب باستخـدامهم ، شراءهم من هناك . عند قدومنا الى العراق التحق بنا اثنان منهم ، بينمـا ذهب آخـرون الى الاردن . في حين جـاءت عـمـتي صالحة بنت الحسين باثنين منهم ، الاّ انهما تركا العراق وغادراه الى الاردن فيما بعد ، وعاشا وماتا هناك .

غيرة الآغوات

لم نستـهوِ احـد آغوات امي من الاحبـاش البيض . كـان يتـفلسف في الكثير من الامور ، خشن التعامل معنا كأطفال ، ولهذا كنا نخشاه ونتحاشاه . يتـدخل في كل صغـيرة وكـبيرة ، يبالغ في الغـيرة على النسـاء ، فـاذا ما رأى احداهن ارتدت قميصاً بنصف كم ، أو ثوباً قصيراً بعض الشيء ، او ظهرت بمظهر غير كامل الاحتشام ـ في نظره ـ يزعل ، ويبدي تذمره وامتعاضه مما يشاهد .

تَرَكَنا هذا الآغا وذهب ليعيش في مصر . وفي زيارتنا للاسكندرية عام ١٩٣٦م جاء ليزورنا . . وهكذا بقي هناك حتى رحل عن عالمنا هذا .

اما آغانا الذي كنا نستلطفه ونحترمه كثيراً ، فهو «ريحان» الذي ما زلتُ اتذكر شكله البدين الاسود ، وطيبته .

بقـي مـعـنـا يخـدمنـا ويحـرص علينـا ويلاعـبنا ، حـتى توفي والدي (الملك علي) فطلب منا السمـاح له بالعـودة الى مكة المكرمة ، ليخـدم في

الكعبة المشرفة . اذ كان هناك شريحة من خَدَمَة بيت الله الحرام ، يُسمون بـ «آغوات الحرم» يرتدون زيّاً خاصاً ، فسمحنا له وعاد فعلاً ، حتى مات هناك .

خلال احدى سفرات والدي الى «عمّان» وفي ليلة صيفية مُقمرة ، دعت أمي (الملكة نفيسة) زوجة عمي (الملكة حزيمة) وبناتها الى «الجزرة» وسط دجلة ، لتناول سمك المسگوف . دَعَوْنا ايضاً عدداً من الشريفات . لم يكن معنا احد من الرجال ، سوى الآغوات .

وبينما نحن الفتيات اليافعات نعبث بالطين ، نلعب ونضحك ، مرَّ بعض الشباب من امامنا بشكل متعمد . لم يكن باستطاعة احد (أياً كان) في عهدنا ان يمنع آخر من المرور ، او التواجد في مكان عام ومفتوح . . اللهم الاّ بالرجاء والالتماس . لذا طلب الآغوات من الشباب ان لا يكرروا المرور على المكان ، ولكنهم لم يستجيبوا ، ما اضطر الآغوات الى الدخول معهم في مشادة .

صحيح ان «الآغوات» فاقدو معاني الرجولة «الذكورة» واشكالهم الى النساء اقرب منها الى الرجال ، لكنهم يتمتعون ايضا بشيء من مظاهر الهيبة والوقار . وكنا نحن كنساء نحترمهم ونُجلّهم ، فهم عادةً اكبر منا سناً ، ونناديهم بـ «للا» (اللام المضخمة) وهم في المقابل يوقرون السيدات ويقبّلون ايديهن ويحرصون عليهن .

خفنا ان يصل خبر المشادة الى عمي الملك فيصل الاول ، فيعاقبنا او يوبخنا ، ما ينغِّصُ علينا نزهتنا تلك . . تصوروا نحن الذين خفنا ، وليس مَنْ اعتدى علينا ، لذا لملمنا اغراضنا واستعجلنا ترك «الجزرة» والعودة الى البيت .

تأثير الآغوات السياسي

ربما لا يعلم كثيرون بأنه كان لبعض الآغوات تأثير كبير وخفي ، في المسرح السياسي لبعض البلدان يومذاك ، يفوق حتى تأثير الوزراء ورؤسائهم ، لما يتمتعون به من نفوذ وسيطرة عليهم ، وبما ملكوه من خبرات سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية متعددة . فهم اشبه بالامراء او اصحاب السلطة ، ومنهم مَنْ كان يجيد اكثر من لغة اجنبية ، واتذكر ان «آغا» والدتي كان يكتب الاشعار الجميلة .

لقد اوكل اليهم سادة البيوت مهمات ، تعذّر عليهم هم انفسهم القيام بها ، لكثرة مشاغلهم والتزاماتهم السياسية خارج بيوتهم ، فقام بها «الآغوات» على احسن ما يرام . بعد ان ظلّوا يبحثون عمَّن يؤدي ادوراهم نيابة عنهم من الرجال ، فلم يجدوا حلاً لهذه المشكلة ، سوى عن طريق هذه الشريحة من البشر .

يستطيع الآغا القوي ان يفرض سيطرته على سائر الآغوات العاملين معه في نفس المكان ، لا بل حتى على سيدة البيت او القصر ، إن كانت ضعيفة او سهلة الانقياد! فهي الاخرى تخشاه وتهابه وتنفذ اوامره ونواهيه ، لأن سلطته ـ كما ذكرت ـ تكاد تكون منحصرة على النساء بالدرجة الاساس .

اما الضعيف من الآغوات ، ممن لا يستطيع فرض سيطرته على البيت المؤتمن على حراسته والاهتمام بمن فيه ، فانه ليس فقط قد يتسبب في تسيُّبه ، وانما في انهياره ايضاً . كان لعمي الملك فيصل الاول آغا اسود ، نحيلاً ، ذميلاً ، طيباً ، فقيراً ، لم يمارس سيطرته على البيت ، ولم يتدخل في اي شيء ، ربما لأنه كبر . يجلس عند باب الحرم هادئاً مستكيناً ، لعله يتحمل جزءاً من مسؤولية ما حصل من اخطاء لبيت عمي .

كثيرون من هؤلاء الآغوات لا يدرون على وجه الدقة من اين هُم ، وكيف ومتى ولماذا جيء بهم الى هذه البقاع؟! اذ وجدوا انفسهم فجأة يخدمون في سرايا وقصور السلاطين والامراء والباشوات ، حيث كانت اسطنبول كثيرة الطلب عليهم .

في احدى زياراتنا الى تركيا عام ١٩٦٧م شاهدنا احد الآغوات ، ممن كانوا يخدمون في قصور آل عثمان ، وقد بلغ من العمر عتيا ، انزوى عند بوابة احدى سرايات اسطنبول ، لا يهتم به احد . اثار فضولنا ، فمنظره الحزين يستدعي العطف والاشفاق ، نظرنا اليه ، ورحنا نستعيد ذكريات السنين الغوابر باستعبار!

وللحيوانات قصص

لا انكر انني ترددتُ كثيراً ، قبل ان اطرق هذا الموضوع ، بل تأملت طويلاً امام ما قاله ، او ما سيقوله بعض المغرضين وذوو المقاصد المريبة ، من انه لم يكن من همٍّ لدى العائلة العراقية المالكة ، سوى جني الحيوانات والحديث عنها!

ونسي هؤلاء ، او تناسوا ان قصصنا امتداد لقرن من الزمان خلا ، يوم كان آبائي واجدادي يتنقلون بين الفيافي والاقطار ، على ظهور الخيل والجمال والبغال والحمير ، ويضربون الخيام والاعلام وسط الصحراء ، تحرسهم عناية الله واخلاص مَنْ والاهم ووفاء حيواناتهم!

وليس الحال بصحراء العراق (بعد عقود) مختلفاً عمّا في الجزيرة ، فحياة الصحراء واحدة ، وحياة الريف يتقاسمها صنفان من مخلوقات الله ، الانسان والحيوان .

اما حياة المدن ، فلم يكد بيت من بيوتات العراق - في العهد الملكي - فرغ من دابة نركبها (قبل انتشار السيارات) او داجن نأكل بيضه او لحمه (قبل موضة المستورد) او بهيمة نشرب لبنها (قبل مرحلة التعليب)! وإن خلا فانه لم يخلُ من قطة موّاء ، او حمام نوّاح ، او بلبل صدّاح ، او جرو نبّاح!

. . لذا نحن عائلة تستلطف الحيوانات الاليفة ، كالطيور والقطط والكلاب والخيول ، لما تُشعرِك من ان ثمة ارواحاً غير الروح البشرية ، تشاركك الحياة على الارض . سيّما ان بعضها يتسم بالوداعة والبراءة ، فضلاً عن معاني الوفاء والاخلاص ، التي يفتقر اليها بعض ابناء جنسنا .

لهذا وبمجرد ان غادرت منزلي ، تلك الروح التي ظلّت تقاسمني الحياة نحو خمسين عاماً ، بحلوها ومرها ، سارع ولدي الشريف محمد الى اهدائي ببغاءً ، لتشغل حيزاً – ولو صغيراً – من الفضاء ، الذي خلَّفَهُ وراءه زوجي المرحوم الشريف حسين عام ١٩٩٨م .

إذ روى لي (رحمه الله) قبل رحيله ، انه وبينما هم كانوا في انتظار عمته «ست إسمَت» في احدى محطات قطار مصر لاستقبالها ، شاهدوا قفصاً بداخله طيور متنوعة يتدلى من احدى العربات ، فحددوا على الفور موقعها في اي عربة كانت . من الاسكندرية بعثت هي نفسها في منتصف الثلاثينات ، بيد اخي الامير عبد الاله ببغاوين ، احداهما رصاصية اللون والأخرى بيضاء (لها قصة طريفة سأرويها لاحقاً) هدية الى ابي الملك علي .

في زيارتنا الى مصر عام ١٩٤٣م شاهَدَتْ ملكة مصر فريدة صورة لملك العراق فيصل الثاني ، مع كلبين الى جانبه ، فأعربت عن اعجابها بهما ، لذا وعدَتْها اختي الملكة عالية بارسال كلبين شبيهين بهما ، عند عودتنا الى العراق . وفعلاً اهديناها كلبين اصيلين من نوع «دالميشين» .

لا انسى «شنينة» و«فوفو» الكلبين غير الاصيلين اللذين كانا عندنا ،

فالاخير يعود الى اختي الاميرة «جليلة» . كان شرساً يصعب ترويضه ، مرقعاً بالسواد والبياض ، بينما «شنينة» لي ، بيضاء . كنا نرقُ لهذه الكلاب ونرفق بها ، لهذا نأخذها ونربيها .

من غريب القطط التي دخلت بيوتنا ، تلك التي حملها الينا اخي الامير عبد الاله من تركيا ، ذات العينين المختلفتين ، الخضراء والصفراء ، تسمى «انگورا» يغطيها شعر ابيض كثيث .

كانت امي (الملكة نفيسة) تأنس بالقطط ، ولديها واحدة منها في مكة المكرمة ، اسمها «تِكَه» . وبينما هي في طريقها الى «الطائف» للاصطياف في الربع الاول من القرن الماضي ، هربت «تِكَه» في منطقة المبيت «سويلة» فاعلنت امي عن جائزة (٥) خمس جنيهات ذهبية لمن يعثر عليها!

بعد سنة جاء بها «الجمّال» الى امي ، ضامرة ، جائعة ، شاحبة ، وقد تقوست عظامها وارتفعت في اعلى ظهرها ، فأكرمته امي بما وعدت من الجنيهات الذهبية الخمس .

حملناها معنا الى بغداد ، فتناسلت وتكاثرت وبقيت سلالتها مستمرة الى الآن هناك . غير ان قطط العراق اليوم ، لا كـ «تِكَه» المتخمة في مكة المكرمة! وانما كـ «تِكَه» الجائعة في سويلة .

غمرة الصيّادة ضحية روز

اهم الكلاب التي جنيناها ، تلك التي تعود الى اخي عبد الاله ، والتي جاء بها اليه «حسين خماّش» لأغراض صيد الغزال . كانت «غمرة» من النوع السلوگي ، ذهبية اللون ، ولأخي صور كثيرة معها . بَقِيت عنده سنين حتى ماتت ، ولموتها قصة ارويها على مضض :

يبدو ان الكلاب كالبشر ، تشعر بالوحشة والوحدة عندما يسافر اصحابها ويتركونها . ففي اول سفرة لنا الى مصيف «صلاح الدين» في كردستان العراق عام ١٩٤٠م ، رأيت «غمرة» وقد انزوت حزينة مهمومة ، ينكسر لها قلب كل مَنْ يشاهدها بتلك الحال ، فأصررتُ على اصطحابها معنا الى المصيف . بينما اصطحبت اختي الملكة عالية معها كلبة الملك غازي «روز» . ويا ليتني لم آخذ «غمرة» معنا .

كانت «روز» متعلقة بالملك غازي (رحمه الله) تعلقاً شديداً ، فحينما تسمع اصوات ابواق الحرس الملكي تعزف لدخوله ، أو خروجه من قصر الزهور ، تخرج لانتظاره في باحة القصر حتى يصل ، أو يغادر .

بعد وفاته اخذت «روز» تتودد الى اختي الملكة عالية وتتقرب منها ، كأن تأتي لتنام تحت فراشها . وفي «صلاح الدين» لاحظنا «غمرة» هي الاخرى تريد المبيت تحت فراش الملكة! واذا بـ «روز» تكشّر عن انيابها وتكشف عن غيرتها .

في الساعة الثالثة فجراً استيقظنا على نباح وعِراك غمرة وروز ، محدثتين جلبة وضوضاء في المصيف . لقد كانت «غمرة» مسنة ، فلم تستطع الدفاع عن نفسها . حاولنا تخليصها من مخالب «روز» فلم نتمكن ، وقد انتهت لتوّها من هجومها عليها ونهشها . عضّتها في بطنها وشقتها ، فتدلت مصارينها الى الارض .

نقلنا «غمرة» صباحاً الى المستشفى في اربيل ، حاول الطبيب انقاذها ففشل ، لأن جراحها كانت بليغة . في احد الايام وبينما نحن نستعد لنزهة في «شقلاوة» جاءتنا رسالة من «الليدي الزي سندرسن» التي كانت تصطاف معنا ، تخبرنا بنَفاق «غمرة» .

عندما سمعتُ بالخبر بكيتُ بحرقة ، فالانسان لا يبكي فقط على صنوه

الانسان ، فقد يبكي على حيوان عزيز عليه عاش معه ، أو على نبات ، شجرة مثلاً كان يسقيها او يداويها ، فيراها تُقتلع من امامه ، ولا يستطيع ان يفعل لها شيئاً .

يبكي على كل ذي روح تشاركه الحياة على وجه البسيطة ، لا بل يبكي على جماد في بعض الاحيان ، حينما يرى مُلكاً له ، او بِناءً يصادره الاخرون ويهدونه امام عينيه ، وهو لا يقدر على انقاذه وانتشاله . وفي حالة كلبتي احسستُ بأني كنت السبب في نهايتها ، فلِمتُ نفسي وقلت لو اني ابقيتها ببغداد ، لما حصل ما حصل .

كانت «غمرة» صيّادة ماهرة ، تصيد الغزلان بسرعة وخفّة مشهودتين . حينما كنت اجلس بجانب اخي الامير عبد الاله عند خروجنا للصيد ، يُطلق «غمرة» تلاحق الغزال الهارب ، واقوم انا بتشجيعها والتصفيق لها ، ثم نسابقها بسيارتنا . نراها تلحِق بالغزال فتعضه من ساقه لتسقطه ارضاً ، ثم تهجم عليه لتمسكه من رقبته في انتظارنا حتى نصل .

. . اليوم اشعر بالندم لتشجيعي اياها على صيد الغزلان . لقد كانت تلك وحشية ، لا يوازيها شعور ، الاّ شعوري بالندم على تسببي في موتها!

جواري الاشراف

من العادات التي كانت شائعة عندنا في العهد العثماني ، هي انه حينما تتزوج الفتاة ، تخرج من بيت اهلها مصحوبة بجارية او اكثر . وكلما اصطحبت معها اكبر عدد ممكن من الجواري ، ارتفعت قيمتها ومكانتها لدى اهل زوجها . في المقابل فان اهل العريس ، لا يكتفون بتقديم الذهب والمجوهرات وما الى ذلك من هدايا الى العروس ، انما يُقدِّمون الجواري ايضاً!

يوم تزوج ابي أمي ، خرجت امي من منزل جدي (عبد الاله باشا) بين ثلاث جواري شركسيات (بيض) مع اربع عبدات ، اثنتان منهن حبشيتان واثنتان سوداوان ، اهداهن لها ابوها .

مهمة هذه الجواري هي خدمة الزوجين (العروسين) والعناية بهما ، واذا ما رزقهما الله (سبحانه وتعالى) مولوداً ، فان احدى الجواري تتكفل امر تربيته ، وتتفرغ له تفرغاً كاملاً . ويوم يكبر ويقوى عوده ، تصبح الجارية كـ «ناني» له (مربيته) . وقد تكون اقرب اليه من امه ، يتدلل عليها وتُدَلِّلُه ، يطلب منها اشياء ، فتلَّبي حاجته او تمنعه . بكلمة اخرى تصبُح هي المسؤولة عنه .

كان لأخي الامير عبد الاله مربية شركسية ذات شعر احمر ، هي في الاصل مربية اختي البكر الاميرة عبدية ، جاءت معنا الى العراق . اما مربية اختي الملكة عالية ، فقد ماتت . بينما رفضت مربيتي الشركسية اللحاق بنا ، يوم غادرنا الحجاز سنة ١٩٢٤م .

الجواري والعبيد بيد سيد البيت ، يمسك منهن مَنْ يشاء ويعتق مَنْ يشاء ، فيُخيِّرهن بين البقاء معه او تركه ، لان المعتوقة تصبح حرة تملك الخيار . يتزوج منهن مَنْ يشاء ، بعد ان يعتقها ، ولا يستطعن (وهن بين يديه) ان يتزوجن ممن يشأنَ .

يحصل ان يتزوج سيد البيت بعض جواريه وعبداته ، ولكن اذا ما كانت سيدة البيت ذات شخصية قوية ونافذة ، وقد تكفلت امر مراقبته ، فانه لا يستطيع ان يستغفلها . في المقابل يحصل ايضاً ، ان الزوجة اذا ما شعرت احياناً ، بانها ظلمت احداهن ، فانها تسأل زوجها ان يبحث لها عن عريس .

عند خروجنا من الحجاز اصطحبنا معنا معظم جوارينا وعبداتنا ، وكن

كلهن معتوقات ، وباستطاعتهن ان يتركننا ، لكنهن أبينَ الاّ مرافقتنا وربط مصيرهن بمصيرنا . لذا بقينَ معنا يسهرنَ على راحتنا ، ويتفانين في خدمتنا ، فيتقاضين اجورهن ورواتبهن . وقد زَوَّجَ ابي (ملك الحجاز) علي بن الحسين منهن في بيتنا ببغداد ، ستاً من الجواري والعبدات السود .

تزوَّج عمي (ملك الأردن) عبد الله بن الحسين من احدى جواريه ، فأولدها ابن عمي الامير نايف . كثيرون من اجدادنا تزوجوا جواري ، فالشريف محمد بن عون اقترن بعدد من جواريه ، وكان يملك «سراري» ايضاً ، مفردها «سرِّيَّة» وهن شركسيات . وقد تزوج حبشيات ايضاً ، يميل لونهن الى الصُفرة الجميلة .

اظن ان جزءاً لابأس به من تأريخنا الخاص (كأشراف) سيبقى مطموراً ، مالم اكشف ولو بعضاً منه . فقد تزوج جد اولادي (والد زوجي) الشريف علي باشا ، أخت جدّي (ملك العرب) الشريف الحسين بن علي «ستّي رحمة» .

سُمِيَّ الشريف علي باشا بـ «ابو مايلة» لميلان عقاله ، الذي يرتديه مع الكوفية في الشتاء ، والعمامة في الصيف . كان وسيماً تعشقه النساء ، فتزوج الكثير منهن . ولم يَمُنّ عليه المنّان (عزَّ وجل) بأولاد منهن ، حتى تزوج جارية له اسمها «ماهيتاب» (اسم يعني بالتركية «البدر» وبالفارسية «اشعة القمر») فأولدها الحسن والحسين ، والاخير هو زوجي ووالد ابنائي الاشراف محمد وعبد الله وعلي .

زواج أميرة

في طريقنا الى مصر عام ١٩٤٣م ، مررنا بفلسطين ومكثنا فيها بضعة ايام . تسوّقنا من اسواقها بعض الحاجيات ، حيث لم تكن متوفرة ببغداد خلال سنوات الحرب العالمية الثانية . اشترينا من القدس بعض الملابس والاحذية ، ومنها سافرنا الى مصر .

في القاهرة دعانا الشريف عبد الله باشا (زوج عمتي صالحة) الى حفل عشاء اقامه على شرفنا ، ودعا الشريف حسين واخاه الشريف حسن (إبنَيْ عمه) . وكانت العادة السائدة في مصر ، ان تغني في الحفل مغنيات وترقص الراقصات ، وهناك رأيته لاول مرة .

كان وسيماً اسمرَ طويلاً ، يرتدي بزة كحِلية مخططة ، وربطة عنق جميلة ، لُفَّت حول رقبة طويلة نحيفة . انيقاً في هيئته وملبسه ، في العشرينات من عمره .

حضر الحفل ايضاً بعض اقاربنا الاشراف ، منهم الشريف علي حفيد الشريف عون ، الذي سبق له وان تقدم الى اخي الامير عبد الاله طالباً يدي منه ، ولكني لم اوافق عليه ، لأنه كان يكبرني سنين .

ضحكتُ وتكلمتُ مع الشريف حسن (متزوج ولديه اطفال) اخ الشريف حسين ، ويبدو انني كنت اثير اهتمام حسين من دون ان اشعر .

انتابت الملك فيصل الثاني احدى نوبات الربو الحادة في مصر ، فجاء الشريف حسين لعيادته والسلام عليه . كان يومها خاطباً احدى البنات المصريات ، وهي ابنة صاحب «العزبة» التي استأجرها . تزوجها وسافر الى

الحجاز ، بقي هناك نحو تسعة اشهر ، ثم عاد الى مصر .

عدنا الى بغداد ، ويبدو ان بعض المشاكل حصلت بينه وبين زوجته الاولى ، ادت الى طلاقها في نهاية المطاف . بعد زواجي منه ذكر لي بأنه ، بعد ان رآني في القاهرة ندم على خطبته من المصرية .

في احدى زياراتنا التالية الى مصر ، رأيناه بالصدفة في منزل عبد الله باشا ، ففاتح وكيلنا هناك «ابراهيم سليم» بأنه يود خطبة الاميرة بديعة ، فاتفق معه ، على ان يكتب رسالة لاخي الامير عبد الاله ، يطلب فيها منه يدي .

كتب له ، ولكنَّ الامير لم يرد على طلبه ، واهمله تصنعاً ، لأنه ليس من اللائق عند العرب ابداء الموافقة ، لمجرد ان يتقدم شخص (وإن كان هو المطلوب) لخطبة احدى بناتهم .

لقاء في ظرف الحرب

في عام ١٩٤٨م وقعت الحرب بيننا وبين اسرائيل ، فتطوع الشريف حسين للقتال في الجبهة . حاول عمي الملك عبد الله منعه ، لكنه اصر على رغبته ، وقال لعمي ان منعتني سأعود الى القاهرة . عندها نزل عند رغبته ، ودعاه الى ان يقود سرية بدو ، استطاع بها ان يفك الطوق عن احدى القلاع المحاصرة .

اما انا فقد تطوعت للعمل في الهلال الاحمر كممرضة ، اعالج جرحى العراقيين الذين يصابون خلال المعارك . تَطَوَّعتْ معي عراقيات اخريات ، بالاضافة الى الدكتور «نجيب اليعقوبي» .

سافرنا جميعنا الى الاردن ، واعطانا عمي الملك عبد الله «فيلاّ»

صغيرة في «إربد» للسكن فيها ، وخصص مدرسة ثانوية بالقرب من سكننا لمعالجة الجرحى . في احد الايام دعانا سفير العراق في «عمّان» جميل الراوي الى تناول طعام الغداء في بيته (انا ووالدتي واحدى المتطوعات) .

استقلينا سيارة والدتي (الملكة نفيسة) نوع «رولزرايس» قديمة ، اشتراها لها اخي وتوجهنا الى «عمّان» . كان اغلب السوّاق في ذلك الوقت جنوداً ، ليس لديهم الخبرة اللازمة لادامة السيارات . فجأة تعطلت بنا السيارة في منتصف الطريق (بين إربد وعمّان) فاضطررنا للوقوف طلباً للمساعدة .

بينما نحن كذلك واذا بسيارة «لنكولن» فارهة ، جديدة ، مكشوفة ، تخطف من امامنا ، فيها الشريف حسين ، كان قد اشتراها لتوِّه وخرج لاختبارها في الطريق . توقف بعد ان عرفنا وسلَّم علينا ، ثم تبرَّع لنقلنا بسيارته الى «عمّان» . لم يحصل بيننا اي شيء خلال الرحلة ، لأنني كنت اعرفه واعرف نواياه منذ سنين .

بعد هذه القصة عاود الشريف حسين الاتصّال ثانية بأهلي ، طالباً منهم يدي ، فاشترط اخي عبد الاله عليه بعض الشروط ، لكي يوافق على تزويجي منه . اهمها تلك التي وضعت في الاعتبار ، ظروف اقامة الشريف حسين الدائمية في مصر ، اذ اصبح عليه ان يقيم ستة اشهر بالعراق ، وستة مثلها بمصر (مناصفة) فَقَبِلَ الخطيب بذلك . . وفي شهر شباط (فبراير) عام ١٩٥٠م احتفلنا بزواجنا في بغداد .

دُعي الرجال الى عقد المهر في البلاط الملكي ، واقمنا حفلة الزواج للنساء فقط في قاعة «امانة بغداد» . استأجرنا بيتاً مكوناً من ثلاث غرف نوم وصالة كبيرة ، يقع في شارع «السعدون» بمبلغ (٥٥٠) خمسمائة وخمسين دينارا عراقياً في السنة .

اشراف اغنى من ملوك!

ربما سيستغرب كثيرون فيما لو قلت ، بأن حال زوجي المادية كانت اغنى من العائلة العراقية المالكة . فهو يملك اراضٍ زراعية كبيرة في مصر لزراعة القطن ، جنى منها ارباحاً طائلة خلال الحربِ العالمية الثانية . غير ان الامور انقلبت رأساً على عقب بعد ١٩٥٨م ، وصرنا نرحل من بلد لآخر ، نبحث عن مكان لنستقر فيه ، من دون ان نجد .

رفض اقتراح اخيه (الشريف حسن) بالتقدم للحصول على الجنسية المصرية ، كي يبقى محتفظاً ببعض الفدادين من ارضه الزراعية الشاسعة هناك . آثر على نفسه عدم اكتساب الجنسية ، فصادرت السلطات المصرية اراضيه . كان يقول : «اريد ان ابقى حراً ، لااشعر بالأسر والاختناق من اجل كم فدان ، لااريد ان اكون سجين عبد الناصر» .

* * *

موقفه هذا اشعرني بالحزن وبتقريع الضمير بعد فقده ، بانني انا السبب في كل ما حصل له ، فلو لم يتزوجني لما صادر عبد الناصر أراضيه ، لكان تزوج سيدة مصرية مثلاً ، وارتاح معها وتجنّس بجنسيتها وانتهى الامر . لقد وصل به الحال في بعض الاحيان الى ان يقول لي : «بديعة ليس عندي من مال ، سوى ما في هذه الحقيبة التي تحت الفراش» .

عيَّشني الشريف حسين عيشة اميرة ، لا بل واحسن من اميرة . كان (رحمه الله) اذا ما حل موسم البيع المخفَّض (sale) في اسواق «هارودز» في لندن ، يمنعني من الخروج للتسوق منه ، ويقول : «لا اريد ان يراكِ بعض العراقيين ، في هذا الموسم بالذات في هارودز ، كي لا يشمتوا فيك ، ويقولوا ان الاميرة بديعة تنتظر موسم التنزيلات ، لتشتري احتياجاتها منه .

لا تأخذي الباص من الشارع الرئيس ، كي لا يراك بعض السعوديين العاملين في سفارتهم بلندن ، اثناء مرور الباص من امامها . خذي سيارة اجرة (تاكسي) . لا اريد احداً يقول إنَّ اخت فلان ، او زوجة فلان تركب الباص . لا اريد احداً ان يراك تسكنين في مكان غير راقٍ . اريدك ان تبقي كما كنت دائماً ، اميرة ابنة ملوك ، وانا فخور بك وباولادي منك» .

. . كل هذه الوصايا والتوجيهات ، من أجل أن لا نسمع كلمة من الناس تقول : انظروا اليهم والى ما حلَّ بهم بعد العزِّ الذي كانوا يعيشونه!

غير ان هذا الكلام لا يعني بانني لم اركب الباص في لندن خلال حياتي ، فبالقدر الذي استخدمتُ فيه الكثير من سيارات الاجرة (تاكسي) خلال الستينات (وقد كانت رخيصة جداً مقارنة بأسعار اليوم) استخدمت الباص ايضاً بعد عام ١٩٧٥م . ولكنها على اية حال وصايا وتوجيهات زوجي الدائمة لي ، حرصاً منه عليَّ وعلى سمعتنا ومكانتنا بين الناس .

احببتُ الشريف حسين واخلصتُ له ، ولم اضمر في نفسي شيئاً تجاه تصرفه معي . لقد كنت احترمه حتى في خصومته ، فانا مدللة اهلي وحبيبتهم ، احترمُ مَنْ يعاملني باحترام ، واستشرسُ مع مَنْ يعاملني بالعكس .

وهو يعرف هذا الطبع فيَّ ، ولكنه في آخر ايامه ، بات يكثر من افتعال الخصومة معي ، وكأنه يشعر باقتراب اجله ، ولهذا صرتُ اضطرُّ إمّا الى التنازل امامه اثناء العراك (كأن اخرج من الغرفة مثلاً) او أن اطأطئ رأسي كي لا استثيره .

بيد ان هذه الانفعالات ، أو الافتعالات ، لم تقلّل من شأن أحدنا تجاه الآخر ، ولا من كبريائي أنا ، أو من شموخه هو!

نصف قرن من الزواج

قضَّيتُ مع الشريف حسين (٤٨) ثمانية واربعين عاماً ، اكثر من نصف عمري حتى الآن ، بحلوها ومرِّها ، بسعادتها وتعاستها ، باستقرارها المؤقت ورحيلها المزمن . فبعد طول رحلة العمر والعذاب الطويلة ، الاليمة ، التي تقاسمنا همَّها وغمَّها ، رحل عني مَنْ كان يؤنسني ، ويسدُّ عليَّ وحشتي وغربتي ، ويلاطفني ويداعبني حين اغضب او اتململ .

انني اشعر اليوم بعقدة ذنب كبرى ، جرّاء تنقُّل الشريف حسين بين البلدان بسببي ، فلولاي لما حصل له ما حصل ، ولما مات ودفن بعيداً عن اهله ووطنه . لم يعد شيء يمتعني في هذه الدنيا ، ولا يغريني بالبقاء فيها ، سوى الأولاد والأحفاد .

احسُّ بأني تائهة ضائعة ، فانا الان مريضة بجسمي واحساسي . لقد ذهب الرجل الذي اعزَّني واكرمني ، واخلصَ لي نحو نصف قرن من الزمان . . وبقيتُ وحدي أنتظر أجلي المكتوب!

شارع الأميرات

في عام ١٩٥٤م بيعت اراضٍ واسعة في «منطقة المنصور» بجانب نادي سباق الخيل . فاشترى اخي الامير عبد الاله قطعتَيْ ارض هناك ، اهداهما ، واحدة لي ، والاخرى لأختي الاميرة جليلة . جاء زوجي الشريف حسين ببعض الاموال من الحجاز (اظنها حصته في الميراث من «قصر شبرى» في الطائف ، الذي بيع للامير «الملك» فيصل بن عبد العزيز آل سعود) بنينا بها بيتنا ، وقد كلفنا (٣٠,٠٠٠) ثلاثين الف دينار عراقي .

نفَّذه الدكتور محمد مكيَّة (كان يعمل في مجال المقاولات حينذاك)

وصممه المهندس نيازي فتّو ، واشرف على الكهرباء المهندس عبد القادر رانية (ولهذا الأخير قصة سأرويها في موضعها) . فرشناه من بلدين ، فانا فرشت (الهول والمدخل والسلالم وجزءاً من الطابق الثاني) من اسواق «هارودز» في لندن ، وانفقت حوالي (١٣,٠٠٠) ثلاثة عشر الف جنيه استرليني . وفرش الشريف حسين (الصالة وغرفة الطعام وباقي البيت) من اثاث «فنتر مولي» في مصر .

كان بيتي رائعاً ، وقد قيل عنه بأنه احد اجمل بيوتات بغداد . ولما زارتنا الاميرة فاضلة (خطيبة الملك فيصل الثاني) قالت والدتها الأميرة خانزادة ، ان بيت الأميرة بديعة غاية في الروعة . بينما بنت اختي جليلة بيتاً بسيطاً لها ، لا يختلف عن بيوت بغداد العادية ، لأن زوجها لم يرد ان يصرف على بيته .

فقد سكنا في منطقة ، او قل في شارع طاب لروائي عربي قضّى معظم حياته ببغداد ، أن يعنون احدى رواياته (التي ختم بها حياته) باسمه «شارع الاميرات» .

نبوءة انقلاب

اكتمل بناؤه وشرعنا في الانتقال اليه ، واذا بزوجي الشريف حسين يفاتحني برغبته ، في تسجيل الدار باسمه وليس باسمي! قال لي : «لست طمعاناً بقطعة الارض كما تعلمين يا بديعة ، ولا لأنني غير مطمئن اليك ، انما الوضع في العراق سيء وغير مستقر ، وانا اتحسب للمستقبل المجهول ، وارى عبد الناصر سيفعل ما من شأنه ان يضرَّ العراق ، وربما سيتحول البلد الى مثل مصر .

وعليه فاذا ما وقع انقلاب ـ لا قدر الله ـ هنا ، فانه سوف لا يكون بوسع الحكومة القادمة مصادرة داري ، لأنني لست من العائلة العراقية المالكة قانوناً (حسب قانون العائلة المالكة الذي أصدره ياسين الهاشمي عام ١٩٣٥م)» .

حقيقة انني ارتبكتُ من عرضه هذا ، وبقيتُ محرجة فترة ، افكر كيف افاتح اهلي بمثل هذا الموضوع . فلو نقلتُ اليهم كلامه ، سيتساءلون لماذا الشريف حسين متشائم الى هذا الحد؟ فهل عنده خبر مثلاً حول مستقبل العراق ، بحيث يجعله يطلب تسجيل الدار باسمه؟! اما اذا سَكتُّ فسوف (يزعل) عليَّ زوجي هذه المرة .

بقيتُ في حيرة فعلية لا ادري ما افعل ، الى ان حزمتُ امري واستجمعتُ قواي ، وذهبت الى اخي الامير عبد الاله ، وسألته : «سيدي . . باسم مَنْ اسجل البيت ، باسمِي ام باسم زوجي»؟!

ردَّ : «بديعة . . انا اعطيتك الارض هدية ، وانت حرة في التصرف فيها ، وما تريدينه افعليه» . . سكتُّ ونقلتُ البيت باسم زوجي الشريف حسين بهدوء .

يبدو ان اهلي قد تأثروا من هذا التصرف (بعد ان سمعوا به) واحسّوا وكأن علاقتنا يشوبها بعض الحذر ، وعدم الاطمئنان من احدنا الى الآخر . لم تكن اختي الاميرة عبدية تضمر سوءاً لأحد في قلبها ، فما كان في صدرها يجري على لسانها بسرعة ، لذا اعربت لمديحة الداغستاني عن امتعاضها من هذا الاجراء ، وقالت لها : «كيف ان حسين يكتب البيت باسمه ، بينما الارض لبديعة ، افلا يأتمنها عليه»؟!

تأثرتُ من اختي في داخلي ، ولم افاتح مديحة بالموضوع الى اليوم ، ومات زوجي الشريف حسين ، وهو لا يعلم بموقف اهلي مما فعلتُه! لم ارغب

في جـرحـه ، ولا حـتى اغـاضـة اهلي منه ، مع العلم بان لديَّ ثلاثة اولاد ، والبيت في النتيجة سيكون ملكاً او ميراثاً لهم ، سواء كان باسمي او باسم زوجي!

صَدَقَ توقُّع الشريف حسين ووقع الانقلاب في ١٤ تموز (يوليو) ١٩٥٨م ، ولم يصادر الانقلابيون بيتي ، لأنه كان باسم شخص ، ليس من افراد العائلة العراقية المالكة . انما صادروا غرفة اسلحته الخاصة به ، تلك التي ضمت اجمل واغلى (١٢) اثنتي عشرة بندقية صيد انكليزية واميركية ، اشتراها زوجي بماله الخاص .

تلك الغرفة التي حملت ذكريات جميلة له ، مع ابن اختي الملك فيصل الثاني ، الذي كان يزورنا ليشرب الشاي مع الشريف في الحديقة ، او على الشُرفة ، وليتحدثا عن الصيد وبنادقه وحجم اطلاقاته . . وما الى ذلك . لقد صادروا تلك الغرفة بما فيها من سلاح وذكريات!

وصادروا غرفة عرسي

بعد فترة من الانقلاب ، كتب وكيلنا في بغداد المحامي «جلال خالد» الى زوجي يسأله ، ما هي الاشياء التي يود الاحتفاظ بها ، ويفضل عدم بيعها ، او عدم اجراء التصفية عليها؟ فطلبتُ اليه ان يحتفظ ببعض المقتنيات ، التي تسوَّقتُها من «هارودز» في لندن ، كي يشحنها الى لندن مرة اخرى!

ولعله من الطريف والغريب حقاً ، ان «جلال خالد» هذا ، كان قد ثار ضدنا في حركة رشيد عالي الگيلاني عام ١٩٤١م ، وفقد خنصره في تلك الحرب ، لكنه بعد سنين أصبح محامياً يدافع عنّا (جزاه الله خيرا)!

لا ادري لماذا نشط بعض الكويتيين في تلك الفترة ، وظلوا يترددون على بغداد لشراء البيوت فيها؟ ففي احد الايام عرض عليَّ البعض قائلاً : «لو اعطوك (٧٥,٠٠٠) خمسة وسبعين الف دينار ببيتك ، فهل ستبيعينه»؟!

ضحكتُ واطرقتُ قليلاً ثم اجبته : «نعم سأبيعه . . ولكن بدون غرفة نومي»! ولم يخطر في بالي على الاطلاق بأنني سأبيعه بعد سنين من الانقلاب (ونحن في بيروت) بـ (٢٥,٠٠٠) خمسة وعشرين الف دينار عراقي!

استثنيتُ غرفتي من العرض الهازل ، لأنني كنت متمسكة بها ، اعشق كل حاجة فيها ، ملابسي ، عطوري ، احذيتي ، حقائبي ، معاطفي ، ادوات الزينة والتجميل ، جواهري ، مقتنياتي . كل قطعة فيها لها قصة وذكرى . كنت اديم النظر اليها ، اتأملها ، اتحسسها ، اخرجها من دواليبها ومجراتها ، لأتفحصها وأُرتِّبها ، ومن ثم اعيدها الى اماكنها بتأنٍ وحذر .

هنالك شيئان ربما هما اعزّ ما يملكهما الانسان من امكنة في حياته ، المكتبة بالنسبة للرجل ، وغرفة الزواج بالنسبة للمرأة . والعجيب لما وقع الانقلاب المشؤوم ، سلَّم الانقلابيون الكثير من موجودات بيتي الى وكيلنا ، باستثناء غرفة عرسي!

اخبرتني «نجيبة» حرم جلال خالد ، بأنهم صادروا كل شيء فيها ، ولم يدعوا قشة . . أية نفوس دنيئة كان يحملها اولئك المصادِرون القتلة؟ اي حقد مقيت أسود كانوا يضمرونه للعراريس وغرف اعراسهم؟!

ملك العرب والحجاز وقائد الثورة العربية الكبرى، أمير مكة المكرمة الشريف الحسين بن علي، يقف في المقدمة تحت العلم، في حفل تاميره على مكة المكرمة من قبل الدولة العثمانية. وقف الى يمينه أنجاله الملوك (علي وبينهما الى الخلف عبد الله، ثم الى يمينه فيصل الأول) ويبدو أصغرهم الأمير زيد بن الحسين بين أخويه الملكين علي وفيصل الأول. قلعة أجياد سنة ١٩٠٨م.



صورة فوتوغرافية ، ملتقطة في بغداد (العراق) بمنزل التاجر العراقي ياسين الخضيري، حيث أقام مأدبة غداء كبرى لملوك بني هاشم. الزمن التقريبي لالتقاطها شتاء ١٩٢٩ ـ ١٩٣٠م. جمعت الاخوة الملوك الثلاثة (علي، عبد الله، فيصل الاول) انجال ملك العرب الشريف الحسين بن علي.

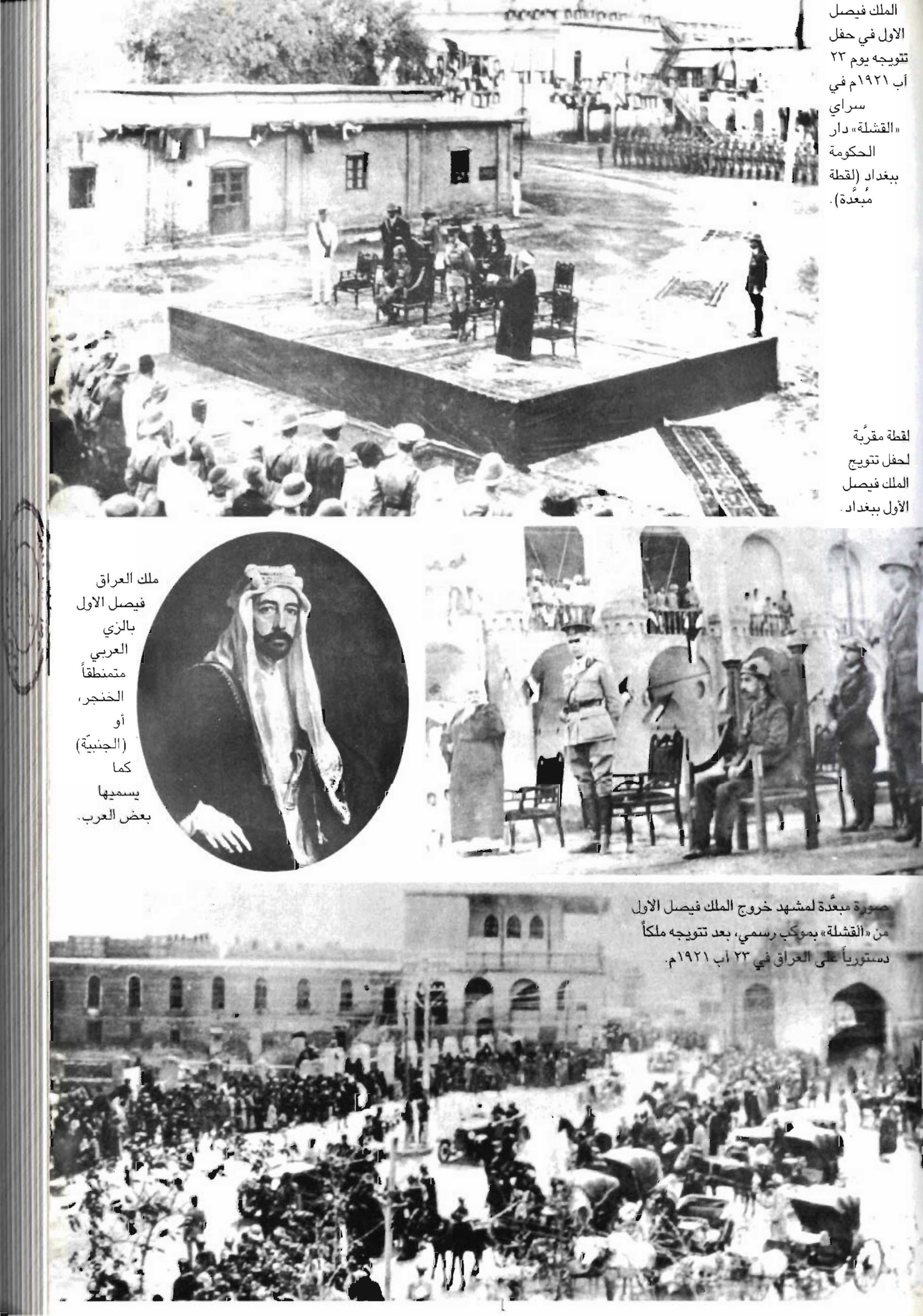
الجالسون من اليسار: ١ـ نوري السعيد ٢ـ (...) ٣ـ الملك فيصل الاول (ملك العراق). ٤ـ الملك عبد الله (امير شرق الاردن، وفيما بعد ملك المملكة الاردنية الهاشمية) ٥ـ الملك علي (ملك الحجاز) ٦ـ ياسين الخضيري ٧ـ (طبيب الملك عبد الله) الدكتور جميل.

الواقفون من اليسار ايضاً: ١ـ جعفر العسكري ٢ـ (...) ٣ـ تحسين قدري ٤ـ (...) ٥ ـ (...) ٦ ـ وارد (أحد عبيد الملك علي) ٧ ـ رستم حيدر ٨ ـ عبد الله المضايفي.

صورة يبدو فيها الشريف (الملك) فيصل الاول اكثر وضوحا (وقد أشير اليه بالسهم) يقف الى جانبه قائدان تركيان واشراف بني هاشم. يتقدم اليه اهالي مكة المكرمة بالشكر والطاعة، بعد عودته من تأديب بعض قبائل المتمردين في عسير عام ١٩١١م.

الملك فيصل الاول يمتطي صهوة جواد عربي في بغداد. الصورة موقعة من قبله وبخط يده بتأريخ ١٤ مايس ١٩٣٣م قبل وفاته بنحو اربعة اشهر!

الشريف او الامير (الملك فيما بعد) فيصل بن الحسين (في ٢٨ الثامنة والعشرين من عمره) يستقبله المقاتلون وأهالي مكة المكرمة، بعد عودته من تأديب بعض القبائل المتمردة على امارة الشريف الحسين بن علي. صورة قديمة ونادرة التقطت عام ١٩١١م.



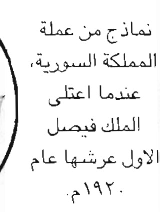
الملك فيصل الاول في حفل تتويجه يوم ٢٣ آب ١٩٢١م في سراي «القشلة» دار الحكومة ببغداد (لقطة مُبعَدة).

لقطة مقرَّبة لحفل تتويج الملك فيصل الأول ببغداد.

ملك العراق فيصل الاول بالزي العربي متمنطقاً الخنجر، أو (الجنبيّة) كما يسميها بعض العرب.

صورة مبعَدة لمشهد خروج الملك فيصل الاول من «القشلة» بموكب رسمي، بعد تتويجه ملكاً دستورياً على العراق في ٢٣ آب ١٩٢١م.



نماذج من عملة المملكة السورية، عندما اعتلى الملك فيصل الاول عرشها عام ١٩٢٠م.






فيصل بن الحسين ممثلاً عن والده، بالزي العربي في مؤتمر الصلح بباريس كانون الثاني ١٩١٩م.
وقف الى يساره رئيس وزراء فرنسا كليمنصو (بالقبعة) ثم الجنرال ويغاند، وخلفهما الدكتور احمد قدري. الى يمينه وزير التشريفات في البلاط المراكشي قدور بن غريط. ثم جميل الالشي، وبدا الى الخلف المارشال الفرنسي بيتان (بالزي العسكري).



صورة نادرة للملك فيصل الاول ايام كان ملكاً على سورية سنة ١٩٢٠م.



الملك فيصل الأول ملكاً على سورية سنة ١٩٢٠م، وقد احتضن في يمينه الملكة عالية (تمسك قطة) وفي يساره الأمير عبد الاله، ووقفت خلف اختها الأميرة عبدية (وهؤلاء الثلاثة هم ابنتا الملك علي وابن اخيه). أما الأخيرة الى اليمين، فهي نعمت ابنة صفوت أفندي العوا (استاذ الملك فيصل الأول) التي تزوجت من أكرم الركابي.



الملك فيصل الاول مع الوفد العربي على ظهر الباخرة «تيارجمن»، بينما بدا الشيخ عبد الله المضايفي واقفاً الأول الى اليسار مرتدياً الزي العربي، والى يساره (الثاني بالملابس العسكرية) تحسين قدري.



فيصل الاول، قبل تتويجه ملكاً على العراق، اثناء نزوله في البصرة بمنزل متصرَف اللواء احمد الصانع. وقف خلفه الى يساره استاذه صفوت أفندي العوّا، ثم الشيخ عبد الله المضايفي (والد مرافقه عبيد عبد الله المضايفي).
٢٣ حزيران ١٩٢١م.



فيصل الاولْ (الثاني من اليسار) في مؤتمر الصلح بباريس عام ١٩١٩م والى يمينه د. احمد قدري، والى يساره تحسين قدري (بالملابس العسكرية). وبدا خلفهم رستم حيدر.



الامير زيد بن الحسين (الثاني من اليسار الجالس على الكنبة) مرتدياً ملابسه العسكرية، مع اعضاء الحكومة العربية في الشام.
جلس الى يساره الشريف جميل بن ناصر (ابن عم الملك فيصل الأول). وجلس أمامهما الشريف علي بن ناصر (من أشراف المدينة المنورة)، بينما جلس الى يمين الأمير زيد الشريف علي الحارثي (بملابسه العربية) وهو أحد أشد المقاتلين مع الملك فيصل الأول في الحجاز والشام.



بغداد ـ قصر الرحاب ـ زواج الأميرة بديعة ١٩٥٠م.
الجالسات من اليمين:
١ ـ فائزة طرابلسي (زوجة الأمير عبد الاله).
٢ ـ الشريف علي بن الحسن بن علي. ٣ ـ الملكة عالية.
٤ ـ الأميرة بديعة (العروس).
٥ ـ الملكة نفيسة.
٦ ـ السيدة شريفة هانم (زوجة الشريف الحسن بن علي).
الواقفون من اليمين:
١ ـ الشريف الحسن بن علي أخو الشريف حسين بن علي).
٢ ـ الأمير عبد الاله.
٣ ـ الأميرة جليلة.
٤ ـ الشريف حسين بن علي (العريس).
٥ ـ الشريف محمد محسن.

حفل زواج الاميرة بديعة ابنة الملك علي والشريف حسين بن علي في أمانة بغداد عام ١٩٥٠م. وقد رتّبت الديكور احدى مدبرات «قصر الرحاب». احاط بالعروسين باقات من الورود الزاهية، واربع فتيات جميلات يرتدين بدلات رائعة. وهن (من اليمين) بنات كل من: ١ ـ نوري القاضي ٢ ـ نصرت الفارسي ٣ ـ جمال بابان ٤ ـ مظفر أحمد.



الاميرة بديعة في رام الله بالزي الفلسطيني سنة ١٩٢٧م. وقد ألبست فلاحة مسيحية فلسطينية الأميرة تلك الملابس.



الاميرة بديعة في الحجاز عام ١٩٢٢م.



احدى الممرضات تفحص نبض احد الجنود الجرحى في حرب ١٩٤٨م مع اسرائيل، في مستشفى بإربد في المملكة الاردنية الهاشمية، خصص لجرحى المعارك، ذلك خلال فترة تطوع الممرضات في الهلال الاحمر.



كُتب خلف هذه الصورة النص الآتي:
«تصويرنا مع صاحبة السمو الاميرة بديعة المعظّمة، أُخذ بتاريخ ١٩٤٨/٧/٢٠ قبل مغادرتهم القصر الملكي في اربد بساعة بعد الظهر ومن... انا ـ سريةالقيس ـ الشريفة رتيبة ـ فهمية صادق ـ خالدة ـ وتتوسطنا سمو الاميرة».
وبعد المذاكرة مع الاميرة بديعة حددت شخصيتين، هما من اليسار، الأولى (الخادمة خالدة) والثالثة (الشريفة رتيبة المهنّا).



الملكة عالية (جالسة) يحيط بها متطوعات التمريض في حرب العرب مع اسرائيل عام ١٩٤٨م. الى يمينها الاميرة بديعة، والى يسارها زوجة (عبد الوهاب شاكر) رئيس مرافقي الملك.



صورة جماعية للمتطوعات في الهلال الاحمر بإربد. زارهن الامير عبد الاله خلال الحرب عام ١٩٤٨م، لكي يرفع من معنوياتهن ويشجعهن على اداء مهمتهن الانسانية. ظهر الأمير خلف اخته الاميرة بديعة (ترتدي نظارة سوداء). وقد وقفت المتطوعات ليلتقطن جميعهن صورة معه.



أمير مكة المكرمة الشريف علي باشا (والد زوج الأميرة بديعة الشريف حسين). التقطت له هذه الصورة التاريخية في يوم تأميره على مكة المكرمة سنة ١٩٠٥م. يحيط به قائدان عسكريان عثمانيان وأشراف بني هاشم وعدد من شيوخ وأعيان الحجاز، فيما أخذت القوات العسكرية السلام العثماني له، وراحت الفرقة الموسيقية العسكرية تعزف سلام الامارة.

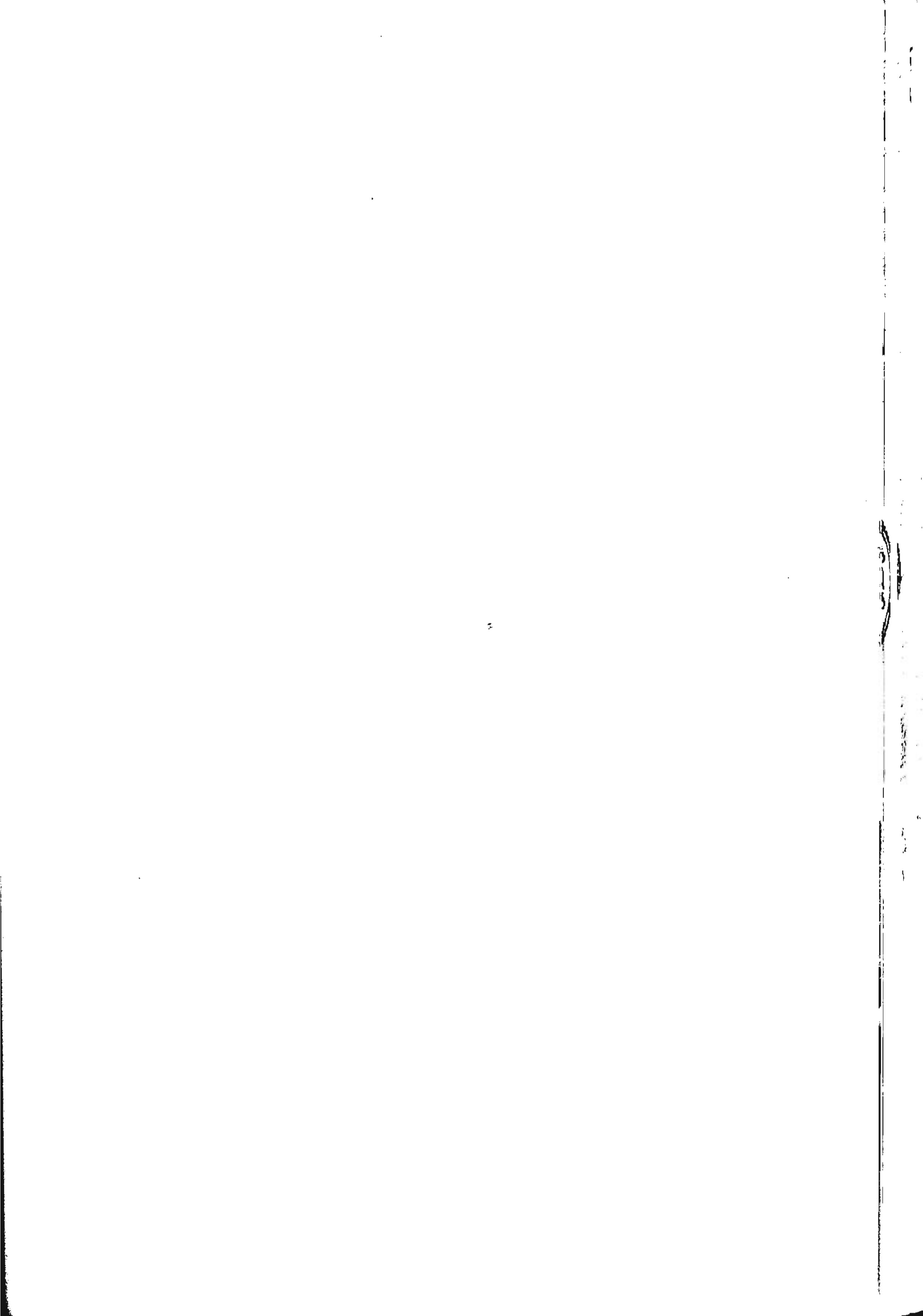


الشريف حسين بن علي في غرفته الخاصة بمنزله في شارع الاميرات ببغداد. بين بنادق صيده الثمينة، التي اشتراها من دول اوربا، وكان متعلقاً بها تعلقاً شديداً. صادرها الانقلابيون عام ١٩٥٨م وصاروا يصيدون بها بدلاً عنه!

الشريف علي باشا (أمير مكة المكرمة) في رحلة صيد له على ظهور الجياد والجمال، يصحبه عدد من رجال امارته وبعض أشراف بني هاشم. التُقطت هذه الصورة التاريخية والنادرة سنة ١٩٠٥م.

الفصل الثاني

حياة القصور : أحزان وأزمات



القصور الملكية

حينما يباغت هذا العنوان السامع او القارئ اول وهلة ، سيتبادر الى ذهنه بأن القصور الملكية في العراق ، هي كنظيراتها قصور أوربا ، التي بُنيت داخل قلاع محصَّنة ، او وسط حدائق غنّاء . تبهر ساكنيها او ناظريها (على حد سواء) بمناظر خلاّبة وطبيعة ساحرة ، وتجعلهم يتوقفون طويلاً ، امام كل مظاهر الابهة والشموخ والمجد ، التي بلغها عزُّهم وبلغتها دولهم ايضاً!

بينما سيُحبط مَنْ يسمع او يقرأ ، بأن تلك القصور لم تكن قصوراً حقيقية ، انما سميت بذلك مجازاً . وهي ليست بالعشرات (كما هي اليوم في بغداد) انما كانت قصرين فقط ، هما قصر الرحاب وقصر الزهور ، وما عداهما كانت بيوتاً عادية ، اصطلح عليها الناس وسمّوها قصوراً لكبرها ، كقصر الحارثية وقصر الحرم وقصر الملك علي!

حاولتُ وسأحاول تباعاً ، ان اعطي وصفاً مجملاً لتلك القصور ، التي سكنتُها او تطوَّفتُ بين اركانها وزواياها ، ردحاً من الزمن .

قصر الزهور

عندما توفي عمي الملك فيصل الأول (رحمه الله) لم يكن «قصر الزهور» قد اكتمل بناؤه بعد ، ولكنه بعد مرور نحو سنة من ذلك التاريخ ، اكتمل البناء ، وانتقلت اختي الملكة عالية مع زوجها الملك غازي للسكن فيه عام ١٩٣٤م .

عبر طريق زراعي غير مأهول بعد «جسر الخِر» تعبره ساقية شقت من «نهر دجلة» تعلوها قنطرة ، هي التي قضى ابن عمي الملك غازي نحبه عندها ، نصل الى بوابة القصر الحديد ، وقد بُنيت الى جانبها غرفة للبدالة وللحرس الملكي .

ندخل الى القصر من خلالها بطريق بيضوي الشكل ، يقود الى الساحة الرئيسة المقابلة لبوابته الداخلية ، وقد رُكِزَ في وسطها عمود شامخ يخفقُ عليه عَلَمُ العراق .

يختلف «قصر الزهور» عن سائر القصور ـ سيّما الاوربية منها ـ من حيث التصميم ، فقد بُني بالطول لا بالعرض ، ولهذا تبدو واجهته ضيقة ومتوارية .

لا حرّاس للقصر

في أيام الملك غازي ، لم يكن هناك اي حارس يقف عند المدخل الرئيس للقصر ، باستثناء الحرس الملكي الواقف عند البوابة الخارجية ، ليعزف التحية الملكية اثناء قدوم او مغادرة الملك قصره .

لكن بعد حركة رشيد عالي عام ١٩٤١م جيءَ بحارسين ملكيين ، ليقفا على جانِبَيْ المدخل الأساس للقصر . وفي المقابل أخرجت اختي الملكة

عالية البدالة الداخلية من داخل القصر ، ونقلتها الى البوابة الرئيسة بعد رحيل زوجها ، لاعتقادها بأنه لا لزوم لتواجد عدد زائد من الرجال في قصرها .

بعد المدخل الرئيس ، هناك «كوريدور» وغرفتان ، شُغلت احداهما من قبل المرافقين ، ثم غرفتان اخريان وسلالم تؤدي الى «السرداب» وحمام وغرفة خامسة .

يُعدُّ «هول» قصر الزهور كبيراً بعض الشيء ، انتصفت فيه سلالم فخمة تؤدي الى الطابق العلوي ، وعلى يسار الهول مكتبة رائعة ، فرشتها شركة بريطانية . وفيها باب صغير يطلُّ على الصالون الكبير .

ثم ممر «كوريدور» واسع وجميل ، فُرش فرشاً انيقاً ، توسَّطتهُ سجادة حمراء كبيرة وزيَّنَتهُ مرايا على جدرانه . وفي نهايته من جهة اليمين هناك غرفة للجلوس ، تخللتها أعمدة رشيقة ذات تصميم انكليزي . بعدها غرفة صغيرة صُبغت بلون فستقي هادئ ، ذات فرشٍ جميل ، أُلقيت على أرضها (المرمر والپاركيه) سجادة .

صالتا العرش والطعام

اما «صالة العرش» فهي صالون كبير ، تطل على طارمة واقعة على حديقة القصر الجانبية ، دلل فرشها على ذوق رفيع وخبرة في الفرش . في داخلها طاق من البناء ، نُقِشَ عليه تاج ملكي ، طُوِّقَ بستائر جذابة شُغِلت باليد .

الى جانب صالة العرش غرفة صغيرة ، وهي نفسها التي كنا نلتقي فيها ببعض جنود وضبّاط صف الحرس الملكي ، خلال محنة عام ١٩٤١م

(كما سنبين فيما بعد) ليزودونا بما يجري في البلد ، وما يدور بين الضباط من اسرار ، وما يزمعون القيام به من خطط واجراءات . الى جوار هذه الغرفة هناك صالون آخر للجلوس .

اما «صالة الطعام» الرسمية القريبة من المطبخ ، فلا تُفتح الاّ في المناسبات او الاحتفالات ، حيث تُقام المآدب والدعوات الملكية . فهي كبيرة احتوت على (٢٤) اربعة وعشرين كرسياً ، توزعت حول مائدة رحبة . وقد نُثرت في الصالة ستائر حرير انيقة ، شُغلت يدوياً في بريطانيا .

غير ان هناك غرفة طعام اخرى احتوت على (١٢) اثني عشر كرسياً ، كنا نتناول فيها الطعام يومياً . الى جوارها غرفة للجلوس ، ثم سلالم تقود الى الطابق الأول .

لم أدخل يوماً الى مطبخ «قصر الزهور» الاّ انني اتذكر كيف ان أختي الملكة عالية (رحمها الله) قادتنا اليه مرة ، قبل ان تتحول للسكن في القصر بأيام . رأيته وقد اكتمل من حيث تجهيزاته ومعداته ، حيث جيءَ بأفرانه وأدواته الحديثة ــ وقتذاك ــ من لندن ، ولم تُستخدم فيه افران بغداد العاملة بالنفط .

بالمناسبة فان عمي المرحوم الملك فيصل الاول كان قبل ان يموت ، قد طلب سائر فرش القصر والشراشف والصحون وغيرها من «مودن» في بريطانيا . ولم يُغيِّر من بعده ابن عمي الملك غازي من الأثاث والفرش شيئاً ، فهو لم يكن من هواة ، او بالأحرى من المهتمين بمسائل البيت ، انما جل هواياته الطائرات والراديو والأمور الميكانيكية .

من مَرافِق «قصر الزهور» الآنفة ، هناك غرفتان او صالتان ، كانت تستخدم احداهما اختي الملكة عالية لاستقبال النساء . والأخرى نستخدمها نحن العائلة المالكة في حال اقامة حفلة او مناسبة ما .

من مميـزات بناء «قـصـر الزهور» هو ان الطابقين (الأرضي والعلوي) مفتوحان على بعضهما البعض . اي بمعنى ان الطابق العلوي يشرف على الطابق الأرضي .

سلالم القصر الرئيسة الفخمة ، المؤدية الى الطابق العلوي ، تقود مباشرة الى «هول» واسع ، أُستخدم للجلوس فيه ، وقد انتصفه مكتب انيق للكتابة . بعده شرفة جميلة فُرشت بحصير عراقي صيفي ، مصنوع من خوص النخيل . ثم غرفة نوم الملك والملكة ، تلاصقها غرفة صغيرة لتغيير الملابس مع حمام . الى جانبها غرفة اخرى (مع حمّام) خُصصت لولي العهد الأمير (حينها) فيصل بن غازي ، تعتني بها مربية انگليزية .

انگليز في القصر

وبالرغم من كل ما قيل عن علاقة الملك غِازي بالألمان ، ورغبته الواضحة في التخلص من الانگليز (وهو صحيح) الاّ ان أياً من اجراءاته وقراراته ، التي تترجم هذا التغيير المزمع ، لم تنعكس على «قصر الزهور»! اذ بقيت مربية فيصل الثاني «ناني انگليزية» وليست المانية ، تسكن مع ابن عمي الملك واختي الملكة في القصر نفسه ، في غرفة داخله ، تُعزلُ باغلاق حائط صناعي موصول بينهما .

ثم غرفتان اخريان ، بعدهما «كوريدور» وحمّام ، ثم سلالم في الطابق نفسه (العِلوي) وبالكون ، وقد تحوّل هذا البالكون ـ فيما بعد ـ الى غرفة نوم . وهي الغرفة نفسها التي رقدت فيها اختي الأميرة جليلة مع زوجها الشريف حازم ، ليلة وفاة اختي الملكة عالية .

كان في «قصر الزهور» سيدتان اجنبيتان ، احداهما انگليزية

والأخرى سويسرية ، تشرفان على ادارته . خُصصت لهنّ احدى الغرف ، التي تشرف على بالكون كبير ، كنا نقف فيه لنطلّ على السينما من الجهة الأخرى لقصر الحارثية .

بعد هذا الموقع هناك حمام وتواليت وسلالم وغرفة ، ثم غرفتان اخريان ، ننزل اليهما ببضعة درجات ، وقد اسكنت فيهما اختي الملكة عالية بنات يتيمات ، تبنتهُنّ ، ليحظين برعايتها واهتمام مشرفات القصر .

ولأغراض المقارنة بين القصرين (الزهور والرحاب) لوجود بعض الفروقات بينهما . مثلاً لم يكن لقصر الزهور سطح واحد ، حتى يسهل وصفه ، انما كانت له سطوح عديدة ، يصعب وصفها لتعقيدها . ولذا فاننا لم نَنَمْ فيها كثيراً ، باستثناء عدد من الأيام بعد وفاة الملك غازي ، لنردَّ الوحشة على اختي الملكة عالية ، ونجعلها تأتلف مع الوضع الجديد .

بينما اتذكر نيامنا المستمر في سطح قصر الرحاب ، وقد اصطفّت الأَسِرَّةُ الى بعضها ، وغُطيت بالكِلَلِ من قماش «المِلمل» الناعم ، لتمنع القوارص من الحشرات عنّا ، كالبَق ، او حتى الذباب . . وغيره .

كانت ليالي مقمرة زاهية ، قضيناها على سطح قصر الرحاب ، خلال اشهر الصيف ، مع سيدات حجازيات ، يأتين لزيارتنا ، فيبقين عندنا أياماً وليالي ، نتسامر الى وقت متأخر من الليل ، وكأنهن في نزهة او في رحلة اصطياف . . غير ان شيئاً من هذا القبيل لم يحصل في قصر الزهور .

بيد ان ما امتاز به هذا الأخير على قصر الرحاب في المقابل ، هو ان سرداب قصر الزهور ، كان صالحاً للنوم في ظهيرة ايام الصيف في العراق ـ على عكس سرداب قصر الرحاب ـ ولهذا استغله الملك غازي على صغره وانخفاضه للقيلولة فيه .

العاقول وسيلة التبريد!

كانت عادة العراقيين في الثلاثينات وما بعدها من القرن الماضي ، ان يستخدموا «العاقول» (نبات صحراوي اخضر شائك ، تأكله الحيوانات في المراعي ، كالأبل والخراف وغيرها) عند أبواب وشبابيك سراديبهم ، يطوقونها به ويرشونه بالماء ، لتسِفَّ عليه الريح فتبرد ، فيدخل السرداب هواءٌ نديٌ عليل .

الاّ ان الملك غازي ، ابتكر طريقة افضل واسرع في التكييف البدائي ، ذلك بحكم عقليته الميكانيكية ، وحيث لا توجد مراوح سقفية في قصر الزهور ، فقد سلَّط على العاقول مجرىً من الماء ، عبر انبوب مُثقَّب ، يُنَقِّطُ عليه بشكل مستمر ، كي يبقى العاقول رطباً أو مبللاً .

وبدلاً من ان يبقى مرهوناً للطبيعة ، متى ما جادت بالهواء او الرياح الساخنة الهابَّة على السرداب ، نَصَبَ مروحة هوائية منضدية بالقرب من الباب ، لتسحبَ الهواء المار عبر العاقول الى الداخِل ، كي تنعش النائمين فيه لساعة قيلولة فقط ، وسط جو ملتهب!

نهاية قصر ملكي

طوال احد عشر عاماً ، منذ وفاة الملك غازي عام ١٩٣٩م الى وفاة الملكة عالية عام ١٩٥٠م ، ظلَّت اختي تسكن «قصر الزهور» مع ولدها الملك فيصل الثاني . بينما نحن (أمي وأخي وأختي جليلة وانا) نسكن «قصر الرحاب» . في حين قضَّت اختي الكبيرة (الأميرة عبدية) معظم تلك السنين ، تسكن الى جوار اختي الملكة وابنها . وهو ما يفصح عن سرٍ تعلقها بالملك الصغير ، وتعلقه هو الآخر بخالته الكبيرة .

ويوم توفيت عالية بقيت عبدية مع فيصل الثاني في «قصر الزهور» . وعندما قررنا نقله ليسكن معنا في «قصر الرحاب» جاءت هي معه ، ونقلت فراشها من غرفتها القديمة الى غرفة مجاورة له ، اعطاهما اياهما أخي الأمير عبد الاله .

لا أتذكر (على وجه الدقة) سبب تسمية عمي الملك فيصل الأول «قصر الزهور» بهذا الاسم! وكل ما أتذكره ، انه بعد عودتنا من سفرة لنا الى تركيا ، علمنا باسمه ، ربما لأن حدائقه تزيّنت بالرياحين والياسمين والزهور .

غير انه بعد خمس سنوات فقط من سكن العائلة العراقية المالكة فيه ، اختطفت يد المنون مَنْ كان يشيع بين أركانه ، عبق المحبة والود والسرور ، من خلال حركته الدؤوبة وتنقله بين أجنحته وأروقته . . ابن عمي الملك غازي .

وبعد عقد ونيف من الزمان تبعته الى جنات الخلود ، أريجُ ورود حدائق القصر العابقة ، وشذى عطور ياسمينه ورياحينه ، زهرة الزهور . . أختي الملكة عالية .

الملكة عالية

أظنها الملكة الهاشمية الاولى في تاريخ العرب ، أُمّ وزوجة وابنة وحفيدة ملوك . كنا ننظر اليها كأنها «سيفنا» الذي يذود عنا المكاره ويجلي عن وجوهنا الكرب ، فهي حاميتنا التي نطمئن اليها ، ونشعر بالأمن والأمان معها .

لا اظنني أبالغ في وصفها لو قلت ، كانت عالية كقديسة بيننا ، وليّة من الاولياء الصالحين ، ولا اقول مجازاً «إلهة» (فبلاد ما بين النهرين عرفت آلهات وآلهة من قبل) حيث الالوهية لله الواحد القهار ، ولا اله سواه . طيِّبة ، تذوب في الناس وتضحي من اجل الآخرين ، متفانية في حُبٍّ اهلها وذويها .

كانت عالية ملاكاً طاهراً ، ذات شخصية هادئة ، قوية ونافذة . اتذكر لها موقفاً في حركة رشيد عالي الگيلاني عام ١٩٤١م ، لن انساه ما حييت . كانت امي تحترمها وتحبها ، وكنا نُجلّها ونحترمها للغاية . عطوفة على الناس ، تتفقدهم ، تسأل عنهم ، تتابع مشاكلهم وتحاول ان تحلها ما استطاعت الى ذلك سبيلا . تستلم رسائلهم وتقرأها وترد على مكالماتهم الهاتفية ، تحدثهم وتلتقي بهم .

غير ان اكثر اصحاب الحاجات ، كانوا من ذوي المحكومين بالاعدام او بالاحكام الثقيلة ، لارتكابهم جرائم مروعة بحق الله والمجتمع ، ولاعتدائهم على الآخرين ، وقتلهم الابرياء ، واغتصابهم الاعراض . يطلب اهلوهم العفو عن ابنائهم ، وتخفيف الاحكام الصادرة بشأنهم . بيد أن الملكة لا تستطيع ان تلبي مثل تلك الطلبات ، احتراماً للقضاء العراقي ، ولأحكامه الصادرة بحق

منتهكي القانون والمعتدين عليه ، وتأكيداً لاستقلاليته ، واحتراماً للناس وحقوقهم .

ولو كانت استجابت لكل تلك الطلبات والعرائض والتوسلات ، لتسيبت الاوضاع في البلاد ، ولتجرأ الآخرون على ارتكاب سائر الافعال المحرمة ، ما دام هناك مَنْ يعفو عنهم ، او يطلق سراحهم . ثم ماذنب المجني عليهم وعوائل الضحايا؟ يشاهدون قاتليهم والمعتدين عليهم ومغتصبي اموالهم واعراضهم ، احرار ، طلقاء ، يتبخترون في الشوارع والحارات!

لهذا لم ترغب في التدخل فيما ليس من شأنها . يأتيها المرافقون بالرسائل من البلاط يومياً لترد عليها ، ولكن اكثر ما كانت تستجيب ، لمن يطلب منها مساعدات مالية أو عينية ، تتصل بهم تلفونياً وتلتقي بهم ، لتلبي طلباتهم .

زواج ملكة

في الثامن من ايلول (سبتمبر) ١٩٣٣م ، وبينما كنا نصطاف في اسطنبول ، فوجئنا بخبر وفاة عمي الملك فيصل الاول في سويسرا فاضطر اخي عبد الاله الى السفر الى بغداد بالقطار ، لحضور مراسيم استقبال النعش والتشييع والدفن ، وبقينا (انا وامي واخواتي والعبد بشير والكاتب الحاج سالم) في تركيا .

ظلَّ اخي الامير عبد الاله في بغداد نحو اسبوع ، وشهد مراسيم العزاء ومجالس الفواتح الرسمية . حينما عاد الينا حكى لنا قصة الوفاة ، وكيف كان الناس يبكون ويندبون الملك ، مرددين هتاف «يا سويسرا جيبي ملكنا» .

خيَّمَ الحزن على البلاد ، وساد الذهول اوساط الشعب ، واقفلت الاسواق

والمحلات ابوابها ، وعطلت المدارس والمؤسسات الحكومية ، واقيمت مجالس العزاء والفواتح في كل مكان ، واعتلى الخطباء والشعراء المنابر ، وراحوا يتحدثون عن ضياعهم بعد غياب عمّي .

غير ان اخي فاجأنا بخبر غريب لم نكن نتوقعه . قَبَّلَ اختي عالية وقال لها : «مبروك» فردَّت : «مبروك على ماذا»؟ اجاب : «ان ابي وعمي الملك عبد الله ، اتفقا على ان تتزوجي ابن عمي غازي» . . صُعقت عالية لهذا الخبر ، حيث لم يدُر في بالها يوماً بأنها ستتزوج غازياً ، فهو اصغر منها سناً (حوالي سنة واحدة) وهي لم تفكِّر به يوما .

كان من المفروض ان تتزوج ابن عمي الملك طلال (والد الملك حسين وجدُّ الملك عبد الله الثاني) وان اعمامي قد تحدثوا بهذا الموضوع من قبل . تلك هي خصوصيات عائلية ليس من المفروض ان نبوح بها ، ولكن لا بد من الحديث عنها ما دامت امست في ذمة التاريخ .

بنات في قصر الحرم

في ذلك الوقت كانت بنات بغداد يترددن على «قصر الحرم» لنيل الحظوة ، او الفوز بالملك غازي والتزوج منه . ولعل احدى اكثر من دار الكلام حولها «نعمت» ابنة ياسين الهاشمي (المتزوجة من علي ممتاز فيما بعد) الى جانب اخريات منهن كـ «صبيحة الشيخ داوود» .

لكن الباشا نوري السعيد عمل المستحيل ، للحيلولة دون تحقق هذا الزواج ، كي لا يصبح الهاشمي «عمّ الملك» وبالتالي يتحكم بالعراق . فكلَّم والدي في الموضوع ، محرضاً اياه على تزويج عالية بغازي ، وردّ عليه : «انني لا استطيع ان اقول شيئاً ، لأنني اعطيت كلمة لاخي عبد الله ، على ان ازوِّج

عـاليـة من ابنه طلال ، واذا مـا حـررني من هذا الوعـد ، فـلا مـانع لدي من تزويجها بغازي» .

ثم كلَّم نوري باشا عمي الملك عبد الله في الموضوع ، ويبدو انه اقنعه في نهاية المطاف ، فتنازل عن حقه في تزويج ابنه من اختي . لذا حينما اخبر اخي عبد الاله اختي عالية ، بالاتفاق الحاصل (بين عمي وابي) بمساعي السعيد ، علّقت امامنا في اسطنبول بمرارة ، وهذا سرّ يذاع لأول مرة : «وهل انا جارية كي يبيعوني ويشتروني من دون ان يأخذوا رأيي»؟!

* * *

عدنا الى العراق بالقطار في اواخر شهر ايلول ١٩٣٣م ، ووصلنا «الموصل» وكان في استقبالنا متصرف اللواء «تحسين العسكري» . بتنا ليلة في بيته ، ومن ثم غادرنا الى بغداد على عِجل .

استُقبِلنا هناك استقبالاً يكاد يكون رسمياً ، وقفت الدولة كلها لتُحيّي ملكة العراق القادمة ، لكنه كان استقبالاً مطوقاً بمساحات من الحزن والكآبة والفتور . اخذونا الى «قصر الحرم» للسلام على الملكة «حزيمة» زوجة عمي الملك فيصل الاول ، وتطييب خاطرها وتقديم تعازينا ومواساتنا لها بالمصاب الجلل .

عرفت عالية غازي عن بُعد ، فهي لا تلتقيه الاّ في المناسبات العائلية والاعياد . وليس عندنا في الحقيقة سوى عيدين (الفطر والاضحى) ، نرتدي فيهما ملابسنا الجديدة ونذهب الى القصر ، للسلام على عمي المرحوم الملك فيصل الاول . كنت وانا في طريقي الى البلاط اتحسَّرُ في نفسي ، حينما ارى اقراني الاطفال يلعبون بالمراجيح ودواليب الهواء ، وانا لا استطيع ان افعل مثلهم واشاركهم افراحهم ومتعتهم .

غازي الملك المحبوب

بعد ذلك بدأت اختي الملكة عالية تلتقي الملك غازي يومياً ، فكنّا نذهب مساء كل ليلة الى القصر للقائه ، غير انها كانت متألمة في البداية ، من الاسلوب الذي تمت فيه خطبتها . وربما مالت في نفسها الى ابن عمها «طلال» بالرغم من انها لم تلتقه ايضاً ، بل التقته لقاءات عابرة في عمّان وبغداد في اوقات قليلة .

لم يكن مسموحاً ـ في عرفنا ـ لابنة العم ، ان تلتقي ابن عمها كما يحلو لها . كما انها لم تُبح لنا بحقيقة مشاعرها ، لأن مثل تلك الامور ، كان من العيب على البنت ان تفصح عنها .

على اية حال اقتنعت الملكة عالية ـ في نهاية المطاف ـ بحظها ونصيبها من الحياة ، وبدأت تتعلق بالملك غازي تعلقاً واضحاً . كان (رحمه الله) محبوباً ، يحبه كل مَنْ يلتقيه ، ولو لأول مرة . كان جذاباً ، متواضعاً ، لطيف المعشر ، طيب القلب ، عاطفياً ، وحينما تلتقيه تشعر بالراحة معه والاطمئنان اليه .

عدنا الى بغداد في ايلول ١٩٣٣م ، وفي كانون الثاني ١٩٣٤م تمَّ زواج عالية من غازي ، وبسرعة قياسية .

اوصت الملكة عالية زوجة السفير البريطاني «الليدي همفري» بتجهيز بدلاتها وملابس زواجها من لندن ، كما اوصت في نفس الوقت بمثلها ، لأخواتها وامها وزوجة عمي «الملكة حزيمة» وبناتها (اخوات الملك غازي عزّة وراجحة) . اخذوا مقاساتنا وعملوا لنا بدلات فرح جميلة ، رائعة وبرّاقة .

اما بالنسبة للملابس الاخرى ، فقد دلّتنا حرم السيد علي جودت الايوبي (رئيس الديوان الملكي في ذلك الوقت) على خيّاطة المانية مشهورة في بغداد ، اوصيناها باحتياجاتنا ، فأنجزت كل ما طلبناه منها . وعمل

(بيت عمي) اهل الملك غازي «بروش الماس» كُتب عليه حرف الغين (غ) اي بمعنى غازي ، قدموه هدية الى أختي الملكة عالية .

لكن امي قدمت في المقابل هدايا كثيرة لعالية . ومن طريف ما قدمته لها «گرداناً» تلك القلادة (المصنوعة في فرنسا) التي اهداها الى أمّي عمي الملك فيصل الاول ، يوم ولدتُ أنا في بيته سنة ١٩٢٠م ، عندما كان ملكاً على سورية . ظلت امي تحتفظ بها (١٤) اربعة عشر عاماً ، حتى قدمتها لعالية في يوم زواجها ، لتعود الى بيت عمي من جديد!

زواج ملكي كئيب!

لم يكن زواج اختي الملكة (كما قد يتصوره البعض) بهيجاً أو مفرحاً ، انما شابته غصّةٌ ومسحة من الحزن والكآبة ، بسبب وفاة عمي الملك فيصل الاول (رحمه الله) حيث لم تكن تمرَّ على وفاته ، سوى بضعة اشهر .

لقد شكلت وفاة عمي خسارة كبرى لنا ـ كعائلة مالكة ـ وللعراقيين وللعرب عموماً . حلّت علينا مصيبة عظمى ، لا يمكن تجاهلها او نسيانها . وشعر أبي بالوحدة والانكسار من جانب ، وبعظم المسؤولية من جانب آخر .

أما اخي عبد الاله الذي احبَّ عمي حباً كبيراً ، لم يوازِه فيه الاّ حبه لأبيه ، كان وقتها ينوي السفر الى بريطانيا للدراسة في «كامبردج» ولكنه بعد هذا الحدث الاليم ، والتطورات اللاحقة ، وزواج الملك غازي من عالية ، قرر البقاء في العراق ، على رغم انه كان قد انهى دراسته في «فكتوريا كولدج» في الاسكندرية .

لم تبقَ اختي في «قصر الحرم» عدا بضعة ايام ، انتقلت بعدها الى

«قصر الحارثية» لاعتبار انه لا يجوز ان تسكن ملكتان (هي وحزيمة والدة غازي) في قصر واحد . كما ان «قصر الزهور» لم يكن قد اكتمل بناؤه بعد .

حملت عالية بجنين قبل فيصل الثاني ، لكنها وفي احد الايام انزلقت رجلها ، فسقطت على «الكاشي» البلاط ما تسبب في اسقاطها ، حتى حملت بفيصل الثاني . . لم يكن لعالية مولود آخر غيره ، ويا ليتها ولدت أخاً أو أختاً له .

بدت أختي في بداية زواجها من غازي اقل سعادة ، ولكنها أشد حزناً عليه في يوم وفاته ، خصوصاً بعد أن ازداد تعلقها به بمرور الأيام . حصل ان سأل يوماً عمي الملك عبد الله اختي الكبيرة (الاميرة عبدية) عن علاقة غازي بعالية ، وما اذا كان «مريّحها» فأجابته عبدية بما يسرّه . ولكنها حينما نقلت الخبر الى عالية ، ردَّت عليها الاخيرة بسؤال : «وهل اخذوا رأيي يوم باعوني ، حتى سألوا عن مدى ارتياحي مع غازي»؟! .

لم يكن في مقدرة ايٍّ منا مخاطبة عميٍ عبد الله بن الحسين بهذا الاسلوب ، او مكاشفته بالحقيقة ، لكننا كبنات كنا نتحدث بهذا الموضوع فيما بيننا همساً .

اعتادت (عالية وغازي) على الخروج سوياً صباح أيام الجمعة الى منطقة «عگرگوف» قرب بغداد ، يأخذان غداءهما معهما ، وهناك يلهو الملك بسيارته على راحته . يصعد تلال عگرگوف بأقصى سرعة ، ويهبط منها بسرعة اقصى!

اهتم غازي في الايام الاولى من زواجه بعالية اهتماماً واضحاً ، لكن اهتمامه قلّ في الفترات اللاحقة (على عكسها هي تماما) ، حيث انصرف الى ملذاته الشخصية وسهراته وحفلاته الليلية ، هذا من جانب . ومن جانب آخر ظل يحترم اختي احتراماً كبيراً ، ولا يناديها الاّ بـ «ستي» .

في المقابل كانت عالية على اطلاع بعلاقاته الشخصية ، وتعرف بمغامراته وتتلمسها لمس اليدين ، لكنها لا تسمح لنفسها بمكاشفته او معاتبته ، ولا تعطي مجالاً للآخرين ان يوشوا لها بزوجها ، كي لا تجرِؤهم على التجسس على مليكهم . لم اسمع انها تخاصمت مع غازي يوماً ، لأن تربيتها لم تكن تسمح لها ان تفعل ذلك .

لم يكن غازي في حاجة الى اختلاق الاعذار والمبررات لتأخره ليلاً ، فهو ليس من هذا النمط من الرجال ، ولم تكن عالية ايضاً في حاجة الى فتح الموضوع معه . عندما يعود من البلاط ، تنتهي مهماته الرسمية لذلك اليوم ، ولم يكن بحاجة الى مغادرة القصر ثانية .

كانت تعي سائر تصرفاته من خلال احساسها المرهف ، فهو يغادر «قصر الزهور» في الساعة الثامنة مساءً ، ولا يعود اليه الاّ بعد منتصف الليل . فماذا كان يفعل في سهراته إذن؟

لقد تألمنا وتألمت اختي عالية كثيراً ، يوم فُجعنا بوفاته . . مات في العشرينات من عمره موتة باردة ، في ظرف ساخن ، كان يُنبئ بانفجار مدوٍ في العالم والعراق . . ولهذا ظلّت مسألة نهايته مثار جدل واختلاف بين الناس .

ربيبات الملكة عالية

تجلّت في الملكة عالية كل معاني الروعة والشفقة على الآخرين . تكفّلت في حياتها تربية ست بنات يتيمات وثلاثة اولاد ، احدهم اخ البنات ، صار ضابطاً بالجيش العراقي .

اما الاثنان الاخران ، فهما ابنا فلاّح في قصر الزهور ، مات ، فصار

احدهما كهربائياً ، والثاني لا اتذكر . وتكفلت ايضاً ابنة احد الشرطة (الذي توفي في جسر الخِر) . وقد عاشت مع العبدة فريدة في قصر الزهور ، حتى غادرته عائدة الى اهلها في الصومال .

اما البنات الست فكن يتامى الاب ، وامهن تعمل مستخدمة «فرّاشة» في المدرسة الثانوية ، توفيت فجأة ، فتطوعت السيدة «امت السعيد» مديرة المدرسة ، واوصلت خبر البنات اليتيمات الى الملكة ، فما كان منها الاّ ان تكفلتهن .

اخذت البنات الثلاث الكبيرات الى قصرها (الزهور) واخذنا نحن (امي واختي جليلة وانا) الابنتين الصغيرتين الى قصرنا (الرحاب) . فيما اختارت السادسة ان تعيش في كنف بعض الناس ، لكنها سرعان ما غيّرت رأيها والتحقت باخواتها ، لتحظى برعاية ملكة العراق .

. . وهكذا قضين حياتهن «بين القصرين» . كُنَّ يذهبن الى المدرسة في شارع السعدون بسيارة البلاط ، حتى كبرن وتزوجن ووقع انقلاب ١٩٥٨م . تزوج احداهن احد حراس القصر . كان يراها حينما تعود الى القصر ظهراً ، فأُعجب بها وتقدم لخطبتها فتزوجها . بينما تزوج اختهن الكبيرة احد الضباط ، وبعد وفاة الملكة عالية عام ١٩٥٠م اخذت معها بقية اخواتها .

ظلت الملكة ترعاهن وتصرف عليهن وتكسوهن . كُنَّ يعشن معنا ، ويشاركننا في كل كبيرة وصغيرة كجزءٍ منا . يعرفن تفاصيل حياتنا وجزئياتها . لم نبخل عليهن بشيء . كن في غاية السعادة والمرح ، بالرغم من يُتمهن وفقدانهن لأبويهن .

ملكة ام خيّاطة؟

شاركت الملكة عالية في جمعية الهلال الاحمر الانسانية ، وحماية الاطفال ، والجمعيات الخيرية الاخرى ، ورعتها ، وكانت تزورها بين فترة واخرى ، وتفتشها .

تذهب لتخيط الملابس فيها ، لليتامى والفقراء والمعوزين ، ثم تجلب كميات من الاقشمة الى القصر لتخيطها ، او نكلّف ـ بالاحرى ـ بعض الخياطين والخياطات لاكمالها .

ومن طرائف الخيط والخياطة ، ان الملك فيصل الثاني كان يلعب يوماً في حديقة القصر ، واذا بأحد الحراس «عريف حميد» يتقدم اليه ويطلب منه ان يبلّغ امه «الملكة عالية» السلام ، ويطلب منها «خيطاً» . ان طفلاً في الرابعة من عمره سينسى ما طلبه منه العريف ، سيّما وهو مشغول بلهوه ولعبه .

في احد الايام لاحظ فيصل امه تخيط قماشاً ، فسألها عمّا في يدها ، فأجابت انه خيط ، فردّ فيصل بعد ان تذكّر وصية العريف ، بأن يأخذ له خيطاً من امه ، فضحكت وضحكنا ، لأنه لم يدرك بأن المقصود من «الخيط» الذي طلبه منه ، هو ان ترفّعه الملكة رتبة واحدة ، كي يزيد راتبه بضعة دراهم!

* * *

أما الحياكة فهي احدى هواياتها المفضلة ، سيتعجب كثيرون لو قلت هنا بان الملكة عالية ، كانت تحوك لنا بعض ملابسنا!

حياء ملكة

بعد الحرب العالمية الثانية اصطحبت الملكة ابنها الملك فيصل الثاني للدراسة في لندن ، فاشترت لنفسها سيارة صغيرة . كانت تهوى السياقة ، ولكنها كثر ما امتنعت اثناء ساعات انتهاء الدوام الرسمي ، من المرور في شارع «اوكسفورد ستريت» المزدحم ، قائلة :

«انني اخجل من ان أمرَّ بهذا الطابور الطويل الواقف في انتظار الباص ، ويراني الناس اسوق سيارة والى جانبي سيدة مثلاً . ان اخلاقي لا تسمح لي بذلك» . كانت تشعر بذنب كبير يؤرقها ويوخز ضميرها ، لانها ترى كثيرين لا يملكون سيارات خاصة .

خلال فترة اقامتها بلندن في النصف الثاني من الاربعينات ، كان اخي عبد الاله يبعث لها ولمن معها وفي حاشيتها «خروفاً» اسبوعياً من بغداد بالطائرة .

فهي ملكة وابنها ملك العراق وهناك سِفارة ، ربما يحتاجون الى اللحم العراقي في عاصمة ، كانت تعيش حالة من التقشف والقحط ، فتُردد : «انني استحي من الانگليز العاملين في مطار لندن ، ففي كل اسبوع نستلم خروفاً ، بينما هم لا يأكلون اللحم غير مرة ، أو مرتين في الشهر» .

وفاة ملكة

اعتدنا (امي وانا) في غياب الملكة عالية عن العراق ، ان نبقى الى جانب اخي عبد الاله . في عام ١٩٥٠م ، وبينما كانت الملكة في لندن بصحبة ولدها فيصل ، صادف موضوع زواجي من الشريف حسين ، فاضطرت الملكة عالية الى حضوره في بغداد ، تاركة وراءها اختي الاميرة «عبدية»

لترعى فيصل الثاني . فوجئنا بنحول وضعف يعتري بـدن الملكة! سألناها : «ما الخبر»؟ اجابت : «لا شيء ، انني لا احس بأي شيء» .

تم زواجنا وسافرنا لنقضي «شهر العسل» في الاسكندرية ، ومن هناك استقلينا الباخرة الى فرنسا . كانت عمتي «سَرَّة» شقيقة عمي الامير زيد ، متزوجة من «عطا امين» سفير العراق في باريس . ذهبنا لزيارتها ، فأخبرتني بان اختي الملكة يُشك في ان مرضاً خطيراً «خبيثاً» داهمها ، ولكن الاطباء ليسوا متأكدين من ذلك ، فقلت لها بصوت متحشرج مبحوح ، ان احداً لم يخبرني بذلك .

نزل عليَّ الخبـر كنزول الصاعـقـة ، وسلب مني كل متـعـة او بهـجـة استذوقتها ، وما زلت اعيشها في شهر عسلي . لذا قررنا (انا وزوجي) السفر فوراً الى لندن ، للتأكد مما سمعنا . حين اقتربنا من ميناء «كاليه» الفرنسي ، لمح زوجي الشريف حسين ، اخي الامير عبد الاله في سيارة مع سائقه الطيار «جسّام محمد» فنبهني لذلك .

استغربتُ من وجود الامير في «كاليه» وتساءلت عمّاذا يفعل هنا؟ خففنا السرعة ، واذا بالامير يستدير ويعود الينا . فوجئتُ بمنظره وتواجده في ذلك المكان ، وبكلماته فيما بعد .

سألته باستعجال وارتباك ، ما الخبر؟! أجاب : انني استأجرت طائرة ، من تلك التي تعبر «القنال الانگليزي» وأريد منك ان تتركي السيارة ونطير الى لندن ، لان اختك الملكة «تعبانة»!

وصلنا لندن ، كـان ذلك في اواخـر تموز ومطلع آب من عـام ١٩٥٠م ، وذهبت مباشرة الى مستشفى «لندن كلينك» لعيادة اختي . عندما رأيتها بكيتُ لمنظرها ، وجدتُها متعبة جداً ، نحيلة ، ذابلة ، مجهدة . بقينا نحو شهر كامل نتردد عليها يومياً في المستشفى .

شخَّص الاطباء بأنها مصابة بداء السرطان الخبيث ، اما نحن فاعتقدنا بأن داءً ما اصاب امعاءها . اجروا لها عمليتين جراحيتين ، ولم تبدُ ايّ تباشير امل في شفائها . كان الاطباء يائسين من حالتها تماماً ، لذا اقترحوا علينا نقلها الى بغداد . . لتموت هناك .

رحلة الوداع

استأجرنا طائرة كبيرة ، واستأذن اخي عبد الاله مدير المدرسة ، التي يدرس فيها الملك فيصل الثاني ، لمنحه اجازة بالسفر الى بغداد ، لمرافقة امه المقبلة على موت أكيد .

طرنا من لندن بصحبة طبيبين انگليزيين ، احدهما الدكتور «ديكسن فيرث» والآخر الدكتور «جونسون» (لا أتذكر اسمه الكامل) وهو الذي اجرى لعالية عمليتين جراحيتين . اصطحبنا ايضاً ممرضتين ممارستين ، للتناوب على تمريض الملكة ، احداهما ترافقها في النهار ، والاخرى تسهر على راحتها في الليل .

كانت الملكة بصدد توديع العراقيين . . والى الأبد ، فهي في ايامها الاخيرة . لكنَّ البرلمان العراقي رفض ان تُسدد تكاليف «رحلة الوداع» من خزينة الدولة ، بحجة انها باهظة .

واعترض النوّاب ايضاً على مرافقة الملك اثنين من المرافقين ، كان الجيش خصص لكل واحد منهما (٥) خمسة جنيهات استرلينية يومياً كنفقات ، وتذرّعوا بأن هذا المبلغ كبير مكلِّف للدولة ، لذا امتنعوا عن التصديق عليه .

والغريب اننا (كعائلة عراقية مالكة) لم نطلب من الدولة تحمل اعباء

المستشفى ، وتكاليف الاقامة فيها ، واجراء العمليات لملكتهم ، واجور الاطباء والممرضات!

انني عندما اتذكر اليوم تلك الاجراءات القسرية الجافية ، اتألم واتساءل في نفسي ، كيف طوّعت النوّاب العراقيين نفوسُهم ، ان يعترضوا على تكاليف «رحلة الوداع» الاخيرة في حياة مليكتهم؟! أترى هل يستطيع نوّاب اليوم ـ ان كانوا يستحقون هذا الوصف ـ الاعتراض على مليارات ، يبددها صدام حسين وعائلته من اموال العراق ، على مغامراتهم وملذاتهم الشخصية؟!

* * *

كانت «رحلة الوداع» هي الرحلة الاخيرة والابدية في حياة ملكة العراق عالية . لم يكن احد منّا يعرف بمرضها سوى الامير عبد الاله ، وقد اخفاه عنّا كي لا نتأثر ، فيظهر على وجوهنا مما قد يُشعرها بحقيقة مرضها . غير انه مما لا شك فيه ، بأن احساساً انتابها بأنها تموت ، لأن المرض الخبيث بدأ ينهش جسدها ، الذي قد اعتراه الهزال والضعف .

امتنعت عن الاكل بشكل كامل ، فلم تطاوعها نفسها على اكل لقمة او تذوّق طعام ، وصارت تجفّ وتذبل وتيبس ، كوردة اقتطعت من غصنها وحُبِسَ الماء عنها .

لم تهدأ او ترتح او تستقر ، طوال فترة رقودها في قصر الزهور . ظلت تعاني من آلام فظيعة واوجاع قاتلة ، لا يحتملها انسان . تصيح وتصرخ وتستغيث من شدة الآلام المبرحة . وباشر الدكتور «ديسكن فيرث» باعطائها المخدر على دفعات ، كجرعات خفيفة ، كي لا يتعود جسدها على تعاطي الثقيل منها .

عشنا في القصر حالة انذار قصوى ، كان الكل متيقظين مستنفرين . كم من مرة تركنا مائدة الطعام ، لأن الممرضة ضغطت على جرس الانذار تنبؤنا بخطورة حالة الملكة ، فنقف وجلين مفزوعين في انتظار ان يأتي الطبيب ويحقنها بالمخدر . . لقد ضعفت عالية بشكل مخيف .

ما من شاهد وحيد

زارها الاطباء العراقيون ، كالدكتور هاشم الوتري والدكتور كمال السامرائي . كانا يدخلان عليها معنا (وليس وحدهما ، ولا يمكثان عندها طويلاً ، ولا يخوضان معها أي حوار أو حديث) فينظران اليها ، ولا يستطيعان ان يفعلا لها شيئاً ، فما من فائدة من اجراء اي فحص ، او كشف طبي عليها .

اما الدكتور «ديكسن فيرث» فما زلتُ اتذكر افضاله علينا ، لقد ظل طوال فترة مرافقته للملكة في بغداد ، مستنفَراً مستعداً لتقديم اسعافاته الطبية لها . لم أره بلا صدرية بيضاء يوماً ، او مرتدياً «بيجاما» بدلاً من بنطلونه ليستريح قليلاً .

اننا كعائلة على علاقة وثيقة به منذ عشرات السنين ، وما زلنا الى اليوم وهو في ثمانينات عمره الطويل ، نحترمه ونقدره ونعتز به .

قالت لي الملكة عالية يوماً : «بديعة لا تتركوني وحدي مع النصارى» . ولم توجه هذا الكلام لأي احد آخر ، ولم يصدر بأية صيغة اخرى ، ولم تقصد اي شخص آخر ، عدا مَنْ سأذكرهم (كما يروي البعض) ليجعل من نفسه الشاهد الوحيد ، على الفصل الاخير من حياة الملكة عالية .

كانت تقصد بطلبها ذاك الممرضتين الانكليزيتين ، لأنهما لا تعرفان

عاداتنا وتقاليدنا الاسلامية ، وما يتوجب فعله للمسلم المحتضر ، أو من شارف على الموت .

لذا وزعنا الادوار (نحن اهلها) فيما بيننا ، بحيث نكون موجودين عندها والى جانبها طوال الوقت . فأنا واختي جليلة وضعنا نفسينا في خدمتها في النهار ، وكذلك فعلت الست امت السعيد وامي في بعض الاحيان .

اما اختي عبدية فقد تكفلت المبيت معها في غرفتها ليلاً ، ونقلت فراشها وبسطته (طرحته) على ارضية الغرفة ، لتنام بجوارها .

لم نفارق الملكة رمشة عين ، منذ طلبت منا ذلك ، فبمجرد ان تتأوه او تصيح نهبُّ لنجدتها ، وكأننا طيور فاجأها صيّاد باطلاقة ، دوَّت فوق رؤوسها ، فطارت مذعورة في الفضاء لا تلوي على شيء .

اهتزاز قصر

في فجر الثالث والعشرين من شهر كانون أول (ديسمبر) عام ١٩٥٠م ، ضغطت الممرضة المناوبة على جرس الانذار ، فأهتز القصر الملكي لرنينه . استيقظنا مفزوعين من نومنا . ما الخبر؟! قالت لي «عبدية» ان الملكة تحتضر .

ايقظتُ اختي جليلة وزوجها الدكتور الشريف حازم ، وهرعنا الى الغرفة التي ترقد فيها الملكة . كانت امي تدخل وتخرج عليها . تسمّرنا نحن عند ابواب الغرف ، بين جالس يبكي وواقف متأمل لحظات نهاية انسان يموت بين يديه ، ولا يستطيع ان يفعل له شيئاً .

كانت الملكة عالية تصارع الموت ، في غرفة خاصة عُزلت عن بقية الغرف ، لأغراض توفير الراحة لها ، بعيداً عن الضوضاء ومصادر الازعاج .

واذا بـ «فخرية» والدة الملكة «دينا» (زوجة الملك حسين بن طلال الاولى) تقترح على والدتي ان تسقي «عالية» ماءً .

لم يكن باستطاعة عالية وهي تلفظ انفاسها الاخيرة ان تشرب الماء ، لذا اخذت امي تُنَقِّطُ لها «ماء زمزم» من قارورة ، ظلّت تحتفظ بها من سنين ليوم وفاتها . غير ان القدر شاء أن يفجعها بابنتها قبلها ، وبين يديها . تبلِّل القطنة بالماء وتمررها على شفتَيْ الملاك المحتضر ، لتمصّها .

. . بعد برهة ودّعت الملكة العالم ، واغمضت عينيها الى الابد .

* * *

خرج الدكتور هاشم الوتري من الغرفة ، التي اسلمت فيها عالية روحها الى بارئها ، ليسلِّمَ على اخي الأمير عبد الاله ، ويطيّب من خاطره . حينما رأيناه ودموعه تترقرق في مآقيه ، لم نتمالك اعصابنا ، فانفجرنا بالصراخ والعويل . واذا بالممرضة تومئ لنا بالسكوت ، سألناها : لماذا؟ قالت : ان الانسان ساعة وفاته ، يكون سمعه آخر ما يرحل عن هذه الدنيا .

خفّضنا من اصواتنا وصراخنا ، خشية ان نؤذي عالية ساعة موتها ، أو نكدِّرَ روحها ، وهي تَطُوِّفُ بين أروقة قصر الزهور تطوافها الأخير . لم تمر سوى دقائق حتى ضجَّ القصر بالبكاء .

. . في ذلك الصبح الكئيب ودّع القصر الملكي مليكته ، التي لشدَّ ما احبت مَنْ فيه ، واحبّها مَنْ فيه . . كانت الملكة عالية ملاكاً طاهراً ، حلّقت الى السماء قبلنا .

الملك غازي .. نهاية مؤسفة

ما زالت قصة وفاة الملك غازي ، وكأنها شريط سينمائي يعرض امامي الآن . كانت عادتنا نحن العائلة المالكة ، ان نشاهد ليلياً فيلماً سينمائياً في «قصر الزهور» وهي عادة الملك غازي سابقاً . ولكنه بعد ان انشأ «الاذاعة» (التي حلت محل موقع السينما القديم) قلّ حضوره معنا ، او كاد ينعدم ، واخذ يذهب يومياً الى «قصر الحارثية»

لم يكن «قصر الرحاب» هذه المرة ، قد اكتمل بناؤه بعد ، حيث كنا نحن (عائلة الملك علي) نسكن في منطقة السكك الحديد ، بعد ان انتقلنا من كرادة مريم .

وصلنا الى «قصر الزهور» مساء ذلك اليوم التعيس (الاثنين) الرابع من شهر نيسان (ابريل) سنة ١٩٣٩م ، واتخذنا امكنتنا في الصالة (امي الملكة نفيسة والملكة عالية واختي جليلة وأنا وآخرون) ولم تحضر معنا اختي «عبدية» فهي ليست من هواة مشاهدة الافلام ، وقد بقيت في الطابق العلوي من القصر .

بينما نحن نتابع احداث الفيلم ، واذا بسيارة مسرعة جداً تدخل القصر . ادركت اختي عالية بأن هذا هو الملك غازي ، فموقع السينما يشرف على حديقة القصر ، يتيح لنا مشاهدة القادم عبرها ، وليس من سيارة تمرُّ من خلال الطريق ، سوى سيارة الملك ، لذا تركتنا اختي عالية وخرجت لاستقبال زوجها . طال وقوفها عنده ، فالتفتت والدتي إليَّ وقالت : «بديعة قومي وانظري ماذا حصل ، ولماذا تأخرت عالية عند غازي»؟

لم يكن بمقدورنا ان نسمع بوضوح ، ماذا يدور في الخارج وعلى وجه الدقة ، فالاصوات تصلنا مشوشة لطغيان صوت الفيلم في القاعة ، وإن لم يمنعنا هذا من سماع الاصوات العالية والصاخبة الاخرى القادمة الينا .

عطل في الاذاعة

خرجتُ فرأيتُ الملك واقفاً الى جانب سيارته ، ومعه عبده «عيد» وشخصان آخران (يعملان في الاذاعة) واختي عالية . كان الملك «شارباً» يصيح بأعلى صوته ، عصبياً ، منفعلاً ، تتناهى صدى كلماته الى مسامعي عبر الاثير ، يصرخ بوجه الآخرين ويقرّعهم ويوبّخهم .

يشكو للملكة من جهل العاملين في الاذاعة وغبائهم ، لأنهم لا يستطيعون ان يضعوا حداً للاخطاء الفنية والاعطال المتكررة ، فثمة خلل فني اعترضها ، تسبب في عطلها ، وتوقف الارسال ، ولم يتمكن الفنيون من اصلاحه بشكل تام .

* * *

كانت اذاعة قصر الزهور تعني بالنسبة للملك غازي الشيء الكثير ، فهي شغله الشاغل في ذلك الوقت . ومن خلالها هاجم السياسة البريطانية في العراق ودول المنطقة ، وغازل الالمان ، وتناغى مع الطليان ، وداعى بحقوق الشعب الفلسطيني ، وشجب الاعتداءات التي تعرضوا اليها خلال الثلاثينات ، والتي ادت الى انتفاضة عام ١٩٣٦م وما بعدها .

ومن اذاعته ايضاً طالب بعودة الكويت الى العراق ، بتحريض من الضبّاط الشبـاب من اصـدقـائه المحيطين به ، اولئك الذين لم يكونوا يقـدِّرون حـجم مخاطر مثل تلك الدعوات ، ولا يعون نتائجها . بيد ان غازياً لم يحرك جيشاً على الحدود ، ولم يستعرض عضلاته ، لان المطالبة غالباً ما كانت مجرد كلام في لحظات غياب الوعي!

لهذا لم نكن (نحن العائلة العراقية المالكة) من المواظبين على الاستماع الى الاذاعة ، ولا من المهتمين بما تذيعه من نداءات واخبار وتعليقات . وبدلاً من ان نقضي ساعة او ساعتين في الاستماع الى ما ينغِّصنا ، كنا نشاهد فيلماً سينمائياً ، فذلك امتع واجدى .

رأيتُه منهمكاً في معركة مع نفسه ومع الآخرين! عدتُ الى الصالة واخبرت والدتي بما شاهدت .

انطلاقة مخيفة

بعد خمس دقائق عادت الملكة عالية الينا ، واخذت مكانها في مقعدها ، وما هي الاّ لحظات ، واذا بالملك غازي نراه ينطلق بسيارته انطلاقة جنونية ، باتجاه قصر الحارثية والى جانبه «عيد» فقط . سمعنا صوت السيارة ودويّها ونحن جالسون في السينما .

سمعنا صدى احتكاك عجلات السيارة بالارض . ما هي الاّ ثوانٍ ، واذا بصوت اصطدام مروع تصطك منه الاذان ، الحقه اصطخاب مدوٍ صاحب وميضاً خاطفاً ، انقطع على اثره التيار الكهربائي ، وخيَّم الظلام على المكان .

لم يكن تصرف وسرعة الملك غازي طبيعيين مطلقاً ، ولهذا انتاب اختي عالية شعور غريب ، وجزمت بوقوع مكروه لزوجها . فتركتنا وسط الظلام

الدامس نتخبط ، وهامت على وجهها باتجاه الحادث ، مسرعة مفزوعة لا تلوي على شيء ، حتى اختفت عن انظارنا . بينما احترنا نحن ماذا نفعل ، لكننا استدركنا الامر وقررنا الخروج اثر عالية وفي نفس الاتجاه .

ركضنا (والدتي وانا) نحو البوابة الرئيسة ، ونزلت اختي عبدية من الطابق العلوي بخطوات مسرعة ، تتعثر بالسلالم مستفسرة عمّا حصل . سبقنا سائقنا بالسيارة لينتظرنا عند البوابة . ركبنا معه ، كنا خمس نسوة (امي وعبدية وجليلة وشريفة اخرى وانا) وانطلق مسرعاً باتجاه «الحارثية» عبر الطريق المخصص للملك .

كانت انوار سيارتنا تسطع على الطريق ، فتنير لنا جانبيه . رأينا سيارة الملك وقد اصطدمت للتوّ بعمود الكهرباء ، فالتوى ساقطاً على جهة السائق . خففنا السرعة لدرجة الصفر ، لكننا لم نتوقف عندها ، انما واصلنا المسيرة نحو «الحارثية» لنرى ما حصل .

موتة في ظلام دامس

وصلنا الى القصر وقد عجّل مَنْ كان فيه ، واوقد شموعاً وفانوساً ، ليروا ما حدث للملك . ادخلوه الى غرفة في الداخل ، بينما اختي عالية في حال من الانهيار والصدمة لا يمكن وصفها . سألناها : «كيف وصلتِ الى هنا قبلنا»؟ اجابت : «رأيت احد الجنود يقود دراجة هوائية ، فأوقفتُه وركبتُ خلفه ، وطلبتُ منه ان يوصلني الى هنا ، فأوصلني» .

انحنت عالية على جسد زوجها المسجى ، واستسلمت للقدر المحتوم . اما نحن البنات فلم ندخل على الملك ، بأستثناء والدتي ، وحينما رأيناه بتلك الحال ، اسرعت الملكة عالية الى استخدام الهاتف ، لتتصل بطبيب العائلة المالكة «سندرسن باشا» ونوري باشا واخي عبد الاله .

كانت اجهزة الهاتف قديمة وبدائية ، لا يسمع فيها كل ما يدور من حوارات بوضوح ، لذا كان مَنْ يرِّدُ على اختي من بيت نوري السعيد (وهو لا يعرفها) بأنه نائم ، ولا يمكنهم ايقاظه في هذه الساعة المتأخرة من الليل . وهي تقول له انا الملكة عالية ، ايقظه ، ويبدو انه لم يكن يسمع ما تقول .

اتصلت بأخي الامير عبد الاله ، وكان نائماً في بيتنا ، فأستيقظ من نومه مفزوعاً على وقع الخبر . جاءنا منفوش الشعر ، لم يلحق ان يرتدي سترته ، دامع العينين ، يابس الشفتين ، متعرِّق الجبين ، لم يصدِّق خبر الحادث .

وصل الجميع الى القصر ، وحضر الدكتور صائب شوكت ورستم حيدر والآخرون ، كنا نبكي لا نعرف مصير الملك . وقفنا في القصر مدهوشين باهتين بفزع ، ننظر الى عالية وهي بتلك الحال ، فتخنقنا العبرات ، ونهتزُّ لهول ما اصابها من فجيعة . لم يمر على زواجها منه سوى خمس سنوات ، ولم تنجب منه سوى فيصل الثاني ، وهو أبن اقل من اربع سنوات .

اما الملك المسجّى نفسه ، فهو ابن (٢٧) سبعة وعشرين ربيعاً . ولعله راحل الى العالم الآخر ، وسيخلف وراءه ملكاً يتيماً ، طفلاً صغيراً ، وملكة ارملة شابة في مقتبل عمرها . اختلطت التأملات بالحسرات والآهات ، تتبعها دموع تنهمر من عيوننا ، من دون ان تجفَّ أو تنقطع للحظة .

* * *

كان الملك يشخر في لحظاته الاخيرة . خرج علينا «سندرسن باشا» ليقول : «ليس هناك اي امل في شفاء الملك ، لأن الجمجمة مهشمة من الخلف تماماً ، وبالامكان مشاهدة المخ نفسه» .

لم يستطع احد ان يفعل شيئاً للملك ، سوى انهم لفّوا رأسه بقطعة قماش لا غير ، بينما راح هو يلفظ انفاسه النهائية بلهاث ، حتى شخر شخرته الاخيرة . . ومات .

ما ان رددت الاصوات . . «مات الملك» ، حتى علا الصراخ والعويل «قصر الحارثية» .

يقولون انها مؤامرة!

بعد حادث وفاة الملك غازي ، اشاع بعض المغرضين ، او الجاهلين (ممن لا يعرفون حقائق الامور) انه قتل بمؤامرة ، وأخذوا يتهمون هذا تارة ، وذاك تارة اخرى . واني لأتساءل :

«مؤامرة لِمَ ومِمَّ وعلامَ؟ كيف استطاع المتآمرون المزعومون ، ان يقلعوا عمود الكهرباء المثبت بالارض بخرسانة كونكريتية ، خلال ثوانٍ ويهربوا ، من دون ان يتركوا اي اثر وراءهم؟ واية آلة استخدموها في ذلك»؟!

نحن اول مَنْ وصل الى مكان الحادث ، ولم يسبقنا اليه غير اختي الملكة عالية . لو كانت هناك «مؤامرة» فعلاً ، لأمكنهم قتل الملك غازي بعشرين طريقة اخرى ، دس السم له مثلاً ، عن طريق احد الخدم ، طلقة طائشة ، قنبلة موقوتة ، اي شيء آخر يسهل استعماله في ذلك الزمان .

حقاً اني اتساءل : كيف تمكَّنَ المتآمرون المزعومون ، من اسقاط عمود الكهرباء على رأس الملك ، وليس على رأس «عيد» الجالس الى جانبه ، بينما السيارة تسير بسرعة جنونية ، وتراوغ ذات اليمين وذات الشمال؟!

كيف لم يخطئ المتآمرون الهدف؟! لقد وقع الحادث في طريق لا يمر منه ، الاّ الملك غازي وحده ، ولا تفتح بوابته الرئيسة الاّ له . ساق سيارته المكشوفة

والواطئة بسرعة فائقة ، لم يسيطر على مقودها لأنه كان «شارباً» منفعلاً ، اصطدم بالعمود الكهربائي على جانب الطريق من جهة السائق .

من الطبيعي والمنطقي حينما تكون الصدمة بهذه القوة ، بحيث تتسبب في اقتلاع العمود من اساسه ، فانه سينحني ويسقط من جهة الانبعاج . ومن الطبيعي والمنطقي ايضاً ان رأس السائق (الملك) كان سيتجه نحو مقود السيارة ، اما ترنحاً لأنه كان فاقد السيطرة على اعصابه ، او خوفاً ليخفي رأسه ويحتمي بالمقود ، او لاشعورياً .

مهما كان التفسير او التأويل ، فان العمود الطويل الساقط عليه من فوق ، سيضربه في «مؤخرة» رأسه ، وليس في مقدّمها ، لأنه واقع عليه من الاتجاه المعاكس . ولا ننسى من ان ومضات وجدحات كهربائية صاحبته . اما التفسيرات التي استخدمت كلمة «هيم» الواردة في تقرير الاطباء وتحميلها ما لا تحتمله ، فانها مجرد كلام اجوف .

لم يكن احد يجلس خلفه ، ولم يضربه احد من خلفه ، وان «الهيم» المقصود هو عمود الكهرباء ، وتقرير الاطباء لا يحتاج الى تأويل او اجتهاد .

هل مات عيد حقاً؟!

ولعل اطرف الاشاعات واغربها ، لا بل وأكذبها ، هو ما اشيع من ان العبد (الذي كان معه في السيارة) قُتل بعد وفاة الملك غازي مباشرةً . فهذا الادعاء وغيره من الادعاءات السخيفة تكذبه الوقائع ، لأن «عيد» لم يختفِ ولم يُقتل ، بل ظل يعيش معنا كغيره من العبيد .

لقد اجتمعت التفاهة والغطرسة في حاكم ، ليس عنده من مهمة بعد ابادة شعبه وتشريده ، غير تزييف تأريخه وتراثه ، عن طريق افلام سينمائية ،

يـأمر هـو نفسـه بـانتـاجـهـا واخـراجـهـا وكـتـابـة سينـاريوهاتـهـا ، وفـقـاً لـرؤاه المخـزية وتخيـلاته المريضـة . فهـو لم يكتفِ بـ «القادسـيـة» و«المسـألة الكبـرى» و«الأيام الطويلة» الملفَّقة ، انما تعداها الى «الملك غازي» ايضاً .

يحسب انه بهذا الفيلم البائس ، المملوء بالاوهام والتلفيقات ، يستطيع ان يمرر اكاذيبه على العراقيين وغيرهم ، ويخدع مشاهديه ، من خلال اختلاقه الاحداث ، ورسمه الحركات ، وتوزيعه الادوار على الفنانين المساكين من دون رقيب . . ولكن هيهات ، واني أشكر الله (جلَّ وعلا) لانه ابقاني الى اليوم ، كي أُبين حقيقة ما يُروى من تفاهات .

«عيد» احد عبيدنا الشباب ، جاء مع الملك من الحجاز ، وتربى عندنا وتزوج من احدى عبداتنا ايضا . كانت وفاة الملك غازي في ١٩٣٩/٤/٤م ، وظل عيد حياً الى ما بعد انقلاب ١٤ تموز ١٩٥٨م!

غريب ان اشاهد بأنه قُتل بعد الحادث مباشرة ، او أسمع ، او أقرأ بأنه اختفى! لذا بودي ان اتساءل لو كان لهذه الادعاءات من أساس ، فمن اين رزقه الله ببنات وبنين في الاربعينات؟ ولو كان اختفى فعلاً ، فكيف سمّى احد اولاده المولود في الاربعينات «بديع» على اسمي «بديعة»؟!

لم يُقتل عيد ، ولم يمت ، ولم يختفِ ، وكذلك زوجته «فرهندة» انّما ظل هو وإيّاها في خدمتنا . وفي منتصف الاربعينات كنا نشاهد فيلماً اجنبياً يحمل اسم «ميامي» فأعجب الابوان بهذا الاسم ، واطلقاه على ابنتهما المولودة فيما بعد . ورزقهما الله بولد سمياه «صباح» على اسم صباح نوري السعيد ، سقط عليه جدار فمات قبل بضع سنوات فقط .

هؤلاء كلهم ولدوا بعد وفاة الملك غازي بسنين ، وهم ما زالوا حتى الآن (عدا صباح) على قيد الحياة يعيشون في بغداد . وقبل فترة كتب اليَّ زوج «ميامي» رسالة يطلب مني فيها ايجاد عمل له في «عمّان» . اما

«فرهندة» أم ميامي فقد جاءتنا مرة الى لندن قبل سنين ، وبقيت تعمل في بيتنا زمناً ، حتى انتهت فترة اقامتها وعادت الى بغداد ، فماتت قبل فترة هناك (رحمها الله) .

كم من الاشاعات والأكاذيب اطلقها الآخرون يا ترى؟ أحسبُ ان كتب التأريخ مليئة بها . ولذا فان ما اقوله اليوم ، هو ما عشته وسمعته ورأيته بأم عيني . وهي الحقيقة التي انطقها لأول مرة ، بعد (٦٣) ثلاثة وستين عاماً من الصمت المطبق ، على حادث وفاة ابن عمي الملك غازي (رحمه الله) .

لماذا كل هذه الشكوك؟

ينتمي الملك غازي الى جيل من الشباب ، اتصف بحبه للهو والمرح . جيل طائش ، ولا أخالني اجانب الحقيقة لو وصفته بالتهور والمجون .

كان الملك غازي يخرج الى منطقة «عگرگوف» قرب بغداد بسيارته ، فيصعد تلالها بأقصى سرعة ، وينزل منها بسرعة اقصى ، ليخيف مَنْ كان يجلس بجانبه . وحينما يصرخ هذا المسكين هلعاً ، أو يصيح طالباً النجدة ، يرتمي هو على ظهره ضاحكاً عليه . فهو يفرح ويُسرّ لتلك المناظر والمشاهدات ، خاصة الالعاب البهلوانية والحركات الخفيفة .

يقود طائرته ويقوم بحركات مرعبة والعاب مخيفة ، تكون الخطورة فيها بأعلى درجاتها ، ولكثر ما حرَّض اصدقاءه (كصباح نوري السعيد مثلاً) على القيام بها .

و«صباح» معروف بمجازفاته ومخاطراته ، كالطيران تحت الجسر في بغداد وما الى ذلك . حتى سقط مرة من طائرته وكان غازي يتفرج عليه ، فتسبب

في شلل نصفي اصاب جسده ، وظلّ يعرج حتى يوم مقتله في تموز ١٩٥٨م (رحمه الله) . كان جيل الملك غازي جيلاً مغامراً وطموحاً ، ولكنه يكاد اليوم ان يكون شبه منقرض . . يا للحسرة .

* * *

بالرغم من اننا تركنا سيارة الملك غازي في نفس مكان الحادث ، فترة من الزمن ، لكي يراها الناس ويتأكدوا ، من ان مليكهم مات بحادث لا معنى له ، وقد زارها كثيرون فعلاً ، واطلعوا على المكان وصوروه . .

الاّ ان بعض الناس لم يصدقوا ما رأت عيونهم . لذا بثوا تلك الدعايات وشككوا في رواية الحادثة اصلاً ، لأنهم رأوا في الملك غازي عراقياً وطنياً مخلصاً ، محباً لشعبه ولوطنه ، فضلاً عن كونه شاباً في مقتبل عمره .

. . لهذا كله تفاعلوا معه واحبوه ، ولم يستوعبوا الصدمة التي سببت وفاته ، فارادوا تحميل مسؤولية غيابه المفاجئ ، مَنْ كانوا ينظرون اليهم كأعداء . فاتهموا الانكليز ، ولم يقتصر اتهامهم عليهم ، فطاول سياسيين عراقيين محترفين ومحترمين كنوري باشا وآخرين!

ولعل اشنع الأتهامات وافظعها ، تلك التي وجهوها الى اختي الملكة عالية واخي الامير عبد الاله ـ استغفر الله ربي واتوب اليه ـ كيف طاوعتهم نفوسهم القاسية ، ان يتقوّلوا كل تلك الاقاويل؟! ألهذا الحد يعمي الحقد قلوب بعض الناس وعقولهم ، بحيث يجعلهم يُلقون التهم جزافاً ، من دون ان يفكروا ـ ولو للحظة ـ بنتائج ما يتقولونه على الآخرين؟!

الفراغ السياسي

نقلوا جنازة الملك غازي من «قصر الحارثية» الى «قصر الزهور» وسجّوه في الغرفة الداخلية ، بانتظار رجال الدولة والحكومة . وصل الجميع وتجمعوا في القصر ، من امراء واشراف ووزراء ورؤساء حكومات سابقين ومسؤولين كبار واعيان ونواب وغيرهم . وحضر عمي الامير زيد بن الحسين (كان سفيراً في المانيا وأُنهيت خدماته) والشريف حسين بن ناصر (خال الملك غازي) .

جاءت الاميرة راجحة (ابنة عمي الملك فيصل الاول واخت الملك غازي وزوجة عبد الجبار محمود) وكانت في حال لا يمكن وصفها من التأثر والالم . فهي قبل ست سنوات فقط ، فقدت اباها ملك العراق الاول ، وهو في الخمسين من عمره الشريف .

اليوم تفقد اخاها ملك العراق الثاني ، وهو دون الثلاثين من عمره . . لم يبقَ احد من الرجال تعيش في كنفه «راجحة» . وها هو ابن اخيها ملك العراق الثالث ، طفل صغير يحتاج الى مَنْ يرعاه ويربيه .

وهنا لاحظنا همهمة وهمسات ، مداولات ومشاورات بين رجال الدولة ، وهم بين داخل وخارج وقائم وقاعد ومستفسر ومتأمل ، يتحدثون عن مسألة «الفراغ السياسي» الذي سيخلفه الملك بوفاته ، والتي اثارها نوري السعيد . لم نكن (نحن النساء) نعرف ماذا يدور ، الاّ بعد ان نودي على اختي الملكة «عالية» ليسألوها ، ما اذا كان الملك اوصاها بشيء ام لا؟

حينما اقرأ اليوم أو اسمع بأن «مؤامرة» حصلت ، اتَّفَقَ بموجبها نوري باشا واختي عالية على عقد «الوصاية على العرش» الى اخي عبد الاله ، اسرح في خيالي واستغرق في التفكير ، متأملة متسائلة : متى أُبرمت المؤامرة واين؟! وهل كان هناك الوقت الكافي للسماح بالتخطيط للمؤامرات ، فضلاً عن

ابرامها؟ ثم ممِّن؟ من زوجة ملك مسجى واخته وابن عمه واهله؟ أيعقل هذا التخريف؟!

لم يكن الظرف حينها ـ كما يحاول البعض وصفه ـ يسمح بأن يحاك من مخططات خلف الكواليس ، فضلاً عن تمريرها! واذا كان بعض العراقيين من سياسيين وغيرهم ، يفسرون كل الامور بعقل تآمري ، فان ما حدث يوم وفاة الملك غازي قبل اكثر من ستين عاماً لا يمكن تفسيره من نفس المنطلقات . واذا افترضنا (وهذا محال) بأن اختي الملكة عالية قد قبلت بهذه المؤامرة المزعومة ، فلماذا شاركتها فيها اخت الملك غازي الاميرة راجحة؟!

المصيبة اكبر من وصاية

لا شك في ان كل ما قيل من شكوك بشأن «الوصاية» هو محض افتراء وهراء ، لا ينبغي التوقف عنده طويلاً . كنا نحن كلنا (وبالذات اختي عالية) نعيش في حالة مصاب جلل ، داهمنا حادث مفجع على حين غرة ، لم نكن نتوقعه ، ولم نستعد له . كنا نكابد مأساة فظيعة ، يعتصرنا حزن عميق ، ننظر في وجوه بعضنا فاغري الافواه ، بعيون دامعة غائرة .

لذا حينما نودي على اختي الملكة ، وسُئلت عمّا اذا كان الملك اوصاها بشيء ، اجابت على الفور ، ومن دون ادنى تردد او اطالة نظر ، وعلى سجيتها بحضر من الجميع ، وهي بتلك الحال ، بأن الملك غازي عندما كان يلاحظ بعض الاضطرابات والتخبط ، في الاوضاع السياسية بالعراق ـ وما اكثرها ـ يكرر القول دائماً : «اذا ما حصل لي اي مكروه لا سمح الله ، فان وصيتي هي ، ان الذي سيستلم الامور من بعدي في العراق ، هو اخي عبد إللاّ» .

هكذا كان يتلفظ اسمه بلغة اهل الحجاز ، وهكذا كان يقول عنه .

واطلاق صفة الاخ او الاخت على ابناء وبنات العمومة ، هي تقليد عندنا .
كان يقول «خللي اخويه عبد اللاّ يصير بمكاني» وقد اقسمت الملكة عالية اليمين على شهادتها تلك . واراد الحاضرون ان يستمعوا الى شهادة الاميرة راجحة (اخت الملك غازي) فنودي عليها ، وشهدت بأنها سمعت الكلام نفسه من اخيها الملك .

مالَ بعض الحاضرين الى عمي الامير زيد ، بينما مالَ الآخرون الى اخي عبد الاله ، ومنهم نوري السعيد . كان من البديهي ان يميل اي من الحاضرين ، الى الشخص الذي يرتأيه يصلح وصياً على عرش العراق ، لأسباب ذاتية او موضوعية او اعتبارية . ولو مال نوري باشا الى الامير زيد ، وشَهِدَت لمصلحته اختي عالية والاميرة راجحة ، لقيل نفس الكلام الذي قيل بحق اخي عبد الاله ، ولأثاروا الشكوك وللفقوا الشبهات!

غير ان القرار لم يكن قرار نوري السعيد وحده ، انما وبعد ان استمع الجميع الى الشهادات ، تداولوا في الامر ، حتى اتفقوا وقرروا في الاخير ، ان يكون اخي عبد الاله وصياً على العرش .

توسَّم «نوري باشا» وغيره في اخي ، الكفاءة والقدرة على اداء المهام المنوطة به ، وان يكون اهلاً للمسؤولية والامانة والقيادة . فهو مايزال شاباً ، يافعاً ، في السادسة والعشرين من عمره ، رزيناً ، عاقلاً ، ليس متهوراً ، أو معاقراً للخمرة يومها . وكان نوري السعيد يعتقد ، بعد ان شهدت اختي وابنة عمي امامهم ، بأن عبد الاله وصي امين صالح على العرش ، والذي سيؤول بالنتيجة الى ابن اختي الملك فيصل الثاني . فالامير خاله (أخو والدته) وابن عم ابيه (بمثابة اخيه) وهو الذي سيربيه ، وسيكون بمكانة والده عنده

. . وبينما ذهب اخي لاداء اليمين في مجلس النواب ، كنا نحن النسوة نقيم مجلس العزاء ، نبكي ونلطم فيه على ما حل بنا من فجيعة!

حركة رشيد عالي الكيلاني

منذ مطلع عام الشؤم ١٩٤١م ، والمشاكل تعصف بالعراق ، اذ بلغ الامر من تدخّل الضباط العسكريين ، في شؤون الدولة والسياسة حداً لا يطاق . وحاول اخي عبد الاله جاهداً تسوية الامور مع العقداء الاربعة (فهمي سعيد ، محمود سلمان ، كامل شبيب ، صلاح الدين الصباغ) فلم يوفق .

لهذا اضطر وتحت ضغط الظروف السياسية القاهرة ، وتصرفات العسكريين غير المنضبطة ، الى مغادرة بغداد اول وهلة ، والنزول في ضيافة العشائر العراقية ، في لواء الديوانية لبضعة ايام . خرج ، ومن ثم عاد الى بغداد متخفياً عبر طريق زراعي مهجور ، لم يستدل عليه غير مرافقه الاقدم «عبيد عبد الله المضايفي» الذي ظل الى اليوم يحدثنا عن تلك الرحلة . . يبدو انها الحدث الاهم ، الذي بقي عالقاً في ذهنه ، على رغم كبره وشيخوخته .

جيءَ بـ «طه الهاشمي» رئيساً للوزراء ، كونه احد الضباط العسكريين (قبل حركة مايس ١٩٤١) ولم تنتهِ الازمة معهم ، ولا مع هذا الاخير . ومما زاد من شدة الخلاف السياسي المعروف بين اخي ورشيد عالي الگيلاني ، هو تدخل مفتي القدس الحاج «امين الحسيني» في الشأن الداخلي العراقي . انه لأمر مستهجن ان يتآمر هذا الضيف على العراق ، مع حفنة من الضباط والگيلاني ، للاطاحة بنظام حكم بلد آواه وحماه ورعاه .

تعامل معه اخي عبد الاله بكل ما تقتضيه اصول الضيافة والكرم. احتضنه واكرمه وسهّل له سبل عيشه واقامته، لكنه للأسف تنكّر لكل ذلك، ولم يراعِ فينا لا حرمة ولا إلاً، واخذ يحرّض الضباط ضد اخي، حتى اصبح هو لولب الحركة ومحركها.

اكتشاف انقلاب بالصدفة!

في ليلة الاول من نيسان (ابريل) عام ١٩٤١م، صادف أن كانت اختي الملكة عالية وعمتي «الأميرة صالحة بنت الحسين» تتعشيان عندنا في «قصر الرحاب». عادت الملكة الى «قصر الزهور» وقام سائقنا ليوصل عمتي الى مسكنها في شارع ابي نؤاس.

في طريق عودته شاهد حركة غير طبيعية للجيش، حيث الضباط والجنود والآليات العسكرية متواجدة قرب السكك الحديد، فأيقظ اخي عبد الاله من نومه واخبره بذلك.. تصوروا لو أن السائق لم يمر عبر ذلك الطريق، أو لم يخرج من «قصر الرحاب» لايصال عمتي الى منزلها أصلاً، فمَنْ كان سيخبر اخي بما يجري في البلد؟!

عند ذاك رفع الأمير سماعة الهاتف واتصل باختي عالية، يخبرها بأنه سيبيت ليلته تلك عند عمتي «صالحة». لأنه توقع بأن العسكر سيأتون الى القصر بحثاً عنه، بينما هو سيكون في مأمن عندها، سيّما أن بيتها بعيد عن اية شبهة، او كل ما من شأنه ان يثير الشكوك.

وبالفعل صدق توقعه، حيث جاء العسكر الى القصر يسألون عن اخي (لكنهم لم يدخلوا اليه) فاخبرناهم بأنه غير موجود هنا.

بات الامير ليلته تلك خارج القصر. وفي اليوم التالي جلس في المقعد

الخلفي من السيارة بين امي وعمتي ، وذهب الى السفارة الاميركية ، ليبيت ليلة فيها ايضا .

في اليوم الذي بعده هرَّبه السفير الاميركي بسيارته الخاصة ، الى قاعدة «الحبانية» الجوية ، بعد ان اخفاه في الجنطة الخلفية ، وغطّاه ببطانية . كان الانقلاب قد وقع وأُعلن عنه ، وطوَّقَ العسكر بغداد ، وأقيمت نقاط السيطرة والتفتيش ، غير ان سيارة السفير لم تفتَّش ، او توقف عند النقاط ، وهي ترفع علم الولايات المتحدة الاميركية .

ومن «الحبانية» طار اخي عبد الاله الى البصرة بطائرة انكليزية ، ووصلها يوم الخميس ١٩٤١/٤/٣م . بقي هناك مدة ، يصحبه فيها «جميل المدفعي وعلي جودت الايوبي» يبيتون بأحد اليخوت الراسية في شط العرب . وفي تلك الاثناء قويت شوكة المتمردين ببغداد .

وعلى رغم وقوف متصرف البصرة «صالح جبر» الى جانب أخي ، فقد حاول آمر حامية البصرة العقيد رشيد جودة ، ان يلعب بذيله ليسلِّم اخي بيد الانقلابيين ، ما اضطره للعودة مرة اخرى الى «الحبانية» .

لم نكن نحن في القصر نعلم بتحركات الامير وتنقلاته ، ولذا قضينا فترة عشناها في قلق واضطراب دائمين . سيطر المتمردون خلالها على الحكم سيطرة كاملة ، وعيَّنوا الشريف «شرف» وصياً على عرش العراق .

فاوضوا في البداية الشريف حسين ناصر (خال الملك غازي وابن عم والدي أيضاً) على قبوله منصب الوصاية على العرش ، فرفض ، ولذا اركبوه في سيارة وارسلوه الى الاردن مُبعداً من العراق . بينما قبله الشريف شرف ، الذي لم يكن موالياً لنا اصلاً ، منذ عهدنا بالحجاز ، يوم سلَّم الطائف من دون اية مقاومة أو قتال!

غيَّر الانقلابيون الحرس الملكي ، وجاؤوا بحرس آخر يرتدون زياً غريباً ،

احاطوا بقصر الزهور بحجة حماية الملك . . لا ادري حمايته مِمّن ولمَ؟!
وفرضوا علينا اجراءات قسرية ورقابة مشددة . منعونا من الخروج من القصر
ولم يسمحوا لأحد بزيارتنا ، لا طبيب ولا صديق ولا قريب ولا غيرهم ،
واصبحنا سجناء قصرنا!

زيارة سندرسن باشا

لكن قبل ان يلجأوا الى كل تلك الاجراءات ، كانت هناك بعض الثغرات التي استفدنا منها أحيانا . فمثلاً حينما ترك اخي البصرة ، وصلتنا اخبار ذلك ، لكن احداً لم يتأكد الى اين اتجه مرة اخرى ، لذا اردنا ان نعرف اين كانت وجهته ، وما هي آخر اخباره .

قررنا (اختي الملكة عالية وانا) ان نلتقي طبيب العائلة العراقية المالكة «سندرسن باشا» فركبنا سيارة البلاط ، وارتدينا العباءات ، ووضعنا النقاب «البوشية» على وجهينا ، وخرجنا من القصر . يومها لم تكن هناك أية تعليمات ، أو اوامر مشددة لدى الحرس الجديد بمنعنا من الخروج أو الدخول الى القصر ، لهذا لم يسيئوا الادب مع النساء ، ولم يفتشونا .

وحرصاً منا على تمويه الانقلابيين ، خشية أن يكونوا يراقبون تحركاتنا سرياً من دون ان نعلم ، طلبنا من السائق ان يوصلنا الى منزل عمتي صالحة ، وينتظرنا عند الباب لحين خروجنا . كان منزل عمتي كبيراً ، يطل على شارعين وله بوابتان ، واحدة امامية على شارع «ابو نؤاس» والاخرى خلفية على شارع «السعدون» . اعلمنا عمتي بغرض زيارتنا ، فأخرجتنا من البوابة الخلفية عبر الحديقة .

تعود علاقتنا بسندرسن باشا ، الى العشرينات من القرن العشرين ، حيث

عمل طبيباً في الجيش البريطاني بالعراق . أنهى خدماته فيه ، وأسس (بمساندة عمي الملك فيصل الأول) الكلية الطبية ببغداد ، وأصبح عميدها الفخري (بلا راتب)! ثم مديراً للمستشفى الملكي ، وطبيباً للعائلة العراقية المالكة . رافق عمي في مرضته الى بريطانيا ، لكنه لم يرافقه في مرض وفاته الى سويسرا .

لعب دور الوسيط بيننا وبين أخي والانكليز عام ١٩٤١م ، بحكم تابعيته البريطانية ، لا بحكم اي عنوان آخر ، فهو لم يكن له أية أدوار ، او تدخلات سياسية في شؤون البلد . والغريب ان الذين كتبوا عنه ، وقيّموا دوره ، اعطوه اكبر من حجمه في الجانب السياسي ، بينما سلبوا عنه دوره الاسمى والاهم ، في الصحة والتعليم!

ملكة تتمشى في الشارع

بينما أصبحنا في الشارع العام ، وَجَدَت اختي الملكة عالية نفسها في موقف لا تُحسد عليه ، لم تألفه من قبل . فهي لم تتعود على المشي في الشوارع فيما مضى من حياتها ، ولم تُخبِر اساليب التعامل مع اصحاب العربات (هي الوسائط المتوفرة للنقل العام في العراق وقتئذ قبل انتشار السيارات) . اما انا فكنت أخبرُ منها في ممارسة الحياة الشعبية .

أومأت الى حوذي (يقود عربة على الطراز الڤيكتوري تجرها الخيول) وقلت له : الى المستشفى الملكي . رفع السايس سوطه وضرب به ظهر الحصان ، عازفاً لحناً سمفونياً خاصاً خرج من فمه ، فانطلقت العربة تخبُّ بنا .

كان رأينا ان لا نذهب الى منزل سندرسن باشا مباشرة ، خشية ان يكون مراقباً . ننزل عند المستشفى الملكي اولاً ، ومن هناك نتمشى الى منزل

الطبيب في شارع العسكري . وما ان نزلنا من العربة حتى لَمَحَنا نائب ضابط عسكري ، كان يقف في المنطقة متكئاً على سياج . يبدو ان حجابنا المُبالغ فيه ، وربما هيئتنا المتميزة لفتت نظره الينا ، فبدأ بمتابعتنا . اخبرتُ اختي عالية بالموضوع ، لأنها لم تنتبه اليه ، وواصلنا سيرنا .

لا اكتم سرّاً كم اننا كنا محرجتين ، وضعنا انفسنا في موقف صعب للغاية . فهذه ملكة العراق تمشي في الشارع وحدها ، ليس معها من احد سواي! ونحن لم نألف من قبل المشي في الشوارع ، او الالتفات الى الخلف لننظر مَنْ يتابعنا او يلاحقنا ، وكأننا فتاتان تائهتان .

تخيلوا لو ان هذا النائب ضابط اوقفنا في الشارع وسألنا من انتن؟ فبماذا سنجيب؟! او ان احداً تحرّش بنا او تفوّه بكلمات معينة ، وهو لا يعرف ان هذه مليكته امامه؟! قطعنا شارع العسكري يتبعنا النائب الضابط ، وكل همّنا ان نعرف آخر اخبار الانقلاب واخي عبد الاله .

دخلنا منزل سندرسن وسألتُه عن اخي فقال : «انه في الحبانية بأمان وبصحة جيدة ، وانه سيسافر الى الاردن عن قريب» . كان سندرسن يتكلم قليلاً من العربية ، لكن الحوار معه تم باللغة الانكليزية . حصل هذا اللقاء قبل ان يهجم الجيش العراقي على قاعدة الحبانية ، لأنه بعدما وقع ذلك ، اضطر طبيب العائلة العراقية المالكة الى الاحتماء بسفارة بلده ، حيث صادر الانقلابيون بيته وامواله ، ونهبوا كل ما فيه ، متناسين كل أفضاله وخدماته الطبية ، التي قدمها للعراق وشعبه .

خرجنا من مسكنه لنأخذ عربة اخرى ، ترجعنا الى بيت عمتي صالحة . ولعله من حُسن حظنا ، اننا لم نلحظ النائب الضابط في انتظارنا . دخلنا البيت كما خرجنا من بوابته الخلفية خفية ، وعاد بنا سائقنا الى القصر ، وهو لا يعلم بقصة رحلتنا الخاطفة تلك!

سر السينما نونو

وصل الخبر الى اخي عبد الاله ، بأننا قلقون ومشوشون عليه ، فأرسل طائرة انگليزية ، ظلت تحوم فوق قصر الزهور . لوَّحنا لها وتابعناها متنقلين من مكان لآخر ، لأننا علمنا بأنها مرسلة من قبله ، وانها تريد ان تخبرنا بأمر ما . وبالفعل بعد برهة ألقت منشورات على «قصر الزهور» فسقطت على موقع الاذاعة (أو السينما كما كنا نسميها من قبل) فتراكض الحرس والجنود الى التقاطها ، ولم تقع اي منها بأيدينا . اخذوا ما جمعوه الى آمرهم ، ولم نتعرف على محتويات المنشور .

كان احد العرفاء من الحرس ، يأتي كل مساء ويبقى يحوم حول القصر ، فننزل الى ملاقاته خلسة ، لنستمع منه الى آخر الاخبار . يطلعنا على كل المستجدات ، خاصة القرارت والاجراءات التي يتخذها الانقلابيون ، وحركات التنقلات التي يجرونها داخل صفوف قواتهم .

في مساء ذلك اليوم جاء واخبرنا ، بأن المنشور تضمن اربع كلمات فقط ، مبهمة لم يعرفوا معناها ، يقول (المنشور) : «انا مكان نونو سينما» . وأخبرنا بان آمريه لا يعرفون مغزاها ، ولا يقدرون على حل لغزها ، لهذا تاهوا وراحوا يفتشون موقع «السينما» تفتيشاً دقيقاً ، متأملين ان يعثروا على شيء ما يدلّهم على معنى المنشور .

استخدم الانقلابيون مصابيح يدوية لحملة تفتيشهم تلك ، بعد ان قطعوا الكهرباء علينا ، وقضينا اياماً في ظلام مطبق . اما نحن فبمجرد ان اجتمعنا ، حللنا اللغز وفهمنا بأن اخي ما يزال في «الحبانية» . فنونو هو اسم الملك فيصل الثاني ، كنا نناديه به حين كان صغيراً . ومكان السينما ، هو الحبانية ، لأن اخي عبد الاله كان يأخذه اليها ويصوره بالسينما هناك . . وصلت رسالة الامير فاطمأننا الى مكان وجوده ، وانه ما يزال حياً يرزق .

الصبّاغ في قصر الزهور

جاءنا في احد الايام «صلاح الدين الصبّاغ» الى القصر بصحبة احد «العقداء الاربعة» ومجموعة من الحرس والجنود ، وطلب مقابلة الملكة عالية . عندها حاول رئيس الديوان الملكي «عبد القادر الگيلاني» مقدماً ان يُبسِّط من مطالب الانقلابيين ، عند عرضه اياها على الملكة ، محاولاً اقناعها أو استمالتها اليهم ، لدوافع قرابية تربطه برشيد عالي ، لكنها ابت مسايرته أو الرضوخ لرغبته ، وإن كانت وافقت على النزول الى الصالة لتقابلهم .

كان قد ملأ الحزن (على فقدان الملك غازي) جوَّ القصر ، بينما اتشحت اختي عالية بالسواد من قمة رأسها الى اخمص قدميها . ارتدت يوم مقابلتها «الصباغ» ثوباً اسود طويلاً ، وتناولت عباءتها السوداء ، وغطت رأسها ، ولفَّت وجهها بفوطة سوداء . نزلت مجللة بالسواد ، لتعبّر لهم الى جانب حزنها على زوجها المفقود ، المأسوف على شبابه ، حزنها مما يحصل في العراق .

بينما انزوينا نحن نسترق السمع ، منصتين لما يدور بينهما من حوار . لم نفهم ما قالاه على وجه الدقة ، غير انني رأيت اختي تضرب برجلها الارض فجأة ، وتقول :

«ان هذا لن يحصل أبداً أبداً أبداً» . توسلوا اليها ان توافق على مطالبهم ، فلم ترضخ ، وتَرَكَتْهُم وحدهم في الصالة .

حاولوا اقناعها بان الامير عبد الاله قد غادر الى «عمّان» ، وعليه فانها يجب ان تؤيد حركتهم ، وتساند الوضع الجديد . عليها ان تقبل بالشريف «شرف» وصياً على عرش العراق ، وان تتخلى عن اخيها عبد الاله ، وان تؤيد الحكومة الجديدة ، فلم توافق .

ثمة موقفان متناقضان يستدعيان التأمل ، موقف الشريف شرف وموقف عبد القادر الگيلاني .

لم يكن الشريف شرف احد ابناء العائلة العراقية المالكة ، انما كان احد الاشراف ، وهو ابن الشريف راجح بن فواز بن ناصر ، يلتقي معنا عند جدِّنا الأعلى الشريف عون ، قَبِلَ لنفسه التعاون مع المتآمرين ضد قريبه لاحتلال موقعه ، فنصّبوه وصيّاً على عرش العراق .

بينما عبد القادر الگيلاني ، وبالرغم من كونه رئيساً للديوان الملكي ، ابى الاّ ان ينحاز الى ابن عمه رشيد عالي الگيلاني ، ويلعب دور الوسيط غير النزيه بيننا وبين الانقلابيين ، محاولاً الضغط على اختي الملكة للقبول بمطالبهم .

. . لقد اختلف الاثنان في عائدية الولاء للقرابة ، لكنهما اتفقا على عنصر الخيانة لعرش العراق!

لغز الخاتم

في تلك الظروف العصيبة والايام القاهرة ،لم يتمكن احد من زيارتنا ، سوى رئيس مجلس الاعيان ، ورئيس الوزراء فيما بعد «السيد محمد الصدر» . اجتمع بأختي الملكة عالية ، وتداول معها في شؤون البلد ومستقبله ، والاحتمالات المتوقعة التي من الممكن ان تواجهنا .

حكى لها ما يجري خارج القصر من تطورات ومشاكل ، وحكت له ما يجري داخل القصر من مضايقات واجراءات . ثم تَنَبَهَتْ الى امر مهم اخبَرَتْه فيه قائلة : «اعتقد ان هؤلاء سيمنعونك من ان تصل الينا في المرة القادمة ، لأنه كما علمت ، انهم بصدد اجراءات جديدة سيتخذونها بشأننا ، فاذا ما حصل لنا اي مكروه ، أو أمر لا سمح الله ، سوف ابعث لك هذا العبد وفي يده خاتمي هذا ، اذا ما اعطاك اياه فاعلم انه مرسول من قبلنا» .

خرج السيد الصدر واذا بصلاح الدين الصباغ ، يرسل الينا احدهم ليبلغنا

بأمره بعد أيام ، وهو أن يأخذنا كلنا مع اختي الملكة وابنها الملك كرهائن ، زاعماً ان الانگليز سيقصفون «قصر الزهور» ، وانه يخشى عليهما من القصف!

ما هذا الهراء؟ وماذا يقول هذا الصباغ بحق السماء؟! كيف يقصفون قصراً فيه طفل ونساء ، ولماذا؟! أضدنا ام لمصلحتنا؟ أوَ ليس ان اياً من الجوابين سيكون أتفه من الثاني؟!

يبدو ان الانقلابيين ـ في تلك الأثناء ـ بدأوا يتلمسون جدية السعي لانهاء حركتهم ، وان الكفة اخذت تميل لصالح اخي عبد الاله . . وهكذا توالى الانقلابيون ينهزمون ويتخلون عن وحداتهم العسكرية ، واحداً تلو الاخر ، مع اول شروع بالقصف والقتال لاحقاً .

عند ذاك ارسلت الملكة عالية عبدها «وصل الله» الى السيد الصدر ، تخبره بموضوع الترحيل وتطلب استشارته ، فيما اذا كان يرى من المصلحة اخلاء القصر ، او العصيان للبقاء في بغداد . بعد ساعتين جاءنا العبد واخبرنا باشارة الصدر علينا ، وهي الموافقة على الذهاب مع الانقلابيين!

استغربنا نحن رأيه هذا ، الذي لم نتوقع صدوره منه ، اذ كيف استصوب رأياً يلقي بنا الى المصير المجهول؟! ومع ذلك اخذنا به ، ليتبين لنا فيما بعد ، بأن ذلك لم يكن رأي الصدر ، وانما رأي الانقلابيين!

بدأنا بحزم حقائبنا وملابسنا وحاجاتنا استعداداً للرحيل ، وحملنا معنا (نحن النسوة) بعض الاسلحة النارية التي نعتز بها ، لا لأغراض القتال ، وانما لغرض الاحتفاظ بها كذكرى ، فيما لو آل مصيرنا الى ما لا نعرفه .

ركبنا القطار مساءً من بغداد الى كركوك ، وصلنا اليها واذا بطابور من المستقبلين ، وقفوا بالمحطة في انتظار القادمين ممن يخصونهم . عندما رأونا نسير بين صفَّين من الجنود المسلحين كأسارى ، اطلقوا العنان لعيونهم تذرف الدموع على حالنا ، وهم لا يستطيعون ان يفعلوا لنا شيئاً .

ومن كركوك صعدنا في السيارات الى اربيل . لم يبق احد منا بعاصمة العراق ، كلنا نسوة وليس معنا احد من الرجال غير الحراس والعسكريين . كنا نسير تحت حراب الانقلابيين ، مطوّقين من جميع الجوانب . لم تسمح اختي الملكة عالية لأي احدٍ ، ان يأخذ ابنها فيصل منها ، كانت ترتدي عباءتها وتمسك بيد الملك الصغير بقوة ، وتمشي امامنا .

وصلنا الى منزل متصرف (محافظ) اربيل «عبد الحميد» . نسيت لقبه ، أو اسم والده . كان رجلاً طيباً وزوجته سيدة محترمة ومضيافة ، بتنا ليلة عندهم . ومنه انتقلنا الى بيت احد الملالي الاكراد الكبار في اربيل . لم ننزل في بيته الكائن بالقلعة الشهيرة وسط أربيل ، انما خرجنا خارج المدينة وبقينا في احد بيوته ، بين حدائق وبساتين غنّاء .

لم نتطلع الى مشاهدة اشجار اللوز والجوز والبلوط السامقة ، ولم نتذوق ثمرات الخوخ والتفاح والعرموط ، ولم نتفيأ بظلال اشجارها ، كما يتفيأ الحالمون والساهرن . . انما جلسنا في انتظار مصيرنا المكتوب!

وفاء كردي

مكثنا في بيت ملاّ افندي (والد النائب عز الدين ملاّ افندي) اياماً ، وفي احدى الليالي ، لا ادري إن كانت سعيدة ام تعيسة ، جاء احد الانقلابيين يطلب من ملاّ افندي ، ان يسلّم له الملك فيصل الثاني ، فرد عليه : «والله لا أسلّم الملك حتى لو قتلتموني» . . لمّا رأوا اصراره ، خرجوا .

وبينما نحن جالسون وقد طار النوم من عيوننا ، نتنقل من غرفة الى غرفة ومن مكان لآخر ، لا ندري ما نفعل ، واذا بنا نشاهد ارتالاً من السيارات تخرج من اربيل مولية . لم نعلم ماذا يحصل والى اين تتجه هذه

السيارات ، ولكننا بدأنا نسمع الناس يتهامسون فيما بينهم ، ويتداولون انباءً جديدة ، مفادها ان حكومة الانقلابيين انهزمت ، وان الامير عبد الاله سيعود الى البلاد .

فرّ المتمردون بجلودهم ، واحتار كل واحد منهم بنفسه ، لهذا لم يأخذوا الملك فيصل الثاني اسيرا . لقد اشاعوا ، بل حاولوا فعلاً ، ان يأخذوه معهم ، لكنهم كما يبدو تخلوا عن هذا الخيار ، كي لا يضيفوا همّاً جديداً الى همومهم . انهم ارادوا النجاة بأنفسهم ليس إلاّ . . هرب الانقلابيون الى ايران أولاً ، ثم الى تركيا وألمانيا آخراً ، وتركوا بلدهم من دون حكومة!

* * *

دخل اخي عبد الاله بغداد ، واستعاد الجيش الاردني ومن معهم من العراقيين والانكليز ، العراق من النازيين الجدد ، وعلمنا نحن بأنه وصل الى بغداد ، فتهيأنا للعودة اليها . وبينما كنا نحزم حقائبنا ونلملم اشتاتنا استعداداً للرجوع ، كانت اصوات الدفوف والطبول تقرع اسماعنا في اربيل ، فرحاً بعودة الوصي والحكومة الى بغداد!

لم يكن من بدٍّ امامنا سوى مشاركة الاكراد افراحهم واحتفالاتهم تلك . فالطبول والدفوف تقرع في كل مكان ، واصوات المزامير والابواق تغرِّدُ مبتهجة بما حصل في العراق . رقص الخدم وغنى الاكراد ، اما نحن النساء فنزعنا (ولاول مرة منذ وفاة الملك غازي قبل نحو سنتين) السواد ، ولبسنا الملابس الملونة الزاهية ، بزهو جبال كردستان واهلها الاوفياء الطيبين ، وتهيأنا لرحلة العودة الى بغداد .

بغداد . . الصامتة المنكوبة

وصلنا بغـداد فـصـعـقنا لمنظرها اول وهلة! لم تكن هذه عـاصـمـتنا التي عرفناها وألفناها منذ سنين . . يا الهي ماذا حصل بها؟ لم نفارقها سوى بضعة ايام ، ما الذي حدث خلالها ياترى؟!

لم تعد بغـداد تلك المدينة المتحركة المتوثبة الجميلة . انهـا ليست سوى مدينة خامدة خاوية ميتة ، وكأنها بقايا آثار تاريخية لمدينة هجرها اهلها ، أو اصابها وباء قضى على مَنْ فيها ، وفرَّ مَنْ استطاع الفرار منها .

ليس فقط لا نسمع فيها اية اصوات لنقر دفوف ، او ضرب طبول ، او نفخ مزامير ، بل اننا لم نرَ بشراً يمشون في شوارعها! لم نرَ غير قوات الجيش تطوقها من كل جانب ، واوامر منع التجول هي السارية فيها . تساءلنا ما الخبر؟ قيل لنا ان النازيين والغوغاء هجموا على اليهود ، يقتلونهم ويسرقون محلاتهم ودورهم ، ويسلبونهم كل ما يملكونه! تساءلنا لماذا؟ وهل هذا هو الذي من اجله انقلب الانقلابيون علينا؟! ما ذنب هؤلاء الناس؟ انهم عراقيون ـ كغيرهم ـ يعيشون في هذا البلد منذ اقدم الازمان؟

واصلت السيارات (التي اقلتنا) سيرها باتجاه «قصر الزهور» . كنا فارقناه منذ فترة ، ولا ندري ماذا حل به ، وحينما اقتربنا من بوابته ، لَمَحْنا اخي عبد الاله في انتظارنا يتمشى قربها . ساءنا رؤية منظره ، وجدناه نحيفا شاحباً ، ضعيفاً ، لدرجة لا تصدق ، فالاحداث اتعبته واجهدته كثيرا . حينما التقيناه ضممناه الى صدورنا ورحنا نقبِّلهُ ، نتحسس بدنه الضعيف وقسمات وجهه الشاحب ، لم نتمالك اعصابنا فانفجرنا في بكاءٍ مدو .

. . بعد طقس مفجع من العناق والتقبيل ، والبكاء والعويل ، ساد جو الحديقة في الفضاء الطلق ، انتقلنا الى الداخل ، لنستمع الى قصص العذاب والالم ، في رحلة مأساة مايس ١٩٤١م .

ملك يُفرِّق المتظاهرين . . بعقاله!

حدثنا اخي عمّا قاساه اثناء فترة وجوده في «عمّان» الى جانب عمي الملك عبد الله ، ذلك ان امين الحسيني كان يحرِّضُ الفلسطينيين على التظاهر ضده . وقد خرج هؤلاء فعلاً يهتفون امام مقره ، وحاولوا الهجوم عليه ، ولم يراعِ الحسيني ومَنْ معه من الفلسطينيين حرمة عمي ، ولم يُقَدِّروا له ، ان ابن اخيه لجأ اليه ليحتمي به . فأصول الضيافة والنخوة ، فضلاً عن الآصرة النسبية ، تفرض على عمي حماية ابن اخيه ، والدفاع عن مَنْ يلوذ به .

لذا ظل الالم يعتصر قلب الملك المُحرج ، وهو ينظر الى ابن اخيه في ذلك الحال ، وهؤلاء يطالبون بالقصاص منه ، ما اضطره الى النزول للشارع ، يسوس المتظاهرين ويُفَرِّقُهم بعقاله .

لقد كان تصرفه ذاك غاية في الروعة والوفاء ، كم تمنيتُ لو ان احداً صوَّرَ تلك اللقطات الفريدة والنادرة . . ملك (كان أميراً على شرق الأردن) ينزل بنفسه الى الشارع لِيُفَرِّقَ المتظاهرين ، ليس بالدبابات ، ولا بالرشاشات ، ولا حتى بالقنابل المسيِّلة للدموع . . انما بعقاله!

لم يكن امين الحسيني وحده يحرِّض على النيل من اخي عبد الاله ، فأوامر التحريض استمرت تُصَدَّرُ من برلين بصوت «يونس بحري» الذي كان يلعلع من اذاعة المانيا ، هاتفاً بسقوط العائلة المالكة في العراق ، من خلال برنامجه الشهير «هنا برلين حي العرب» ومحرضاً الجيش العراقي على الثورة عليها ، وشاتماً متشمتاً بنا .

ثار الگيلاني بدعوى تحرير العراق ، واذا به يحل ضيفاً مع الحسيني على المانيا ، وما هي الاّ ايام واذا بالخلاف ينشب بينهما ، كل منهما يريد ان ينال كامل الحظوة عند الفوهرر . لقد ظن هذان الشخصان وغيرهما ، بأن النظام

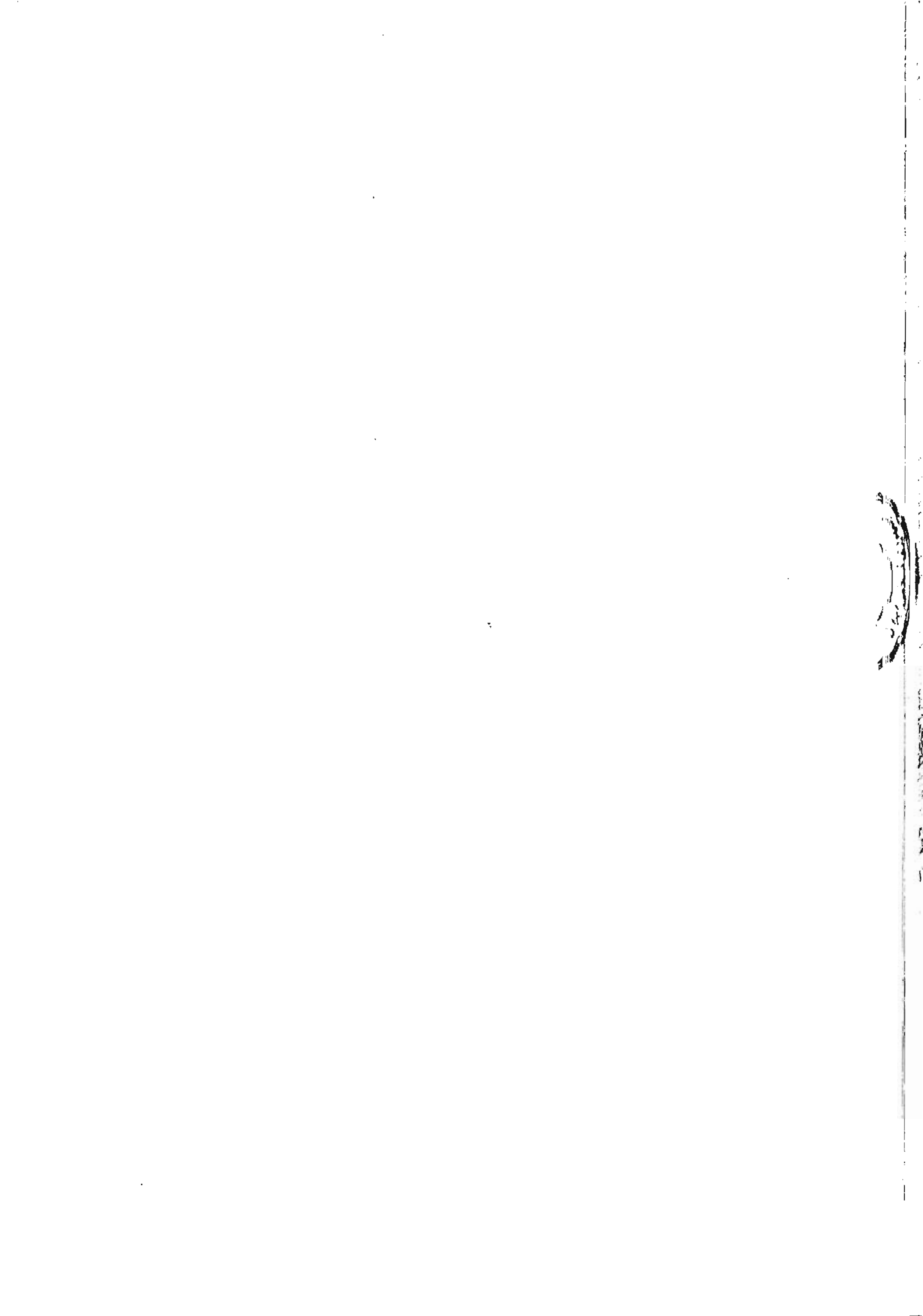
النازي سيدوم الى الابد ، وان دول المحور هي التي ستنتصر هذه المرة في الحرب الجديدة .

. . ولكن لم تمر سوى اربع سنوات على حساباتهم تلك ، واذا بالنظام النازي يلاقي نفس مصير حركة مايس لعام ١٩٤١م في العراق .

أقمنا منقبتين نبويتين بعد عودتنا الى «بغداد» . واحدة في قصر الزهور ، والأخرى في قصر الرحاب . فَرَحْنا فيهما فرحاً كبيرا . زغردت النساء وصفَّقْنَ ، ولبسنَ فساتين طويلة ، وشكرنا الله على ظفرنا وسلامتنا .

* * *

لعل أحد الاسرار المهمة ، الذي كان سيفرح له الگيلاني والحسيني ، لو علما به في حينه (لا بل لتغير مجرى الامور كلها) والذي لم يُكشف الى اليوم ، هو ان اخي عبد الاله اخبرنا ، بأنه لو لم يجدنا بالعراق بعد عودته اليه ، لرجع الى عمّان يقضي بقية عمره فيها! . . ذلك سرٌّ أجد من الضروري ـ هنا ـ أن أكشفه للناس ، وإن كان قد مرَّ عليه أكثر من (٦٠) ستين عاما .





زواج الملكة عالية ـ بغداد ١٩٣٤م.

لهذه الصورة خصوصية أخرى، فضلاً عن انها نادرة وفريدة، فقد تضمنت أيضاً صورة ملكة سورية والعراق حزيمة بنت ناصر (حرم الملك فيصل الأول).

الواقفات في الصف الخلفي، من اليسار: ١ ـ الأميرة صالحة بنت (ملك العرب) الحسين بن علي. ٢ ـ الأميرة عزة بنت الملك فيصل الأول.
٣ ـ الأميرة عبدية بنت الملك علي. ٤ ـ الأميرة راجحة بنت الملك فيصل الأول.

الجالسات في الصف الأمامي، من اليسار: ١ ـ الملكة حزيمة بنت ناصر (زوجة الملك فيصل الأول). ٢ ـ الأميرة بديعة بنت الملك علي.
٣ ـ الملكة عالية بنت الملك علي. ٤ ـ الأميرة جليلة بنت الملك علي. ٥ ـ الملكة نفيسة (زوجة الملك علي).



مؤلف الكتاب يقف الى جانب لوحة «قصر ستانويل» الاصلية للملكة عالية، وقد نقلتها الاميرة بديعة الى بيتها في لندن بعد بيع القصر. تُنشر صورتها لأول مرة (أما اللوحة المنشورة فهي لـ «قصر الرحاب» ببغداد). لم نتمكن من انزالها لقراءة ما كُتب خلفها. غير ان الاميرة تذكر انها لرسّام بريطاني، انجزها بعد وفاة الملكة عالية (رحمها الله) عام ١٩٥٠م، حيث وضع صورتها امامه، وجيء ببدلتها لتُلقى على كرسي، ومن ثم شرع في رسمها.



الملكة عالية بين ولدها الملك فيصل الثاني واخيها الامير عبد الاله، ترتدي اجمل بدلاتها (التي رُسمت فيما بعد على لوحة زيتية مشهورة) فضلاً عن طقم الفيروزج الذي سرقه الضبّاط الاحرار عام ١٩٥٨م.

صوّرها «ارشاك» ببغداد ـ قصر الزهور ١٩٤٧



الملك غازي (طيّاراً) يقف الى جانب طائرته بملابس وَعُدَّة الطيران.



ملك العراق غازي بن الملك فيصل الاول (١٩٣٣ـ ١٩٣٩م)
صورة له بالزي الملكي في مكتبه.



من اليمين: ١ ـ الأميرة جليلة. ٢ ـ الملك غازي. ٣ ـ الملكة نفيسة (جالسة في السيارة). ٤ ـ الأميرة بديعة.
التقطت الصورة لهم الملكة عالية (زوجة الملك غازي) ـ تل الملح (قرب بغداد) ١٩٣٥م.



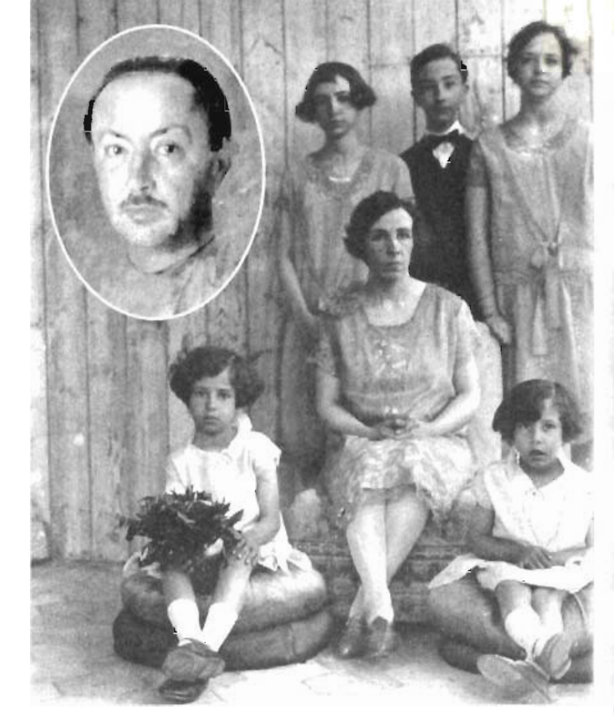
الملكة عالية بنت الملك علي بن الحسين.



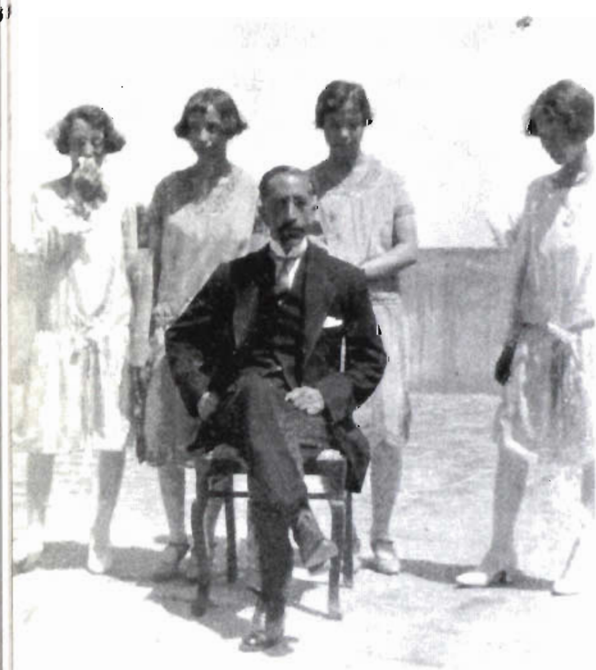
الملك غازي بالزي العسكري وشارة الطيران على صدره.



الامير عبد الاله بن الملك علي بن الحسين
في الزي العسكري ببغداد.



الملكة نفيسة بنت عبد الاله باشا تتوسط بناتها الأربع وابنها الوحيد الأمير عبد الاله،
وهم من اليمين (الواقفون): ١ ـ الملكة عالية. ٢ ـ الأمير عبد الاله. ٣ ـ الأميرة عبدية.
الجالسات: ١ ـ الأميرة جليلة. ٢ ـ الملكة نفيسة. ٣ ـ الأميرة بديعة.
وفي الاطار: لوحة فنية معبِّرة، رُسِمَت للأمير عبد الاله معلَّقة في منزل الاميرة بديعة
بلندن. اشترتها من طبيب عراقي يتعاطى اللوحات، عام ١٩٨٣م في بريطانيا.



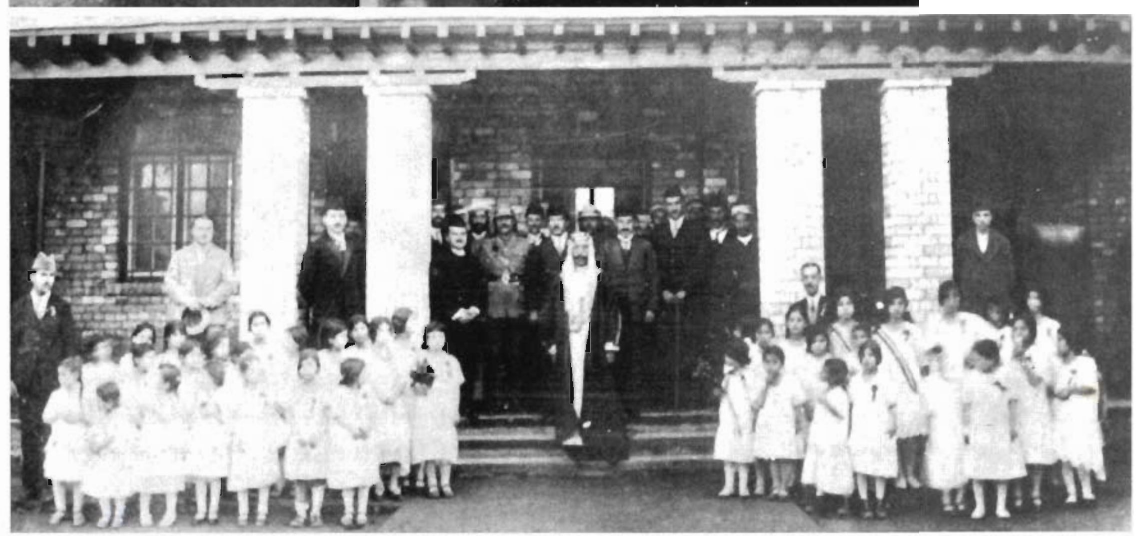
صورة فريدة للملك فيصل الاول، التقطت له فوق سطح «قصر الحرم» في احد
الاعياد خلال العشرينات، وقد اصطفَّ خلفه اربع اميرات، اثنتان منهن ابنتاه
والاخريان ابنتا اخيه الملك علي، وهنَّ (من اليمين) على التوالي:
١ـ الاميرة عزة ابنة الملك فيصل الاول. ٢ـ الاميرة (الملكة) عالية ابنة الملك علي.
٣ـ الاميرة عبدية ابنة الملك علي ٤ـ الاميرة راجحة ابنة الملك فيصل الاول.



الصورة ملتقطة في الحجاز، مكة المكرمة (عام ١٩١٦م) وهم من اليمين:
١ـ الملكة عالية ابنة الملك علي. ٢ـ الاميرة عبدية ابنة الملك علي.
٣ـ الامير عبد الاله ابن الملك علي.



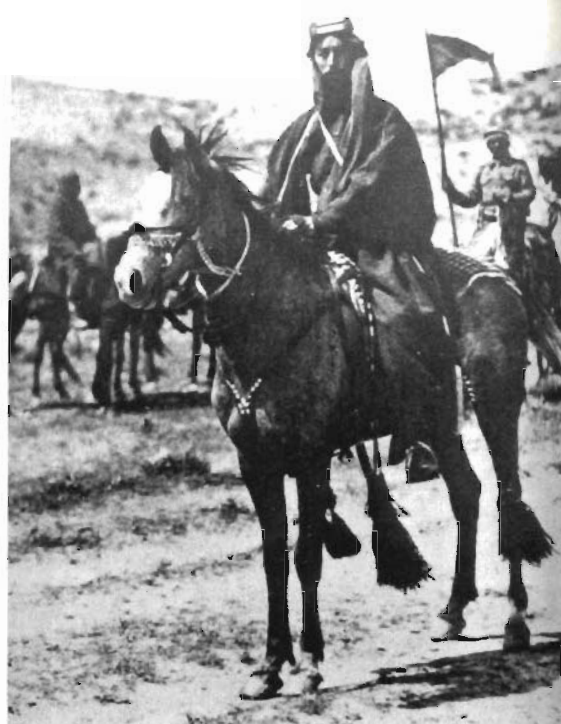
حشد من المستقبلين من مختلف الطوائف والقوميات، في محطة قطار بغداد، بعد عودة الملك فيصل الاول من المؤتمر العربي في ١٩٣٠/٢/٢٥م. صورة خلفية للملك.



الملك فيصل الاول في افتتاح المستشفى الملكي ببغداد بتأريخ ١٩٢٧/١/٢٧م والذي مارس «سندرسن باشا» عمله فيه.



كُتب على هذه الصورة ما نصّه: «تذكار دار المعلمين، الى معالي وليها المقدام حضرة الاستاذ ساطع بك الحصري المكرم». وقد وقَّعَ عليها مدير القسم الداخلي ومدير دار المعلمين، وربما شخص اخر لم يتضح توقيعه.
الملك فيصل الاول جالس على الكرسي، في زيارة له الى دار المعلمين ببغداد، وقد احاط به اساتذتها وطلبتها.



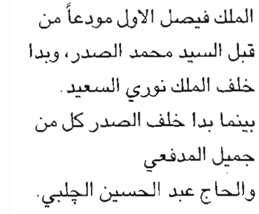
الملك فيصل الاول وخلفه الامير زيد يحمل راية ابيه الحسين بن علي في احدى معارك فيصل الحربية.



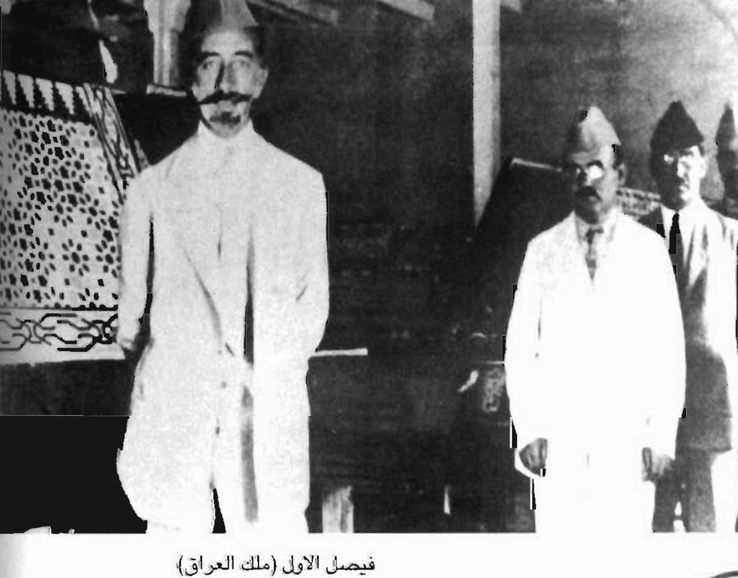
تمثال الملك فيصل الاول ينتصب وسط بغداد بمنطقة الصالحية، نحته نحّات ايطالي بعد وفاته، ازاله انقلابيو ١٤ تموز ١٩٥٨م، واعاده صدام من جديد الى موقعه الاصلي في الثمانينات، تثميناً لموقف الملك حسين بن طلال المساند له في حربه المدمرة ضد ايران.

الملك فيصل الاول (ملك العراق) الخامس من اليسار (واقفاً) بين بعض رجال الدليم، غرب العراق في ١٧ آذار ١٩٢٢م.





الملك فيصل الاول مودعاً من قبل السيد محمد الصدر، وبدا خلف الملك نوري السعيد.
بينما بدا خلف الصدر كل من جميل المدفعي
والحاج عبد الحسين الچلبي.



فيصل الاول (ملك العراق)



الملك فيصل الاول (من اليسار) وطبيبه الخاص «سندرسن باشا» يتناولان طعاماً خفيفاً بعد هبوطهما في طائرتهما خلال احدى رحلاتهما سوياً.



الملك فيصل الاول في لقطة تأمل.



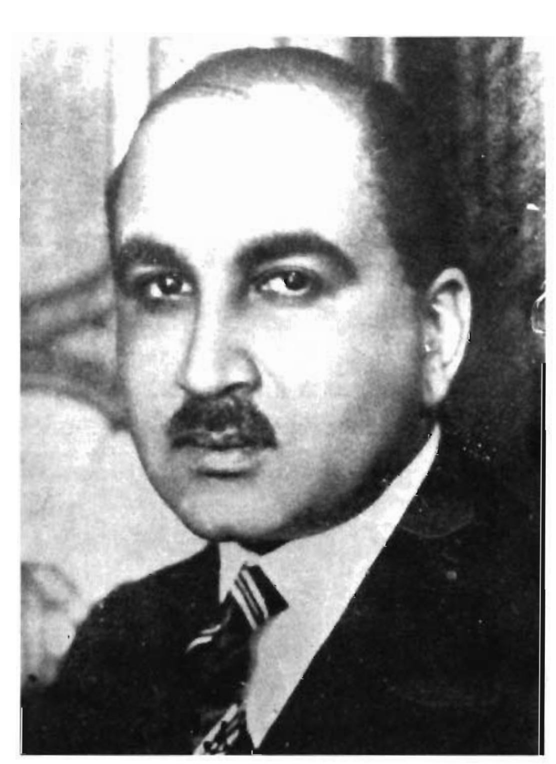
فيصل بن الحسين (ملك العراق) ـ أوربا ١٩٣٠م.



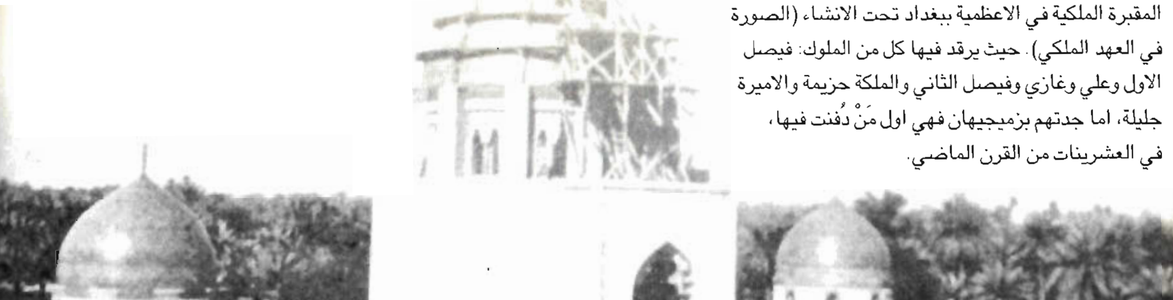
الملك عبد الله (ملك المملكة الاردنية الهاشمية) بالزي العربي.



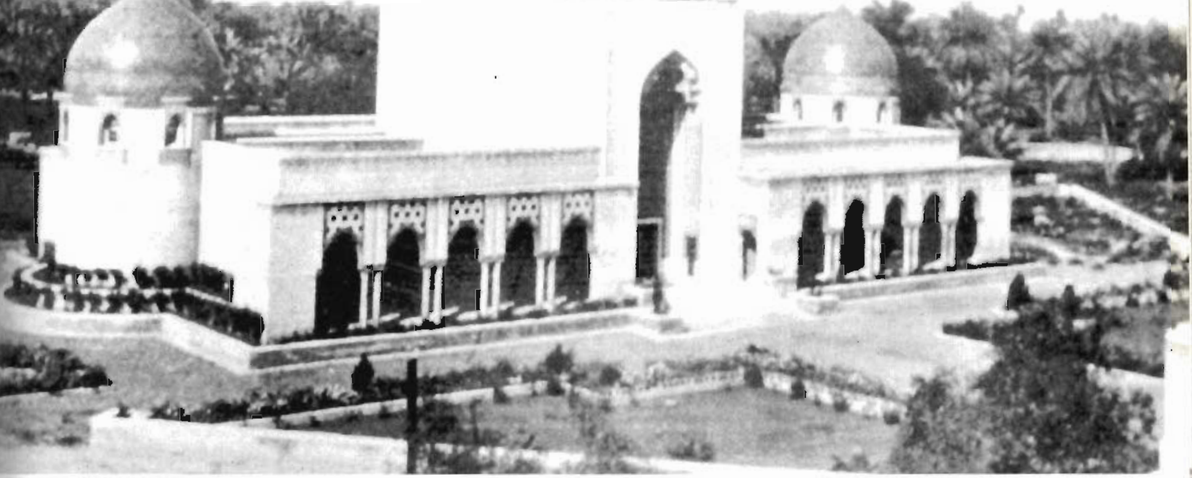
طلال بن عبد الله (ملك المملكة الاردنية الهاشمية). الصورة موقعة من قبله ومؤرخة في ١٩٣٨/١٢/٩م مهداة الى «الخال العزيز حسين...».



الامير زيد بن الحسين صورة شخصية له مهداة «الى الاخ حسين» وموقعة بتاريخ ١٩٣٨/٢/٧م.



المقبرة الملكية في الاعظمية ببغداد تحت الانشاء (الصورة في العهد الملكي). حيث يرقد فيها كل من الملوك: فيصل الاول وعلي وغازي وفيصل الثاني والملكة حزيمة والاميرة جليلة، اما جدتهم بزميجيهان فهي اول مَنْ دُفنت فيها، في العشرينات من القرن الماضي.





تشييع جنازة الملكة عالية - بغداد (كانون أول) ١٩٥٠م.

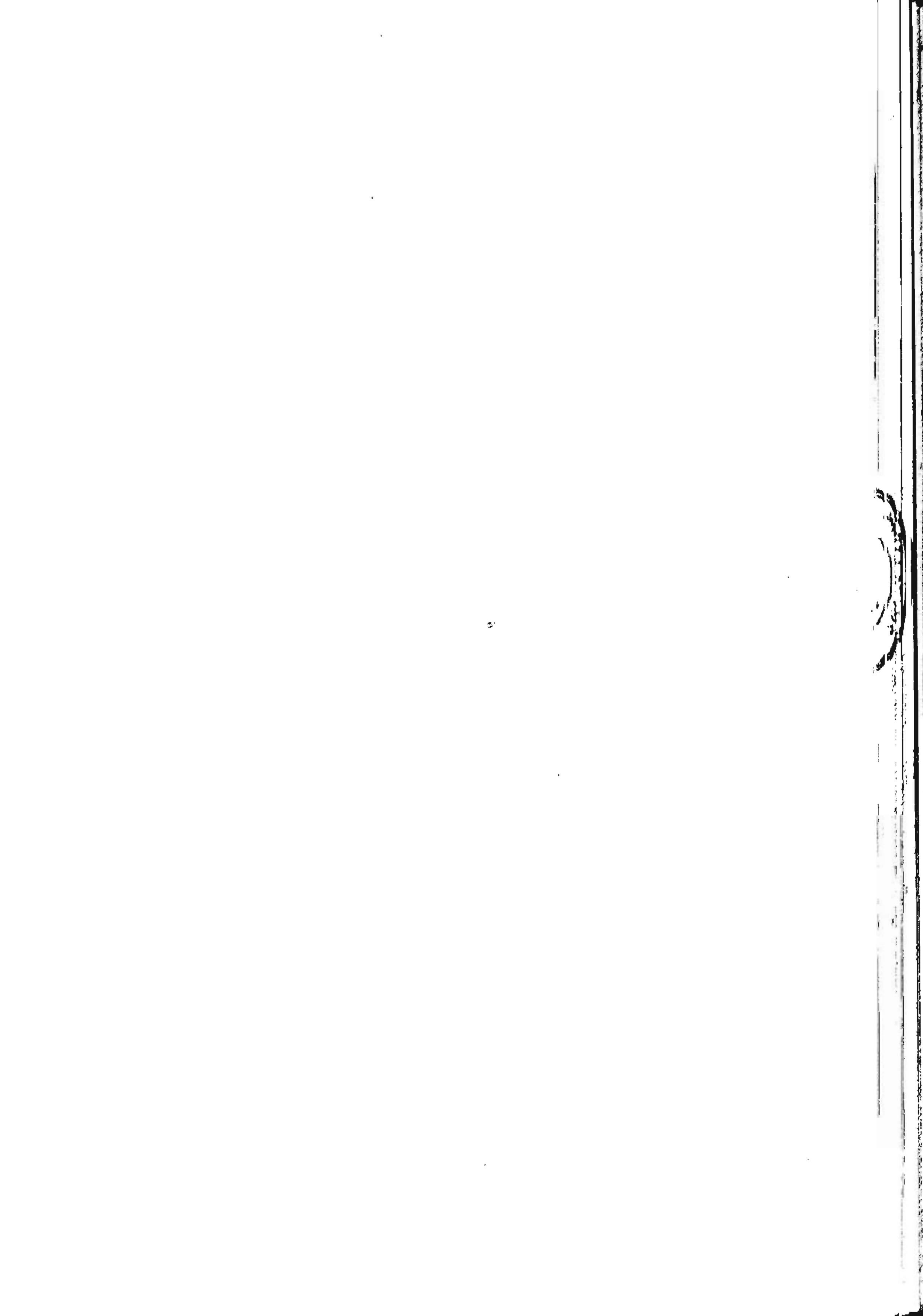
الصف الثاني خلف الأمير عبد الاله مباشرة، من اليسار: ١- الشريف جميل بن ناصر (خال الملك حسين بن طلال). ٢- الشريف حسين بن علي (زوج الأميرة بديعة). ٣- الشريف حازم بن سالم (زوج الأميرة جليلة). ٤- الشريف حسن بن عبد العزيز (عم الملكة دينا حرم الملك حسين). ٥ - (...)



مجلس الفاتحة المقام على روح الملك فيصل الاول في ايلول ١٩٣٣م في الروضة الحيدرية بمدينة النجف الاشرف.

الفصل الثالث

بعيداً عن السياسة أم فيها ؟!



سفرات العائلة المالكة

تثير السفرات العائلية (للملوك والرؤساء والامراء والمسؤولين الكبار في الدول) فضول الكثير من الناس . وقد يصل الهوس ببعض المتابعين ، او بالاعلام الى الايغال في البحث عن خصوصيّاتها وتفصيلاتها . فاذا ما وقعوا على خبر او معلومة او صورة ، سارعوا الى نشرها ، ظناً منهم بانهم عثروا على لغز محيِّر! هذا اذا لم يُضفوا عليها اوصاف روائية متخيلة في بعض الاوقات .

بيد ان الامر ليس هكذا ، فعندما يحيط هؤلاء المسؤولون سفراتهم ، او تحركاتهم بشيءٍ من السرية (ليس لكونها تختلف عن سفرات وتحركات الناس العاديين) انما لاعتبارات امنيَّة احياناً ، او للابتعاد عن الاضواء ، طلباً للراحة والاسترخاء في احيان اخرى ، خاصة بعد ان يكونوا قد قضّوا ايام عمل مضنية .

* * *

للعائلة العراقية المالكة عدد من السفرات الخارجية والداخلية ، ما تزال بعض جوانبها خافية على الناس . لذا سأسلط الضوء على مجملها ، ولو من باب الاشارة الى اسبابها وتوقيتاتها ومجرياتها ، وما ولَّدته من انطباعات لدينا .

السفرات الخارجية

غالباً ما كانت تقرر في اعقاب ازمة سياسية ، تعصف بالعراق وتنجلي ، فتترك آثارها النفسية والاجتماعية السيئة علينا ، ما يضطرنا للترويح عن انفسنا وتغيير الاجواء ، حتى تهدأ الخواطر وتزول التبعات ، فنعود الى بلدنا .

او تُقَرَّرُ السفرة الخارجية تلبية لدعوة رسمية ، توجهها الينا حكومة دولة ما ، فنلبيها . او لاغراض التطبيب والعلاج الصحي . . وما الى ذلك .

البحرين

من سفراتنا الخارجية التي اود التحدث عنها بإجمال ، سفرتنا بيخت الملكة عالية الى البحرين في اواسط الخمسينات . وهذا اليخت الذي لم تره ولم تركبه اختي الملكة (رحمها الله) سوى ان صورة لها عُلِّقت في داخله . يعود (اليخت) في الاصل الى جد أسرة «آل خليفة» الحاكمة في البحرين . باعوه ، واشترته منهم الحكومة العراقية ، فأطلق اخي الامير عبد الاله اسم اخته عليه .

كنا امي واخواتي وزوجي الشريف حسين وانا وولَدَيْ الشريفين (محمد

وعبد الله) والمرافقين والملك في هذه السفرة . وقد غادر الرجال اليخت الى المدينة ، وتسوقوا من الاسواق ، واشتروا بعض الحاجيات ، الاّ اننا (النساء) بقينا ـ كالعادة ـ ننتظرهم في اليخت الملكي ، حتى دعينا من قبل سيدات القصر الاميري ، الى مأدبة غداء اقمنها على شرفنا .

لم نَرَ (سيدات) نساء كبيرات في البحرين ، انما اللائي رأيناهن ، كن بنات صغيرات وشابات جميلات في مقتبل العمر . لا أدري لماذا؟! ربما لان مَنْ يكبرنهن يخجلن ، أو يستحين (اكثر من غيرهن) من لقاء الاخريات . ولهذا لم نعرف من بينهن مَنْ هي الشيخة ، او الاميرة ، او حرم الامير .

. . في تلك الزيارة اهداني امير البحرين (الشيخ سلمان بن حمد آل خليفة) قلادة من لؤلؤ ، مازلت احتفظ بها الى اليوم!

الكويت

سافرنا ايضاً الى الكويت عن طريق البحر ، في «باخرة تنظيف» مهمتها إزالة «الطمى» من «شط العرب» الذي يقذفه فيه نهرا دجلة والفرات في موسم الفيضان (الربيع) .

كانت معنا في هذه السفرة حسب ما أتذكر «فائزة طرابلسي» حرم اخي عبد الاله ، ولم يكن معنا الملك فيصل الثاني . دعتنا اخت أمير الكويت (عبد الله السالم الصباح) والتقينا حينها بوالدته .

ذكرياتي عن كويت الخمسينات ، انها كانت متأخرة مقارنة بالبحرين ، فهذه الاخيرة اكثر مدنية وتطوراً منها . فالكويت وقصر اميرها تشبه مدينة «الرطبة» العراقية يومذاك ـ في شكلها وتصميمها ـ بيد ان اهلها لم يكونوا فقراء بقدر ما كانوا متأخرين .

لا استطيع ان اتحدث عن دولتين (البحرين والكويت) من دول الخليج ، اكثر مما تحدثت به الآن . اذ ليس من الحق بمكان ، ان اقارنها بدول اخرى ـ حتى وإن كان بعضها عربية ـ من نواحي عديدة ، سيّما جانب العادات والتقاليد وبعض المظاهر الاجتماعية .

لبنان

زار الرئيس اللبناني كميل شمعون العراق (زيارة رسمية) في الخمسينات ، ماحدا بالملك فيصل الثاني الى رد الزيارة له في بيروت . فسافر بصحبة اخي الامير عبد الاله وزوجي الشريف حسين ، عبر دمشق .

وصادف استعراضاً عسكرياً ، او احتفالاً رسمياً تشهده سوريا في ذلك الوقت ، فارسل الملك فيصل الثاني الطائرات الحربية العراقية ، لتشترك فيه . واذا بطائرتين تصطدمان فجأة ، مات طياراها على الفور ، ما اضطر اخي عبد الاله الى العودة للعراق ، كي يحضر تشييع جنازتيهما .

بينما بقي زوجي الشريف حسين بصحبة الملك ، وقد بدأ يظهر ويحضر في بعض المناسبات والاحتفالات ، الى جانب الملك والأمير .

يروي الشريف حسين (رحمه الله) بعد عودته الى بغداد ، بان اللبنانيين اقاموا حفلة كبيرة للملك الضيف . دعوا اليها الكثير من بنات لبنان ، وقد رأينه ملكاً شاباً وسيماً ، فجئن اليه يرجينه ان يلتقط معهن الصور التذكارية ، عسى ان تظفر احداهن به . فنزل عند رغبتهن ، وقد احتفين وحففن به من كل صوب .

ان شيئاً من هذا القبيل ، لايمكن ان يحصل في دولة من دول الخليج ، وفي خمسينات القرن الماضي!

اوربا

بعد سنين من ذلك التأريخ ، اي حينما استقرينا في بيروت الستينات (بعد الانقلاب) صار زوجي الشريف حسين يأخذنا بسيارته الى دول العالم . شاهدنا اوربا كلها ، ولدينا شقة جميلة في «كان» الفرنسية ، لكنني لم ارها منذ سنوات .

* * *

اما اليوم فلم يعد بوسعي التجوال ، فانا لم اشاهد الولايات المتحدة الاميركية في حياتي قط ، ولا اعتقد باني سأراها في يوم من الايام .

رحلة العلاج الى المانيا

لعلي سأبقى لا أنسى فضل الملك غازي عليَّ منذ نحو (٦٥) خمسة وستين عاماً ، فقد ارسلني واهلي على حسابه الخاص الى المانيا ، لإجراء عملية جراحية ، جرّاء مرض اصابني ، وله قصة :

كنت مستمعة شغوفة ببعض البرامج الصحية ، التي تذاع في الراديو خلال الثلاثينات ، حيث يُعرِّف الاطباء ببعض الامراض الغريبة واعراضها وطرق الوقاية منها وعلاجها ، وكان الدكتور «معمر الشاهبندر» احد أهم الخائضين فيها .

في احد الايام لفت نظري وصفه لمرض ، جزمت بأنني مصابة به ، الاّ ان امي حاولت تطميني بنفيها اصابتي به ، غير اني اصررت على رأيي ، لازدياد شعوري بأعراضه . لقد ظهرت في كبدي غدة كروية بحجم «الدعبلة» لكثر ما تحسستها وحرَّكتها ، صاحبها اصفرار شديد ونحول وذبول اعترى جسدي كله .

راجعتُ طبيب العائلة المالكة «سندرسن باشا» ففحصني ، ورقدتُ في المستشفى الملكي ببغداد نحو اسبوع ، لاجراء المزيد من الفحوصات والاشعّات . زرقني احد الاطباء بأبرة تحت الجلد فتورمت يدي ، ما عنى بأنني مصابة فعلاً بذلك المرض ، الذي تنتقل عدواه الى الانسان من الخيل والكلاب ، اذا ما كان قريباً منها .

لم يكن الطب متطوراً في العراق يومذاك ، لا بل كان بدائياً . فالدولة تعاني من شحة ، او بالاحرى من ندرة الاطباء والاجهزة الطبية والعلاجات الناجعة . والبلد لم يستقل الاّ حديثاً ، وأطباؤه معدودون على عدد الأصابع .

منهم صائب شوكت وعبد الأمير علاوي وشوكت الزهاوي وهاشم الوتري وأنور القامقچي ، وغيرهم .

أغلب أطباء العراق ـ يومئذ ـ من الانگليز ، وكذلك المستشفيات تعود اليهم ، لذا اقترح عليَّ الدكتور «سندرسن باشا» السفر الى المانيا للعلاج ، ذلك لوجود اكبر وأشهر الجرّاحين هناك ، وهو الدكتور «زاور بروك» ، وعلّق سندرسن : «بالرغم من كوني انگليزياً ولدينا الكثير من الاطباء ، الاّ أنني اعترف بقدرة هذا الجراح الكبير ، واقترح عليكم اجراء العملية الجراحية تحت يديه واشرافه ، كونها عملية صعبة وخطرة» .

في صيف عام ١٩٣٧م قرر الملك غازي ارسالي الى المانيا على نفقته الخاصة ، مع والدتي وأخي وزوجة اخي «مَلَك فيضي» ومربية امي «بختيار هانم» ، اذ كانت من عادة والدتي ان لا تسافر الى اي مكان ، من دون ان تصحبها سيدة كبيرة مسلمة ، لقولها دائماً : «انني اخشى من ان يحصل لي أي مكروه هناك ، وربما يأخذ الله امانته في بلادِ الغربة ، فأتمنى ان تُشَهِّدَني وتغسِّلني وتكفنني سيدة مسلمة»! كانت بختيار هانم اكبر من والدتي ، وهي شركسية ، والدة «معمر» صاحب كتيِّب «الملكة عالية» الذي نشر اوائل الخمسينات بقلم «كاتب عربي معروف»!

أبدت اختي الاميرة جليلة تذمرها من فراقنا المزمع ، والذي سيؤدي بلا شك الى تركها وحدها مع معلمتها الانگليزية في العراق ، لتلقي عليها دروساً ثقيلةً باللغة الانگليزية ، لذا اقترحت اختي الملكة عالية ان ترسل معنا معلمتها ، كي تفك ارتباط جليلة بها .

سافرنا كلنا الى المانيا هتلر ، لا لأغراض الاستجمام والراحة ، ولا كعربون صداقة بين دولتين ، ولا لإبرام صفقة سلاح الماني للجيش العراقي ، انما لاجراء عملية جراحية معقدة ، بناءً على توصية طبيب انگليزي!

بكر صدقي قائد اول انقلاب

كان الملك غازي على وئام ووفاق تامين مع «بكر صدقي» الذي قاد اول انقلاب عسكري ناجح قبل بضعة اشهر (في ٢٩ تشرين اول «اكتوبر» ١٩٣٦م) أطاح حكومة «ياسين الهاشمي» في العراق، وخلّص الملك من رئيس وزراء ديكتاتور ثقيل، كان يجثم على صدره.

اتخذ (الهاشمي) بحقنا اجراءات لم نعتد عليها من قبل، حيث استبدل جميع سوّاق العائلة العراقية المالكة بالعسكريين الموالين له، وراقب هواتف ورسائل وبريد القصر الملكي، وشدد من اجراءاته القمعية والرقابية الاخرى، وضيّق الخناق علينا، واساء للملك واتعبه.

كل ذلك ثأراً لكرامته، وحنقاً وغيظاً على غازي، لانه لم يتزوج من ابنته «نعمت»! حتى ان نوري باشا، الذي لعب الدور الاساس في افشال خطة التزويج، كان قد أُرغم على مغادرة العراق من قِبَله.

«صدقي» المتزوج من سيدة المانية، والذي شغل منصب رئاسة اركان الجيش خلال حكومة «حكمت سليمان» ارسل معنا الى برلين احد ضباطه المعتمدين، ممن يجيدون اللغة الالمانية، ليترجم لنا. كان ضابطاً طيباً خلوقاً، درس في المانيا ايام الدولة العثمانية، وله اخ يعمل في الخارجية العراقية.

استقلينا سيارتين من بغداد الى عمّان، عبر طريق صحراوي غير معبد، يتطلب قطعه منا المبيت ليلة في «الرطبة» الحدودية. كانت احدى السيارتين من نوع «بيوك» تعود لأختي الملكة عالية، والاخرى صغيرة تعطلت في منتصف الطريق، فتركناها وحُشرنا كلنا في الاولى.

بتنا ليلتين عند عمي الملك عبد الله، وحاول ابقاءنا في «عمّان» مقترحاً علينا اجراء العملية الجراحية في القدس الشريف، لأن اطباء يهود المان جيدين، هربوا من المانيا وجاؤوا الى فلسطين، باستطاعتهم اجراءها لنا، ما

دمنا نزمع السفر الى هناك . لم ننزل عند رغبة عمي الملك ، الذي يحب ان يتدخل في امورنا ، فهو كبيرنا وبمثابة ابينا بعد وفاة والدي الملك علي ، ومن قبله عمي الملك فيصل الاول .

غادرنا «عمّان» الى «بيروت» ومنها عن طريق البحر الى «الاسكندرية» . بتنا ليلة فيها ، عند اهل مَلَك فيضي (حرم اخي الامير عبد الاله) التي كانت قد سبقتنا اليها ، لقضاء الصيف هناك . ومن «الاسكندرية» ركبنا الباخرة الى «نابولي» في ايطاليا .

ولعله من المصادفات ان يركب معنا «عدنان الباچه چي» في نفس الباخرة ، حيث انهى عامه الدراسي في «فكتوريا كولدج» واراد لقاء والده «مزاحم الباچه چي» الذي كان وزيراً عراقياً مفوضاً في روما وقتئذ . ما زلنا نحتفظ بصورة التقطها معنا في «سايره كوزة» (جزيرة مشهورة زرناها سوياً) . ومن «نابولي» الى «جنوة» ومنها اخذنا القطار الى «برلين» تلك العاصمة النازية لالمانيا الفوهرر!

المانيا النازية

اعجبتُ اعجاباً شديداً بـ «برلين» وبهرتني انوارها المشعة واضويتها المتوهجة . فقد كانت تبدو في الليل ، وكأنها درة ساطعة متلألئة وسط ظلام دامس ، في عالم مقبل على حرب كونية بعد سنتين .

بيوتها جميلة ، بناياتها رائعة التصاميم ، شوارعها عريضة نظيفة ، ساحاتها وحدائقها فسيحة ، لا أدري كيف اصفها؟ فهي تختلف عن دول اوريا ، ذات تنظيم عالٍ ، يقف الشرطة فيها بانتظام ، مرتدين «زيّاً» فاخراً انيقاً .

ولأول مرة في حياتي ، شاهدتُ اضوية المرور واشاراتها الملونة تنظم السير هناك . كانت برلين تمثّلُ الأُبّهة الالمانية بكل ما للكلمة من معنى!

لا اغفل الدكتور فريتز غروبا السفير الألماني المفوّض في بغداد ، الذي كان كثير التقرب الى الناس ، وزوجته الدائمة الاتصال بنا والتودد الينا ، التي تكفلت بمعظم الاجراءات الرسمية والترتيبات المسبقة . فأخذت على عاتقها الاتصال بالخارجية الالمانية ، والحجز في المستشفى ، وتثبيت موعد الفحص واجراء العملية ، وما الى ذلك . لقد تمَّ تجهيز كل شيء من قِبَلهم .

غروبا هذا زار بغداد بعد الحرب العالمية الثانية والتقى أخي عبد الاله ، فحكى له قصة أسره من قبل الروس خلال الحرب ، وكيف انهم كانوا يعذبون الأسرى الألمان . وكلما شكوا الى جنرال روسي عن سوء معاملتهم ، يعدهم خيراً ولكنه لا يفي بوعده . أتذكر الدكتور غروبا كيف كان يصول ويجول في بغداد قبل الحرب ، لكنه جاءها وحيداً فريداً مكسوراً بعدها .

على أية حال ، دخلتُ المستشفى واذا بي امام مشهد لم آلفه من قبل . اضطربت اروقة المستشفى وردهاتها ، وعمّت فيها حركة غير طبيعية ، ووقف الجميع في حالة استعداد شبيهة بالاستعداد العسكري ، وكأن «هتلر» دخلها . بعد قليل رأيت طبيباً بهيئة «جزّار» يرتدي نظارات طبية ، خلفه عدد من طلابه . شكله يدلل على المانيته ، وان لم يكن طويلاً ، لكنه ذو بنية قوية صحية . فحصني وامرني بالامتناع عن الاكل!

جاؤوني صباح اليوم التالي لينقلوني الى صالة العمليات . لم اخفْ ولم ارتعب . لقد اخْفَت عليَّ امي قرار الطبيب (اجراء العملية الجراحية لي) رأفة بي ، ولم تعلم بأنني كنت اخشى عليها اكثر من خشيتي على نفسي . فهي سيدة حنونة ورقيقة ، لم يكن ضغطها الدموي على ما يرام ، فربما تضطرب لحالي ، ولهذا انشغل بالي عليها فقط!

أُجريَت لي العملية ، فتحتُ عينيَّ بعد زوال مفعول المخدر ، فلمحت اخي ينظر اليَّ من شقة الباب . لم يسمحوا له بالدخول ، فالالمان نظاميون الى اقصى حد . فوجئت بأنهم تركوا موضع العملية في بطني مفتوحاً ، لم يُخيطوه ، حيث انفجرت الغدة اثناء محاولة الجراح العظيم استئصالها بيديه . تعذبتُ كثيراً ، وبقيت نحو شهرين اعاني من استبدال الفتائل في بطني ، حتى شفيت من المرض نهائياً .

* * *

خلال رقادي في المستشفى ، جاء خبر مقتل الفريق «بكر صدقي» بأيدي احد الجنود العراقيين في مطار الموصل العسكري . فرح اخي الامير عبد الاله لهذا الخبر ، لأنه توقع بأن الامور ستتحسن في العراق بعد غيابه .

صحيح انه خلَّص ابن عمي الملك غازي من «ياسين الهاشمي» الذي كاد يحبسه ويكتم عليه انفاسه ويشل حركته ، الا ان «صدقي» كان فاشياً ايضاً ، واراد ان يصبح في العراق مثل موسوليني في ايطاليا ، وسائر الحكام العسكريين او الديكتاتوريين الاخرين ، كرضا پهلوي في ايران واتاتورك في تركيا وفرانكو في اسبانيا وهتلر في المانيا .

وعلى ذكر « بنيتو موسوليني» فانه زار المانيا خلال وجودي فيها عام ١٩٣٧م ، زيارته المشهورة تلك ، وقد كانت تحتفل بعزها وشموخها وتأريخها . واستقبله الالمان استقبالاً حافلاً ، ليس له مثيل ، فهو حليفهم ، والمحارب المؤمَّل ضد أعدائهم من دول الحلفاء .

زيَّنوا شوارعهم ، ونزل ضباط الـ «S.S» اليها ، بقاماتهم الفارهة وملابسهم الانيقة واشكالهم المميزة . كان منظرهم رهيباً ، ذا نسق واتساق واحد متكامل عندما يسيرون ، يجعل مشاهديهم يتساءلون كم من الجهد والمال والوقت صُرف على هؤلاء ، كي يخلقوا العظمة الالمانية؟!

كل شيء في المانيا كان بهيجاً ، جميلاً ، منظّماً ، نظيفاً ، مهيباً ، محترماً . لقد أُعجبت بها وما ازال الى اليوم احبُّ شعبها . . ولكن اي حيف واية حسرة على المانيا ، يوم رأيتها مدمرة بقنابل الحلفاء؟!

هتلر يُقبِّل يد حرم عمي

لستُ ضد «هتلر» في الحقيقة ، بل على العكس ، كنت اتلمس له الاعذار فيما كان يقوم به ، فقد اراد رد الاعتبار والهيبة والمكانة لبلده ، بعد ان حقّرها الحلفاء في الحرب العالمية الاولى ، وكبلوها بتنازلات وقيود مجحفة .

صحيح انني ضد حركة رشيد عالي وما فعلوه بنا ، وانني لست من اللواتي ينبهرن بجعجعة السلاح ، وينتشين بأناشيد الحرب . فقد كنت شابة ابنة الـ ١٧ سبعة عشر ربيعاً ، لديها اهتمامات تخص انوثتها وعالمها ، لكن الشيء الذي اثار اهتمامي في «هتلر» فيما بعد ، هو موقفه المساند للعرب ولقضية فلسطين . . هذا فقط .

اما سياساته الاخرى ، وتحديداً الداخلية منها ، فقد كنت اشجبها ، خاصة بعد ان استمع مصغيةً الى الضابط المرافق ، وهو يقرأ لنا يومياً ما تنشره الصحف ووسائل الاعلام ، من اجراءات حكومية تعسفية ضد الدين والكنائس في المانيا ، واستمرار حملات الاعتقالات التي تُشنّ بحق رجال الدين المسيحيين .

في اليوم الاول لوصولنا «برلين» نزلنا في فندق «ايدن» وهو فندق فخم وجميل جداً ، ثم انتقلنا الى الشقة رقم ٩٩ في شارع «كونفستون داون» . وهو كالشانزليزيه في باريس ، او كأوكسفورد ستريت في لندن ، لكنه شارع عريض جميل متناسق ، فيه الكثير من المقاهي والمطاعم والمحلات التجارية .

خلال رقادي في المستشفى ، اتخذت والدتي (رحمها الله) غرفة مجاورة لي ، لتسهر على راحتي وتشعرني بأنها بقربي ، بينما ظل الضابط المرافق مع اخي الامير عبد الاله في احد البيوت التي استأجروها .

كنت اتفاهم مع الممرضات الألمانيات باللغة الانكليزية ، لكنني لاحظت الاطباء الألمان لا يجيدونها ، أو يرفضون التحدث بها مع الآخرين ، لتعصبهم لجرمانيتهم! علّمتني احدى الممرضات بعض الكلمات الالمانية ، مثل «شوستر» التي تعني «الممرضة» أو ألـ «نيرس» كما في الانكليزية .

من ذكرياتي المشوشة عن هذه الرحلة ، التي أود سردها ، هي ان دورة الالعاب الاولمبية كانت قد انتهت عام ١٩٣٦ ، لكنني لا ادري ما الذي حصل عام ١٩٣٧ بحيث احتفلت المانيا باستقبال احد الرياضيين العراقيين هناك ، والذي كان اسمه .. كريم ، او كرم .. لا اتذكر؟!

اما اخي الامير عبد الاله ، الذي اعجب هو الآخر اعجاباً شديداً بالمانيا ، لم يكن يومها يتمتع بأي موقع او منصب سياسي في الدولة ، سوى انه امير في العائلة العراقية المالكة . لهذا فانه اخذ راحته وحريته في تصرفاته ومظهره ، فحمل معه كاميرا تصوير ومنظار ونظارات واموراً اخرى .

بيد ان المفاجأة وقعت عندما جاء احد الضباط الالمان لاصطحابهما (الامير والرياضي) الى مكان الضيافة والاستقبال ، عندها طلب الرياضي من الامير ان يخلع عنه كل ما كان يحمله معه ويناوشه اياها ، كي يظهر بالمظهر الرسمي ، في مشهد ظل الامير يتذكره بسرور طوال حياته .

عدنا بالقطار من «برلين» الى «اسطنبول» ومنها بالقطار ايضاً الى «بغداد» . ربما سيعتقد البعض ، بأنه من الغريب ان يقترح عليّ «سندرسن باشا» وهو الانكليزي ، السفر للعلاج في المانيا ، عدوة بريطانيا العظمى ، الاّ انني اعتقد بان اخلاصه لنا كعائلة مالكة ، واعترافه بامكانات الالمان الطبية ، هو الذي حدا به الى ان يتقدم الينا بذلك الاقتراح .

بالمناسبة لا ادري لماذا فاتني ان اذكر ، بان عمي الامير زيد بن الحسين ، كان في ذلك الوقت سفير العراق في المانيا ، وولده الامير رعد ابن سنتين ، وحرمه تصطحبنا الى المتاحف ، والمعالم التأريخية ، والمطاعم ، والاسواق ، وأخيراً المسارح لنشاهد المسرحيات . ظلّت فخر النساء زيد الحسين طوال حياتها ، تفتخر بأن «هتلر» قبّل يدها ذات يوم!

عالية في عاليه

تركت وفاة الملك غازي في ١٩٣٩/٤/٤م اثراً كبيراً ولوعة ، ليس فقط في نفوسنا ، انما في نفس ولي العهد الصغير (الملك فيصل الثاني) . فقد احسَّ فجأة بالفراغ الذي خلَّفَه ابوه وراءه ، والذي لم يشغله احد بعد . ولفَّ الحزن قصر الزهور ، وساده سكون رهيب ، بعد ان كانت الحركة والحياة تملآن اركانه .

واذا بالضعف والهزال بدءا يدبان في جسد فيصل ، فما كان منا الاّ ان نأخذ باشارة البعض علينا بالسفر الى لبنان ، متأملين ان نتمكن من ادخال بعض التغيير في حياة اليتيم الصغير .

بعد اكمال اختي الملكة عالية عدة الوفاة ، حزناً على زوجها المتوفى ، سافرنا الى بيروت في شهر آب (اغسطس) من عام ١٩٣٩م ، ونزلنا في «عاليه» . استأجرنا منزلاً جميلا يعود لـ «بطرس» يشرف على موقع خلاّب يسحر الناظر اليه .، غير ان الملكتين (أمي واختي) دخلتا الدار ولم تخرجا منه ، وكأنهن جاءتا لتعتكفا فيه ليس الاّ!

اما نحن بقية البنات ، فكنا نخرج الى البحر ، مصطحبين معنا الملك فيصل الثاني ، لنلعب بالحصى والرمل على الساحل . احبَّ الملك الصغير البحر ، واصبح يطالبنا يومياً بالذهاب اليه للاستمتاع به .

ربما لأنه لم يرَ البحر من قبل ، فالعراق كبلد لا يشرف على بحر ، وان كانت له اطلالة خجولة على الخليج ، لكنه يعجُّ بالانهار والروافد والعيون والينابيع والأهوار والبحيرات . غير ان مناظر كهذه لا تشابه مناظر البحار الشاسعة ، التي تمخر عبابها البواخر والسفن ، رواحاً ومجيئا .

فأرصفة الموانئ تضجُّ بحركة الناس والبضائع ، وذرات رمله الذهبية يلهبها ضوء الشمس حرقة احياناً ، ودفئاً في احيان اخرى . بينما يعبث الاطفال برماله وحصاه المبلولة ، يبنون منها قلاعاً وحصوناً ، وينحتون فيها كهوفاً وقصوراً ، ويطمرون تلالاً ووديانا ، سرعان ما يطفح البحر في اوقات المد ، فيسوي ما عملوه لتعود الرمال الى اماكنها ، كما كانت راكدة تحته منذ عهود سحيقة .

بقينا في «عاليه» نحو شهرين ، واذا بالحرب العالمية الثانية تشتعل في ايلول من العام نفسه ١٩٣٩م ، وتوقع البعض ان يضرب الطليان بيروت ، لذا قررنا العودة الى بغداد ، لعلها كانت ابعد من غيرها عن اجواء الحرب .

غير ان هذا الرجاء لم يدم طويلاً ، فبعد اقل مَن سنتين من تأريخ عودتنا اليها ، فرض رشيد عالي الگيلاني الحرب على العراقيين في حركته عام ١٩٤١م ، وحدث ما لا يتمناه احد للعراق وشعبه . فكانت تلك محنة حقيقية ، عاشها العراقيون وعانوا منها وقاسوا آلامها ، ومنهم العائلة المالكة .

مع أم كلثوم على البلاج

في عام ١٩٤٣م اراد أخي الامير عبد الاله ، ان يخفف عنّا ما عانيناه من حركة رشيد عالي ، وما تبعها من نتائج سياسية قاسية ، وإن كان قد مضى فترة من الزمن ، إلاّ انه أرسلنا الى مصر . نزلنا في مقر السفارة العراقية بالقاهرة ، في حي الزمالك عند سفيرنا تحسين العسكري .

لم نشعر خلال فترة مكوثنا هناك ، بأية اجراءات تقشف او قحط او غلاء (بسبب ظروف الحرب العالمية الثانية) كالتي شعرنا بها في العراق ، او شعرت بها الدول الاخرى التي دخلت الحرب . كانت مصر جميلة جداً ، تنسي زائرها همومه وأشجانه ، فما ان تطأ رجلاه ارضها ، حتى يُخيل اليه وكأنه يقذف بتلك الهموم والاشجان وراءه .

في تلك الأيام لم يكن ملك مصر «فاروق» على ما يرام مع الانكليز ، ويبدو ان الفواصل بينهما بلغت حدوداً متباعدة ، هذا من جهة ، بينما ازداد قرباً من الالمان والطليان ، من جهة اخرى .

دعتنا في أحد الأيام ملكة مصر «فريدة» الى مأدبة غداء ، اقامتها على شرفنا في «قصر عابدين» فلبينا الدعوة ، الملك فيصل الثاني وامه الملكة عالية وامي الملكة نفيسة والاميرتان عبدية وجليلة وأنا . (سأتحدث عن هذا الموضوع تحت عنوان مستقل لاحق) .

عدنا بعد سفرتنا تلك من القاهرة الى عمّان ، ومنها الى بغداد بالسيارات ، وقضينا فصل الصيف القائض لذلك العام (١٩٤٣م) في مصيف «صلاح الدين» بكردستان العراق .

في السنة التالية ١٩٤٤م ، قررنا الاصطياف في الاسكندرية ، فأمر الملك فاروق بلدية المدينة الساحلية ، ان تعد لملك العراق ساحلاً «بلاجاً خاصاً» على الشاطئ . يحتوي على غرف خاصة للنوم وتبديل الملابس والحمامات وكافة المرافق الاخرى ، ويكون في نفس الوقت معزولاً عن (البلاج العام) . لكننا في الحقيقة نزلنا في بيت «الطرزي» وليس على الساحل ، هكذا يُعرف وهو قصر مشهور في الاسكندرية .

اصطحب الملك فيصل الثاني معه بعض مرافقيه ، ومدرِّسه الخاص للغة العربية ، ومدرِّسته للغة الانكليزية «مسز ريميرز» ومربيته . وقد اعتاد الملك بعد

ان ينهي درسَيْ اللغات ، ان ينزل الى البحر يومياً . وفي احد الايام وبينما كان الملك يصغي لمحاضرة استاذه في بيت الطرزي ، اضطرب المكان ودبّت في المنطقة حركة غير طبيعية . سألنا ماذا يحصل؟ قيل لنا : «ان الملك فاروق جاء لزيارة الملك فيصل الثاني» .

لم نكن مستعدين لاستقبال ملك مصر في الاسكندرية ، لأن احداً لم يُحِطْنا علماً من قبل بزيارته المفاجئة . كما ان مليكنا طفل صغير في التاسعة من عمره ، احاديثه لا تختلف كثيراً عن احاديث اقرانه ، ممن هم في عمره او يكبرونه بقليل .

يتحدث بلطافة ، ويسأل ويجيب ببراءة متناهية ، لهذا ما ان سلّم عليه الملك فاروق ، حتى بادره متسائلاً : «لماذا لم تأتني بالاميرة فريال كي تلعب معي»؟! ضحك الملك فاروق ضحكة مدوية ، وقال له : «طيب ياسيدي سآتيك بها في المرة القادمة» .

كانت فريال (ابنة الملك فاروق من الملكة فريدة) أميرة صغيرة ، تصغر الملك فيصل الثاني بنحو سنتين ، حملت الحرف الاول من اسمَي والديها ، جاءت الى الدنيا كثمرة حب بين ملكين . تعرّف عليها الملك فيصل الثاني ، وعلى بقية الاميرات (فوزية وفوقية) منذ زيارتنا القاهرة العام الفائت (١٩٤٣م) . ويبدو انه استساغ اللعب معها ، او عرف بأنها مدللة ابيها ، فسأله عنها .

بقينا في الاسكندرية حتى تشرين اول (اكتوبر) عام ١٩٤٤م ، وكانت ضيفتنا الدائمة والعزيزة علينا ، التي تكاد تشرب القهوة معنا يومياً على الساحل (البلاج) هي السيدة «ام كلثوم» . صديقة اختي الاميرة عبدية الشخصية ، ومطربتها المفضلة ، تستمع الى اغنياتها باستمرار ، وتتصل بها هاتفياً وتكلمها ، سواء من بغداد أو من الاسكندرية ويتبادلان الرسائل والصور والأحاديث .

كان من المقرر ان تغني ام كلثوم في حفلة زواج الملك فيصل الثاني عام ١٩٥٨م ، وقد وعدتنا فعلاً ، غير انه قُتِلَ قبل ان يُزفَّ الى عروسه . ولم تسأل عنّا ام كلثوم بعد مقتله ، ولم تتابع اخبارنا ، بالرغم من اننا قضينا فترة من حياتنا في مصر بعد الانقلاب .

ربما أتلمس لها الأعذار ، في انها لم تعزِّني بمقتل صديقتها (اختي الاميرة عبدية) رغم انها لا تستحق ذلك ، لكنني لا اجد لها عذراً ، في انها غنَّت لعبد الناصر قصيدة الجواهري في مدحه بعد مقتل اهلي . . ولهذا انكمشت نفسي منها .

موقف «أم كلثوم» هذا يذكّرني بموقف آخر ، مغاير تماماً ، للسيدة الانكليزية «مسز ريميرز» مدرِّسة الملك فيصل الثاني . ظلت بعد مقتل اهلي تتسقط اخبارنا ، وتسأل عنّا اين حللنا ، حتى عثرت علينا يوماً في الستينات ببيروت ، فجاءت لزيارتنا . وبعد زواج ولدي الشريف محمد في الثمانينات ، وانتقاله الى «اوكسفورد» زارته يوماً ، وقدمت له اواني من فضة كهدية لزواجه .

ارادت «مسز ريميرز» ان تؤلف كتاباً عن الملك فيصل الثاني ، فقد قضت معه فترة ، تراه فيها يومياً . تعلِّمُه وتربيه وتشرف على حركاته وسكناته ، وهي تعرف عنه الشيء الكثير .

ان هذه السيدة الانكليزية في ثمانينات عمرها الآن . اتوق لرؤيتها ، واتشوَّق لسماع احاديثها ، رغم ان صوتها ليس طروباً ، لكنني سئمت الاستماع الى «ام كلثوم»!

زيارة فريدة في القاهرة

توقفت السيارة التي أقلّتنا الى «قصر عابدين» في زيارتنا مصر عام ١٩٤٣م ، عند بوابة قصر منيف ، احاطت به جنائن ساحرة . دخلنا اليه فصعقنا لهول ما اطلعنا عليه . رحنا نتساءل في دواخلنا ، اين قصر الزهور او الحارثية او الرحاب من قصر عابدين؟ اين ما نرى من مباهج حفل الاستقبال هنا ، مما نعيش؟

لا وجه للمقارنة على الاطلاق ، بين قصور العراق الملكية وقصور مصر ، لا من حيث البناء ، ولا من حيث المواقع والأثاث والخدم والحشم والتشريفات والشراب والغذاء . . انه عالم اقرب الى الخيال منه الى الواقع . انه عِزٌّ في الدنيا ، لا يبلغه ولو بعض مَنْ تمنى او حلم .

نحن من عائلة ملكت وتملَّكت في الحجاز والشام والاردن والعراق ، لكننا لم نعتد حياة البذخ والصرف غير المبرر ـ كالذي شهدناه في عابدين ـ من عِزٍّ ورخاء ورفاه . غير ان ذلك لم يحز في نفوسنا ، ولم نندم ، ولم يدفعنا لأن نستعير او نقلِّد ما رأيناه . لأننا ألفنا حياتنا تلك منذ سنين ، ورضينا بها ، ولم نطمح يوماً الى حياة مَنْ هم أغنى منّا .

وعلى رغم كل تلك البساطة والزهد في معيشتنا (مقارنةً بما نملك ونقتني) فقد لحق بنا الكثير من الحيف والاجحاف من قبل الاخرين . . تصوروا ماذا كان سيُقال بحقنا ، لو اننا استعرنا او قلَّدنا الحياة الملكية في مصر بالعراق؟!

استقبال في قصر عابدين

اعـدت لنا الملكة «فـريدة» استـقبـالاً رائعـاً ، انبـهـرنا لاعـداده وتنظيـمـه وفقرات برنامجه . استقبلتنا في البداية مديرة التشريفات في القصر (قيل انها يهـودية مصـرية) وراحت تعلِّم بعض النسوة اللواتي رافـقننا (زوجة القنصل العراقي وسيدتين اجنبيتين) كيف يركعن امام الملكة وفي حضرتها .

اما نحن (فضلاً عن كوننـا ملـوك وملـكات ، او امراء واميرات) لا نركع للملوك ، ولا نستسيغ للآخرين الركـوع امامنـا وفي حضـرتنا ، لأن الـركـوع للـه (سبحانه وتعالى) وحده ، وهو ينطـوي على ذلٍّ واستصغار للبشر اذا ما ركع للبشـر ، وعليـه فـلا يجـوز للانسـان ان يكون ذليـلاً صـغيـراً امام أخيـه الانسان .

وبينما نحن نهِمُّ بصعود السلالم ، اصطف على جانبيـها ست بنات . ثلاث يقـابلن ثلاث ، يلبسن ملابس وردية رائعـة ، ينحنين امـامنا ، يحـيـيننا ويستقبلننا باهتمام .

لم تخطف مـلابسهن المبهرجة البراقة انظارنا ، لأننا كنساء نتمعن ايضاً في وجـوه مَنْ ترتديهن ، لنتـأكـد مـا اذا كـانت تليق بهن ام لا؟! لم نتـفـاجـأ بأشكالهن البشعة ، لأننا نعرف دوافع سيدة القصر الجديدة ونقدِّرها ، ما دام زوجها الملك فاروق كمـا اشيع عنه «كـانت عينه مالحة ، يبصبص على هذه وتلك» .

استقبلتنا الملكة فريدة بحفاوة بالغة ، كانت في منتهى الشياكة والجمال ، ترتدي جواهر ثمينة في غاية الروعة والذوق الرفيع . سيدة محترمة ، طيبة ، لطيفة المعشر . رأيناها عن قرب لأول مرة ، واستمعنا اليها وهي تحدثنا ، فاذا بها «تلثغ» حيث يخرج حرف «الراء» من فمها ثقيلاً .

نقلتنا الى مـائدة الطعـام ، ووقف على رؤوسنا اربعـة خدم ، واحـد لفـريدة

وثان لامي وثالث لاختي ورابع لفيصل ، ملك وثلاث ملكات . يصبّون لهم الطعام والشراب في نفس اللحظة ، كي لا يتقدم احدهم ، او احداهن على اخرى . كان ذلك التصرف في غاية الذوق والادب منها ، ولم نحسب فريدة بعيدة عن اجواء «الأتكيت» واصول الضيافة والاستقبال . فأمها «زينب هانم» كانت احدى وصيفات الملكة «نازلي» والدة الملك فاروق . عاشت معها في القصر ، وخبرت المراسيم الملكية والتشريفات ، وهي حفيدة «سعيد باشا» احد رؤوساء وزارات مصر السابقين .

كما ان الملكة فريدة كانت ايضاً ابنة شقيقة رئيس وزراء مصر ، المهندس حسين سري باشا ، وهي من عائلة «ذو الفقار» ليست بعيدة عن اجواء الحياة الملكية والرسمية في الدولة . فبعد وفاة الملك فؤاد ، رافقت «فريدة» العائلة المصرية المالكة في رحلة الى سويسرا ، وهناك احبت فاروق ، فتزوجها فيما بعد .

استلطف بعضنا البعض الآخر ، وطلبت الملكة فريدة من الملك فيصل الثاني ، ان يهديها صورته الشخصية ، فقدمها لها ، وتشكرت منه . وفي المقابل امتننا نحن منها على حسن ضيافتها وكرمها لنا ، واردنا ان لا نقطع حبل الوصل بيننا ، فوجّهت اختي الملكة عالية اليها ، الدعوة لشرب الشاي عندنا في السفارة ، فوافقت عليها .

حينما عدنا الى مقرنا في السفارة ، اتصل اخي عبد الاله بنا هاتفياً ، وكلمني قائلاً : «يا بديعة اذا لم ترد عليكم الملكة فريدة الزيارة ، فلا تزوروها انتم مرة اخرى ، لأن السفراء دائماً يتملقون لحكومات الدول التي يتواجدون فيها ، وعليكم ان تعوا ذلك»! .

في اليوم التالي زارتنا الملكة فريدة في السفارة ، وجلسنا نرتشف الشاي معاً . كان استقبالنا لها بسيطاً ، متواضعاً ، لا يزيد عن حجم الدعوة نفسها ، تلك التي اسمها «دعوة لشرب الشاي» فقط!

لقاء ما بعد انقلاب (يوليو)!

. . ودارت الايام فوقع انقلاب ٢٣ يوليو ١٩٥٢م في مصر ، وصادر عبد الناصر اموال فريدة وطردها من مملكتها . ومرت السنون ووقع انقلاب ١٤ (يوليو ايضاً) في العراق عام ١٩٥٨م ، وقتل الانقلابيون اهلي واستولوا على اموالهم . . وتشتت فريدة وبديعة في ارض الله الواسعة ، لا تعلم اي منهما باخبار الاخرى .

* * *

بعد ٢٤ عاماً على لقاء قصر عابدين في القاهرة ، دعتني حرم توفيق السويدي عام ١٩٦٧م الى تناول طعام الغداء في منزلها ببيروت .

ما ان وصلت الدار ، حتى قامت «سلوى» كريمة السويدي من المجلس ، وبعد قليل عادت بسيارتها ومعها سيدة تجلس الى جانبها . لم اميِّز شكلها اول وهلة . فَتَحَتْ باب السيارة بِنفسها ونزلت . امعنتُ النظر في وجهها من بعيد ، شككتُ ، ولكن ما ان وقع نظري عليها من جديد ، وتأكدتُ من هوية الضيفة القادمة ، حتى ارتعشت اوصالي ، ثقل لساني ، جفَّ الدم في عروقي ، خنقتني العبرة ، وسرحتُ اتخبَّطُ في وحلٍ من الخيال .

لم اصدق ما رأيت ، ربما تساقطت قطرات من دموعي على خدي من دون ان احس ، وربما شعرتُ بحرارتها فمسحتُها من دون ان اشعر . لا ادري . . لا اتذكر . . كل ما علق في ذهني ، هو انني أجهدت نفسي على الاّ انفجر في وجه هذه السيدة بالبكاء .

جلسنا على مائدة الطعام في بيت السويدي ، ورحنا نستغرق في التأمل والتفكير ، وننظر في وجوه بعضنا . انتابتنا حالات طويلة من الصمت المطبق ، غير انها كانت افصح مما لو عبَّرنا عمّا يختلج في صدورنا بألسنتنا . لم تتجرأ أيٌّ منّا على الحديث عن الماضي ، او مجرد المرور به .

انصبَّ حديثنا على الحاضر ، والحاضر فقط ، حتى من دون ان نفكر بالمستقبل . سألتُها عن نفسها وكيف تقضي اوقاتها؟ فقالت انها مشغولة بالرسم ، وهي مستقرة في بيروت ، تذهب الى فرنسا من حين لآخر . عن الاميرات؟ ردت انهن ما زلن يدرسن في المدارس . عن الملك فاروق؟ اجابت انه يتنقل بين ايطاليا وسويسرا .

حينما مدَّت ملكة مصر السابقة «فريدة» يدها الى الطعام ، غصصتُ بلقمتي ، ووقف الزاد في بلعومي ، كأنه حجر ثقيل ، لا يقبل ان يتزحزح من مكانه ، وفجأة نزلت غشاوة على عينيَّ ، اتخذت شكل ستارة سوداء داكنة ثقيلة .

وبالرغم من ان الالوان المعتمة لا تمكّن المُشاهِد من رؤية افضل للمَشاهد ، فانني رحت استعيد مَشاهِد عشتُها قبل اربعة وعشرين عاماً ، اراها على الستارة السوداء بوضوح ، ورحت اتساءل في نفسي : اين الخدم والحشم؟ اين الوصيفات؟ اين الجواهر والشياكة والحلل؟ اين الراكعون الخاضعون الملبّون؟ اين الرخاء والعز والجاه والسلطان؟ هل صحيح أن الجالسة امامي هي الملكة فريدة ، قدمت الينا بسيارة MINI CAR (ميني كار) قديمة؟ هل صحيح ان الدنيا هكذا؟ ما قيمتها اذن؟

لم تُظهِر الملكة فريدة في بيروت ، انها منكسرة أو ذليلة ، انما كانت تكابر وتتظاهر بعدم الاكتراث بكل ما حصل . تجاهلت الماضي تماماً ، ولم تبدِ اية اشارات او دلائل على تذكره .

غير ان ذاك الماضي العزيز الذي عاشته ، وهذا الحاضر التعيس الذي تعيشه ، اخذا منها مأخذاً كبيراً . ظلت تعاني من تناقضاتهما ، وتصارع التباين بينهما في داخلها صراعاً مميتاً ، حتى فوجئتُ يوماً ، بأنها عادت الى مصر ، لتقضي بقية عمرها . . كأمرأة عادية هناك!

لا ادري ما الذي ارغمها على العودة الى مصر ، ولم افهم الى اليوم الأسباب الحقيقية وراء ذلك . كل ما اعرفه في هذا الصدد ، هو ان السيد العزيز في وطنه ، حينما يطرد منه ويهان ، لا ترضى له نفسه ان يعود اليه ذليلاً خانعاً . بيد ان فريدة قبلت لنفسها ان تعود الى مصر ، لا كملكة عليها ، وانما كمواطنة عادية فيها .

ساعد الله قلب فريدة ، احسب انها قضّت بقية عمرها بين جدران اربعة ، والاّ كيف طاوعها قلبها على ان تمرَّ بـ «قصر عابدين» لترى وجوهاً مُفزعةً تسكنه ، تسرح وتمرح فيه ، غير الوجوه التي أَلِفَتْها ، وعاشت معها حيناً من الدهر؟

مَنْ يدري ، ربما مرَّت به فاستشاطت غضباً لهول ما اطلعت عليه ، او لفظاعة ما انتابتها من مشاعر واحاسيس ، سببت لها مرضاً خبيثاً اصابها ، فقضى على حياتها في نهاية المطاف .

* * *

ربما سيتساءل البعض لماذا انتابتني كل تلك المشاعر الغريبة ، حينما وقع نظري على فريدة في بيروت؟ ألأنني كنت اواسيها ، أم لأنني تأسيت بها؟ وعلامَ؟ أعلى ملك زائل ، ام على دنيا فانية؟

لا شك ان ما هزني فعلاً ، هو لا هذا ولا ذاك ، انما استعبرتُ ، لأني رأيت في فريدة امي واختي واخي وابن اختي . ليت انقلابيي العراق تركوهم ليعيشوا او يموتوا ، كما عاش ومات غيرهم ، لكنهم آلوا على انفسهم الاّ ان يذبحوهم . . وهو ما جعلني ابكي طوال حياتي .

. . ماتت فريدة في مصر ، ومات فاروق خارجها ، ولم يخلفا غير اميرات تزوجن من اجانب . وذُبحت امي واختي واخي وابن اختي ، ولم يخلفوا وراءهم غير اميرة تعيش على ذكراهم ، كلما ذَكَرْتُهُم إنتَحَبْتُ .

استعراض النصر في لندن

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية بانتصار الحلفاء عام ١٩٤٥م ، دعت بريطانيا دول العالم الى حضور إحتفال تأريخي لـ « استعراض النصر» (victory parade) في السادس من أيار (مايو) ١٩٤٦م بلندن ، كان العراق احدى الدول المدعوة للمشاركة في ذلك الاحتفال .

شارك بوفد كبير رفيع المستوى ، ضم العائلة المالكة (الملك فيصل الثاني ، الامير عبد الاله ، الملكة عالية ، الملكة نفيسة ، والاميرات عبدية وجليلة وانا) ونحو عشرين ضابطاً من ضباط الجيش العراقي ، واعضاء في الحكومة واركان السلك الديبلوماسي وغيرهم .

(سافرونه) يخت اتاتورك

سافرنا نحن العائلة المالكة (باستثناء اخي الامير عبد الاله) من بغداد الى لواء «الاسكندرونة» السليب في تركيا بالقطار . فوضعت الحكومة التركية في عهد «عصمت اينونو» يخت مصطفى كمال اتاتورك «سافرونه» تحت تصرف الملك فيصل الثاني ، لينقله من تركيا الى مرسيليا (أهم ميناء في جنوب فرنسا) . كان الاتراك اشتروا هذا اليخت لاتاتورك ، كي يستجمّ فيه بعد تردي حالته الصحية .

صعدنا اليخت الاتاتوركي ، وانطلق بنا يمخرُ عباب البحر الابيض

المتوسط ، ويتهادى على امواجه المتهادية . كان اليخت جميلاً ومجهزاً بكل ما نحتاجه من مرافق وخدمات ، ولم نشعر طوال الرحلة بأي كلل او ملل . فالبحر هادئ والسماء صافية والشمس ساطعة مشعة على مياه البحر ، ونحن نستمتع بأجواء الربيع .

وصلنا ميناء «مرسيليا» الفرنسي ، ومنه ركبنا القطار الى ميناء «كاليه» الفرنسي أيضاً . وهناك وجدنا طرّاداً بحرياً عسكرياً بريطانياً في انتظارنا ، يرسو في بحر هائج مائج غاضب ، وسماء ملبدة بالغيوم ، تنذر بمطر غزير . ركبنا الطرّاد وطار بنا يشقُّ «القنال الانكليزي» بعنفوان وتحدٍ ، فنشوة النصر والكبرياء ما زالت تطرب رؤوس ضباط البحرية البريطانية ، اما نحن فقد أطرب الصداع والدوار رؤوسنا!

وصلنا ميناء «دوڤر» البريطاني ، ومنه اخذنا قطار السهم الذهبي (golden arrow) الذي مازال يعمل الى اليوم في نفس الخط ، الى لندن بعد رحلة بحرية شاقّة .

كان قطاراً جميلاً ونظيفاً ومنظماً ، توقف في محطة وسط لندن بعد الظهيرة ، فوجدنا في انتظارنا اخي عبد الاله وبعض السفراء العرب . كما ان ملك بريطانيا جورج السادس استقبل بعد ذلك ملك العراق فيصل الثاني ، استقبالاً رسمياً حافلاً .

نزلنا في الاسبوع الاول من رحلتنا تلك في «كلاردجز» وهو فندق فخم ومشهور في بريطانيا ، غير بعيد عن مقر سفارتنا ، التي كان يمثلها «شاكر الوادي» . بقينا فيه نحو اسبوع كامل ، بما فيها ثلاثة ايام رسمية لاستعراض النصر واجراء المراسيم وحفلات الاستقبال .

اظنه الاستعراض الاخير لبريطانيا العظمى!

في يوم الاستعراض ١٩٤٦/٥/٦ جلس الرجال في اماكنهم المخصصة لهم، وعزلونا نحن النساء المحجبات في مكان آخر، غير انهم التقطوا لنا بعض الافلام والصور التذكارية. كان الاستعراض باهراً، وان كنا نحن النساء اقل انبهاراً واهتماماً، بمثل تلك الفعاليات وما تتضمنه من معان.

بعد نهاية الاستعراض، دُعِيَت اختي الملكة عاليةً الى حضور مأدبة غداء كبرى، اقامها الملك جورج السادس على شرف ضيوفه في «قصر باكنغهام» واصطحبتني اختي معها كـ «وصيفة شرف» دخلتُ القصر، لكنني لم ادخل معها الى صالة الشرف.

كنا ننتظر انتهاء المراسيم والتشريفات، لنتحرر من الاجواء الرسمية والتزاماتها وواجباتها الثقيلة، وننطلق نتفسح في بريطانيا. وما ان انتهت فترة الضيافة الملكية البريطانية، حتى استأجرنا بيتاً جميلاً يقع خارج لندن، بالقرب من قلعة «وندسور» الشهيرة، ورحنا نتجول في لندن كما يحلو لنا.

زرنا المتاحف والقصور الملكية، وشاهدنا مجوهرات العائلة المالكة واملاك التاج البريطاني. رأينا متحف الشمع وقلعة وندسور، واسواق سلفرجز ومتاجر هارودز. ذهبنا الى اغلب المعالم والاماكن السياحية في لندن.

لم نشعر بأية مضايقات او اجراءات مراقبة مشددة خلال تجوالنا، وكل ما فعله الانكليز، هو انهم كلفوا شرطيين اثنين فقط من «اسكوتلنديارد» لحماية امي واختي الملكتين. لم يشعراننا بوجودهما، كي لا يحرجاننا أو يضايقاننا.

وصادف في احد الايام ان حضرنا سباقاً للخيل (ASCOT) كان يحضره الملك جورج السادس وزوجته الملكة الام ـ كما تسمى في بريطانيا الآن ـ

فذهبنا الى مقصورتهم في المدرج وسلمنا عليهما ، ثم جلسنا معهما بعض الوقت ، حتى غادرنا المكان .

دعتنا مرة حرم السيد علي خان ، وهي (ليدي) سيدة انكليزية من عائلة «جينيس» المعروفة (التي تصنع البيرة الايرلندية) الى مأدبة في احد الفنادق البريطانية المشهورة ، مع عشرين شخصاً آخرين . وعلي خان هذا ، كان صديق اخي الأمير عبد الاله ، وهو ابن زعيم الطائفة الاسماعيلية في الهند «الآغا خان» الذي تزوج ممثلة هوليود الشهيرة «ريتا هيوارت» ، واحدث زواجهما ضجة بالعالم في وقتها .

اتذكر يومها خرجنا لأول مرة في حياتنا كأوربيات ـ لا كعربيات يقبعن في بيوتهن متّلفعات بعباءاتهن ـ لنتعرف على سيدات المجتمع البريطاني . بعدها صرنا نذهب يومياً الى فندق «كلاردجز» للقاء اخي ، والاختلاط بالانگليزيات والتعرف عليهن من قرب .

ظلّ الامير عبد الاله على اتصال مستمر مع العراق ، يتابع كل ما يجري فيه عن طريق السفارة العراقية بلندن . يذهب اليها صباح كل يوم ، يطلع على البريد ويقرأ البرقيات والرسائل ويجيب عليها . لا انسى انه خصص لنا رواتب من جيبه الخاص ، نصرف منها ، وإن كانت امي في الحقيقة هي التي تصرف علينا دائماً ، من اموالها التي ورثتها عن اهلها الاغنياء (اشراف مكة المكرمة) .

وحصل ان دعتنا مرة ، زوجة المندوب السامي البريطاني الى مشاهدة عرض باليه راقص . فرأينا ولاول مرة في حياتنا راقصات الباليه ، اللواتي عرضن رقصاً ساحراً وأخّاذا . . منذ ذلك اليوم والى الآن وانا متولعة فيه .

بينما نحن هناك ، واذا برئيس وزراء العراق ارشد العمري ، يأمر

باطلاق النار على الآف المتظاهرين من الشيوعيين ، العمّال في شركة النفط العراقية في كركوك ، فيقتل ويصيب عدداً منهم . ما أثار امتعاض واستنكار الانكليز لذلك الاجراء العنيف ، وقد اعربوا لنا عن موقفهم ذاك من دون تردد .

* * *

. . لا اتذكر انني حضرت بعد ذاك الاستعراض استعراضاً آخر . واحسب انه لم يكن الاستعراض الاخير ، الذي احضره في حياتي فقط . . انما في حياة بريطانيا العظمى ايضاً!

نظام بطاقة التموين

كانت بريطانيا في عام ١٩٤٦م تستخدم نظام بطاقة التموين ، للحصول على الغذاء ، بسبب ظروف الحرب وتدهور الوضع الاقتصادي فيها . فلم يكن بامكان اي كان شراء مايريده او يحتاجه من مواد غذائية ، الاّ عن طريق «الكوبون» ولذا زودتنا الحكومة البريطانية ـ شأننا شان الانكليز ـ بمجموعة من الكوبونات لنقتات بها وعليها .

لقد طاول التقشف كل أركان الحياة ، لدرجة انه لم يكن باستطاعتنا ان نأكل الشوربة «الحساء» مع الخبز . قضّينا ايام سفرتنا تلك امام احد خيارين ، اما ان نأكل الشوربة ، او الخبز! . . هذا في فندق كلاردجز الفخم ـ وسط لندن ـ فما بالكم خارجه؟!

لم يكن الاكل مشبعاً ، ولو اراد احدنا ان يشتري من جيبه الخاص ، لما وجد الى ذلك منفذاً . فنظام الغذاء والملبس مقنن حسب برنامج التموين ،

حتى الشوكولاته لا نحصل عليها الاّ بالكوبون . ومن طريف الذكريات ، اننا كنا نتبرع للملك فيصل الثاني بكوبونات الشوكولاته والچكليت ، لتعلقه بهما في صغره!

على النقيض تماماً من بريطانيا ، كانت فرنسا تعيش حياةً أخرى . فبالرغم من احتلال الالمان لها وتدميرها ، وتكبيدهم الفرنسيين خسائر فادحة بالارواح والاموال ، لم نلحظ اي اجراءات تقشف مشددة فيها . بل كانوا في بحبوحة وسعة . في تلك الفترة زرنا فرنسا لشراء بعض التجهيزات لاختي الاميرة جليلة (التي خطبها لتوِّه الشريف حازم) فرأينا الاوضاع هناك ، تختلف عمّا عليه في بريطانيا .

في رأيي كانت السياسة الاقتصادية التي اتبعتها الحكومة البريطانية ، سياسة حكيمة وعادلة ، لأن فيها تساوى الغني مع الفقير ، والتاجر مع العامل ، والوزير مع الخفير .

ومثلُها بالعراق!

اما عندنا في العراق (لا اقصد طبعاً عراق ـ التسعينات ـ اليوم في عهد الطواغيت والقتلة ، ممن لا يخافون الله ولا يرعوون ، انما اقصد عراق ـ الأربعينات ـ الامس في عهدنا) فقد ضرب التقشف والتقنين كل مراكز البلاد ، واستخدمت الدولة نظام التموين وتوزيع حصص المواد الغذائية والاستهلاكية على العوائل . بينما قررت الحكومة تصدير كل منتوج البلد من الرز الى الخارج ، ليدرَّ على الخزينة اموالاً اضافية ، تستخدم لسدِّ الحاجات الضرورية الاخرى .

واعجب ما سأرويه للتاريخ بحزن وفخر ، هو ان اخي الامير عبد الاله ،

اول من ادخل هذه السياسة الى بيوتنا ، واتبع نهجاً متشدداً في تطبيقها على العائلة العراقية المالكة . فبدلاً من الرز (العنبر العراقي) اصبحنا نأكل البرغل ، وبدلاً من القمح «الطحين» الابيض اصبحنا نأكل الخبز الاسمر . في حين لم تفعل ذلك اقرب البيوت الينا ، من التّجار وبعض المسؤولين في الدولة .

* * *

. . لقد كنا ننشد من وراء هذه المساواة ، مواساتنا للشعب العراقي في تلك الظروف العصيبة التي أَلَمَّت به ، بيد ان احداً لم يقدِّر لنا تلك المشاعر والمواقف النبيلة . كان باستطاعتنا ان نأكل ما نشتهي ، ونجني ما نريد ، غير اننا آثرنا على انفسنا ، الاّ ان نساوي شعبنا واهلنا في زادهم وعيشهم .

كم هو مخجل ومخزٍ ، حينما ارى اهلي في العراق اليوم ، يتضورون جوعاً ، ويتحسرون على لقمة خبز هنيئة ، بينما حكامه متخمون ، يتلذذون بلحم الغزال . . ولا يستحون!

السفرات الداخلية

اما سفراتنا الداخلية ، فغالباً ما كانت تتم لاغراض الترفيه عن النفس ، كالاصطياف في كردستان العراق مثلاً ، بعيداً عن حرارة الجو في بغداد ، خاصة في اشهر الصيف ، أو لأداء الزيارة للعتبات المقدسة ، او بغية الاستطلاع والتعرف على مناطق العراق ، المتنوعة والمتفردة بميزاتها . او لننشد الراحة المؤقتة . ولكن السؤال هو ، هل كنا نرتاح فعلاً؟!

بحيرة الحبانية

اكثر سفراتنا الاسبوعية ، او بالاحرى نزهاتنا داخل العراق ، كانت تلك التي نتوجه بها الى «بحيرة الحبانية» . حيث اعتدنا نهاية كل اسبوع (يوم الخميس) القيام بنزهة ، نحمل معنا غداءنا ، كأن نشوي خروفاً مع رز وبعض المقبلات ، لنقضي النهار هناك .

هذا ما كان يحصل في الاربعينات ، خاصة خلال سنوات الحرب العالمية الثانية ، وفي الوقت الذي يسرح فيه الملك فيصل الثاني عابثاً برمال البحيرة الزرقاء ، نبقى نحن نتأمل هدوءها وروعتها .

كانت عادتنا ان نكتفي بيوم (الجمعة) فقط في فصول الشتاء . بينما اعتاد اخي الامير عبد الاله ، ان يخيِّم في الحبانية بشكل مستمر ــ خاصة في مواسم ربيع الخمسينات ــ في منطقة تسمى «الغرفة» كأنها جنة الله على ارضه ، وقد حفت بنا الورود وتفتحت الازهار ، واخضرَّ العشب .

ننام نحن الكبار في الخيام ، بينما يذهب الصغار للنوم في «الكرڤانات» . نبيت هناك بضعة ايام ، ومعنا كافة احتياجاتنا ، من غذاء وماء وخيام وفراش واغطية .

نستغل نزهتنا تلك على احسن ما يرام ، اذ يقيم اخي سباقات للخيل والرماية وغيرهما ، بين الضباط والجنود المرافقين لنا ، ثم يوزع عليهم الهدايا والمنح والاموال .

بينما كان بعضهم يكتفي بالتنزه بمركب مائي في البحيرة . اما الملك فيصل الثاني ، فانه يجد فرصته في ممارسة هوايته المفضلة ، التزحلق على الماء خلف زورق بخاري سريع .

يحصل في بعض الاحيان ان يمرَّ بنا جنود انكليز ، يتواجدون في

المنطقة ، فيلتقطون صوراً تذكارية مع الملك وهو يلعب . ومن اغرب ما مرَّ عليَّ من الصدف في حياتي ، هو ان احد اصحاب المكاوي هنا في لندن ، كنا نكوي عنده ملابسنا لسنين ، تعرَّف علينا يوماً فجاءنا بعدد من تلك الصور . تبين انه احد الجنود الانكليز ، ممن خدموا في الحبانية بالعراق ، ومرَّ بنا فالتقط صوراً للملك!

البصرة

سافرنا اكثر من مرة الى «البصرة» ثغر العراق الباسم في اقصى جنوبه ، وزرنا بيوتاتها ، واحببنا نساءها ، وتمتعنا بلقاءاتنا معهن ، من آل الباشا اعيان والنقيب وغيرهن ، فكن اقرب الى قلوبنا .

رأيناهن يتصرفن على سجيتهن بعفوية وبساطة ملحوظة ، على عكس بعض نساء الموصل مثلاً ، فهن عابسات حانقات مقطبات الحواجب والجباه ، وكأنهن يجئن لزيارتنا كرها!

في اول سفرة لنا الى البصرة بالقطار من بغداد ، نزلنا بـ «المتصرفية» وبتنا ليلة واحدة فيها ، بينما رحنا نبيت في اليخت الملكي ، في السفرة التالية . ذهبت انا متلفعة «بالهاشمي» وعندي صورة فيه ، وقد دعانا احد اغنيائها في بيت فخم له على شط العرب .

غادرنا البصرة الى جزيرة خالية من السكان ، اسمها «كُبَّر» صغيرة لكنها رائعة وجميلة . ارسينا اليخت عندها ولم ننزل منه اليها ، حتى غادرناها . . ربما الى غير رجعة!

مصايف كردستان

احـدى اهم هوايات اخي الامـيـر عـبـد الاله ، هي حبُّ الاسـتطلاع واستكشـاف المنـاطـق . ففي واحدة مـن جولاتـه الاستطلاعيـة بكـردسـتـان العـراق ، اكتـشـف ان «سـرسـنـك» يصلـح لان يكون مـصـيـفـاً ، ومنتـجعـاً سيـاحيـاً مـهـمـاً في المسـتـقبل . ولغرض تشجيع الحكومة والاخـرين على الاسـتـثـمـار فـيـه ، اشـتـرى قطعـة ارض جـمـيلة ، تعـود الى احـد القسـاوسـة المسيحيين .

بناها كـ «چرداغ» بهيئة عدد من الغرف ، يتقدمها حوض مياه ، يتوسط الباحة الخارجية . يمتلأ الحوض بمياه عين ماء رقراق قريبة منه ، تظللها شجرة صنوبر سامقة .

قبل اكتشاف «مصيف سرسنك» كنا نصطاف في مصايف صلاح الدين وشـقلاوة وشـلال گلي علي بيگ ، ونعـمـل جـولات ترفيـهـيـة فـيـهـا . بيـد ان الاكراد اقتطعوا كل اشجار الكاليبتوز والبلوط والصنوبر والجوز ، لبيعها كفحم للتدفئة ، في مواسم الشتاء الثلجية القارسة .

كل ذلك خلال الاربعينات ـ وهو ما تكرر للاسف في التسعينات بسبب الظروف السياسية القاهرة ـ لذا تحول ذلك المصيف الرائع «صلاح الدين» الى ارض جرداء قاحلة ، يطغى فيه لون التربة المصفَّر المائل الى «البيج» على اللون الاخضر البهيج .

«صـلاح الديـن» المصـيف الواقـع على قـمـة جـبـل صـلاح الديـن ، لا يمـكن الصـعـود اليـه او النـزول منـه ، الاّ عـبـر طريـق ضـيـق ملتـو كـحـركـة الافعى ، فـي (١٤) اربـع عشـرة اسـتـدارة نصـفـيـة صـعـوداً ، ومثلـهـا نـزولاً . بَنَت المصـيف الحكـومـة العـراقيـة ، وبَنَت فيـه بيتـاً مـريحـاً للعـائلـة المالكـة ، وبيـوتـاً اخـرى لبـعـض الـوزراء والمسـؤوليـن في الـدولـة . تجـولنـا فـيـه على

ظهور الجياد والبغال والحمير ، وسقناها وهي تغالب الجبل الزاهي الاشم . .

ولكن بعد اكتشاف أخي مصيف سرسنك ، انقطعنا عن اربيل ومصائفها ، وصرنا نصطاف في دهوك ومصائفها الجديدة . وهكذا بدأ المصطافون العراقيون يأوون الى سرسنك ، وينامون في فندق كبير بني لهذا الغرض .

لقد كانت آخر رحلة لي الى سرسنك وسولاف والشلالات في صيف عام ١٩٥٦م ، وهو العام الذي زار فيه الملك فيصل الثاني بريطانيا ، فبقيتُ انا مع امي في سرسنك ، نتأمل كردستان ، ونرِقُّ لاهلها الطيبين ، من قسوة الجغرافية والتاريخ .

العتبات المقدسة

في جميع سفراتنا الداخلية هذه ، او حتىٰ الخارجية ، لا يحصل ان نختلط نحن النساء بالرجال ، او نلتقيهم ، سوى بعض المرافقين الذين يرافقوننا ، او نوري باشا حينما يأتي لزيارتنا ، لعلاقتنا الخاصة به . اما بالنسبة للنساء ، فكنا نلتقي ببعض زوجات المتصرفين ، او سيدات المجتمع العراقي ، أو بنات العوائل المحترمة ، ونجلس معهن ليوم او يومين حتى نعود .

استمر اخي عبد الاله في جولاته داخل العراق ، في البصرة ، او لدى امير ربيعة ، او في اماكن اخرى ، واستمرينا نحن نزور المناطق . عندما زارتنا الاميرة فاضلة (خطيبة الملك فيصل الثاني) قبل الانقلاب ، اخذناها لزيارة المدينتين المقدستين النجف الاشرف وكربلاء ، ونزلنا في قصر الملك في «الكوفة» على شط الفرات ، وعُدْنا بعض العوائل في هذه المدن ، لكي تتعرف عليهم .

كنا نزور العتبات المقدسة سنوياً ، بمناسبة او من دون مناسبة ، ولكننا لا نبـدي للناس من نحن! اذ ندخل حـرم الائمـة (عليـهم السـلام) كـأُناس عـاديين ، ونخـرج من دون ان يتعـرف علينا احـد . كـما ان سيـاراتنا لا تدلّل علينا ، لأننا قبل أن نتجه الى هذه المدن نزيل لوحات البلاط عنها .

شـاهدتُ بعض مجالس القراءات والمواكب الحسينية فيـها ، تلك التي تُعقَد او تَخرجُ الى الشوارع ايام عاشوراء (من شهر محرم الحرام في كل عام) ولكني لم احضرها ، الاّ ببيروت في بيت (عضو مجلس الأعيان ، وأحد وزراء العهد المـلكي) الحاج عبدالهادي الچلبي .

* * *

لعل آخـر زيـارة لنـا الى تلـك العـتـبـات ، تمت بعـد زيارتنـا لمصـائف العراق ، يوم كـانت جبال كـردستـان وقبـاب علي والحسين تعـانق السمـاء ، شمّاء ، سامقة ، مهيبة . تحمـي مَنْ يلـوذ بهـا ، وتـأوي مَنْ يستـجيـر بها ، لينعم بنسيـم الحرية والانعـتاق ، قـبل ان يسـمم الجـبابـرة اجواءهـا بـرائحـة الغـاز والبـارود .

وطنية الاشراف

أثناء فترة تطوعي كممرضة في الهلال الأحمر ، لمعالجة جرحى حرب ١٩٤٨م من العرب ضد اسرائيل ، فوجئنا بقرار اعلان الهدنة الصادر عن مجلس الأمن الدولي بتاريخ ١٩٤٨/٦/١١م . وراحت النساء المتطوعات يبكينَ معي ، وهنَّ يستمعن الى استنكار الجرحى لما يحصل ، وقولهم اننا جئنا الى فلسطين من أجل أن نحارب ، لا من أجل أن نهادن ، فلا توقفوا الحرب .

كان عمي الملك عبد الله بن الحسين قائداً للجيوش العربية ، يمرُّ علينا ويتفقدنا بشكل مستمر ، ليطمئن علينا وليتوقف على احتياجاتنا . زارنا في يوم الهدنة ، فقبَّلتُه وبكيتُ بين يديه ، متوسلة راجيةٍ ، ان لا يوقف الحرب مع اسرائيل ، وأن لا يقبل قرار مجلس الأمن ، وان يدعنا نقاتل . قلت له : «الا ترى انتصارات جيشنا العراقي في جنين؟ انظر الى معاركنا مع الصهاينة ، فنحن العرب ننتصر في هذه الحرب» .

خيبة امل ملك

لم يتفوَّه عمي بكلمة ، انما ظلَّ يتأملني وينظر الى عينيَّ المنهمرتين بالدموع ، وهو يغالب عينيه حبساً لدموعه ، ثم ضمَّني الى صدره ، وراح يقبِّلني ويهدأني ويرضّيني ببضعة كلمات . . حتى تركنا وغادر .

لم يخبرني بأن الغرب لم يُعطِهِ سلاحاً . لم يقل لي بأن الانكليز ودول

الحلفاء لا يوافقون على استمرار الحرب ، وانهم سيدخلونها الى جانب اسرائيل فيما لو هُزمت . وأيضاً لم يسرني بأن ذخيرة الجيش العراقي قد نفدت . . لم ينطق حرفاً . غادرَنا مكتئباً ، مهموماً ، محزوناً ، يسير بتؤدة ، وأنا على يقين من انه كانت في نفسه أشياء وأشياء ، أكثر مما قلت ، تمنى لو انه أباحها لي ، لكنه لم يفعل!

كثيرون لا يدركون حجم المعاناة ودرجة الحرج ، التي كان يعاني منها عمي الملك عبد الله ، فهم يلقون التهم جزافاً ، من دون ان يدرسوا او يستوعبوا التأريخ . فعمي يحكم دولة صغيرة ، ضعيفة الموارد والمقومات ، واعداد جيشه العربي لا تتجاوز الألفي رجل ، فيما «غلوب باشا» جاثم على صدره ، لا يستطيع أن يزحزحه!

وفي المقابل فان معظم مساعدات بلاده تأتيه من بريطانيا العظمى . وهو لم يتوّج ملكاً على الاردن ، إلاّ قبل سنتين فقط (١٩٤٦م) فماذا كان في وسعه أن يفعل؟!

استمرت الهدنة الأولى شهراً كاملاً حتى يوم ١٩٤٨/٧/١٠م ، فرضت خلالها دول الغرب حصاراً تسليحياً مقيتاً على الدول العربية ، وأوقفت تصدير السلاح اليها ، بينما استمر تدفق الاسلحة على اسرائيل . لذا كان شهر الهدنة فترة كافية لإعادة حلحلة الموازين بين المتحاربين ، وتغليب كفة اسرائيل على العرب . لقد رأيت بعينيَّ هاتين طيارين اسرائيليين ، يلقون قنابلهم علينا بأيديهم ، ونحن لا نستطيع مقاومتهم .

* * *

بعد فترة قدّم لي عمي إسوارةً من الذهب ، احتوت على ياقوتة وماسٍ ، تعبيراً عن شكره وتشجيعه إياي ، لموقفي المبدأي من الحرب مع اسرائيل .

مازلت أحتفظ بهذه الاسوارة ، ويوم تتزوج «بديعة» إبنة الأمير حسن بن طلال سأقدمها لها . إنها أثمن هدية أعتزُّ بها ، أقدِّمُها لمن سمّاها أبوها على اسمي ، حباً واحتراماً وتقديرا . هي هدية جدّها الملك عبد الله ، اللهم الاّ اذا اعترض عليها البعض ، وقال هذا قليل من بديعة بحق بديعة .

. . صار بعدها زوجي الشريف حسين يداعبني ويناكفني ، كلما ذكرنا فلسطين ، نادبين حظّها وأهلها ، فيقول : «أنتِ التي بعتِها بأسوارة ، كنتِ تبكين عليها وبعد الاسوارة نسيتِها!» .

لم أنسَ فلسطين ولم أبعها ، فأنا عربية وهاشمية ، حبُّ وطني يجري مع دمي في عروقي وشراييني . ما قيمة اسوارة لدى أميرة تملك الكثير غيرها؟ فالأوطان لا تباع بالقلائد والجمان ، غير انها كانت مداعبة زوج لزوجة يحبها ، تعكس مرارة ظلم اتهام الأشراف دوماً بالعمالة للآخرين!

إنه جدي المدفون بالقدْس

لا أدري لماذا لا يدرك البعض مقدار وطنية العائلة الهاشمية ، وحبها لشعبها ووطنها العربي الكبير؟! ربما لسبب ضعف أدائها الاعلامي والدعائي ، مقارنة بالتي حظي بها عبد الناصر ، أو يحظى بها صدام الآن . أو ربما بسبب بعض المواقف السياسية ، التي يتخذها الأردن اضطراراً ، نتيجة ظروفه الاقتصادية القاهرة ووضعه الجغرافي المعقَّد ، والتي نحن أنفسنا كعائلة واحدة ، لدينا بعض الملاحظات والمؤاخذات على تلك المواقف .

أتذكر مثلاً يوم كنا نمرُّ في منطقة «بئر حسن» ببيروت ، بالقرب من السفارة الأردنية ، أرى عَلَم جدي (ملك العرب) الشريف الحسين بن علي يرفرف منتصباً فوقها ، فأشعر بالفخر والاعتزاز . ولكن ما أن أبدأ بالعتب على الملك حسين بن طلال ، واسترجع مواقفه اللاوديَّة معنا (رحمه الله) حتى

يردّ عليّ زوجي الشريف حسين : «لا تنسي بأن هذا العلم المرفوع فوق سفارة الأردن ، هو علم جدك ، فاذا ما أُزيح ـ لا قدّر الله ـ سوف يُمحى اسمه واسمكم من كتب التاريخ ، وسوف يُنسى كل ما أنجزتموه خلال حياتكم»!

لذا أبقى أعتصر الألم في نفسي ، وأدعو مقهورة للأردن ، أن يبقى شامخاً منتصراً عزيزاً ، ما دام علم جدي يرفرف سامقاً في سمائه . ذلك الجد الذي مات مهموماً بفلسطين ، ورفض أن يسلمها لليهود .

لا أحد يقدِّر حجم شعورنا الوطني والعروبي والديني ، تجاه شعوبنا وبلداننا . يحزُّ في نفسي ويجرحني ، حينما أرى بعض البسطاء والمساكين من أبناء العرب ، ممن يُخدَعون ويُصدِّقون بزيف شعارات الوطنية البراقة ، تلك التي رفعها جمال عبد الناصر ، ومن بعده صدام حسين ، يخرجون يصفقون لهما ، ويحملون صورهما القميئة ، ويهتفون لحياتهما الضّالة . بينما هما اللذان أذلاّ العرب وأهاناهم ، بسببِ سياستهما الدعائية الحمقاء ، الصبيانية ، الطائشة ، الرعناء .

وجدني ولدي الشريف عبد الله يوماً ضجرة ، فسألني : «انكِ بقيت أياماً تبكين يوم سقطت القدس ، فلماذا أنتِ ضجرة الآن»؟ أجبته : «قرفاً من بعض الفلسطينيين ، الذين يرفعون صور صدام في فلسطين» . انني أتحسر على تضحياتنا ، من جدي علي بن أبي طالب الى أبي علي بن الحسين . لا أحد يُقدِّر لنا ذلك ، ولا أحد ينطق بهذه الحقيقة!

أبكي عندما يتعرض العرب الى مصيبة أو كارثة . مَنْ يستطيع أن يتصور كمية الدموع التي أذرفتها من عينيَّ ، يوم خرج «ياسر عرفات» من بيروت الى تونس عام ١٩٨٢م؟! كانت صور الشهداء الذين يتساقطون في أرض المعركة ، ومشاهِد النساء وهن يودعن أزواجهن ، والأطفال يبكون ، مشاهِد مؤثرة ، تركت جرحاً غائراً في أعماقي ، مازال ينزف الى اليوم .

بالرغم من كل انجازات بني هاشم والعلويين عبر التاريخ ، ما يزال بعض العرب ينسبون الكثير منها الى بني أمية ومَنْ والاهم . يمجدونهم ويحترمونهم ، لاعتبار انهم هم الذين بنوا الحرم القدسي الشريف . بينما جدي (ملك العرب) الشريف الحسين بن علي ، هو الذي حارب من أجل عزة العرب وتحررهم ، وطالب بحقوقهم ، وأصرَّ على حقوق الشعب الفلسطيني ، فخسر بلده ونُفي منه بالقوة .

. . كل ذلك من أجل فلسطين ، فلو لم تكن هناك قضية بهذا الاسم ، لكُنّا الى اليوم مانزال في بلدنا ، ولما نُفينا وهُجِّرنا وتغرَّبنا . تمسَّك جدي بفلسطين فنفاه الانگليز ، ولاحقوه حتى مات مهموماً محزوناً بها ، ليُدفن في ظلال حرمها القدسي الشريف .

. . كثيرون من أولئك الذين يتظاهرون ويدَّبكون ، لا يستذكرون بأن المدفون تحت ثرى القدس ، اولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين ، انما عُذِّب من أجلهم ، وضحى بحياته من أجل بلادهم . إنه جدي الحسين!

هزيمة حزيران

في حرب حزيران عام ١٩٦٧م ، دعوتُ للعرب والأردن بالنصر على اسرائيل ، واذا بهذه الاخيرة تُلحق هزيمة منكرة بعبد الناصر ، وتحتل القدس الشريف .

كنت أتابع الأخبار ، لا أعني ما تنشره أو تذيعه أو تبثه وسائل الاعلام ، إنما ما كان يجري خلف الكواليس ، وأخبار القصر الملكي الاردني ، أتابعها مع «حزيمة» ابنة الأميرة راجحة بنت عمي الملك فيصل الأول .

عاد زوجي الشريف حسين من «عمّان» الى «بيروت» بعد ليلة قضاها هناك ، لينقل اليَّ عتب الملكة زين (والدة الملك حسين) في قولها : «بعد كل الذي حدث مع اسرائيل ، فان أختي بديعة لم تسأل عنا»!

فتحتُ سماعة الهاتف على الملكة زين ، وصرنا نعزّي أحدانا الآخرى بفقداننا القدس الشريف ، تلك المدينة التي أسرى اليها جدي رسول الله (ص) ودفن فيها جدي ملك العرب الحسين بن علي ، واستشهد فيها عمي الملك عبد الله . بكينا ولم نتحدث بشيء . . فما من حديث بعد ضياع القدس .

غريب ان اسمع بان الملك حسين بن طلال ، هو الذي اضاع القدس . أهذا كلام اناس لديهم ذرة من شرف ، او وازع من ضمير؟! أيدرك هؤلاء ماذا تعني القدس بالنسبة لنا؟! لماذا العتب على الاردن الصغير ، وليس على الدول العربية الكبرى ، التي تتفاخر بزعمائها وجيوشها وهرائها؟!

لعله من المؤسف ، لا بل من المقرف ، بعد أكثر من ثلاثة عقود من الزمن على ضياع القدس ، لا نجد مَنْ يُحمِّل عبد الناصر مسؤولية ضياعها ، لأن المتهم الدائم والأبدي بنو هاشم . . هكذا ينظر اليهم البعض (عملاء للاستعمار) ولو انهم قدَّموا كل ما يملكونه للعرب والاسلام ، يأبى هؤلاء أن يَقِرّوا بفضلهم .

لقد ظلَّ عبد الناصر أياماً ، يدعي في إعلامه المزيَّف كذباً ، بأن طائراته تقصف «تل أبيب» . بينما هي ، كانت جاثمة في مطاراتها . . كحطام!

انني مستغربة حقاً كيف ما يزال بعض العرب ، يقرأون لمحمد حسنين هيكل ويحترمونه ، بينما كشفت الأيام حقيقة الدور الاعلامي الخبيث ، الذي كان يمارسه أيام عبد الناصر وما يزال ، من تغييب للحقائق من جهة ، وتلفيق لاتهام الآخرين من جهة أخرى . ففي الوقت الذي كان فيه سيده يتجرّع ذل الهزيمة والاندحار ، كان هو يبني له اهرامات من النصر الموهوم ، على ورق أصفر!

رأي النساء برجال السياسة

على رغم اننا كنساء في العائلة العراقية المالكة ، لا تهمّنا السياسة ولا نتدخل بشؤونها ، الاّ ان هذا لا يعني ، بأنه لم يكن لدينا رأي سياسي ، بالسياسيين العراقيين او غيرهم . ربما تشكّل هذا الرأي من خلال مراقبتنا للاداء السياسي لكل واحد منهم ، وفقاً للمهمات والمسؤوليات التي انيطت بهم . او من خلال تواجدهم على المسرح السياسي ، ومدى تأثيرهم في الاحداث السياسية والأزمات ، وما يعقبها من قرارات مهمة . او حتى من خلال تردد اسمائهم ، سواء في اروقة القصور الملكية التي سكنّاها ، ام عبر وسائل الاعلام التي تطرق اسماعنا يومياً .

تشرشل

من الشخصيات السياسية العالمية التي اثارت اهتمامنا ، رئيس وزراء بريطانيا «ونستون تشرشل» الذي كان ذا شأن بالنسبة لبلده .

اعتقدنا بان بريطانيا ما كان لها ان تتحمل كل ذلك الدمار ، لو إن رئيس وزراء آخر غيره كان يحكمها . أُعجبنا بسياسته ولباقته وقيادته ، لكننا اكتشفنا انه صهيوني!

هتلر

لا يخفى مدى الشهرة التي حظي بها زعيم المانيا النازية «ادولف هتلر» لكننا كنا ننظر اليه كعدو لنا ، جاء برشيد عالي الگيلاني ، وسعى الى طردنا من العراق .

النحّاس باشا

لعل من السياسيين العرب ، الذين نكنُّ لهم كل الاحترام والتقدير ، هو رئيس وزراء مصر «النحّاس باشا» الذي كنا نُثمنُ سياساته ، ونتحدث بها فيما بيننا .

لا اريد ان اطيل الوقوف ، عند سياسيي العالم والعرب اكثر ، فشعوبهم اولى بتقييمهم مني ، سيّما ان سياسييّ العراق انفسهم ، لم ينالوا قسطهم من الدراسة الموضوعية والانصاف الى اليوم . لهذا سأتوقف قليلاً ولو عند البعض منهم ، ممن استحقوا الشكر والعرفان .

الباشا نوري السعيد

اما من الشخصيات السياسية العراقية ، فيأتي اولهم وعلى رأسهم ، رئيس وزراء العراق الأهم في تأريخه حتى الآن «نوري السعيد» . نحبه ونوقره كثيراً ، ونعتبره من اقرب الناس الينا ، ومن اشد المخلصين والاوفياء للعراق والعائلة المالكة ، وقد بقي على ذلك لآخر لحظة في حياته .

روت لي «ثمينة الچلبي» حرم الدكتور صالح البصّام ، بانه حينما لجأ الى دارها نوري باشا صباح يوم ١٤ تموز ١٩٥٨ المشؤوم ، كان اول سؤاله عن الملك فيصل الثاني ، وليس عن ولده «صباح» . ظل يتساءل : «اخبروني اين هو الآن؟ ماذا حلَّ به؟ ما هي اخباره؟ هل مازال حياً»؟!

كان اخي الامير عبد الاله يقدِّرُه ويحترمه هو الاخر ، لكنه ضجر منه في كبره ، واخذ يقول لي عنه : «حينما يكون نوري باشا خارج الحكم ، يشاغب على مَنْ هم فيه ولا يدعهم يعملون ، وعندما يأتي الى الحكم لا يشتغل»!

لعل اقوى نقطة يمكن ان يؤاخذ عليها السعيد (حتى من قبل اصدقائه) هي عدم اهتمامه بالرأي العام (أو أقوال الناس كما يسميها) واهماله البلد ،

بحيث لم يُجرِ الاصلاحات الكافية فيه ، من ادارية واقتصادية وسياسية . كان يردد : «وماذا يريدون اكثر مما هم فيه»؟! وإن كان قد غيَّر من هذا الاتجاه في سنواته الأخيرة .

احسبُ ان هاجسه الأول والأهم ، كان الشيوعيين وما يشكلوه من خطر على العراق . وعلى هذا الاساس دخل «حلف بغداد» متأملاً مساواته بتركيا وايران وباكستان . ويوم وقع العدوان الثلاثي على مصر سنة ١٩٥٦م ، لم يكن من بُدٍّ امامه سوى الانسحاب من الحلف (لكنه لم ينسحب) . واعتقدُ ان هذا كان هو المؤشر ، على انهاء النظام الملكي بالعراق .

ربما يجهل كثيرون جانباً مهماً ، ظل خافياً على الناس من حياة نوري باشا ، هو انه كان مُنكِّتاً ومُقلِّداً فظيعاً من الطراز الاول . وسيعجبُ مَنْ يرى هذا السياسي غير العادي ، كيف يستحضر النكتة ، ويجيد التقليد الدقيق على الاخرين . كأن يشكو من سياسيي الاربعينات والخمسينات السوريين مثلاً ، ويقلِّد عليهم ، فيضع يده الى جانبه ويقول : «يتحدث الاخوة المسؤولون السوريون عن الاتحاد ووحدة الامة العربية ، ومن تحت يشيرون بأيديهم ، الى ان نعطيهم المزيد من الاموال»!

يقلِّد على بعض المصريين مناكداً «فائزة طرابلسي» زوجة اخي الامير عبد الاله بقوله : «شيوخ الازهر سِمان واساتذة في الهتاف» . ثم يضع نوري باشا شيئاً على بطنه ، بحيث يبدو بديناً ، ويمسك بمن يجلس الى جانبه ، ويقوم يهتف كما يهتف الازهريون : «داون وذ تشرشل ، لِف عدلي باشا» (يسقط تشرشل يعيش عدلي باشا) ويكررها باللغة الانكليزية!

نعتوه بعميل الاستعمار ، بينما مات مهموماً بفلسطين . قالوا عنه خائن ، بينما ظلَّ ينشد الوحدة مع الاقطار العربية ، اكثر من الوحدويين والمتشدقين بالعروبة . اتهموه بسارق اموال الشعب ، بينما عاش على راتبه فقط!

كان نوري باشا بسيطاً ، في مأكله ومشربه وملبسه ومركبه ومسكنه . عنده ثقة عمياء بشعبه ، يمشي وحده في الشوارع والحارات ، من دون حرس او حماية ، يدخل المقاهي والمطاعم والمحلات الشعبية العامة .

يستمع الى الچالغي البغدادي والاغاني القديمة ، وينصتُ الى «محمد القبانچي» . يأكل مما يأكله العراقيون ، ويلبس مما يلبسونه ، ويشرب من دجلة والفرات . محباً لشعبه ، مخلصاً لوطنه ، لطيفاً ، طيباً ، محبوباً ، ذكياً ، اميناً ، لا يستحق كل ما فعلوه به . . لا ادري لماذا سحلوه ومثّلوا بجثته ، بعد كل ذاك التعب على العراق؟!

البيگ صالح جبر

لعل الشخصية السياسيّة العراقية المرموقة الثانية ، الذي لم يُنصف الى اليوم ، هو المرحوم «صالح جبر» . كان «البيگ» سياسياً محترفاً ومحترماً ، محباً لشعبه ولوطنه ، مخلصاً للعائلة العراقية المالكة ، طيباً ، نزيهاً ، معتداً بشخصه ، كفوءاً ، عنيداً ، متصلباً بالحق ، صاحب كلمة لا يخون .

لقد بقي اخي الامير عبد الاله ممتناً له طوال حياته ، على موقفه المشرِّف والمؤيد لنا ، في وجه رشيد عالي الگيلاني واركان حركته عام ١٩٤١م ، خلال فترة متصرفيته للواء البصرة .

من الاسرار التي لا انوي اماطة اللثام عنها بشكل كامل ، كي لا اسببَ حرجاً لأُسَرِ ابطالها ، اذ ما تزال تربطنا واياهم علاقات مودة واحترام ، هو ان اخي سمع بأذنيه مَنْ رافقه ايام محنته تلك ، حواراً سرياً بين بعضهم ، اكّد لديه احتمالية تخليهم عنه ، في وقت كان في أمسِّ الحاجة الى مؤازرتهم ومساندتهم له . بينما وقف محافظ البصرة «صالح جبر» الذي

كان بعيداً عن اخي (في موقع المسؤولية) موقف المخلص والمدافع عنه ، وعن عرش العراق .

لقد ابدى رئيس الوزراء «صالح بيك» قدرة تفاوضية ملفتة مع الانكليز ، ايام عقد معاهدة بورتسموث عام ١٩٤٨م . حتى ان وزير خارجية بريطانيا العظمى «مستر آرنست بيڤن» أُعجب بـ «جبر» وكانت تربطه علاقات وشيجة بالعراقيين ، قال مرة لحرم عمي الامير زيد ، فخر النساء (والدة الامير رعد) : «انكم مع الاسف فرطتم بهذه المعاهدة ، لقد كانت في مصلحة العراق والعرب تماماً» .

انه لأمر محزن حقاً ان تنكشف الحقيقة ، ويتبين وقوف اليهود واسرائيل ، ومَن ساروا معهم من دون ان يشعروا ، في وجه المعاهدة ويسقطونها . تلك التي لو قُدِّرَ لها ان تسري وتنفذ ، لأتت بمنافعها وثمارها على العراق ، ولما دفعنا ثمناً غير محسوب ، جرّاء عدم اعترافنا بها . . لقد اخطأ الذين حاربوها ووقفوا ضدها .

احبَّ اخي الامير عبد الاله «صالح جبر» حُبّاً جماً ، وحينما مرِضَ البيگ بمرض القلب ، عاده الأمير ثلاث مرات في منزله ، ليطمئن على صحته . لم يصدِّق ان مرضته تلك ، كانت المرضة النهائية في حياته ، ولهذا عندما سمع بخبر وفاته تأثر تأثراً شديداً ، وحزن عليه حزناً بالغاً ، وبقي يترحم عليه كلما مرَّ ذكره امامه .

لم يمت «صالح جبر» كبيراً في السن ، انما رحل عن هذه الدنيا وهو اصغر من «نوري باشا» بسنين ، ولهذا لا استطيع ان اقيِّمه التقييم السياسي الصحيح ، سيّما اذا قلت مجازاً ، ليس باستطاعتي ان اجعل منه نداً مساوياً لنوري السعيد .

لكنني على يقين من انه لو امتدَّ به العُمر وبالنظام الملكي ،

لاستطاع «البيگ» ليس فقط ان يكون نداً عنيداً «للباشا» وانما ان يحتلَّ مكانة اهم ، مقارنة بالسياسيين العراقيين الآخرين! هكذا كنا نتوسم فيه (نحن العائلة العراقية المالكة) على الاقل .

تشاء المقادير ان يتوفى صالح جبر الى رحمة الله ، في العهد الملكي (في ١٩٥٦/٦/٦م) ولذا خرجت الدولة كلها تمشي وراء جنازته . شيَّعته تشييعاً يليق به وبمكانته عندها . . لعل هذا هو الانصاف الوحيد الذي ناله في عهدنا . . ومنّا فقط حتى اليوم!

سياسيون آخرون

ما يزال كثيرون يعتقدون بان ملوك العراق ، واخي الامير عبد الاله ، انما كانوا يسندون الوزارات ، ويكلِفون رؤساءَها بتشكيلها ، بدوافع التفاهم والمحبة والانسجام التام معهم . بينما كنا ندرك نحن ـ وقد دللت الايام فيما بعد على صحة ذلك ـ بان الاعتبارات السياسية ، والظروف التي يمر فيها العراق ، وما يتطلبه من حالات التوازن ، هي التي كانت تتحكم وتملي على اهلي اختيارهم .

فسياسي كـ «مزاحم الباچه چي» مثلاً ، معروف عنه بانه كان يثير المشاكل بوجه عمي الملك فيصل الاول . اتذكر وانا ابنة (١١) احد عشر عاماً ، يوم عُيِّن «الباچه چي» وزيراً للداخلية في نيسان (ابريل) ١٩٣١م (في حكومة نوري السعيد) ، حصل اضراب عام في صيف (تموز) نفس العام ، اثر اقرار قانون رسوم البلديات ، فأغلق اصحاب المهن والحِرف ابواب محلاتهم التجارية .

كان البلد في عهدة ابي الملك علي ، لغياب عمي الملك فيصل الاول

ورئيس وزرائه نوري السعيد ، في سفرة رسمية لهما الى تركيا . استخدم «مزاحم» العنف والقوة ضد المضربين ، على خلاف ارادة ابي ، فسبب له ازمة قلبية كادت تودي بحياته .

تنبهوا الى مدى حجم المسؤولية ، التي كان يشعر بها وينوء بحملها اهلي . وقدِّروا مدى رهافة الاحاسيس والمشاعر ، التي كانوا يتمتعون بها ، مقارنةً بِمَنْ اعقبهم ، او حتى من عاصرهم من الحكام . . عندها ستدركون ـ بيقين ـ لماذا قُضي على حكمنا بالعراق!

«توفيق السويدي» لم نكن نحن (نساء العائلة المالكة) نلتقي به ، او بكثيرين غيره من السياسيين العراقيين ، فحتى لو صادف وجودنا وإياهم على متن نفس الطائرة ، التي نركبها في سفراتنا ، فاننا ننزل منها «محجَّبات» ونصعد اليها «مُحَجَّبات» ولا احد يعلم بنا .

زارني في يوم الحرب مع اسرائيل في حزيران (يونيو) ١٩٦٧م ببيروت ، ومن اول لقائه بي ، قال لي : «لم تكونوا انتم العائلة المالكة تعرفون اخلاق الملك غازي . ولاتدرون كم هو فاسد»!

ماذا كان باستطاعتي ان اردَّ عليه؟! وبغض النظر عن رأيي فيه ، سواء اتفقت معه او اختلفت ، فانه لا يجوز له ان يتحدث بهذه الطريقة ، عن ابن عمي وزوج اختي ، الملك الذي مات قبل اكثر من ربع قرن من الزمان في ذلك الحين .

لم يكن تصرفه ذاك لائقاً معي ، وارجح انه انما جرى قوله هذا على لسانه ، بسبب الكراهية التي كان يضمرها آل السويدي لنا كعائلة عراقية مالكة ، فقد كنا نعلم بانهم كانوا يكرهوننا ، ولا ادري لماذا؟!

اما «ياسين الهاشمي» فقد عادى عمي الملك فيصل الاول ، منذ كان معه في سوريا . واستمر على ذلك بالعراق ، حتى تحوَّل الى ديكتاتور بشع في

عهد الملك غازي . وفي الوقت الذي فرح فيه ابن عمي من انقلاب «بكر صدقي» عليه ، الاّ ان اخي الامير عبد الاله حزن في النهاية ، لان «صدقي» اراد ان يجعل من نفسه موسوليني العراق ، فضلاً عن قتله مؤسس الجيش العراقي «جعفر العسكري» واجباره «نوري باشا» على مغادرة بلده .

وليس حال مَنْ احبَّ العائلة العراقية المالكة واخلص لها ، بأفضل من حال مَنْ كرهها وعاداها . فهذا «ساطع الحصري» (المتزوج من سيدة تركية مثقفة واعية ووالد «سلوى» صديقتي المقربة) كان طيباً معنا حتى عام ١٩٤١م ، فغلبت عليه النزعة النازية ، وصار في الاخير يشتمنا (هو وابنه) ويسيءُ الينا ، من دون مبرر . يؤسفنا ان شخصاً مخلصاً لعمي الملك فيصل الاول ، ينقلب علينا فيكتب اشياء كاذبة ضدنا .

احمد مختار بابان كان خوّافا ضعيفاً ، قللَّ من اهمية كثير من الامور التي مرَّت بالعراق ، ولم يشجع على اتخاذ اية تدابير احترازية ضدها . لا أدري لماذا كان يودُّه ويثق به اخي الامير عبد الاله ، بينما هو يوصل اليه اخباراً غير صحيحة او غير مؤكدة؟!

على عكس محمود بابان ، الوزير المخلص والانسان الطيب ، الذي اتذكره يوم زارني هو الآخر ، في نفس يوم اعلان الحرب بين العرب واسرائيل في حزيران ١٩٦٧م . خاطبني قائلاً : «لا يُفترض بالملك حسين ان يسير مع عبد الناصر في هذه الحرب ، لان عبد الناصر ليس فقط سيضيِّع فلسطين ، وانما سيضيِّع الاردن ايضاً»!

في صبيحة ١٤ تموز ١٩٥٨م احتمى احمد مختار بابان بأبن آوى (شيوعي) عدو للعائلة العراقية المالكة ، اعني به «كامل الچادرچي» كي يشفع له عند الانقلابيين .

إحتَرَمَ اخي «جميل المدفعي» وكان يعتبره كأب للدولة العراقية ، ونموذج

مخلص لها وربما للعائلة المالكة ، طيب ، عمل مع عمي الملك فيصل الاول .

ودّ ايضاً «رستم حيدر» كثيراً . اتذكر يوم مقتله في ١٨ كانون الثاني (يناير) ١٩٤٠م ، دخل علينا الامير عائداً من البلاط متجهم الوجه ، متألماً ، جزِعاً ، وقال : «قتلوا رستم حيدر» . لم نتأكد يومها ما اذا كان احد المخبولين اعتدى عليه فعلاً ، لأن «حيدر» لم يُعيِّنْهُ في وظيفة طلبها ، أو ان النازية وراء مقتله ، أو انه ذهب ضحية صراعات سياسية مقيتة؟!

كان «رستم حيدر» وزيراً في حكومة عمي الملك فيصل الاول في الشام ، وجاء معه الى العراق ، مخلصاً ، ذكياً ، شغوفاً بعمله ، مؤدياً لواجباته على اتمِّ وجه ، لكنه «علماني اكثر من اللازم» ذو عقلية اوربية . اليه والى «تحسين قدري» ذلك السوري الانيق ، الذي تُذكرُنا ملابسه بازياء القرن التاسع عشر ، صاحب اللسان الثقيل بالعربية ، الذي يجيد التركية والفرنسية ، الطيب ، الاناني بعض الشيء .

.. اليهما معاً ، نعزو ادخال المشروب الى بلاط عمي الملك فيصل الاول ، وتقديمه للضيوف .. ما كان يُفترض ابداً ان يحصل هذا في بلاط عمي الملكي!

عمائم في البلاط

ثمة عمامتان ترددتا على البلاط ، واحدة بيضاء كرهناها ، والاخرى سوداء احببناها . كان يرتدي الاولى «محمد مهدي الجواهري» لم نودّه ولم نقرأ شعره ، على رغم شاعريته التي قلَّ نظيرها في التأريخ ، لان بعض قصائده شتائم وتحريض علينا وعلى عهدنا .

غير ان هذا الشيخ الشاعر ، الذي سرعان ما خلع عمامته بعد تعيينه في البلاط ، تَذَكَّرَ بعد نحو ستين عاماً من ذلك التأريخ ، افضال عمي الملك فيصل الاول عليه ، فكتب نادماً ومتأسفاً على الكثير مما كاله من سوء بحقنا .

اما الثانية فقد ارتداها السيد «محمد الصدر» . احببناه واحترمناه لمواقفه المشرفة معنا ، كأسرة عراقية مالكة ، خاصة خلال فترة حركة رشيد عالي .

كان الصدر سيداً ، وقوراً ، مهيباً ، محترماً . ورغم سواد تاج رأسه ، إلاّ ان الكامن تحتها ابيض ، منفتح ، متفتح ، بخلاف كثيرين من المنطوين على انفسهم ، والمتزمتين بشأن الدين .

ظلَّ صديقاً وفياً لزوجي الشريف حسين ، يتزاوران ويقضيان اوقاتا مزعجة ، او ممتعة بالنسبة لهما معاً! يتحدثان فيها عن مشاكل البلد الكثيرة وهمومه ، ثم يبتعدان قليلاً اذا ما شُحِنت الاجواء ، ليتحدثا عن الصيد وآخر انواع الاسلحة . ورغم فارق السن الكبير بينهما ، الاّ ان عقليتيهما كانت متقاربة جداً ، سيّما في مسائل الدين والحياة .

احسب ان من الامانة ان اختم هنا ، بشأن قصة الخاتم الذي بعثته اختي الملكة عالية ، بيد الخادم عام ١٩٤١م الى السيد محمد الصدر ، تسأله عمّا اذا كان يرى ، ان نذهب مع انقلابيي مايس الى كردستان أم لا؟ سألناه بعد عودتنا الى بغداد ، فاجاب : «انني لم أُشِر عليكم بالذهاب معهم»!

ولذا فليس هناك ما يُستبعد ، ان يكون الخادم «وصل الله» قد التبس عليه الامر ، او تعاون ، أو أُجبِرَ من قبل الانقلابيين ، على ايصال مثل تلك الرسالة الينا عن السيد الصدر (رحمه الله) .

ولو صحَّ مثل هذا الاحتمال (وهو صحيح) فعلى المرء ان يتصور ، الى اي مدى كان بالامكان النفاذ الى القصر الملكي ، وسهولة تجنيد بعض الافراد العاملين فيه ، من قبل خصومنا واعدائنا!

وهو يدلل ايضاً على اننا لم نتخذ اية احترازات امنية ، من شأنها ان تحمينا وتصون حياتنا . لاننا ببساطة كنا نشعر ، باننا قريبون من شعبنا واهلنا في العراق . . ولهذا قُتِلْنا .

العائلة العراقية المالكة في رحلة بحرية لها بيخت «الملكة عالية»

كُتب خلف هذه الصورة الملوَّنة النص الآتي: «الوصول الى استنبول عصر يوم ٢٦ حزيران ١٩٥٥».

الصف الأول من اليمين:

١ـ الاميرة عبدية.

٢ـ الملك فيصل الثاني.

٣ـ الامير عبد الاله.

٤ـ الاميرة بديعة (والى جانبيها) ولداها الشريفان محمد وعبد الله.

٥ ـ السيدة فاطمة (حرم رئيس الديوان الملكي عبد الله بكر).

الصف الثاني من اليمين: ١ ـ مربية أطفال الأميرة بديعة (سيدة نمساوية). ٢ ـ عبد الله بكر (رئيس الديوان الملكي). ٣ ـ عبد الوهاب شاكر (رئيس المرافقين). ٤ ـ الشريف حسين بن علي (زوج الأميرة بديعة). ٥ ـ نوري (مرافق الملك) عُيِّن سفيراً بعد الانقلاب المشؤوم. ٦ ـ تحسين قدري.

الصف الثالث من اليمين: ٣ ـ المرافق ثامر خالد الحمدان. ٤ ـ المرافق علاء. ٥ ـ الطيار محمد. ٦ ـ الطيار جسّام محمد. ٧ ـ المرافق علي الصانع.



يخت الملكة عالية



بريطانيا عام ١٩٤٦م، من اليسار:

١ـ (ملكة العراق) عالية. ٢ـ (ملكة الحجاز) نفيسة، تجلس بين ابنتيها. ٣ـ الاميرة عبدية.

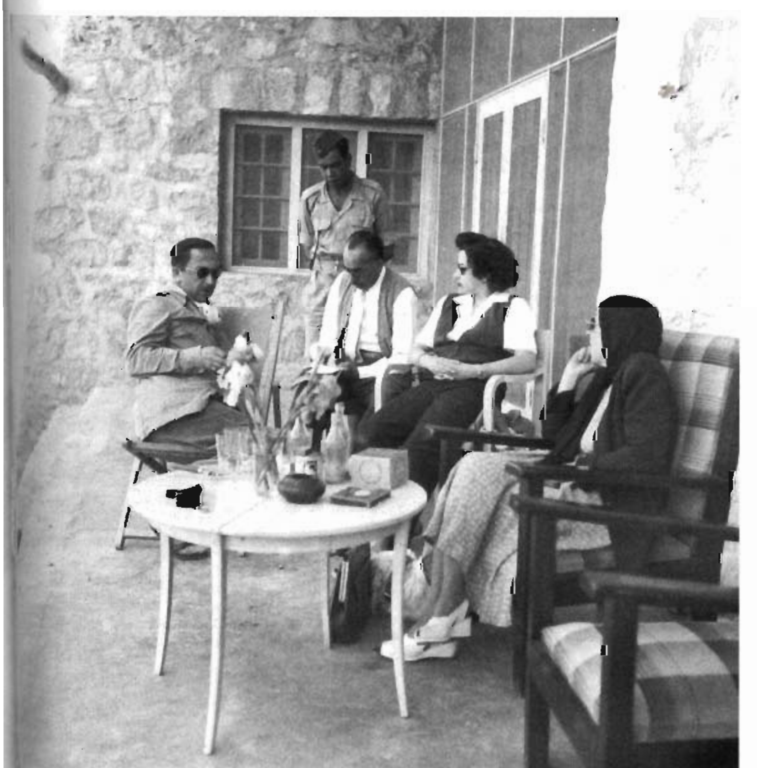



الملكة نفيسة والأميرة عبدية ـ لندن

الشريف حسين بن علي بين شيخين من شيوخ الفرات.



الاميرة بديعة ابنة الملك علي، في لقطة لوحدها بقصر الرحاب.



كردستان العراق ـ مصيف سرسنك ـ مطلع الخمسينات
من اليمين: ١ـ الملكة نفيسة. ٢ـ الأميرة بديعة. ٣ـ تحسين قدري.
٤ـ السائق (هوبي) عبد الوهاب. ٥ـ الأمير عبد الاله.



احتفال عائلي في «قصر الرحاب» بتاريخ ١٩٥٨/٣/١٤ دُعي اليه عدد من الاطفال، وقفوا امام طاولة، وُضع عليها بعض الانواع من الحلوى والمعجنات والمشروبات الغازية.

الواقفون الكبار من اليمين: ١ ـ الأميرة صالحة بنت الحسين. ٢ ـ الامير عبد الاله. ٣ ـ الملكة نفيسة ابنة عبد الاله باشا (تحمل على صدرها سبطها الشريف علي بن الحسين). ٤ ـ الملك فيصل الثاني (يقف بين جدته وخالته). ٥ ـ الشريف حسين بن علي (زوج الاميرة بديعة). ٦ ـ الاميرة بديعة. ٧ ـ الشريف يوسف بن عبد العزيز (عم الملكة دينا ملكة الأردن). ٨ ـ الاميرة عبدية ابنة الملك علي. ٩ـ صادق (سفرجي في منزل الأميرة بديعة).



عيد ميلاد الشريف محمد بن الحسين في قصر الرحاب عام ١٩٥٤م.

الصف الاول من اليسار: ١ ـ الامير عبد الاله ٢ـ الملكة نفيسة. ٣ ـ الملك فيصل الثاني (يمسك بيده كوباً من الشاي). ٤ ـ الشريف حازم بن سالم (زوج الأميرة جليلة). ٥ ـ الأميرة جليلة بنت الملك علي (تقف خلف زوجها).

الصف النسوي من اليسار: ١ ـ الاميرة بديعة (بعد ولديها الشريفين محمد وعبد الله). ٢ـ الاميرة عبدية. ٣ ـ الاميرة راجحة بنت الملك فيصل الأول. ٤ ـ حزيمة بنت الأميرة راجحة (ابنة عبد الجبار محمود). ٥ ـ نفيسة بنت الأميرة راجحة (ابنة عبد الجبار محمود). ٦ ـ الشريف حسين بن علي (زوج الاميرة بديعة). ٧ ـ السيدة بختيار هانم.



الملك فيصل الثاني والى يساره خاله الأمير عبد الاله، والى يمينه السيد محمد الصدر، وخلفهم الأمير رعد بن زيد والباشا نوري السعيد. بغداد ١٩٥٣م.



استقبال أمير البحرين الشيخ سلمان بن حمد آل خليفة لملك العراق فيصل الثاني، وقد بدا خلف أمير البحرين الامير عبد الاله.

من اليمين: ١ـ الامير عبد الاله. ٢ـ (رئيس جمهورية مصر العربية) اللواء محمد نجيب. ٣ـ (سفير العراق في القاهرة) نجيب الراوي.
بعد نجاح انقلاب ٢٣ تموز (يوليو) ١٩٥٢م على الملك فاروق زار الامير عبد الاله مصر، والتقى رئيس جمهوريتها اللواء محمد نجيب واجتمع به، لكنه لم يلتقِ جمال عبد الناصر.

الملك فيصل الثاني وخاله الامير عبد الاله ورئيس الوزراء نوري السعيد بالعربة الملكية،
في جولة تفقدية لهم وسط الحشود من الجماهير في شوارع بغداد.



المؤلف يتحدث الى الاميرة بديعة في منزلها بلندن،
حول الصيغة النهائية لمذكراتها ـ تموز ٢٠٠١م.

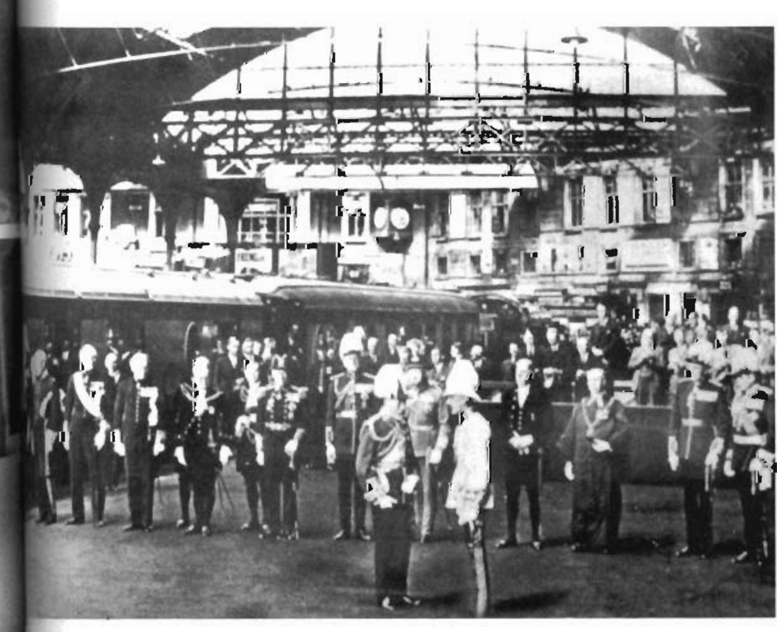


الشريف حسين بن علي (ملتفتاً) في عربة
ملكية تسير خلف عربة الملك فيصل الثاني،
خلال جولة تفقدية لهم في شوارع بغداد.

الملكة اليزابيث الثانية (ملكة بريطانيا العظمى) في استقبال (ملك العراق) فيصل الثاني سنة ١٩٥٦م، في احدى محطات القطار وسط لندن اثناء زيارته لها.



الملك فيصل الاول (من اليسار) الى جانب ملك بريطانيا جورج الخامس (بالعربة الملكية) في احد شوارع لندن، خلال زيارة ملك العراق لها بتأريخ ٢٠ حزيران ١٩٣٣م.



من اليسار: جورج الخامس ملك بريطانيا، مستقبلاً الملك فيصل الاول في احدى محطات القطار وسط لندن، اثناء زيارته لها في ٢٠ حزيران ١٩٣٣م.



ملك العراق فيصل الاول يستعرض الحرس، والى يمينه نوري السعيد.



(في الوسط) فيصل الاول (ملك العراق) عام ١٩٢١م، الى يساره السير برسي كوكس القائد العام للقوات البريطانية في العراق، والى يمينه الفريق جعفر العسكري مؤسس الجيش العراقي.

الملك فيصل الاول (الثاني من اليمين) في زيارة له الى كردستان العراق. خلفه ولده الأمير (الملك) غازي.





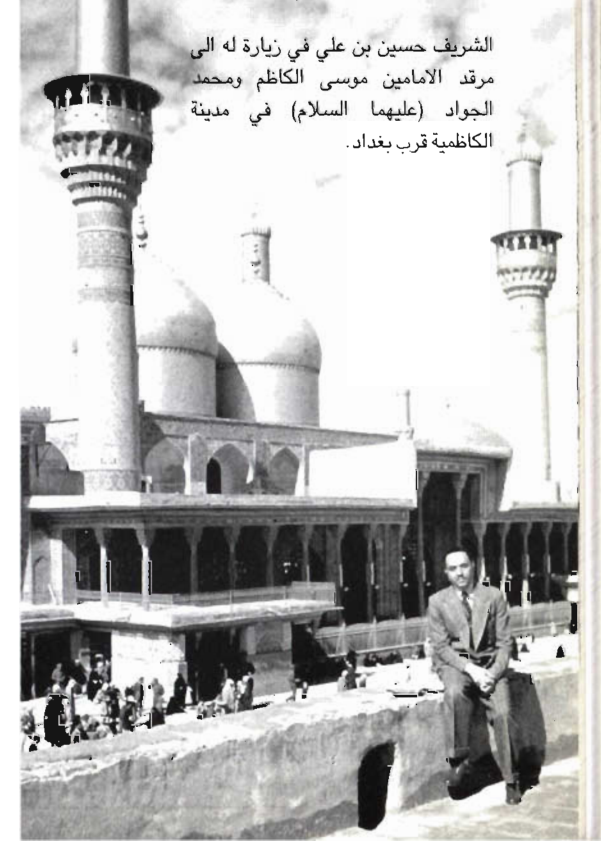
الملك فيصل الاول (في الوسط) والى يمينه الشيخ خزعل الكعبي شيخ المحمرة. التقطت الصورة في قصر الشيخ خزعل.



من اليمين: ١ـ الملك فيصل الاول (ملك العراق) اثناء زيارته لمصر. ٢ـ النحّاس باشا (رئيس وزراء مصر). ٣ـ علي ماهر (رئيس وزراء مصر).



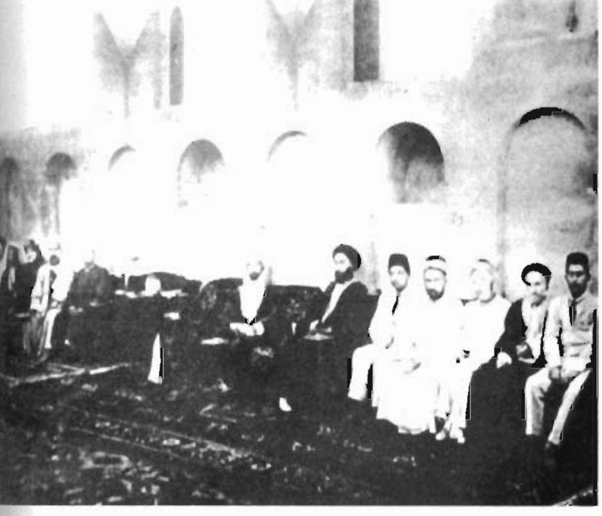
سجّادة وُقِّعت باسم النسّاج «عبد الحسين» بتاريخ ١٣٥٥هـ. نُسِجَت بعد ولادة الملك فيصل الثاني عام ١٩٣٥م مباشرة. نُقش عليها نسب العائلة العراقية المالكة، من هاشم جد النبي محمد (ص) والامام علي بن ابي طالب(ع) وحتى فيصل الثاني.



الشريف حسين بن علي في زيارة له الى مرقد الامامين موسى الكاظم ومحمد الجواد (عليهما السلام) في مدينة الكاظمية قرب بغداد.



ملك العراق فيصل الاول، في اول زيارة له الى مدينة النجف الاشرف عام ١٩٢١م، باللباس العسكري. يتقدمه ثلاثة علماء، يحملون بايديهم عنه بعض الهدايا والتبرعات المقدمة من قبله الى مرقد جده الامام علي بن ابي طالب (ع).



(ملك العراق) فيصل الاول بالزي العربي، والى يساره السيد هادي الحسيني (بالعمامة السوداء) في دار الاخير بالحلة اثناء زيارة الملك له بتاريخ ١٩٢١/١٠/٢٦م.

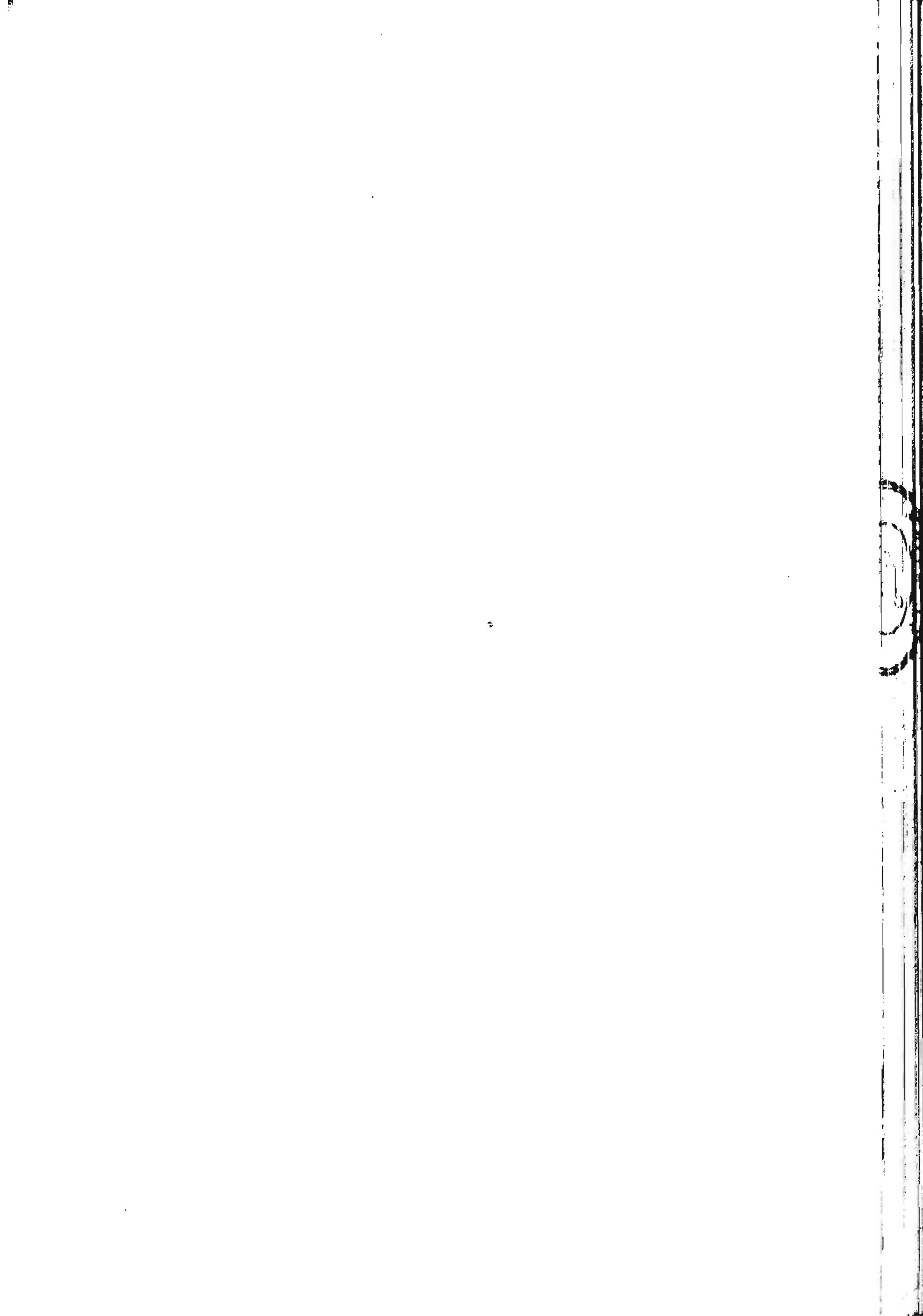


التقطت هذه الصورة التاريخية في يوم ١٩٢٤/٤/٥م. بمناسبة افتتاح «كري سعدة» في مدينة النجف الاشرف. وهو عبارة عن جدول أو ساقية شُقَّتْ من شط الفرات في الكوفة الى النجف، لمسافة نحو (١٠) عشرة كيلو مترات.

يبدو الملك فيصل الاول في الوسط يمسك مسحاة بيده اليمنى، والى يساره أية الله السيد محمد علي بحر العلوم، ثم السيد مهدي السيد سلمان، واخيراً رئيس بلدية النجف. بينما وقف الى يمينه رئيس تجار عربستان، ثم وزير المالية الحاج عبد المحسن شلاش، واخيراً الشيخ غني حسن.

الفصل الرابع

ملوك وأمراء بني هاشم



أبي الملك المظلوم

لا احسب ان ملكاً ظلمه التاريخ والعرب والدول ، كما ظُلِم ابي (ملك الحجاز) علي بن الحسين . ربما لأن ظالميه تذرعوا بقِصَر عمر ملوكيته ، وانشغاله بالحرب وعدم استقراره ، ما من شأنه أن اختزل من انجازاته المؤملة للعرب والمسلمين .

ولكن هذا لا يبرر لهم تجاهلهم اياه ، ونسيان ادواره الاخرى ، سيَّما دوره الرئيس في الثورة العربية الكبرى عام ١٩١٦م ، وقتاله الاتراك ، ومواقفه المشرفة من العرب ، هذا من جهة . وخيانة الانكليز له ، والمعاناة الرهيبة التي تعرض لها على أيديهم ، من جهة أخرى .

لقد مر حتى الآن ما يزيد على (٦٦) ست وستين سنة على وفاته (وُلد عام ١٨٨٠م ومات في ١٩٣٥م) . وهي فترة كافية لافتضاح الاسرار ، وكشف الوثائق السرية (المتعلقة بفترة حكمه وما قبلها وما بعدها) وبالرغم من كل ذلك ، فاننا لم نجد الى اليوم ، دراسة منصفة غطَّت حياته ، وحللت الظروف التي أحاطت به ، ووضعه العام .

ولست هنا في مذكراتي زاعمةً بأنني سأوفيه حقه ، وحق اعمامي الملوك وسائر الأمراء والأشراف ، من سرد لحوادث التاريخ او تحليل لوقائعه . فهذه ليست مهمتي او هدفي ، بقدر ما اود ان أُذكِّر الناس ببعض سجايا اهلي واخلاقهم ، وخفايا علاقاتهم وسلوكياتهم الشخصية والعائلية .

ارويها للتاريخ والاجيال القادمة ، على شكل خواطر وذكريات ، ربما سيستفيد منها البعض ، فيما لو اراد ان يدرسهم ، ليعرف حقيقتهم وكيف كانوا يحكمون ، وماذا قدموا للعرب وبلدانهم .

كان والدي رقيقاً وحسّاساً وعاطفياً الى درجة لا تصدق (وهكذا طلع ولده الامير عبد الاله عليه) فأبسط المواقف الانسانية واصغرها ، يرقُّ لها قلبه ، ويهتزُّ بدنه ، وترتعش اوصاله ، ثم تدمع عيناه ويبدءان بالمسيل على خديه .

لا يصدق مَنْ يراه ساعة تنتابه مثل تلك المواقف ، بأن هذا الذي امامه «ملك» يحكم العباد والبلاد ،سيحسبه شاعراً ، او اديباً ناثراً مرهف الاحاسيس والانفعالات ، اذ ما تزال صورة الملك بأنه ذلك الجبّار المتغطرس ، المستبد برأيه وسلطته ، يسوم الناس سوء العذاب من اجل نفسه وذاته .

هذه العاطفة ربما هي التي تغلبت عليه ، وجعلته يضحي بمُلكه ومجده الشخصي ، فيتنازل عن عرشه ومملكته ، رأفة بالعرب ورحمة بمن والاه ووقف معه ، كي لا يتسبب في ايذائهم او اهانتهم .

فليس من البساطة بمكان على اي انسان ، حتى لو كان مكابراً او عنيداً او متظاهراً بعدم المبالاة والاهتمام ، ان يترك ملكه طوعاً او كرها ، ليحل ضيفاً عند الآخرين .

فما بالكم بملك بهذه المواصفات ، يترك اهله ووطنه ، ليعيش بقية عمره لاجئاً عند اخيه الاصغر منه سناً ، تحت حمايته ورعايته ، يخصص له راتباً ، يعيش منه هو واهله ومَنْ جاء بمعيته؟!

ثمن مغادرة الوطن

لم يخرج ابي وحده من الحجاز ، انما تبعه اشراف وحجازيون وبدو ومرافقون كثيرون ، فضلاً عن العبيد والجواري والخدم ، كلهم جاؤوا معه الى العراق . وتعيَّن عليه ان يعيلهم ويصرف عليهم ويتكفل معيشتهم ، لا بد ان يوفر لهم حياة هانئة ، كتلك التي كانوا يعيشونها في مكة المكرمة والمدينة المنورة وجِدَّة ، وغيرها من مدن الحجاز .

كل ذلك براتب خصصه له عمي الملك فيصل الاول ، لا يتجاوز الـ (٢٥٠) المائتين وخمسين ديناراً عراقياً ، في النصف الثاني من عشرينات القرن العشرين . ولأنه لا يكفي ، منحوه مزرعة كبيرة في مدينة «النعمانية» لتدر عليه عائداً ، يعيل منه نفسه ومن معه . كما اقتطعوا للحجازيين والاشراف ومَنْ جاء معه ، حصةً من الاوقاف .

غير ان ذلك كله لم يَسِّد ويفِ بحاجاتهم . ما زلتُ اتذكرُ اننا بقينا فترة من الزمن نتحدث باللهجة الحجازية في العراق ، ذلك لأن بيتنا مليء بالبدو والحجازيين . لذا استأجر والدي احد البيوت الكبيرة في «كرادة مريم» واسكنهم في غرفه الكثيرة .

اما مَنْ كان لديه قريب او صديق ، خرج ليسكن عنده او بجواره ، وكان على ابي ان يداري عوائلهم ، ويسأل عن نسائهم ، ويتفقد اطفالهم . ولهذا بمجرد ان توفي الى رحمة الله ، اضطر العديد منهم الى العودة للحجاز ، لشعورهم بثقل وطأة فقدانهم لحاميهم ومعيلهم وكفيلهم . ولم يبقَ احد من الاشراف الكبار في العراق ، انما ذهب ابناؤهم واحفادهم الى الاردن ، واماكن اخرى ليعيشوا فيها .

لقد قضى ابي بقية عمره مديناً للآخرين ، لم يتمكن من ان يوفر درهماً واحداً . وكم من مرة رهن مجوهرات امي ومقتنياتها وذهبها ، لدى

الممولين ، مقابل اموال لم تدخل جيبه ولا بيته ، انما صرفها على الناس والمعوزين . وكم من مرة تأخر في تحرير الرهان ، لأنه لم يستطع توفير المال اللازم لفكّه .

واجزم لو لم تكن امي غنية اصلاً (من جهة والدها عبد الاله باشا) لعشنا حياة متعبة جداً ، في ظل والدي بالعراق . فهي التي تكفلت امر الصرف علينا (نحن البنات) وهي التي ألبستنا ، ووفرت لنا طلباتنا وحاجاتنا .

سأكشف سراً هنا ، وهو اننا نحن بنات الملك علي ، كنا نلبس اجمل وابهى واغلى ، مما تلبسه بنات عمي الملك فيصل الاول ، وابوهن ملك العراق! وأتذكر حينما كنا نزورهم يوم العيد بملابس العيد الانيقة ، تتفاجأ زوجة عمي الملكة حزيمة وبناتها بمظهرنا .

والفضل في كل هذا يعود الى امي الملكة نفيسة ، فهي تختلف عن كل نساء الشام والحجاز والاردن والعراق . عاشت حياتها في تركيا ، فأثرت فيها مظاهر التمدن والرقي ، وتعرفت عن كثب على آخر الموضات من شياكة واتكيت .

ولسنا في هذا الحديث نروم لوم ابي او العتب عليه ، فنحن البنات خير مَنْ كُنَّ يُقَدِّرنَ ظروفه ، ويدركن بأن مركزه ووضعه ، لا يسمحان له بالصرف علينا اكثر مما كان يفعل . ولهذا لم نطلب منه شيئاً دفعاً لإحراجه ، اذ ليس من عادته ان يردَّ احداً ، يكفيه انه يلبي حاجات غيرنا .

صحيح ان بيتنا كان مفتوحاً للناس ، فيه من الاكل والحلوى والفاكهة الشيء الكثير ، الاّ ان الأمر بالنسبة لوالدي كملك يظل صعباً ، لأنه لا يستطيع ان يقدِّم اكثر مما كان يقدمه ، وهو بكل تأكيد يتمنى في قرارة نفسه ان يفعل المزيد .

هموم ملك منفي

قضّى ابي العقد الاخير من عمره في بغداد (١٩٢٦م ـ ١٩٣٥م) حزيناً ، متألماً ، يقاسي مما كابده من محن وخيانات (تعرض لها خلال حياته السياسية) ومن مرارة العيش وصعوبته ، في بلد يحكمه اخوه (عمي) الملك فيصل الاول . ولعله مما كان يخفف عليه عبء الهموم وشدة الآلام ، هو زيارات عمي المتكررة له ، حيث يأتيه بين ليلة واخرى ، او ليلتين في الاسبوع على اقل تقدير .

يجلسان وحدهما يتناجيان ، فكان هو يشكو لأخيه الاصغر من ظلامات الاخرين وخياناتهم له ، وانه لم يستطع التفاهم مع الانكليز (القوة العظمى في ذلك الزمان) . بينما يشاطره عمي في هذه الهموم ، ويستشيره فيما يفعل من جانبه بشأن العراق والانكليز وغيرهم . . لقد كان ابي موضع ثقة عمي واحترامه وتقديره .

لم تقتصر شكوى ابي لعمي ، انما كان يحكي بها لبعض اصدقائه والقريبين منه . اتذكّر الدكتور محمد الحسيني ، احد الاطباء المصريين من مرافقيه ، كان يجلس معه ويشكو له ضيمه وهمه .

يحدِّثُه عن الحرب في الحجاز وأسبابها ، وخيانة الانكليز له ، وفرضهم الحصار على «جِدَّة» ثم تنازله عن العرش . . وما الى ذلك . يحدثه عن «الثورة العربية الكبرى» تلك التي لم نلحق ان نفرح بها ، او نجني ثمارها .

في الوقت الذي كان ابي يشيد فيه ، ببعض ادوار الاشراف المشرِّفة في الحرب ، كالشريف «علي ناصر» الذي قاتل بالشام مثلاً ، استذكرُ (انا) بعده الادوار المشينة ، التي لعبها ابنه «سيف» الذي ساند الشريف «شرف» في موقفه ، ضد اخي الامير عبد الاله .

وقد قضّى سيف عمره سكيراً مخموراً ، لا يدري ماذا يجري حوله! حتى نفي الاثنان (سيف وشرف) الى جنوب افريقيا .

لم أرَ والدي في حياته زعلاناً او عصبياً ، الاّ مرة واحدة ، لأن باب البيت تُركَ مفتوحاً ، فزعل ونادى العبد ان يغلقه ، اذ كانت عادته ان يغلق الباب على مَنْ في الدار ، من النساء والاطفال .

حدثنا بأنه لا يتذكر من امه شيئاً ، سوى صورة ظلّت عالقة في ذاكرته ، التقطها عندما كانت تقف امام المرآة تمشّطُ شعرها . ازدادت مسؤولياته تجاه اخوانه ، بعد وفاتها في السابعة والعشرين من عمرها ، رغم ان جدته الشركسية «بزميجيهان» هي التي ربتهم .

ويروي عن جدته بأنها كانت ، عندما تسمعهم يتخاصمون ويتشاجرون فيما بينهم ، ترسل خاتمها بيد الآغا ، اشعاراً منها بأنها ستصعد اليهم ان لم يسكتوا ، فما ان يُريهم اياه ، حتى يصمتوا ويكفّوا عن بعضهم خشية منها .

وحصل اثناء دراستهم في «اسطنبول» ـ أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ـ ان كان استاذهم «صفوت افندي العوا» يستخدم عصاه بحق (الملك) عبد الله لمشاغبته وعبثه ، و(الملك) فيصل الأول لاهماله وعدم مبالاته (على حد تعبيره) .

كان والدي (الملك) علي ينظر اليهما وهما يُضربان ، فيبكي ، لأنه لا يستطيع ان يفعل لهما شيئاً ، او يمنع استاذه من ضربهما . يشعر بالذنب تجاههما ، لأنهما اصغر منه سناً ، وكم تمنى ان يُضرب بالعصا بدلاً عنهما .

يحبنا حباً مبالغاً فيه ، ويحبّ اباه ، ويعتقد بأن ظلامته هو بدأت منذ ظُلِمَ ابوه ، يوم نكث الانكليز بوعدوهم له ، ونفوه الى «قبرص» ليعيش بقية عمره مريضاً ، محاصراً ، منفياً ، حتى وفاته بعيداً عن اهله ووطنه . هذا إن لم

ارِد ان اذهب الى توقيت ظلامته ، بأبعد من هذا التأريخ ، منذ ظُلم اجدادنا قبل (١٤) اربعة عشر قرناً من الزمان .

لهذا لم يجرؤ احد من الناس على مسٍّ ، او لوم ابيه (ملك العرب) الحسين بن علي امامه ، على ما حل به وبنا من مصائب وآلام ، جرّاء مواقفه المتشددة من الانگليز وتمسكه بفلسطين ، الاّ «كوكو» . . وهي احدى ببغاوين! كانت عمة ابي اهدتهما له ، وبعثتهما بيد اخي الامير عبد الاله من مصر .

مرَّ والدي يوماً من امام قفصهما ، واذا بالببغاء البيضاء تغري أبي بالوقوف لتشتمه قائلة : «يلعن ابوك»! ذهل الملك وراح ينظر اليها مستغرباً ، باهتاً ، ولم يتمالك اعصابها ، فردَّ عليه ساخراً هازئاً : «يلعن أبوك انت»!

وفاة ملك عظيم

دخلتُ عليه في يوم وفاته ، وتشاء الاقدار ان يبقيني الله (عزَّ شأنه) على قيد الحياة الى هذا اليوم ، لأروي هذه القصة ، فقال لي : «انني اخشى من الله ان يشتكي عليَّ اثنان يوم القيامة» . سألتُه : «لماذا يا ابي»؟ اجاب : «كانا ضابطين تركيين شابين ، ارتكبا جريمة اثناء حصاري للمدينة المنورة ، عقوبتها الاعدام .

أُسِرا وجيء بهما امامي ، فلم تطاوعني نفسي لاصدار الحكم عليهما ، لهذا حاولت تلقينهما ، وطلبت منهما ان يقولا ، بأنهما ارتكبا ذلك الجرم من دون قصد او عمد ، ويعتذرا عما فعلاه ، كي اعفو عنهما . لكنهما ابيا واصرّا على تحمِّل مسؤولية ما فعلاه ، فاضطررت الى انزال العقوبة العادلة المقررة بحقهما . . انني اليوم احس بالذنب ، رغم شرعية واحقية ما حكمت به»!

شعر ابي ـ في تلك اللحظات ـ بقرب ساعة اجله (ففضفض) عمّا في داخله امامي وامام والدتي .

قُبيلَ وفاته نادتني «بختيار هانم» العجوز الشركسية لتناول الشاي في بيتنا ، وكان جاهزاً ، فلم اشربه ، وذهبتُ (بعد ان مررنا انا وامي على ابي في بيته) الى «قصر الحارثية» لنشرب الشاي مع اختي الملكة عالية ، واخواتي اللائي سبقننا الى هناك . فجأة رنَّ جرس الهاتف يطلبون عودتنا بسرعة . هرعنا الى بيتنا ، واغلب ظننا بأن مكروهاً وقع لأخي عبد الاله .

بالقرب من منطقة «الصالحية» شاهدنا اخي يسوق سيارته الصغيرة المكشوفة ، مرتدياً سدارته ، فتيقنّا بأنه سالم ، فحمدنا الله . كان والدي هو الآخر قد خرج يقود سيارته بنفسه ، ولهذا لم نعرف ماذا حصل بالضبط . استدار اخي بسيارته وتبعنا الى البيت .

صعدنا الى قسم الرجال (من منزل والدي) فوجدنا ابي جالساً ، يستنشق الهواء بصعوبة بالغة من انفه وفمه ، ولا يتكلم . حين وقع بصره على امي ابتسم ابتسامة خافتة ، ملؤها الرضا والقبول . ربما ليعرب عن ارتياحه وسروره لرؤيتها ، او ربما ليطمئنها بأنه ما من شيء يؤلمه ويؤذيه .

نقلوه الى غرفة نومه ، واذا به يغيب عن الوعي يوماً كاملاً ، حتى وافته المنية في الثالث عشر من شهر شباط (فبراير) عام ١٩٣٥م ببغداد ، عن عمر ناهز الخامسة والخمسين (رحمه الله) .

* * *

كان شيعة بغداد يأتون في العشر الاوائل من شهر محرم الحرام ، الى قصر ابي الملك علي ، لمواساته باستشهاد جده الامام الحسين بن علي (ع)

من منطقة «الگاورية» القريبة من «كرادة مريم» . فيقفون امام منزله ويلطمون على صدورهم ، مرددين هذه الأبيات الشعرية :

جيت اسائلكم يا شيعة	صُـدُق زينب سلّبـوها؟
اي وحق جدها محمد	حتـى الخيام احـرقوها!

فكان ابـي يقـوم من مـجلسـه ويقـف على الشـرفة ، ليـحيـي المعـزّين ، لاطمـاً على صـدره ، باكـياً ، حـزيناً . سـألْتـهُ امي مـرة : «هل تلطم انت على صـدرك ايضاً»؟ اجاب : «نعم ، انهم جاؤوا يعزوني بمصاب جدي ، فكيف لا أشاركهم العزاء»؟!

مـات ابي بمرض اخيـه الملك فـيصل الاول «تصلُّب الشـراييـن» ليـدفن الى جانبه وجانب جدته بزميجيهان ، كثالث الاشراف وثاني الملوك العلويين ، بالمقبـرة الملكيـة في «الاعظمـيـة» . ببلد اجـداده الائمة علي بن ابي طالب والحسين ، وعلى الضـفة المقابلة مباشـرةً لموسى الكاظم ومحـمد الجواد (على اجمعهم السلام) .

أمي ملكة الحجاز

في العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر الميلادي (١٨٨٢م) عُيِّن الشريف «عون» اميراً على مكة المكرمة ، فيما غادرها اخوه (جدي لامي الشريف عبد الاله باشا) الى اسطنبول ، كولي لعهد الامارة . اذ كان من سياسة العثمانيين ، ان يحتفظوا بولي العهد عندهم كرهينة ، حتى يحين موعد تنصيبه كأمير ، فيعود الى امارته .

وما ان وضع جدي (عبد الاله) قدميه في اسطنبول ، حتى وُلِدت امي هناك ، كأخت للشريف سالم الذي مات شاباً في (٢١) الحادية والعشرين من عمره .

بعد عقد من الزمان (في عام ١٨٩١م) استدعي جدي لأبي (ملك العرب) الشريف الحسين بن علي ، من مكة المكرمة ليبقى في الاستانة ، كي يحدّوا من نشاطه المتصاعد ضد عمه الشريف عون ، الذي ساءت اوضاع الامارة في عهده .

طالت مدة امارة الشريف عون على مكة المكرمة (١٨٨٢م ـ ١٩٠٥م) وكبرت معها امي ، وترعرعت في ظل الدولة العثمانية ، فما كان من جدي ملك العرب ، الاّ ان طلب ابنتي اخيه ، توأم الشريف ناصر (حزيمة ومصباح) ليزوجهما من ولديه (فيصل وعبد الله) وطلب يد امي من عمه الشريف عبد الاله ، ليزوجها من نجله الاكبر (علي) .

تزوج أبي من أمي سنة ١٩٠٦م في اسطنبول ، وهي ابنة (١٩) تسعة عشر ربيعاً (مواليد ١٨٨٧م) وكان لجدي عبد الاله باشا قصر منيف هائل في «أميرگند» . سكن فيه والدي ، تاركاً قصر ابيه في «بيوگدره» .

بعد عام على زواجهما وُلِدَت اختي «عبدية» في ١٩٠٧م ثم اخي «شرف» في ١٩٠٨م . توفي الشريف «عون» امير مكة سنة ١٩٠٥م ، فعيَّن الاتراك الشريف علي بن عبد الله (والد زوجي الشريف حسين ، وجد أولادي الأشراف الثلاثة) اميراً عليها .

ما لبثوا ان عزلوه في ١٩٠٨م لأسباب سياسية ، ليعيِّنوا بدلاً عنه (جدي لامي) الشريف عبد الاله باشا ، الذي سرعان ماداهمه المرض ، ومات وهو في اسطنبول ، قبل ان يشدَّ الرحال الى امارته في الحجاز . فأضطر الاتراك الى تعيين جدي (ملك العرب) الشريف الحسين بن علي ، اميراً على مكة المكرمة .

في العام نفسه ١٩٠٨م عاد اهلي (امي وابي واختي عبدية) الى الحجاز ، حيث توفي اخي «شرف» ابن الستة اشهر فجأة . بقينا هناك الى عام ١٩٢٤م ، ولهذا ظلت لغة امي العربية ركيكة ، حتى يوم استشهادها ، لترعرعها ونشأتها في تركيا .

هي تسأل ونحن نجيب!

كانت تستحي من ان تتحدث بالعربية امام الناس ، فكونها سيدة عربية هاشمية شريفة لا تجيد لغتها ، هو امر ـ بحد ذاته ـ محرج للانسان . لا تريد لالفاظها ان تخرج من فمها مشوبة بلكنة تركية ، ولذا كنا نتركها تتحدث التركية ، على ان نقوم (نحن البنات) بمهمة الترجمة لمن لا يفهم كلامها . بيد ان اغلب الناس وقتذاك ، سيّما المسنين منهم ، كانوا يتكلمون التركية ، بفضل خمسة قرون من الخلافة العثمانية وسياسة التتريك العنصرية!

اما انا واختي الاميرة جليلة ، فكنا نرفض ان نبادلها لغتها في داخل

البيت عناداً ، وايضاً اعتزازاً بقوميتنا وعروبتنا ، التي نشطت الدعوة اليها آنذاك ، فهي تسألنا بالتركية ونحن نجيبها بالعربية ، مما نضطرها في كثير من الاوقات ، الى ان تتحدث معنا ومع الخدم بالعربية .

بينما كانت اخواتي الملكة عالية والاميرة عبدية ، يبادلانها دوماً لغتها التركية . ولعل اجمل مَنْ يتحدث فينا هذه اللغة ، هو اخي الامير عبد الاله ، ففي زيارته لتركيا في ايلول (سبتمبر) ١٩٤٥م ، علّق «عدنان مندريس» وعدد من الوزراء الاتراك ، على احاديث الامير عبد الاله ، بأنه يتحدث العثمانية القديمة ، لا الجديدة ، وكأنه احد ابناء تركيا الاصليين .

لم تنقطع (رحمها الله) يوماً عن القراءة باللغتين التركية والعربية ، ولكن قراءاتها بالاولى تفوق الثانية بكثير . وبسبب هذه الثقافة ، فانها اختلفت عن العديد من نساء عصرها ، بمن فيهن زوجات اعمامي (فيصل ، عبد الله ، زيد) . فهي غالباً ما تعمل الاشياء في محلها ومكانها الصحيح ، ولا تتحدث الاّ اذا وجدت ضرورة لذلك .

كانت امي كثيراً ما تقرأ القرآن الكريم وتعبد الله (سبحانه وتعالى) وتستغفره وتصلي ، وهي تردد دائماً بأن : «الله (جلّ وعلا) قد لا يدخلني جهنم ، عدا يدي اليمين هذه ، ربما ستمسها النار ، لكثرة ما قبّلها الرجال عند السلام عليّ»!

تطويع بعض التقاليد

وعلى رغم تقواها وورعها ، فان هذا لم يمنعها ، من ان توافق على مقترح تعلمنا بعض تمارين الرقص . واعني تمارين الرقص المحتشم ، وليس المتهتك الفاضح .

فبعد عودتنا من سفرتنا الى الاسكندرية سنة ١٩٣٦م ، وما شاهَدَتْهُ من

رقيّ وتطور في مصر ، ارادت امي ان تدخل البهجة والسرور الى نفوسنا (نحن البنات) فطلبت احدى المعلمات . وكانت بنات الطبقات العليا من المجتمع ، يعتبرن الرقص كأحد مظاهر التحضّر يومذاك ، في البيوت طبعاً ، لا في الملاهي والحانات .

لم تُرِد امي العابدة المتنسكة منا ، ان نتطلع الى ما يسيء الى اخلاقنا وينتقص من تربيتنا ، لهذا حاولت ان تذر الرماد في عيوننا ، من خلال بعض التمارين البسيطة . غير ان اخي عبد الاله كان اكثر تشدداً معنا (كبنات) في مثل هذه الامور ، وبمجرد ان علم بالامر تطيَّر منه ، لكنه لم يكن باستطاعته ان يواجه امي ، أو يعصي لها امراً ، فارسل اليَّ وخاطبني : «اسمعي يا بديعة ، اياكن ان تأتين بالمعلمة هذه . والله ان فعلتن ، لأكسرن ارجلكن»!

كان باستطاعتنا ان نخالف امر اخي ، ليس بالضرورة عن طريق المعلمة ، انما من خلال صديقاتنا ، ندعوهن ونضع اسطوانة موسيقى في المسجل ، ونبدأ بالتعلم على ايديهن ، ويا باب ما دخلك شرٍ!

غير اننا صرفنا النظر كلياً عن الموضوع ، ما دام اخي امرنا بذلك . لقد كان حريصاً علينا ، لا يطيق ان نخرج على عادات وتقاليد المجتمع العراقي قيد انملة . ولعل المرة الوحيدة التي سمح لنا فيها خلال حياتنا ، ان نخرج من دون عباءات نسائية ، هي في لندن لمقابلة سيدات المجتمع البريطاني . . ليس الاّ!

امي ـ كما أراها ـ احدى اعظم الامهات على وجه الارض ، شديدة ورقيقة معنا في نفس الوقت . لم تضربنا في حياتها ابداً ، ولم تقاصصنا او تشي بنا الى ابينا ، حتى عندما نخرج عن طوعها . كنا نخشاها ونحترمها ، فهي بمجرد ان تنظر الينا بوجه عبوس ، ندرك على الفور بأنها تعترض على ما لا يرضيها ، فنترك ما نحن فيه ونتوقف .

تحب بناتها وولدها الوحيد حباً لايوصف ، تخاف على عبد الاله ، وتصلي وتدعو الله ان يحفظه من كل سوء . تنصحه ببعض الامور ، وتلفت نظره الى ما كان يسهو عنه ، او ينساه . وهو في المقابل يحبها ويحترمها ويسمع كلامها .

زَعَلَت مرةً الاميرة راجحة (ابنة عمي الملك فيصل الاول) على اخي ، لأنه لم يزرها ولم يسأل عنها فترة من الزمن ، وجاءت تعتب عليه . فقالت له امي :

«لا تنسى يا ابني بأن ابنة عمك الاميرة راجحة ، هي التي جعلت منك وصياً على عرش العراق ، فلو لم تشهد وتقول الحقيقة ، بانها سمعت اخاها الملك غازي يوصي اليك مراراً وتكراراً ، لما صدق احد من الناس بشهادة اختك عالية ، ولظنوا بأننا نحن الذين دبرنا الأمر بيننا ، وجعلنا منك وصياً» .

أسرار مسجلة لكنها مفقودة!

كنا مرة في قصر «ستانويل» في بريطانيا خلال الاربعينات ، لم تكن بيننا وبين العراق أية رسائل ، كما ان خطوط الهواتف مقطوعة ، او صعبة الحصول ، ولهذا استخدمنا اسلوب التسجيل على اسطوانات ، للمراسلة بيننا . نبعثها الى بغداد في الحقيبة الدبلوماسية ، واخي عبد الاله يبادلنا بالطريقة نفسها .

حكينا اشياء كثيرة في هذه الاسطوانات ، وقد احتوت على اسرار مهمة لا تقدر بثمن . كنت احتفظ بعدد منها في بيروت ، ولكنها سُرقت منا خلال الحرب الاهلية اللبنانية للاسف الشديد . آمل في مَنْ وقعت بأيديه ان يعيدها

اليّ ، او يحتفظ بها في اقل تقدير ، لأنها تحكي تاريخ دول ، او قل اسرة حكمت تلك الدول .

في احدى هذه الاسطوانات ، التي ارسلها اخي الامير عبد الاله مرةً ، من بغداد الى امي (في لندن) سجَّل فيها يقول : «ان عمي الملك عبد الله ، يريد ان يأتي بي كولي لعهد الاردن ، لأنه يقول ما من احد من اولادي ، يستحق ان ينال الحكم من بعدي ، غير ابن اخي الامير عبد الاله»!

لم يقبل اخي بعرض عمي ، لكنه اراد اطلاع والدته على ذلك فقط ، فردَّت امي تقول له : «كلا يا عبد الاله ، اياك ان تقبل ، هذا حق اولاد عمك وليس حقك ، فلا تعمل عداوة معهم» . فأجابها : «هيهات . . انني لا اريد ذلك ، ولكنني انقل اليكِ ما قاله عمي فقط» .

بقيت هذه الاسطوانة كوثيقة تاريخية في بغداد ، ولكنني لا اعلم اين حل بها الدهر ، بعد «الفرهود» الهمجي ، الذي تعرض له «قصر الرحاب» في ١٤ تموز ١٩٥٨م؟!

عندما اكشف للعالم مثل هذه الاسرار الآن ، فليس معنى ذلك بانني اعطي المبررات لبعض المتصيدين في الماء العكر ، أن يزعموا او يؤكدوا ، بأن عين اخي كانت على مُلك الشام او الاردن . . فهذه اسرار بيوت كنا نتداولها بيننا ، وفي كل البيوت اسرار وحكايات ، بعضها جاد وبعضها الآخر عبثي ، واليوم انما اميط اللثام عنها ، للتأريخ ليس الاّ .

كما ان مثل هذه الاسرار ، لا تبرر ابداً للمستشرقة البريطانية «فريا ستارك» التي زارت العراق ، وكتبت مدعيةً بأن الملكة نفيسة ، كانت تتدخل في الشؤون السياسية .

فوالدتي لم تتدخل في السياسة ، ولم تكن هذه تعنيها في شيء ، لا من قريب ولا من بعيد ، الاّ ما ذكرتُ من حكايات ، وهي كما نرى يتغلب فيها

الجانب التربوي على السياسي . فالام تبقى أماً ، تنظر الى اولادها وبناتها ، بأنهم ما زالوا اولئك الصغار ، الذين سهرت عليهم الليالي وارضعتهم من صدرها ، وانهم في حاجة الى عطفها وحنانها ، حتى لو اصبحوا ملوك الارض وما عليها!

لقد اتسمت معظم حياة امي بالهمّ والحزن الشديد ، وظلت دائماً وابداً تكره الضحك ، وتقول : «لا بد ان يحصل من بعد الضحك ما يكدّر حياة الانسان»!

* * *

ان الامر الذي نغّص عليّ حياتي وكدّرها ، هو أسفي على والدتي ، فبعد كل تلك الهموم والغموم ، التي كابَدَتها طوال سني عمرها ، انتهت تلك النهاية المأساوية المفجعة ، بأيدي قتلة قساة لم يرحموا صغيراً ولا كبيرا . ولم يشفع لها كتاب الله الكريم الذي لم تفارقه يوماً ، اذ خرجت تحمله ـ كعادتها ـ بين يديها ، صباح ١٤ تموز ١٩٥٨م ، وهي في الحادية والسبعين من عمرها الشريف . ولم تردع حرمته أو حرمة حاملته قاتليها ، فأطلقوا عليها النار ، مستحلين حرم الله ورسوله ، ليريقوا دمها الزاكي على صفحاته الطاهرة .

عبدية الأميرة الشهيدة

اختي الكبيرة (البِكر) ولدت في «اسطنبول» عام ١٩٠٧م . عاد بها ابي وامي الى الحجاز عن طريق مصر ، بعد ان اصبح جدي الشريف الحسين (ملك العرب) اميراً على مكة المكرمة . وفيها ترعرعت وكبرت ، واليها حجّت ، فهي الوحيدة من بين اخواتي ادت فريضة الحج ، لانها اكبرنا سنا .

غادر اهلي مكة المكرمة الى المدينة المنورة ، بعد فتحها من قبل ابي (الملك علي) وسرعان ماتركوها الى الشام . ويوم ولدتُ انا في دمشق عام ١٩٢٠م ، في كنف عمي الملك فيصل الاول ، كانت عبدية ابنة (١٣) ثلاثة عشر ربيعاً ، ذات شعر جميل كثيف ، وجسد ممتلئ ، وعينين واسعتين . وقد احتفظنا بصورة لها ، تقف الى جانب عمي ملكِ الشام .

عدنا الى المدينة المنورة ومن ثم الى مكة المكرمة ، حتى غادرنا الحجاز عام ١٩٢٤م الى «عمّان» . بقينا فيها نحو سنة ونصف السنة ، ومنها سافرنا الى «بغداد» . أكررُ الرواية باختصار لأقول ، ربما لم اشعر في ذلك العمر المبكر من حياتي ، بثقل حالة التنقل والترحال من بلد لآخر ، إذ سرعان ما يستطيع الاطفال ان يكوِّنوا لهم صداقات وعلاقات مع اقرانهم ، لينسجموا مع الواقع الجديد . الاّ ان فتاة من عمر اختي ، كان من الصعب عليها ان تأتلف مع بنات جيلها من اول وهلة .

ولعله من المفارقات ان كلاً من هاجر ومديحة الجميل ، كانتا صديقتينا (انا واختي الاميرة جليلة) ولكن بسبب قلة اختلاط اختي الاميرة عبدية بالآخرين ، وقضائها معظم حياتها كأميرة شرقية تسكن البيت ، اصبحت هاجر ومديحة الجميل صديقتيها المفضلتين!

عَلَوية مُخَدَّرَة

لقد قضَّت الاميرة عبدية معظم حياتها مخدَّرة في البيت ، كأي سيدة من الاشراف ، سواء في الحجاز او الشام او الاردن او العراق ، لم تخرج منه الاّ لماما . وفي الوقت الذي كنت اخرج فيه مع أخي الامير عبد الاله ، اركب سيارته ، او نمتطي ظهور الحيوانات ايام ابي الملك علي ، تبقى عبدية في البيت ولا تخرج منه .

قد يتساءل البعض عن مغزى بقائها عازبة من دون ان تتزوج ، حتى يوم استشهادها في ١٤ تموز ١٩٥٨م ، وقد تجاوزت الخمسين عاماً من عمرها المغدور؟ هنا لا بد من ان انوِّه الى نقطة مهمة . ربما ما يزال العديد من العوائل يأخذون بها ، لحسابات او اعتبارات خاصة ، وهي نفسها (النقطة) ذات اهمية ايضاً . اذ انه من الصعب على الشريفات ، ان يتزوجن كائناً مَنْ كان او يكون . فهن او اهلهن يفضلون بقاءهن عازبات ، على ان يزوجوهن ممن يعتبروهم غير أكفاء لبناتهم ، ولا يقدِمون على تزويجهن ، الاّ اذا توفر شريف (من الاشراف) كعريس مناسب .

لا اريد ان اقول بان هذه النظرة صحيحة مائة في المائة ، فقد تشوبها اخطاء وسلبيات ، وقد تمسي بعض البنات ضحية لها ، غير انه في النهاية ان هذه النظرة هي السائدة في مجتمعاتنا . ولهذا نلاحظ عدداً من البنات قد فاتهن القطار ، وبلغ بهن العمر مبلغاً ولم يتزوجن ، فيما اترابهن تزوجن وخلفن ولحقن ان يرين احفادهن ، او حتى ابناء احفادهن!

وليس هذا معناه ايضاً ، بان كل مَنْ تزوجت سعدت وهنأت في حياتها . كان هناك ابن خالي «الشريف هاشم» اراد ان يتزوج من اختي عبدية ، لكنه لم يحصل النصيب ، ولا اعرف السر وراء ذلك . تقدَّم اليها احد اولاد «الشريف ناصر» ولم تحصل القسمة ، ربما بسبب رفضها ، او رفض والدي

(رحمه الله) . كان لنا ايضاً اولاد اعمام ، لكن اختي لم تجد فيهم من هو كفء لها ، او ربما وجدت فيهم بعض العيوب . . على اية حال هذه هي اسباب عدم تزوجها .

استطيع ان اروي هنا بان جدي (ملك العرب) الشريف الحسين بن علي ، قد تزوج ابنة عمه ، جدتي الشريفة عبدية (ايضاً) . وهي في نفس الوقت عمة زوجي الشريف حسين (اخت والده الشريف علي بن عبد الله) تزوجها سنة ١٨٧٥م وخلَّفت له ثلاثة ملوك (علي ، عبد الله ، فيصل) .

عندما ماتت في ١٨٨٧م بمرض التيفوئيد عن (٢٧) سبعة و عشرين عاماً ، اراد جدي ان يتزوج اختها الثانية «الشريفة اسماء» فرفض اخوها الشريف علي بن عبد الله اعطاءها لجدي ، ما حدا به الى ان يتزوج «مديحة» الشركسية سنة ١٨٩٣م ، والدة عمتي «صالحة» التي توفيت في عمّان عام ١٩٩٤م عن (١٠٠) مائة عام . إلاّ ان هذا الزواج لم يدم طويلاً ، فتزوج «الملكة عديلة» والدة عمي الامير زيد وعمّتيَّ فاطمة وسرَّة .

الغرض من هذه الرواية هو انني اريد ان اقول ، بان الاشراف يضعون بعض العراقيل والصعوبات ، امام كل مَنْ يتقدم لخطبة بناتهم . تارةً يصبُّ هذا الاسلوب في مصلحة الفتاة الشريفة ، واخرى بالضد من مصلحتها!

مربية الملك فيصل الثاني

تشاء الاقدار ان تموت اختي الملكة عالية في اواخر عام ١٩٥٠م ، لتصبح اختي الاميرة عبدية بمثابة الام للملك فيصل الثاني . فبعد ان كان يسكن «قصر الزهور» مع امه ، نقلناه (بعد وفاتها) ليسكن معنا في «قصر الرحاب» بناءً على اقتراح بعض الناس علينا ، كي لايبقى وحده هناك من جهة ،

ونقطع الطريق على اولاد الحرام ، الذين التفّوا من قبل حول ابيه (الملك غازي) حتى لا يستفردوا به من جهة اخرى .

وفي «قصر الرحاب» نقلت اختي الاميرة عبدية فراشها من غرفتها القديمة ، لتضعه في غرفة مجاورة لغرفة الملك ، لكي تسهر على راحته وتربيته ، وتهبَّ لنجدته حينما تداهمه نوبات الربو ، المرض الذي اصيب به منذ الصغر .

ومن المضحك ان الملك فيصل الثاني ، كان ينادي خالته عبدية بـ «ابه ججي» . ولهذه حكاية تعود الى خاله الامير عبد الاله ، فهو الذي كان ينادي بها اخته عبدية في صغره ، فأخذها عنه ابن اخته بعد سنين . لكنه لم يقلده في مناداته لاخته الملكة عالية بـ «ابه نونو» انما اصبح فيصل ينادي امه بـ «ستّي» وهو استخدام شائع عند الاشراف بحق بنات العم خاصة . هكذا كان ابي ينادي امي ، ولم اسمعه يوماً خاطبها باسمها ، وهكذا فعل الملك غازي مع حرمه .

و«ابه ججي» في اصلها مفردة تركية تتكون من كلمتين ، وهما «ابلة» التي يستخدمها المصريون وبعض العرب ، بحق السيدات الكبيرات ومديرات المدارس ، تعني «الاخت الكبيرة» . و«ججي» التي تعني الحلوة او الجميلة ، فركّبها الامير واختصرها الى «ابه ججي» ليتلقفها الملك الصغير من بعده .

من المؤكد لديَّ بان الملك فيصل الثاني ، كان بسبب احترامه لخالته الاميرة عبدية ، يستشيرها في بعض المسائل والموضوعات حينما يختلي بها ، وفي المقابل كانت هي تشير عليه وتنصحه ، كأن يفعل امراً ما او يتركه ، الاّ ان شيئاً من هذا القبيل لم يحصل امامنا وفي حضورنا .

فقد اخبرتني مرةً على سبيل المثال ، بأن «شاكر الوادي» دعا

الملك فيصل الثاني يوماً ، لتناول طعام العشاء معه في منزله ، الاّ ان «احمد مختار بابان» اشار عليه بان لا يلبي دعوته ، بينما كان «بابان» نفسه يكيل المديح لـ «الوادي» بحضرة (خال الملك) الامير عبد الاله!

لهذا احتار الملك بين رأيين ، فاستعان بخالته عبدية . . لا اتذكر أي الرأيين رجَّحت ، ولكني متأكدة من انه اخذ بنصيحتها في الاخير .

لعل دوراً شبيهاً بهذا لعبه «بابان» عام ١٩٥٢م ، يوم نوى أخي الأمير عبد الاله تعيين زوجي الشريف حسين نائباً للملك ، وقد استدعاه الى بغداد من الخارج ، ذلك لقرب انتهاء فترة وصايته على عرش الملك فيصل الثاني . استطاع بابان أن يصرف الأمير عن هذا القرار ، وأقناعه بأن الشريف حسين ربما سيرتكب خطأ ، فيما لو عُيّن وحده نائباً للملك . لذا صير الى تشكيل مجلس وصاية مكوّن من ثلاثة أشخاص ، وهم كل من : السيد محمد الصدر وحكمت سليمان والشريف حسين .

وفي أحد الأيام ارتؤي في المجلس أن يقرروا قراراً معيناً بشأن ما ، فاعترض زوجي الشريف حسين قائلاً : نحن جئنا الى هذا المجلس بشكل مؤقت لا دائم ، وليس بوسعنا تغيير ما هو قائم أصلاً . سمعه أحمد مختار بابان فسارع الى نقل ما سمعه الى الأمير عبد الاله ، وبدأ يمدح الشريف أمامه!

رسائل ليست سياسية

في الوقت الذي ظلت فيه اختي الملكة عالية ، تقرأ المجلات المصرية الرصينة ، كالمصور واللطائف وغيرهما ، استمرت اختي الاميرة عبدية في قراءة الصحف والمجلات ، التي تتابع اخبار الممثلين والممثلات وارباب الفن .

لم تكن الاميرة عبدية (شأنها شأن سائر نساء القصر) من هاويات السياسة ، ولا من المتدخلات في شؤونها . ولعل ما يعزز هذا الكلام ، هو ان اخي الامير عبد الاله ظل سنين يضحك ، حينما يستذكر رسائل اخته عبدية له ، ايام كان يدرس في «فكتوريا كولدج» في الاسكندرية مطلع الثلاثينات .

وقد اتسمت رسائلها له بشرح تفصيلي ومتواصل ، عن آخر اخبار العائلة والاقارب والاشراف وخصوصياتهم ، من زواج وطلاق ، ومشاكل ولقاءات ، وخصومات ومصالحات . . وما الى ذلك . بينما غلبت الجدِّية والاختصار وذكر المسائل المهمة ، على رسائل اختي الملكة عالية له .

في طفولتنا كانت الاميرة عبدية تتأمر علينا ، ربما لشعورها بانها اكبر منّا سناً ، ما اضاف لها مسؤولية اخرى تجاهنا . ولكنها في المقابل كانت تحاول مداراتنا ، فمثلاً شكت لي مرة أختي الملكة عالية قائلة : «ان أختك عبدية نادراً ما تخرج من البيت ، ولكنها عندما تقرر الخروج ، تتصل ببعض صديقاتنا وتدعوهن ليأتين كي يسليانني . انها تحمل همّي ، ما يُدريها أنني بحاجة الى أنيسة تؤنسني؟ ربما أنا أريد أن أختلي بنفسي ، وأبقى لوحدي»؟!

اخالها يوم مذبحة اهلي في «قصر الرحاب» وقد نزلت السيدة المخدَّرة الشريفة الى باحة القصر ، وهي تذود عن اخيها الامير عبد الاله ، وربيبها ووديعة اختها الملك فيصل الثاني ، تفتديهما بروحها وجسدها . غير ان القتلة المجرمين لم يراعوا فيها وفينا ذمة ولا إلاً ، فاطلقوا رصاصات الغدر والضغينة على صدورهم ، لا يفرقون بين رجل وإمرأة . . ليسقطوا جميعهم مضرجين بدمائهم الزاكية .

جليلة الأميرة المغدورة

جليلة ، تلك الاميرة الصغيرة ، الجميلة ، البدينة ، التي يودُّها الناس والاصدقاء ، اصغر مني بسنتين ، فهي من مواليد عام ١٩٢٢ . كانت تتردد كثيراً على بيت عمي الملك فيصل الاول ، وتبيت عندهم يومين او ثلاثة ، وهم يحبونها ويدللونها ، على عكسي انا ، كنت متعلقة بأمي ولا افارقها .

ولكثرة حركاتها ولعبها الذي لا ينتهي ، كانت غالباً ما تتعثر وتسقط الى الارض ، فيشج رأسها ويتعرض جسدها للخدوش والكدمات . ولكن الغريب انها حالما كبرت ، بدأت تهدأ بشكل لافت ، واخذت تنكمش على نفسها وتنطوي ، بينما اصبحتُ انا على النقيض منها تماماً ، اظهر بين الناس واجامل الآخرين .

عندما يزورنا احد ، استقبلهم واستبشر في وجوهم واتودد اليهم ـ ذلك بخلاف طبيعتي ـ ربما لحكم الظروف التي كانت تحيط بنا . بينما تنهزم جليلة من الاصدقاء والزوار ، سيَّما من بنات ارشد العمري ، اللائي كن يزرننا مع امهن ، فاضطرُ انا الى ان العب معهن . ربما هنَّ لم يرغبن بالمجيء اصلاً ، ولكنهن جئن بالنتيجة ، وعلينا لقاؤهن .

وفي بعض الاحيان إن لم تجد جليلة منفذاً تنسلُّ منه ، كانت تتدلى من الشباك لتنهزم ، فهي تقرأ القصص والروايات بنهم وكثرة ، خاصة الروايات البوليسية المرعبة ، كمصّاص الدماء وغيرها .

بعد وفاة ابي الملك علي عام ١٩٣٥م ، زرنا مصر عام ١٩٣٦م ، وخطب اخي عبد الاله «مَلَك فيضي» . وهناك ارتأى ان نتعلم نحن البنات لغة اخرى ، غير العربية والتركية التي كنا نتحدث بها .

فكلَّمَ مستر ريد (مدير فكتوريا كولدج) وطلب اليه ان يجد لنا معلمة لغة انگليزية ، فأجابه انه يعرف معلمة جيدة في بريطانيا . كتب اليها وطلب منها ان تأتي الى العراق ، فجاءت وسكنت معنا لكي نتعلم ونمارس هذه اللغة يوميا .

كان اسمها «امينة لي» من اصول ايرلندية ، وهو اسم غريب على البريطانيين ، بيد ان اباها كان قد شاهد «اوپرا» تحمل هذا الاسم ، فاعجب به ، وسمّى ابنته عليه .

كنا نخرج (انا وجليلة) معها عند العصر نتمشى سوياً ونتحدث الانگليزية ، حتى توفي الملك غازي عام ١٩٣٩م . كانت الحرب العالمية الثانية على وشك الانفجار ، فقالت لنا امينة لي : «اذا ما اشتعلت الحرب ، عليَّ ان اغادر العراق فوراً الى بريطانيا ، لأنني لا اريد ان أُسجن ، كما سجنت في الحرب العالمية الاولى ، عند الإميرات الروسيات ايام حكم القياصرة»! وفعلاً ما ان اشتعلت الحرب حتى عادت «امينة لي» الى بلدها .

زواج قلق

بعد تحرير دول الحلفاء فرنسا من الاحتلال الالماني ، كان ابن خالي الشريف حازم بن سالم بن عبد الاله محاصراً في باريس ، فزاره اخي عبد الاله وجاء به من هناك الى العراق ، صيف عام ١٩٤٥م . لم يكن باستطاعته البقاء اكثر في باريس في تلك الاثناء ، اذ تعيَّن عليه مغادرتها ، لانه تركي الجنسية ، انما دخلها لكي يتخصص بطب القلب ، فأُعلنت الحرب وحوصر هناك .

تقدم الى امي لخطبة اختي جليلة ، وكان يكبرها بنحو (١٦) ستة عشر

عاماً ، فهو من مواليد ١٩٠٦م . ولهذا ظن الناس بأن اهلي اجبروها على القبول به (كون فارق العمر بينهما كبيراً) بينما الحقيقة ليست كذلك . عرضوا عليها الزواج منه ، فقبلت به وكان قرارها ، بعد ان اغراها بسحر الكلام وحلاوته ، لما يتمتع به من قدرة على الاقناع!

كنا نعرف الشريف حازم منذ زمن ، وقد التقيناه عام ١٩٣٣م ، والتقطنا معه صورة . وقفت جليلة ابنة (١١) الاحد عشر عاماً الى جانب ابن (٢٧) السابعة والعشرين ، ولذا كان زوجي الشريف حسين يقول لي : «لا تذكّري حازم بهذه الصورة ، فهو ينزعج منها ، كونها تذكره بفارق العمر بينهما»!

لم تسعد اختي الاميرة في زواجها من ابن خالي ، صحيح انه «مُنكِّت» ومداعب لطيف في بعض الاحيان ، لكن نفسه تنطوي على انانية خافية ، واختي ضعيفة امامه لا تقوى على مواجهته .

لقد حجر عليها باسلوب لا يطاق ، وهي تلك الشابة المتوثبة ، التي تريد ان تخرج وترى الناس ، وتتمتع معنا بمشاهدة الأفلام ، بينما هو قضى حياته «اكل ونوم»! اخذها مرة في سفرة الى فرنسا ، وهناك ابقاها في سكنهما من دون ان يخرجا ، فهو يخشى على صحته كثيراً ، ويخاف من الموت بشكل لا يصدق ، ولهذا ما يزال حياً الى اليوم!

لقد استمر زواجهما نحو (٨) ثماني سنوات (١٩٤٧ـ ١٩٥٥) فحينما تزوجت جليلة كان عمرها في (٢٥) الخامسة والعشرين ، جميلة ، لطيفة ، شعرها اسود اللون ، بينما زوجها في (٤١) الحادية والاربعين ، كبير ، اصلع الرأس ، ولهذا لاكت حكاية زواجهما ألسنة البعض ، ولم يسلما من تعليقاتهم الساخرة .

مرض داهم

بعد عودتهما من فرنسا عام ١٩٤٧م انتكست الاميرة جليلة ، حيث اصيبت بالتهاب الرحم ، فأجريت لها عملية جراحية ، ما منعها من الحمل والولادة مستقبلاً . ثم بدأت حالتها النفسية والصحية العامة تتراجع بشكل مخيف . وقد اخبرتني اواخر عام ١٩٥٠م اثناء وفاة اختي الملكة عالية ، بأنها تتمنى ان تبكي عليها ، ولكنها لا تستطيع ذلك ، ولا تحس بأي ألم تجاهها . اي بمعنى ان حالات غير طبيعية شرعت تداهمها ، لا تعرف اسبابها ، ولهذا اخذت تتساءل عن سرِّها .

راحت تتخيل وساوس في رأسها ، وتتصور بأن اصواتاً تناديها من مكان بعيد ، ولم تستطع التخلص منها ، حتى قضت عليها عام ١٩٥٥م .

كنا قد تعشينا في «قصر الرحاب» بعد عودتنا من السينما ، وبقينا نتسامر ، حيث اعتاد الملك فيصل الثاني ان يبقى حتى وقت متأخر ، يتحدث مع زوجي الشريف حسين . وفي حوالي منتصف الليل (١٢) الثانية عشرة ليلاً رنَّ جرس الهاتف في القصر ، واذا بالشريف حازم يطلب الامير عبد الاله ، ليخبره بصوت متهدج بأن الاميرة جليلة قد احرقت نفسها!

احتراق اميرة

هرعنا جميعنا الى بيتها ، فهي تسكن جواري في «شارع الاميرات» في منطقة المنصور . دخلنا عليها وقد رأيناها تتمشى في الصالة بجسد محترق ، عدا وجهها الوادع الجميل ، الذي لم تمسه النار . قلنا لها كلنا : «ماذا حصل»؟ اجابت : «هم قالوا لي احرقي نفسك» .

سألناها : «مَنْ هُم»؟ ردَّت : «قالوا لي احرقي نفسك» . سألها اخي الامير

برقّة ، وبصوت حنون مبحوح خافت : «لماذا فعلت جليلة هكذا بنفسك»؟ اجابت : «هم قالوا لي» . اعاد السؤال عليها : «مَنْ هُم»؟ ردَّت : «هم قالوا لي . . سمعتهم باذني ، ان افعل هكذا بنفسي»!

عندما بدأت حالة جليلة النفسية تتدهور بشكل خطير ـ مطلع الخمسينات ـ كلفنا عجوزة شركسية ان ترافقها على الدوام ، وتهتم بها ، ولا تتركها طرفة عين وحدها ، خشية من ان تقدم على ايذاء نفسها . وفي ذلك المساء المأساوي ، دخلت الاميرة الحمّام ، وكانت فيه «صوبة» مدفأة نفطية ، صناعة تركية ، ملحوقاً بها حاوية نفط تزودها به ، فما كان منها الاّ ان سكبت النفط على جسدها ، واشعلت فيه النار .

كانت اختي الاميرة جليلة ، تستشعر بأن انقلاباً عسكرياً سيقع في العراق ، فتومئ بيدها الى جهة الغرب وتقول :

«انهم سيأتون من هناك ليقتلونا كلنا»! وحصل مرة ان حددت هويات القتلة ، فذكرت بأنهم شيوعيون . صحيح انها لم تكن تُركِّز في كلامها ، وقد ضيَّعت بعض الاشياء ، الاّ انها توقعت نهاية درامية لأهلي ، وظلت تحكي فيها فترة من الزمن!

نقلناها الى مستشفى السامرائي ، ولكنها لم تقاوم الى عصر اليوم التالي ، وقد تسمم جسدها كله . كنت انا عدتُ الى البيت ، حيث تركت طفلين ورائي من دون عناية .

وبينما انا امشط شعري على عجل ، لعيادة جليلة مرة اخرى ، واذا بأخي عبد الاله يدخل عليَّ ، شاحب الوجه مصفراً ، يابس الشفتين ، محمرَّ العينين . ما ان وقع بصري عليه ، حتى احسست على الفور بما حصل ، فما كان منه الاّ ان ضمني الى صدره ، وراح يُقبِّلُني ، ونبكي سوياً ، بعد ان تمتمَ بكلمات متقطعة . . بأن جليلة ودعت الحياة الى الابد .

وساوس . . لكنها صدقت في النهاية

حملني الامير بسيارته الخاصة الى بيت المرحومة ، وقد سبقتنا أُمُنا من المستشفى الى هناك ، ثم عدنا الى «قصر الرحاب» لنبكي ونواسي بعضنا البعض الآخر . في اليوم التالي غسَّلنا جثمانها الطاهر وكفّناه ، واحطنا نعشها بباقات وورود زاهية (فهي شابة في الثالثة والثلاثين من عمرها المأسوف عليه) ثم نقلنا الجنازة الى البلاط الملكي .

لقد ودعت الاميرة جليلة الدنيا ، بثغر باسم ووجه جميل مستقر ، لم يتأثر بحريق جسدها الطيب . كانت سيدة رائعة ذات قلب عطوف ، تحترم الناس والقريبين منّا ، وتألف الحيوانات . اتذكر ايام طفولتنا ، كنت انا اجرجر مَنْ هُنَّ في عمري ، من شعورهن وجدائلهن من دون عنف او قسوة ، ورغم هذا تفزع جليلة لحمايتهن وتخليصهن من بين يدي . لم توافقني على تصرفاتي وايذائي اياهن . . هذه هي شمائل الشريفة المنتحرة .

لم تتحدث الاميرة في لحظات وفاتها بشيء ، الاّ انها حين جاء احد الاطباء الانكليز ليعطيها حقنة ، خاطبته باللغة الانكليزية : «اهذا فطوري»؟! اجاب : «ما تزال لدى الاميرة روح الدعابة»!

حاول اخي الامير عبد الاله جاهداً ، ان يداوي جليلة خلال سنوات مرضها . عرضها على اطباء كثيرين في بريطانيا ،لكن نتائج الفحوصات لم تغيِّر من حقيقة معاناتها النفسية شيئاً ، او تخفف من حالة الكآبة الحادة ، التي ظلت تعاني منها لفترة طويلة . ربما بسبب عقدة عدم انجابها الاطفال ، او زواجها غير المتكافئ ، او اسباب اخرى ، كأن تكون من قبيل موضوعات اخبارها ايانا ، بأن عدواً ما سيقتلنا ، من دون ان تجد مَنْ يصغي ، أو يستجيب لنداءاتها وتحذيراتها . . بعد ثلاث سنوات فقط من وفاتها ، صدقت نبوءات الاميرة جليلة ، فذُبح اهلي في العراق!

عمي الملك فيصل الأول الراحل سريعاً

كم كان بودي أن أسهب في الحديث، عن عمي الملك فيصل الأول، غير ان ما نشرته عنه في الكتاب من ذكريات وخواطر، وقلة عدد السنين التي عشناها معه، وخُتمت برحيله المفاجئ، هي التي جعلتني أن أبين في هذا المورد فقط، حقيقة ما كان يُشاع عن خصوصياته وبعض علاقاته النسائية المزعومة.

حياة بلا هوادة

لا أحسب ان عمي ارتاح يوماً في حياته، لا حينما كان أميراً في الحجاز (حيث انشغل بالحروب والمعارك الداخلية) ولَا حينما أصبح ملكاً على سورية، ومن بعدها العراق الذي ذاق فيه الأمَرّين.

وبالرغم مما كابده من معاناة رهيبة مع الفرنسيين، أيام ملوكيته على سورية، الاّ انني سأكشف سراً شخصياً له لأول مرة، وهو ان عمي الملك فيصل الأول، ظلّ طوال حياته يتذكر الشام بخير، ويعرب عن حبّه العميق لها. ويتردد بيننا عائلياً، بأنها ظلّت في نفسه لآخر لحظة في حياته، على العكس تماماً من مشاعر اخي الامير عبد الاله تجاه الشام.

ربما لأن أهل الشام كانوا أكثر انصياعاً لحكمه من اهل العراق، على رغم معارضة بعضهم لسياساته. او ربما لأن بداية تفكيره السياسي الثاقب واحتكاكه بالسياسات الدولية عن قرب، انطلق من الشام، بعد ان كان بعيداً

عنها في الحجاز . أو ربما لأنه أول «عَلَوي» يعتلي عرش الشام ، وما يعنيه ذلك نفسياً وتأريخياً بالنسبة له . او ربما لأسباب اخرى!

ففي سورية فاوض عمي قوة دولية عظمى (فرنسا) في ذلك الوقت ، اقتسمت العالم العربي مع بريطانيا العظمى ، وفقاً لاتفاقية سايكس ـ بيكو . وفي سورية قاتل عمي هذه القوة العظمى ، على رغم التباين الكبير بينه وبينها ، من حيث الامكانات العسكرية والاقتصادية والسياسية . وفي سورية سقط في معركة «ميسلون» أشجع قوّاده وأعزُّ أصدقائه ، من أمثال «يوسف العظمة» وغيره .

ولهذا حينما غادر الشام مغلوباً على أمره ، مضحياً بعرشه ، اصطحب معه بعض اصدقائه السوريين ، كساطع الحصري وتحسين قدري ورستم حيدر وآخرين ، وهو لا يعلم الى أين يتجه .

في مطلع القرن الماضي أجبر جدي (ملك العرب) الشريف الحسين بن علي ولده (عمي الملك فيصل الأول) على الزواج من «حزيمة» ابنة الشريف ناصر بن علي (عم والدي) بينما تزوج اختها التوأم «مصباح» عمي الملك عبد الله . ولهذا فان معظم ما أُشيع عن سوء علاقتهما الزوجية ، كان يُعزى الى هذا السبب ، فضلاً عن ان «حزيمة» رحمها الله ، لم تكن على درجة من الجمال ، بحيث تأسر عمي .

لعمي الملك فيصل الأول من زوجته الملكة حزيمة ، ولده الملك غازي وثلاث بنات ، هن عزة ، راجحة ، ورفيعة . وهذه الأخيرة اصغرهن ، جاءت من الحجاز معوقة عوقاً كاملاً ، لا تتكلم ولا تتحرك . سقطت من يدي الخادمة في صغرها يوماً ، فصارت بتلك الحال .

كان عمي (رحمه الله) متولعاً بها تولعاً لا حدود له ، رأفةً ورحمة بها ، فلا ينام الاّ ويراها ، وإن كانت نائمة أيقظها بحنان ورِقَّة ، حتى تستيقظ .

حينما تشاهده تفرح وتبتسم في وجهه ، تعرف انه أبوها ، فتبقى تناغيه وتلاعبه حتى تغفو من جديد .

توفيت رفيعة بعد وفاة والدها عام ١٩٣٣م ، بفترة وجيزة . أظنُّ حزَّ في نفسها غيابه المفاجئ عنها ، فسارعت الى اللحوق به!

من الصحراء الى اوربا

للتأريخ أقول ان عمي الملك فيصل الأول ، لم يكن مثل أبي (الملك علي) أو عمي (الملك عبد الله) قارئاً مواظباً للقرآن الكريم ، أو ملتزماً بشدّة في أحكام الدين ، أو صارماً مع نفسه . وكم تمنيتُ في نفسي أن يكون مثلهما ، كي لا يدع ألسِنة السوء تنال منه ، وتتطاول على مقامه .

لا أدري ان كان لجولاته الأوربية ، وكثرة سفراته الخارجية ، وعدم استقراره في بلداننا ، عملاً من أجل القضية العربية وتحرير دولنا ، علاقة لكل ذلك فيما حصل .

كان ملكاً شاباً ، فاستغلت بعض النساء وضعه واندسسن الى القصر ، عن طريق تحسين قدري أو غيره . يصلنا صدى الاشاعات (التي تروِّجها الراقصات والمغنيات في بغداد) عن علاقات الملوك النسائية الى القصر ، ونحن نعلم بأن الكثير منها مزعوم ولا وجود له ، خاصة مع عمي .

الغريب ان بعض تلك النسوة ــ كما كنا نسمع ــ كُنَّ يتفاخرنَ ويتباهينَ بعلاقاتهن الكاذبة تلك ، من انهن يحظْينَ بحب الملوك وغيرتهم عليهن!

لقد قيل أيضاً بأن لعمي علاقات بامرأة هندية ، واخرى نمساوية ، وثالثة انكليزية ، وهذه الأخيرة كانت تتجسس عليه لمصلحة الانكليز . استطيع أن أكذِّب الكثير مما قيل ، ليس حرصاً على عمي ، بقدر ما هو

سخرية من هكذا تفاهات . ولكني أود أن أفترض صحة بعض ما قيل ، فهل سيتصور أحد بأن عمي كان بسيطاً لدرجة ، بحيث تتمكن امرأة من استدراجه ليبوح لها بأسرار مملكته؟!

واذا اردتُ ان اكون اكثر دقة ، فأين هي هذه الاسرار؟ أوَلم يكن العراق محتلاً ومستعمراً من قبل البريطانيين؟ وبفضل عمي وقوة ارادته (بعد فضل الله) وصمود شعبه وتضحياته ، استطاع ان ينجز استقلال العراق ، ويحافظ على وحدته وحدوده .

. . لاشك في ان الاعتقاد بمثل هذا الرأي (المنطوي على استغفال عمي) محض هراء . لقد كان بعض أبرز خصاله ، والتي شهد له فيها الأعداء قبل الأصدقاء ، هي ذكاؤه الخارق ، وكياسته ، ورزانته ، واستقراؤه للحدث قبل وقوعه ، ومعرفته نتائجه ، ناهيكم عن خصال اخرى يطول تعدادها .

رجل يتمتع بهذه الصفات ، كيف تستطيع امرأة ان تغريه او تخدعه؟! ان مَنْ يتصور مثل هذا التصور ، هو أحد اثنين ، اما انه لا يفهم النساء ، أو إنه لا يعرف الرجال .

وبالرغم من كل ما رويته ، لا بد لي من ان اذكر حقيقة اخرى (ليس من الانصاف تجاهلها) وهي ان عمي أحبَّ عياله وعطف عليهم ، كما انه ائتلف فيما بعد مع حرمه الملكة حزيمة ، وأغدق عليها العطايا والهدايا ، وكان يأتيها ببعض المجوهرات اثناء سفراته الخارجية .

بيد انه اذا كانت لي من كلمة أخيرة بحقه ، أقول انه لم يرتح في يوم من الأيام خلال حياته . كثيرون لا يدركون ولا يقدرون حجم المتاعب ، والمهمات الصعبة التي واجهته ، لا بل وليس باستطاعتهم أن يتخيلوها ، كي يحاكموها ببعدها الزمني ، قبل نحو قرن من الزمان . لا أدري لماذا ينسون

وقفته الشجاعة والمشرِّفة للعرب ، في مؤتمر الصلح بباريس عام ١٩١٩م ، حينما خاطب ممثلي دول الحلفاء المنتصرة في الحرب العالمية الأولى ، بعد أن وجَّه بعضهم الإهانة الى العرب ، بأنهم من الشعوب غير المثقفة؟ فردَّ عمي بصوت جهوري حاد : «انني أنتمي الى شعب يتمتع بالحضارة عندما كانت جميع الشعوب الأخرى الممثلة في القاعة مسكونة بالبرابرة» .

لقد أنهكته الملمات ، ونالت منه وأضعفت جسده ، حتى قضت عليه نهائياً عام ١٩٣٣م ، فرحل عن الدنيا قبل أوانه ، وهو ابن خمسين عاماً (من مواليد ١٨٨٣م) كملك ورجل عظيم .

كان زوجي الشريف حسين (رحمه الله) حينما يمعن النظر في صورة عمي الملك فيصل الاول ، يقول لي : «انظري يا بديعة اليه يوم جاء من الحجاز ، شاباً ، وسيماً ، مهيباً ، معافى ، ملؤه الحيوية والنشاط ، وقارني هذه بصوره بعد عشر سنوات ، كيف اصبح في العراق ، وستدركين ماذا فعلت به المقادير ، أو حتى . . العراقيون»!

قصر الحَرَم

وهو القصر الذي نزل فيه عمي الملك فيصل الأول وعائلته ، وظل يسكنه حتى وفاته . كان قديماً ، مبنياً منذ العهد العثماني . لا أدري متى والى مَنْ يعود؟! كما انه من الصعب عليَّ ان اصفه ، بسبب تداخله وتعقيده بشكل غريب ولا يُتصور .

توزعت غرفه على هيئة دائرية ، توسطتها حديقة ورود ، ثم بيت صغير جانبي خُصص لسكن الأميرات (عزَّة وراجحة ورفيعة) . . وهكذا .

سكن في هذا القصر ايضاً ، كل من الشريفين حسين وعلي (وَلَدَيْ

الشريف ناصر ، وأخوَي الملكة حزيمة حرم عمي الملك فيصل الأول) . وتزوج فيه الملك غازي من اختي الملكة عالية عام ١٩٣٤م ، ثم غادراه الى «قصر الحارثية» فمكثوا فيه فترة وجيزة ، حتى اكتمل بناء «قصر الزهور» فانتقلا اليه .

قصر الحارثية

لا أظن ان «الحارثية» قصر ، حتى يحتاج الى ان اصفه ، او اتحدث عنه (مثلما تحدثت عن قصر الزهور ، وسأتحدث عن قصر الرحاب) . كما انني لا أتذكر على وجه الدقة متى بُني ، ولكنني سأعطي وصفاً تقريبياً له ولمحة عنه ، عسى ان تولِّد انطباعاً كافياً في ذهن القارئ عنه وعن مشيِّده .

يبدو ان عمي الملك فيصل الأول قد أوعز ببنائه ، بعد فترة وجيزة من اعتلائه عرش العراق عام ١٩٢١م ، ليتخذ منه دار استراحة يستريح فيه . ربما لشعوره بضيق مساحة سكنه في «قصر الحرم» حيث كان عليه ان يستقبل الناس ويلتقي المسؤولين والزوار ، ومن ثم ينشد وقت راحته في نفس موقع سكن عائلته .

فعمي كاخوانه ، تعوَّد على حياة البداوة والصحراء ، وسكن الخيام والبراري التي لا تحدها حدود ، وتنقَّل بينها بحُرِّية ، وجال ببصره نحو الأفق البعيد . لهذا لم يرضَ لنفسه ان تُختزل حياته وطبائعه في قصر ، لا يتيح له ابسط هامش من هوامش الحرية والاستقلال ، او حتى النظر بتأمل الى الفضاء!

بُني «قصر الحارثية» من طابق واحد فقط ، خالٍ من اية هندسة تشير الى طراز معماري معين . فقد اصطفت حوالي (١٠) عشرُ غرف ، تلاصقت مع

بعضها على نسق واحد ، بهيئة «بنگلة» شبيهة ببنگلات الانگليز والهنود . توزعت بينها حمامات ، وامتدت منها طوارم ، يجلس تحتها عمي ليتفيأ بظلالها ، بعد ظهيرة كل يوم ، يعود فيه من عمله المضني في البلاط . حيث لا سرداب ولا طابق أعلى ولا أجهزة تدفئة ، أو تبريد وتكييف فيه . . لقد كان قصراً متواضعاً بأثاث بسيط .

لم تحدّ الحارثية أي حدود او سياج يفصله عن جواره ، وبسبب انفتاحة على المناطق المحيطة به ، أُلحِقَ فيما بعد بقصر الزهور ، ونُصِبت بوابة للأخير على الحارثية مباشرة .

سمّاه عمي الملك فيصل الأول على اسم قبيلة «الحارثي» لاعجابه بهم وتقديره لهم . حيث كانوا اوفياء ومخلصين له ، قاتلوا معه في حملاته في الحجاز وحصاره لبعض المدن . ومن «الحارثي» أشراف (علويو النسب) ومنهم غير أشراف .

لم يُغلق «قصر الحارثية» بعد وفاة عمي ، انما بقي مفتوحاً امام الأهل والأقارب ، فَمَنْ يأتي لزيارتنا في بغداد ، ينزل فيه . اتذكّر عمي الملك عبد الله (ملك الأردن) نزل فيه عدة مرات اثناء زياراته للعراق ، خاصة في وفاة ابن اخيه الملك غازي ، ووفاة إبنة أخيه الملكة عالية . غير ان آخر نظرة كانت لي انا على «قصر الحارثية» هي في ليلة وفاة اختي الملكة عالية ، نهاية عام ١٩٥٠م ، فمن بعدها لم ازره ولم أمُرّ من امامه!

هروب أميرة

«عزَّة» ابنة عمي الملك فيصل الاول الكبيرة ، ولدت في اسطنبول عام ١٩٠٥م ، مثل اختي «عبدية» و«هيا» ابنة عمي الملك عبد الله ، ولكنهن كلهن عُدْنَ الى الحجاز مع اهلهن ، ليتربين ويترعرعن هناك ، بعد ان اصبح جدهن (ملك العرب) الشريف الحسين بن علي اميراً على مكة المكرمة ، قبل ثورته العربية الكبرى عام ١٩١٦م .

خجل من سرد الحكاية

انني اخجل واستحي من مجرد ذكر اسمها امامي ، فما بالكم من سرد قصتها؟! لأن ما فعلته «عزة» كان خزياً وعاراً ، ليس بحق بيت عمي وحدهم ، وإنما بحقنا كأشراف أيضاً . ما ترددتُ وتمنَّعتُ كترددي وتمنعي عن الحديث عنها ، وكم تمنيتُ لو أُعفى من ذكرها ، ولكن لولا الامانة التاريخية والالحاح ، لما نطقتُ كلمة واحدة بشأنها .

لم تكن «عزة» طبيعية في تصرفاتها ابداً ، فهي تضحك وتبكي في غير محلهما ، وتضجر وتسعد في لحظة من دون مبرر . انانية بشكل كبير ، ولكنها في معظم الاحيان لا تعرف ما تريد . كثيراً ما تزعل وتسخط على الحاضرين من دون سبب ، فتقوم من مكانها او تتململ ، حتى في حضور الضيوف المعارف او الغرباء ، في تصرفات ليست ذات معنى .

لا اود الحديث عنها بهذه الطريقة ، كي لا يقال بأن الاميرة بديعة

اوجدت لها الاعذار ، من خلال تصويرها وكأنها مجنونة ، او معتوهة لا تعي ما تفعل . فهي لم تكن كذلك ، انما هناك آخرون ، يشاركونها مسؤولية جناية ما ارتكبته من جرم شنيع بحق الجميع .

منهم جدة ابيها «بزميجيهان» التي دللتها ودلعتها اكثر مما يحتمله انسان ، بحيث زرعت في نفسها وَهَمَ القدرة على الحصول على اي شيء ، من دون مراجعة او تفكير في ثمن ، او تبعات هذه الحيازة . وغدا هَمُّ «عزة» هو تحقيق ذاتها اولاً وأخيراً ، بلا مراعاة لمشاعر الآخرين ، او سمعتهم ، او حتى الأخذ في الاعتبار مكانتهم .

وكذلك تشاركها امها الملكة «حزيمة» مسؤولية ما فعلت ، لأن التربية والرقابة على تصرفات البنات (وحتى الاولاد) تقع على عاتق الام وليس الاب ، سيّما ان عمي كان مشغولاً دائماً بمهام الدولة والشعب والسياسة ، لا يجد الوقت الكافي حتى للاعتناء بنفسه .

الأم هي التي تعرف مَنْ هُنَّ صديقات بناتها ، ومع مَنْ يخرجن ومتى يعدن . هي التي تدرك قبل غيرها ، من تصرفاتهن ما اذا كن طبيعيات ام لا .

اتذكر كان لدينا بعض الصديقات اللواتي تزوجن ، ولكنهن لم يقطعن حبل وصلنا بعد زواجهن ، ولذا لم تتركنا أُمُّنا الملكة نفيسة (نحن البنات) نجلس معهن وحدنا ، انما كانت تدسُّ دائماً بيننا احدى العجائز الشركسيات ، كي تقطع عليهن الطريق ، من ان يحكين في اي موضوع غير مسموح لنا بالاصغاء اليه .

ويوم كنا اطفالاً نذهب الى السينما العامة ببغداد ، لم نستطع الخروج وحدنا من دون واحدة من هذه العجائز ، فضلا عن «الحاج سالم» المرافق الدائم لنا ، عندما نخرج لشراء «الموطا» آيس كريم .

الملكة حزيمة (رحمها الله) هي ليست فقط احد الاسباب في هروب عزة ، انما كانت سبباً ايضاً في افساد الملك غازي (رحمه الله) . كان يفترض فيها ان تراقبه ، لتعرف مَنْ هم اصدقاؤه الذين يزورونه في السرداب ويشربون معه ، وبمن يختلي ، وعمّاذا يتحدثون؟

أتعمد الحديث بهذه الصراحة ، لأن البعض ربما يعتقد بأن اسلوب حياة غازي الملوكية ، هو الذي تسبب في هذه الفضيحة ، غير انني اعتقد بانه لا علاقة له بما حصل .

لقد نشأ اعمامي الملوك على تقليد معين ، ورثه ابناؤهم وبناتهم عنهم ، وهو انه ليس من حق الشريفات البحث عن ازواج مناسبين لهن ، فهذه مهمة الكبار ، هم الذين يتكفلون بها . . ولهذا جُنَّت «عزة» فذهبت واخذت ذلك اليوناني .

تمارض عزّة

تظاهرت «عزة» بالمرض واخذت تسعل بصورة مستمرة ، فتبصق على الارض ، لتُخرِجَ من فمها مادةً حمراء لزجة ، تزعم انها دماً . تبيَّن فيما بعد بأنها «چكليت احمر»! ما اضطرَّ اخاها الملك «غازي» الى ان يسمح لها بالسفر ، الى احدى الجزر اليونانية للاصطياف ، متأملاً ان تتحسن صحتها هناك ، واذا بها تنهزم مع خديعها اليوناني .

لم يكن هذا اليوناني طباخاً في «قصر الزهور» كما زعم البعض ، انما كان نادلاً يقدم الطعام في احد الفنادق السياحية في بلده . وهو لم يأتِ الى العراق ، انما تعرَّف على «عزة» في سفرة سابقة لها الى اليونان ، واستطاع ان يغريها ويقيم معها علاقة . وبعد ان وثقت فيه وضحَّت بكل شيء ، من اجل

ان تنفرد به ، هربت معه ، فاستولى على اموالها ومجوهراتها ، ثم طردها كما تُطرَد الحيوانات السائبة .

لم يعرف اي منّا بقصة علاقتها بالنادل النذل ، حتى اختها الاميرة «راجحة» لم تكن على اطلاع بامرها ، الى ان هربت معه ، فافتضح امرها .

لم تعد الى بغداد (ولم يكن لها عين) لأن تعود وتواجه احداً منا . ظلت تائهة متشردة في الخارج ، حتى وقعت الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩م ، فرآها بعض الطليان او الانگليز ، فعرفوها ، واخذوا يتصدقون عليها اكراماً لأهلها ، او ربما عطفاً عليها بعد ان رأوها بتلك الحال المزرية .

لقاء مباغت

بعد انتهاء الحرب عام ١٩٤٥م ، سافر اخي إلامير عبد الاله في جولته المعروفة ، الى الولايات المتحدة الاميركية وبريطانيا ودول اخرى سنة ١٩٤٦م ، فعلِمَت به عزة انه هناك ، وجاءت تزوره نادمة ، باكية ، متوسلة ان نعفو عنها . ردَّ اخي عليها : «طيب سأرسلك الى القدس ، وسأخصص لك راتباً تعيشين منه ، بشرط الاّ تبيحي لأحد مَنْ انتِ ، ولا تتصلي بنا ، ولا تعرفينا ولا نعرفك»!

وافقت مضطرة على الاّ تموت جوعاً ، او ربما توبة من الاستمرار في طريق مشين . فسافرت «عزة» الى القدس ووفى اخي بوعده لها ، وظل يواصلها براتبها .

وفي احد الايام التقت ابن عمها الامير نايف ابن عبد الله بن الحسين في القدس ، فتوسلت اليه ورجته أن يكلِّم اباه (عمي) الملك عبد الله ، كي

يعفو عنها ويغفر لها فعلتها الدنيئة ، سيّما وهي وحيدة ، لم يعد لها احد يعطف عليها ، او يسأل عنها في هذه الدنيا . فما من ولد ، او زوج ، او أب ، او أخ ، او أم ، او حتى قريب يتفقدها . الكل بين راحلٍ او متخلٍ عنها ينبذها ، وهي في عمر ضَعُفَ فيه املها ، لكي تبدأ حياة جديدة مجردة عن مخلفات الماضي وآثاره .

حكى «نايف» لوالده قصتها ، فوافق عمي الملك عبد الله على استقبالها في عمان ، اكراماً لوالدها الراحل (عمي الملك فيصل الاول) وحفاظاً على سمعتنا .

* * *

ربما سأتلمس العذر لنا (نحن الفتيات المراهقات يومئذ) لو كانت احدانا فعلت ـ لا قدر الله ـ ما فعلته «عزة» في ذلك الحين ، لكنني لا اعذر من هي اكبر منّا سنّاً ، وخبرت الحياة في الحجاز قبل ان تأتي الى بغداد ، اذ لا وجه للمقارنة بين الحياتين على الاطلاق .

فهناك لم يكن باستطاعة «عزة» الخروج من بيت عمي الملك فيصل الاول ، الاّ ليلاً ولزيارة بيت جدنا (ملك العرب) الشريف حسين بن علي .

اما في بغداد فقد كان باستطاعتها ان تخرج ، وتركب السيارة وتتفسح (كما كنتُ افعلُ انا مع اخي عبد الاله) او تركب الزورق لعبور دجلة والذهاب الى «الجزرة الوسطية» كما كنت افعل مع اهلي .

اي بمعنى آخر ، كان باستطاعتها ان تمارس كل ما كان محظوراً عليها في الحجاز ، فبغداد اكثر انفتاحاً ورفاهاً وجمالاً ، كما ان الضوابط والقيود فيها اخف وطأةً وثقلاً من ايام الحجاز .

ذكرى زيارة

كانت تنتاب والدي الملك علي ازمات قلبية ، جرّاء اصابته بمرض «تصلُّب الشرايين» الوراثي ، وفي احدى زيارات عمي الملك فيصل الاول المتكررة لأبي ـ مطلع الثلاثينات ـ حصل الآتي :

كان بيتنا كسائر بيوتات بغداد القديمة ، مفتوح الطوارم . تطلُّ ابواب الغرف الداخلية وشبابيكها على ممراته وساحاته الداخلية . نوافذه خالية من اية ستائر ، بحيث تحجب الرؤيا عن داخل الغرف ، لمن هو خارجها يتمشى في الممر او السطح . بيوت رائعة التصاميم على قِدَمِها وبساطة هندستها ، تُدخِلُ الامن والامان في نفوس ساكنيها ، رغم غياب الموانع واجهزة الحماية عنهم .

كنا اختي جليلة وانا ، ابنتي (١٠ ، ١٢) العشر والاثنتي عشر عاماً ، قد زينّا غرفتنا ببعض صور ممثلي وممثلات هوليود ، حيث كانت الموجة العارمة بين الشباب والمراهقين وقتذاك ، هي الاعجاب والإنبهار بالتمثيل والافلام السينمائية الحديثة العهد .

اوصينا بعض صديقاتنا ومعارفنا بشراء صور «جيمس كروفرد» و«نور ميشيرة» و«رومون نوڤارو» و«غاري كوبر» واخرين ، واحطناها باطارات ، وعلّقناها على جدران الغرفة .

مرَّ عمي الملك فيصل الاول من امام غرفتنا ، فجذبت انظاره تلك الصور . وقف يتأملها عبر نافذة الشباك برهة ، ثم واصل سيره الى غرفة والدي المطلة على نهر دجلة ، من دون ان يكلمنا ، او يكشف لنا عمّا اعتمل في داخله .

قلت في نفسي ، لا بد ان شيئاً ما حزَّ في نفس عمي ، سيفصح عنه لوالدي ، لذا تبعته ووقفت عند الباب انصتُ الى ما سيقوله . سمعتُه يقول

لأَبي : «لقـد رأيتُ الصـور التي علَّقتْـهـا البنات في غـرفـتـهن . . نسـتطيع ان نحافظ على بناتنا الكبار ، ولكننا نخاف من الصغار»!

عندما سمعتُ هذا الكلام يصدر عنه ، تألمتُ في داخلي كثيراً ، وقلتُ هل صحيح ان عمي غير مطمئن الينا ، بحيث يتوقع منّا ان نفعل ما يشينه في المستقبل؟! ثم قطعتُ على نفسي عهداً (وانا بذلك العمر الصغير) واقسمتُ بالله العظيم ، على ان لا اوسِّخ سمعة ابي واعمامي واهلي بشيء ، ولن الطخها ما حييت .

* * *

بعد بضع سنوات فقط على تلك الزيارة ، ارتكبت «عزة» اكبر بنات عمي الملك فيصل الأول ، وكبرى حفيدات جدي (ملك العرب) الشريف الحسين بن علي ، ذلك الجرم الشنيع . بينما لم تفعل ذلك واحدة من البنات الصغيرات ، اللائي خاف منهن عمي الخالد ، سواء ابنته راجحة ، او انا أو اختي جليلة ، أو منيرة او مقبولة (ابنتَيْ عمي الملك عبد الله) . . لقد فَعَلَتها اكبر واحدة فينا للاسف .

عاشت «عزة» في عمان حتى عام ١٩٥٨م في كنف (الملوك) عمي عبد الله ، ومن بعده ولده طلال ثم حفيده حسين . حتى اصيبت بداء السرطان في لسانها ، فأُرسلت الى لندن لاغراض التداوي والعلاج . لكنها لم تصمد طويلاً ، فصرعها المرض عام ١٩٦٠م ، ولم تخلف احداً .

لم نلتقِ بها في عاصمة الضباب ، لانها سوَّدت وجوهنا ، لكنها ذهبت في نهاية المطاف لملاقاة ربها . انها الآن بين يدي جبار رحيم ، يحاسبها او يعفو عنها ، وهو فعّالٌ لما يريد .

راجحة الأميرة المفجوعة بالملوك

يُعتبر العقد الثلاثيني أحد أسوأ العقود الزمنية ، التي مرَّت في تاريخ الأشراف . ففي فاتحته (١٩٣١م) مات جدي (ملك العرب) الحسين بن علي منفياً من بلده . وقبل خاتمته (١٩٣٩م) توفي ابن عمي الملك غازي ، في حادث لا معنى له . وفي منتصفه (١٩٣٥م) لبّى أبي نداء ربه مظلوماً ، وبعده بقليل تبعته زوجة عمي الملكة حزيمة الى قبرها ، وقبله سبقه عمي الملك فيصل الأول (١٩٣٣م) الى ملاقاة ربه .

توالت النكبات على بني هاشم ، واستمر موتهم تباعاً ، وكأنهم يقفون في طابور طويل في انتظار دورهم المحتوم . فرغت بيوتاتنا من حماتنا ورعاتنا ، وخلا قصر عمي منه ومن حرمه ، وحدثت قصة عزَّة ، فجيءَ بالأميرة راجحة ، كي تسكن مع أخيها الملك غازي فيَ «قصر الزهور» ولم يحبذوا تركها وحدها في (قصر الحرم) بيت عمي .

أقامت أختي الملكة عالية علاقة طيبة معها ، ولم تشعِرْها في يوم من الأيام بأنها ليست في بيتها . اذ كانت لدى أختي القدرة الكاملة على اقامة نوع من العلاقات الراقية ، المتسمة بالود والعطف والمحبة في التعامل مع الآخرين .

قبل انتقال الأميرة راجحة الى «قصر الزهور» حصل ان كان «عبد الجبار محمود» طالباً في الثانوية المقابلة لـ «قصر الحرم» وأحد رياضييها ممن يلعبون الكرة . يبدو أنه رأى الأميرة هناك فأُعجب بها ، واستطاع من خلال اخته التي لعبت دور الوسيط بينهما ، أن يقيم علاقة معها غرضها شريف ، وهو الزواج منها على سنة الله ورسوله (ص) .

بيد ان بيت عمي لم يوافقوا أول وهلة على هذا الزواج ، لأسباب عدة ، شاطرهم في بعضها أخي الأمير عبد الاله ، لشعوره بأن «محمود» ينوي (من خلال اقترانه بأميرة من العائلة العراقية المالكة) أن يثري على حسابها ، فضلاً عن كونه أصغر منها سناً . وهو ما حصل فعلاً فيما بعد ، حيث ترك «عبد الجبار محمود» طيران الجيش وتفرَّغ للتجارة ، وأمسك باستيراد الأدوية الى العراق «فاير إمباير» وجنى ثروة طائلة منها .

بعد فضيحة «عزَّة» بعث الشريف علي باشا (والد زوجي الشريف حسين ، قبل وفاته الواقعة في سنة ١٩٤١م) رسالة من مصر ، الى الملك غازي بيد خاله الشريف علي ناصر . اقترح فيها أن يوافقوا على تزويج الأميرة راجحة من عبد الجبار محمود ، كي لا تتكرر قصة عزَّة ، بما حملته من فضائح واساءات بحق العائلة العراقية المالكة ، ولهذا مالَ رأيهم الى تزويجها .

لم يأخذوا رأي كبيرنا (بعد وفاة عمي الملك فيصل الأول وابي الملك علي) الذي يفترض فينا ، أن نعود اليه ونستشيره في أمورنا العائلية ، أعني عمي الملك عبد الله . ربما لأن رأيه معروف لدينا مسبقاً ، فقد كان يُفضِّل تزويج الشريفات من أشراف ، لا من غرباء .

أكمل «عبد الجبار محمود» دراسته وتخرج طيّاراً عسكرياً ، وعقد القِران على ابنة عمي (الأميرة راجحة) . تزوجا زواجاً سريعاً وبسيطاً ، من دون أي احتفال أو أُبّهة ، حتى اننا لم نرَ العريس ليلة زفافه . نقلوا العروس الى بيتها بعد تناولنا طعام العشاء ، وانتهى كل شيء .

لم تهنأ العروس بأشهر زواجها الأولى ، ولم تُسعد بعريسها ، فما هي الاّ فترة وجيزة تمرُّ على زواجها ، حتى نكبت الأميرة راجحة بحادث وفاة أخيها الملك غازي ، بعد أبويها .

لم يبقَ لها غير ابن أخ يتيم لا يتجاوز عمره الأربع سنوات ، عليها أن تنتظره نحو عقد ونصف العقد من الزمان ، حتى يُتوّج ملكاً على العراق . . عندها سيُشار اليها بأنها عمة الملك .

اخفاء شهادة

في ليل الرابع من نيسان (ابريل) عام ١٩٣٩م جيءَ بابنة عمي (الأميرة راجحة) مذهولة ، مرعوبة ، مفجوعة ، لترى أخاها ممدداً يلفظ أنفاسه الأخيرة ، وليس في يد أحد من قدرة على انقاذه ، واعادة الروح الى جسده من جديد ، تلك الروح التي بدأت تنتقل الى الرفيق الاعلى ببطْء!

مات غازي وسأل السياسيون العراقيون اخته ، ما اذا كان أوصى لها بشيء ، أو سمعت منه أمراً؟ قالت : نعم ، سمعتُه أكثر من مرة بأذني يردد هذه الجملة : «إذا ما حصل لي أي مكروه ، فليكن أخي عبد الاله وصياً على ابني فيصل» .

عاشت الأميرة راجحة فترة في «قصر الزهور» بالقرب من أخيها الملك غازي ، خلال عهد ملوكيته . وكانت تراه وتلتقي به وتحدثه يومياً ، فتسمعه يكرر هذا القول مراراً ، ليلاً أو صباحاً ، سكراناً أو صاحياً ، وكانت تطمئنه وتقول له : «لا ، لا ، سوف لا يحصل لك أي مكروه إن شاء الله ، ولا تتفاءل بالشر كي لا يقع» .

الغريب ان معظم الذين كتبوا عن هذا الموضوع (الوصاية على عرش العراق) تجنبوا التركيز على شهادة الأميرة راجحة ، وأبرزوا وركزوا على شهادة الملكة عالية . . ربما لسهولة الطعن فيها . اني لأجزم ـ على يقين ـ وانا في اواخر عهدي بالحياة ، بأن كل هؤلاء المشككين والطاعنين ، كانت لهم مواقف

سلبية وشخصية من أخي الأمير عبد الاله ، أو ان بعضهم انساق وراء اشاعات مغرضة ، من دون أن يتحقق من مدى صحتها أو سقمها!

لقد ساد ـ في ذلك الوقت ـ جوٌّ من الصراع الشرس والتنافس المشحون ، بين أقطاب الجيش والسياسة العراقييْن أنفسهم من جهة ، وبينهم وبين دول الاستقطاب الكبرى من جهة أخرى . ولذا فان مظاهر التشكيك والدس والطعن ، شملت أغلب سياسيي العراق ، يندر أن نجا منها واحد . ولعل المهمة الأصعب والأدق ، ستكون في عاتق مَنْ يؤرخ ، أو يحلل تلك الحقبة الزمنية من تاريخ العراق . عليه أن لا ينجرَّ الى صراع لم يكن هو طرفاً فيه ، فيردد اتهامات غاب ملقوها وضحاياها معاً ، بحيث لا يتسنى لهم انكارها أو تأكيدها ، تبنيها أو تفنيدها!

كما انه ليس من المعقول ، ولا من الانصاف والموضوعية ، محاكمة عهد كامل وفقاً لما كتبه شخص كـ «عبد الرزاق الحسني» مثلاً عن العراق الملكي . فبدلاً من أن يبقى هذا وفياً ، لمن أتاحوا له توثيق المعلومة والوصول الى مصادر الخبر (أيام حكم أهلي) ، أنكر فضلهم وراح يشتمهم شتماً مقذعاً ، بينما أرتضى لنفسه (وهو في ارذل عمره) أن يكون مسخاً ، ذليلاً ، تافهاً ، يمدح صدّام ويشيد بنظامه الاستبدادي!

تآلف ملكي ـ شعبي

تكبرني الأميرة راجحة (١٤) أربعة عشر عاماً ، فهي من مواليد اسطنبول عام ١٩٠٦م ، عادت الى الحجاز صغيرة ، وانهمك جدها وأولاده بالثورة العربية الكبرى ، ولم يتسنَّ لهم أن يوفروا للشريفات معلمات خصوصيات يدرسنهن .

لكن في العــراق وفَّــر عــمي الملك فــيــصل الأول لبناته مــربيــة «Governess» درَّست الأميرة راجحة اللغـة الانكليزيـة .

بَنَت الأمـيـرة راجـحـة بيـتـاً لهـا بالقـرب من قـصـر الرحـاب ، لكنه لم يتواصل التزاور بيننا بعد زواجـهـا من «عبـد الجبـار محـمـود» . ربما لرأي أخي الأمير عبد الاله فيه ـ للأسبـاب التي ذكـرتها ـ على عكس علاقتنا الوطيدة وتـزاورنـا الذي لم ينقطع أيام طفولتنـا ، ذلك في حيـاة أبي وعمي (رحمـهـمـا الله) . بيد انه في الخمسينات ، كانت مربية أولادي الانكليزية تصحبهم الى منزل الأمـيـرة راجـحـة ببـغـداد ، ليلعـبـوا مع بناتهـا (حـزيمة ونفـيـسـة) ومن ثم تعيدهم الينا .

وكـمظهر من مظاهر سيـاسـة التآلف مع الشـعب العراقي ، والحـيلولة دون شعـوره ببعـده عن العـائلـة العراقيـة المـالكـة ، حـاولت الست «أمَت السـعـيـد» أن تمدَّ جـسـور الوصل والمحـبـة بينهـمـا . ذلك من خـلال اتيـانهـا في بعض الأحيـان بالطالبـات المتفوقات والمجتهدات (من بنات العوائل المحترمـة) الى بيت عـمي الملك فيصل الأول ، كي يختـلـطن ويلعبن ويتعـايشن مع بناتـه الأميرات . . وقد قـضيـنَ معاً فتـرات ممتعـة وسعيـدة ، لعبن فيهـا كـرة السلـة والطائـرة ولعباً اخرى .

ارى ان أحد أجمل مظاهر الود والائتلاف ، حينما يشاهد الانسان بنات الحاكمين والمحكومين يتسابقن ببراءة واحترام ، وقد علت وجوههن ومحياهن البهجة والسرور . لا أدري هل سارت عوائل حكام العراق القتلة ـ منذ أكثر من أربعين عاماً والى اليوم ـ على ما انتهجه عمي في العراق قبل نحو ثلاثة أرباع القـرن من الزمان؟! أم انهـا قضَّت حيـاتهـا مرعوبةً بعيـدةً عن شعـبهـا وأهلها؟!

النجاة من الموت . . الى حين

في يوم ١٤ تموز (يوليـو) ١٩٥٨م ، لم تكن الأميـرة راجحـة بالعـراق ، انما كـانت في زيارة الى أوربا ، ولهـذا بقيت هناك بعـد الانقـلاب . وصـادف أن اقمنا حوالي تسعة أشهر في سويسرا (بعد مغادرتنا العراق ، ومن ثم مصر) بالقرب من ابنة عمي . حيث استأجرنا شقة في «جنيف» وعاد التواصل بيننا من جديد ، واستمر أولادي يزورونها هناك .

في صيف عام ١٩٣٩م ، بعد وفاة الملك غازي ، اضطرنا رحيله المباغت الى السفر الى لبنان ، لنغيِّر الأجواء على الملك فيصل الثاني ، بينما سافرت الأميـرة راجحـة الى اوربا . ومـا أن أوشكت الحرب العـالميـة الثـانيـة على الاشتعال ، حتى عدنا الى بغداد ، وعادت ابنة عمي حاملاً بابنتها البكر «حزيمة» .

خلَّفت راجحة ابنتيْن (حزيمة ونفيسة) ، تزوجت الأولى من «غـازي راكـان» ابن عم «الملكة زين» والدة الملك حسين بن طلال ، وتزوجت الثانية من انكليزي!

في الثـاني من شهر شباط (فبراير) ١٩٥٩م ماتت الأميرة راجحة بمرض السـرطان فـي «جنيـف» فنقـل جثمـانهـا الى «عمّـان» لتـدفـن هنـاك .

. . اليوم حينما أتذكَّر المصائب التي مرَّت على ابنة عمي ، أترحَّم عليها وعلى روحها الطاهرة ، وأدعو العلي القدير أن يغفر لها ، ويسكنها الفسيح من جناته . وعندما يسألني البعض عنها ، أقول :

«مـا كـادت الأميـرة راجحـة تفيـق من صدمة ، حتى تُصـدَم بأخـرى . لقـد توالت عليـهـا النكبـات واحدة بعد أخـرى ، فـمـا ان مـات أبوها الملك فيصـل الأول ، حتى تبعتـه أمهـا الملكـة حزيمة ، ومـا ان فرحت بزواجهـا ، حتى مـات أخـوها الملك غـازي . وهي في جـمـيع الاحـوال والظروف تردد

دائماً ، بأنها مشيئة الله (سبحانه وتعالى) وارادته ، وتصبِّرُ نفسها الى حين» .

بيد ان من الواجب أن أذكر هنا ، بأن زوجها عبد الجبار محمود (لا يزال على قيد الحياة ويعيش في سويسرا) وقف موقفاً مشرفاً مع زوجته ، ولم يتخلَّ عنها في كل المآسي والمصائب التي تعرضت اليها .

* * *

لقد كانت الأميرة راجحة متواضعة ، رقيقة ، تعامل الآخرين تعاملاً محترماً . لم نشعر في يوم من الأيام بأنها كانت مغرورة بملوكية أهلها (جدِّها وأبيها وأمها وأخيها) وأخيراً ابن أخيها . . الذي لحقت به بعد حوالي سبعة أشهر فقط ، من استشهاده كآخر الملوك في العراق . . مذبح بني هاشم ، من جدي علي بن ابي طالب (ع) الى ابن اختي فيصل الثاني!

عمي الملك عبد الله شهيد القدس

أتمنى لو كان في وسعي أن اتحدث بشكل مسهب ، عن كل مَنْ يرد اسمه هنا ، من افراد العائلة الاردنية الهاشمية المالكة (كما فعلت مع الآخرين) الاّ ان قلة ما أودُّ البوح به ، وبُعدي عمَّن سأتحدث عنهم طوال تلك السنين ، هما اللذان امليا عليَّ ان اروي عنهم هذا المقدار .

الملك عبد الله هو الثاني بعد ابي ، من انجال جدي (ملك العرب) الشريف الحسين بن علي (من مواليد ١٨٨١م) . كان عابداً ، مصلياً ، صائماً ، وقوراً ، مهيباً ، صعباً ، قوياً ، شرساً ، متزمتاً في الدين ومثقفاً في نفس الوقت ، يحفظ الشعر والنوادر ، وقارئاً نهماً للتراث الاسلامي والعربي .

متعصباً لعاداتنا وتقاليدنا ، حريصاً على تربيتنا ، فحتى ابي الذي يكبره بثلاث سنوات ، لم يكن في حدَّته وجدّيته ، ولو قارنّا بينهما لوجدنا فارقاً كبيراً بين شخصيهما .

لا يطيق عمي الملك عبد الله ان يرى احدانا تصبغ اظافرها ، او ترتدي ثوباً بنصف كم ، او مدلوعاً . فبأستطاعة اي بنت او سيدة في العالم ، ان تلبس في بيتها (وهي بين اهليها وذويها) ما تشاء من الملابس ، مادامت في حدود اللياقة والاحتشام . الاّ نحن كان علينا ان نلبس ـ في حضوره ـ ثياباً ذات اكمام طويلة ، ونزيل صبغ اظافرنا ، ولا نضع اي مكياج او الوان على وجوهنا وشفاهنا .

لهذا كنا نحترمه ونهابه ، نطأطئ رؤوسنا ـ بما فينا اخي الامير عبد الاله ـ لنُقبِّل يده الكريمة ، لكنه يأبى علينا ذلك ، فيسحبها بقوة ويرفض تقديمها .

يحترم اخي عمي كثيراً ، وهو يبادله نفس مشاعر الاحترام . وعندما تحل بعض المشاكل والازمات في اي من البلدين (العراق والاردن) او فيهما معاً ، او في دول المنطقة ، فان الاتصالات بينهما لا تنقطع . يتبادلان فيها المشورة والرأي وطلب العون والمساعدة من بعضهما . حتى شاع بان عمي سيورِّث اخي لاعتلاء عرش الاردن ، بدلاً من أي من ولديه (نايف وطلال) من بعده .

تزوج عمي من الملكة مصباح (اخت الملكة حزيمة زوجة عمي الملك فيصل الاول ، وهما ابنتا الشريف «ناصر بن علي» اخو جدي ملك العرب الشريف الحسين بن علي) ورُزِق منها «طلال» و«هيا» . وتزوج ايضاً من تترية ، اسمها «سزديل» . وله منها «نايف» و«منيرة» و«مقبولة» . واشيع بانه تزوج من عبدة اسمها «نهدة» ، حتى ذهب بعض الاعلام المصري الى نعتها بـ «الملكة السوداء غير المتوَّجة»!

الاّ أن ابنة عمي المرحومة «الاميرة مقبولة» (ماتت مطلع عام ٢٠٠١) تقول ان والدها الملك عبد الله ، اقسم بكتاب الله الكريم بانها ليست زوجته . كما ان «نهدة» نفسها كانت تقول (رحمها الله) انه لم يتزوجني .

ظلّ عمي طوال عهده في حكم الاردن ، كأمير على امارة شرق الأردن (١٩٢١م ـ ١٩٤٦م) وكملك للمملكة الأردنية الهاشمية (١٩٤٦م ـ ١٩٥١م) يعاني من شحة الاموال والموارد في مملكته . فهو يحكم بلداً صغيراً ، فقيراً ، واقعاً تحت رحمة الانكليز ، يجثم الجنرال البريطاني «غلوب باشا» على صدره . ولو كان يحكم بلدا آخر ، لربما اختلف وضعه .

كل الذين انتقدوا عمي (أو مَنْ جاء بعده ، ولده طلال وحفيده حسين) لحكم الاردن ، في موضوعة الصراع بالمنطقة ، لا يفهمون شيئاً واحداً ، وواحداً

فقط ، اعني به السياسة! فلو كان لديهم قليل من فهم ، او وعي ، او ادراك ، لقدّروا ولتعاملوا مع الاردن ، كبلد صغير وفقير وحسير ، يقع في فوهة النار من مرمى الاعداء .

وان اي استعراض للعضلات او البطولة الفارغة ، سيُبتلع نتيجته هذا البلد مثلما ابتُلِع غيره . فمنذ اكثر من نصف قرن من الزمن ، لم يستطع الاخرون المزمجرون المرجفون ، ان يستعيدوا شبراً واحداً من ارضنا السليبة ، بالشعارات الصاخبة والتهديدات الجوفاء .

بعد استشهاده بالقدس الشريف في يوم الجمعة ، العشرين من شهر تموز (يوليو) عام ١٩٥١م ، ظلَّ ابي وعمي الملك فيصل الاول يترددان على اخي الامير عبد الاله في المنام كثيراً ، خاصة عندما تحصل بعض المشاكل بالعراق .

اما في عام الانقلاب المشؤوم ١٩٥٨م قبل شهر تموز (يوليو) ، فلم يفارق طيفهما رؤى وخيالات اخي ، حتى غدا الامير يتبرم بشكل مستمر من ظاهرة زياراتهما الليلية له ، وانه لا يستطيع ان يفهم منهما ماذا يودان ان يخبراه ، او يقولاه له .

كنا في لندن يوم استشهاده ، والاتصالات الهاتفية مع دول الشرق الاوسط صعبة للغاية ، لكن رئيس وزراء العراق نوري السعيد استطاع ان يتصل بنا ، فطلب ان يكلِّم اخي شخصياً .

نزل الامير عبد الاله الى الطابق الارضي ، وعلم منه بخبر مقتل عمي الملك عبد الله في القدس الشريف ، اثناء ذهابه لاداء صلاة الجمعة هناك . بعد قليل صعد الينا وهو يبكي ويصيح ، كلَّم امي بالتركية : «آه يا أماه لقد قتلوا عمي . . قتلوا عمي» .

لقد كان عمي عظيماً كملك ، قُتِل غدراً في احدى اقدس بقاع الارض ،

واحبها الى الله ورسوله ، والينا نحن بني هاشم . حيث رويناها بدمائنا ، وفديناها بارواحنا واجسادنا ، اذ مايزال جثمان جدي (ملك العرب) الشريف الحسين بن علي ، والد الشهيد الملك عبد الله الذي سقط الى جانبه ، يرقد بجوار قبة الصخرة منذ سبعين عاماً .

ابن عمي الملك طلال

عانى ابن عمي «الملك طلال» من ضغوط نفسية ثقيلة ، فقد ظل يشعر باستمرار ان اباه «الملك عبد الله» لا يعطيه حجمه الحقيقي في التعامل معه ، وانه يذكره بسوء في مجالسه امام الآخرين ، لهذا ظل يردد دائماً «ان ابي يكرهني» .

يبدو انه كان يفعل ما لا يرضيه ، ولهذا صار ابوه يضجر منه ويغضب عليه . كل ذلك تسبب في اصابته بمرض عقلي مؤسف ، ومثله لا يستحق ان يصاب بهكذا داء .

ذكرياتي عن طلال (رحمه الله) ذكريات طفولة ، اتذكره شاباً في بداية العشرينات من عمره (من مواليد ١٩١٠م) عندما كان يأتينا الى «بغداد» أواخر العشرينات ومطلع الثلاثينات ، فنلعب ونمرح سوياً . كان مؤدباً للغاية ، لطيف المعشر ، خفيف الدم ، صاحب نكتة ، بيد ان عمي يميل في نفسه الى نايف (اخو طلال غير الشقيق) اكثر منه .

كان الملك طلال يكره الانكليز كرهاً شديداً ، ويحمِّلهم مسؤولية كل ما واجهه جدنا وابناؤه من متاعب وخيانات ، فضلا عن مساندتهم وتأييدهم لقيام «اسرائيل» في المنطقة ، ووقوفهم الى جانبها في حرب عام ١٩٤٨م ضدّنا .

في عام ١٩٣٤م ، بُعيد أن تمّ زواج أختي الملكة عالية من ابن عمي الملك غازي ، دعينا لحضور حفل زفاف ابن عمي (ولي العهد) طلال على (الملكة فيما بعد) زين (والدة الملك حسين وجدة الملك عبد الله الثاني) . لم يكن زواجاً ملكياً كما قد يتصور البعض ، انما كان زواجاً عادياً وبسيطاً ، ليس فيه ما يستحق أن يُذكر ، فلا حفلة ولا بهجة ولا غناء ، كل ذلك بسبب وجود عمي الملك عبد الله .

انه لمن المؤسف حقاً ، ان لايكون علاج الامراض العقلية والنفسية متطوراً في ذلك الوقت ، والاّ لوجدوا علاجاً ناجعاً لمرض ابن عمي ، ولتمكّنوا من السيطرة عليه وهو في بدايته .

بعد عزله عن الحكم عام ١٩٥٢م ، اودع «الملك طلال» في مستشفى للامراض العقلية والنفسية في «اسطنبول» . ظلّت «الملكة زين» تعوده سنوياً للاطمئنان عليه ، حتى ماتٍ في سنة ١٩٧٢م موتة طبيعية ، ثم لتلحق به زوجته بعد نحو ربع قرن من الزمان الى الدار الآخرة .

الملكة زين

اتسمت علاقتي بالملكة زين بالتذبذب ، تارة نزعل واخرى نتصالح . . وهكذا قضينا عمرينا حتى وافاها الاجل المحتوم (قبلي) الى رحمة الله . ولكنها حينما كانت تأتي الى فرنسا لاغراض التداوي والعلاج ، كنا انا وزوجي الشريف حسين نزورها .

تكبرني الملكة زين الشرف ابنة الشريف جميل بنحو اربع سنوات ، فهي من مواليد مصر ١٩١٦م اقترنت بابن عمي الملك طلال عام ١٩٣٤م ، وانجبت منه الملك حسين والاميرين محمد وحسن والاميرة بسمة . لعبت دوراً سياسياً واضحاً في الاردن ، خلال فترات متعاقبة .

وبغض النظر عني ، هناك في عائلتنا (الاشراف) شخصيات نسائية قوية جداً ، كأختي الملكة عالية والملكة دينا (مطلَّقة الملك حسين) والملكة زين . من الاستحالة بمكان ان تتنازل احداهن للاخرى ، ولهذا فانهن وعلى رغم علاقاتهن المتوجسة مع بعضهن البعض الآخر ، يستصعبن اقامة علاقات مع أخريات ، اقل منهن عمراً ومكانةً .

ذهبنا مرة الى مطار «هيثرو» لاستقبال عمتي «الاميرة صالحة بنت الحسين» وقد قدمت من «عمّان» لاجراء عملية جراحية في ساقها ، بصحبة «الاميرة نافعة» اخت الملكة زين وخالة الملك حسين . في صالة الشرف فوجئت بالاميرة بسمة ابنة طلال أمامي .

قمنا من أماكننا احتراماً لها ولأمها زين ، وقبَّلتُها وعرَّفتها على زوجات ابنائي ، لكننا لم نترك اياً من مقاعدنا . جلست «بسمة» متجهمةً ، عابسةً ، حانقةً ، فيما اولادها يركضون في الصالة . كان سبب الجفاء الذي حلَّ بيننا ، هو انني التزمتُ جانب صديقتي «مديحة الداغستاني» حينما طلَّق ابنها تيمور غازي الداغستاني (سفير الاردن في لندن حالياً) الاميرة بسمة .

عادت «بسمة» الى «عمّان» وأخبرت والدتها الملكة زين بأن : «عمتي بديعة لم تحترمني ، كما ان نساء اولادها لم يقمن من مكانهن» . فتسببت (بهذا الإخبار) في زعل زين عليَّ ، وبقي شيء في نفسها حتى ماتت .

تزوجت «بسمة» من «خالد الكردي» . كان ابوه سائقاً عند ابن عمي الملك طلال ، بينما اصبح ولده مليونيراً . ويوم توفيت «الملكة زين» عزيتُ الجميع ، الاّ هي فاني لم أعزِّها ، لان في نفسي شيء منها .

ما دمنا اشرنا الى الملكة دينا عبد الحميد قبل قليل ، اودُّ ان اذكر عنها بانها مفكِّرة يسارية ونشطة سياسياً . تخرَّجت من «كمبردج» وهي تكبر الملك حسين بنحو سبع سنوات . تزوجت بعد طلاقها سنة ١٩٥٦م من عضو

منظمة التحرير الفلسطينية «صلاح صلاح» . بينما كان الملك حسين على النقيض منها (رياضياً ، نشيطاً) ناهيك عن تدخل «الملكة زين» في حياتها الخاصة .

الفرق بين (دينا وزين) هو ان الاولى تبطن شخصيتها القوية في نفسٍ هادئة مستكينة . بينما الثانية تظهر شخصيتها القوية بوضوح ، لغلبة الطابع الهجومي على سلوكها وتصرفاتها مع الآخرين . احسب ان هذا التباين ، هو سبب المشكلة بين الملكتين!

الملك حسين بن طلال

تزوَّج الملك حسين من «منى» انطوانيت توني غاردنر عام ١٩٦١م ، وهي سيدة انگليزية بسيطة ، وانجِبت له الملك عبدالله وفيصل والتوأم (زين وعائشة) . طلقها عام ١٩٧٢م لتورطه في حُبٍّ «علياء بهاء الدين طوقان» فلسطينية من نابلس ، محبوبة ، ذكية .

قُتِلت (علياء) في حادث تحطم طائرة مؤسف ، اودى بحياتها عام ١٩٧٧م . فتزوج من نور « ليزا نجيب حلبي» عام ١٩٧٨م ، وهي ابنة رئيس مجلس ادارة «بان اميركان» مسيحية اميركية من اصل عربي .

زارتنا «نور» بصحبة الملك حسين مرة في بيتنا السابق ، وتعرَّفنا عليها ، الاّ انها لم تكرر الزيارة معه في مرات لاحقة . انجبت له الاميرين حمزة وهاشم ، والاميرتين ايمان وراية .

زارني الملك حسين في بيتي هذا مرتين ، منذ ترشيح ولدي الشريف علي بن الحسين بن علي عام ١٩٩٣م لملوكية العراق . حاولتُ فيهما ان أعلمه بان العراقيين جاؤوا لولدي ، يطلبوه مرشحاً لتولي عرش العراق ، الاّ انني لم اجد منه آذاناً صاغية .

ففي الزيارتين كان الملك يغيِّرُ الموضوع ، ويطلب منّا ان نكون يداً واحدة واهل بيت واحد . لهذا لم اتمكن من فهم حقيقة كلامه ، وما اذا كان موافقاً على ترشيح ولدي الشريف ام لا!

بيد انني استطيع القول ، بأني قد قرأت لديه بعض الامل في استعادة عرش العراق ، وربما احتاج الى مَنْ يعينه في مسعاه ، الاّ انه رحل عن هذه الدنيا ، ولم يجد العون والدعم الكافيين لذلك .

منذ اجرائه عملية سرطان الكلى في الولايات المتحدة الاميركية ، بدأ (رحمه الله) يشعر بقرب دنوِّ أجله ، فباشر يسأل عن ذويه ومعارفه والقريبين منه بشكل لافت ، حتى انه زار «مديحة الداغستاني» في لندن ، ليعتذر منها عمّا حصل لإبنتها «تمارا» . وكانت تمارا قد سُجِنَت بالأردن بعد تورطها في تهريب أحمد الچلبي الى الشام ، في قصة «بنك البتراء» المعروفة .

في زيارته الثانية والاخيرة ، ذكر لي الملك حسين بأنه اصلح سيارة اخي الامير عبد الاله في لندن ، وانها موجودة عنده ، إن كنت ارغب باستعادتها . شكرتُه على عرضه ، وقلتُ له :

«انني لا املك مرآباً لأوقفها فيه» . لكنني أيضاً تساءلت في نفسي ، ماذا اعمل بسيارة اخي بعد رحيله؟! لا أدري إن كان الملك حسين اشتراها من احد ، او اهداها صدام ايّاه؟!

لا اكتم انه بقيت في نفسي اشياء على (ابن ابن عمي) الملك حسين بن طلال . ففي عام ١٩٥٩م ارسل وفداً اردنياً رسمياً الى بغداد ، ليبارك للقتلة انقلابهم على اهلي! وقد قيل لي بانها سياسة . اقول : ما كان يُفترض فيه ان يفعل هذا ، وانا على قيد الحياة .

احسب ان بعض الناس سيستغرب من هذا الاسلوب في الحديث عن الملك حسين ، وينسى هؤلاء بأنه بمثابة ابني ، فانا ابنة عم ابيه ، وجدُّهُ الملك عبد الله عمي ، وهو نفسه لا يناديني الاّ بـ «ستّي» .

ولذا فاني اتحدث عنه وعن غيره ، بالطريقة التي اختارها انا ، لا بالتي اعتاد عليها الآخرون . واذا كانت لي من كلمة انصاف بحقه (رحمه الله) فاني اقول :

بأن مَنْ حَكَمَ وَشَغَلَ الناس على مدى نصف قرن من الزمان ، لا توفيه حقه صفحة او صفحتان في هذا الكتاب!

الأمير الحسن بن طلال

شخص محترم وطيِّب ، قارئ نهم ، مثقف ، مُفكِّر ، وهو رياضي في الوقت نفسه يلعب الكاراتيه ، واداري ممتاز (لكنه اقل جاذبية من اخيه الملك حسين) . صادق في كلامه ، اذا وعد أوفى .

كلّفْنا يوماً الملك حسين في ان يسعى لولدي الشريف محمد ، كي يُقبل في جامعة «اوكسفورد» فظل يماطل نحو سنة . بينما بمجرد ان كلَّفنا الامير الحسن (وهو خريج الجامعة نفسها في السياسة والاقتصاد) لبى النداء وقُبِلَ ولدي!

له ثلاث بنات (رحمة وسميَّة وبديعة) وولد واحد (راشد) . تزوجت البنتان وبقيت «بديعة» عندما تتزوج سأهديها (إن شاء الله) تلك الاسوارة العزيزة على نفسي ، التي اهداها لي عمي الملك عبد الله عام ١٩٤٨م!

حرمه «ثروت» سيدة باكستانية . حينما سمَّيا ابنتهما الثالثة على اسمي ، بادرتُ الى ارسال هدية عيد ميلادها ، عبارة عن جنيه من الذهب ، يزداد سنوياً بعدد سني عمرها . كنت انوي التوقف حتى سن (٢١) الحادية والعشرين من عمرها ، لكنني توقفت مبكرة للسبب الآتي :

كان ولدي الشريف محمد ضابطاً في الجيش الاردني ، وفي احد الايام

سألته «ثروت» ان يتشكر مني على هديتي لابنتها ، فقلت في نفسي : ولماذا لا تتصل هي بي هاتفياً وتعرب عن شكرها بنفسها؟! بعد هذه القصة بردت العلاقة بيننا ، ولم يزرني الامير الحسن منذ عشرين عاماً ، إلاّ مؤخراً!

ان الشيء الذي لا اتمنى له ان يستمر في القصر الملكي بعمّان ، هو التخاطب باللغة الانكليزية . ليس لأن بعض الحريم اللواتي يسكنّه ممن يُجِدْنَ هذه اللغة ، ولا لأن شبابه درسوا في الجامعات البريطانية ، انما لان البعض مازال يعتبر التحدث بها ، احد مظاهر الرقيّ والتقدم ، بدلاً من لغتنا العربية ولهجتنا البدوية!

امراء واشراف

لعل احد الاشراف الذي كثيراً ما تردد اسمه في الاعلام ، هو الشريف زيد بن شاكر . حاربَ ابوه (الشريف شاكر) مع عمي الملك عبد الله في الثورة العربية الكبرى ، ثم جاء معه الى عمّان . اما والدته فهي اخت احد الاشراف ، الذي التحق بآل سعود .

تأثر زيد بن شاكر يوماً بالناصرية ، فتخاصم مع الملك حسين ، ثم عاد وتصالح معه . كان الملك يحبه كثيراً ، لانهما صديقان ، كبرا سوياً ونشآ معاً .

اما الشريف ناصر بن جميل ، فهو من مواليد مصر عام ١٩٢٧م ، جاء الى العراق وتوفي في عمّان . كان ابوه رئيس الديوان الاردني ايام عمي الملك عبد الله ، فأرسله الى القدس للدراسة . ثم جاء مع اهله الى العراق ، ليخدم ضابطاً في الجيش العراقي خلال الاربعينات ، وسكن مع اخته الشريفة نافعة زوجة الشريف فواز ومطلقته .

بقي في بغداد حتى استشهاد عمي (الملك عبد الله) بالقدس الشريف

عام ١٩٥١م ، واعتلاء الملك طلال عرش الاردن ، فذهب الى «عمّان» ليعزيه بوفاة والده ويبارك له تتويجه ملكا . فوجئنا ببقائه هناك وتركه الجيش العراقي! . . كان (رحمه الله) طيباً ، لطيف المعشر ، فضَّلَ ان يكون اخ الملكة «زين» بدلاً من ضابط عادي في العراق!

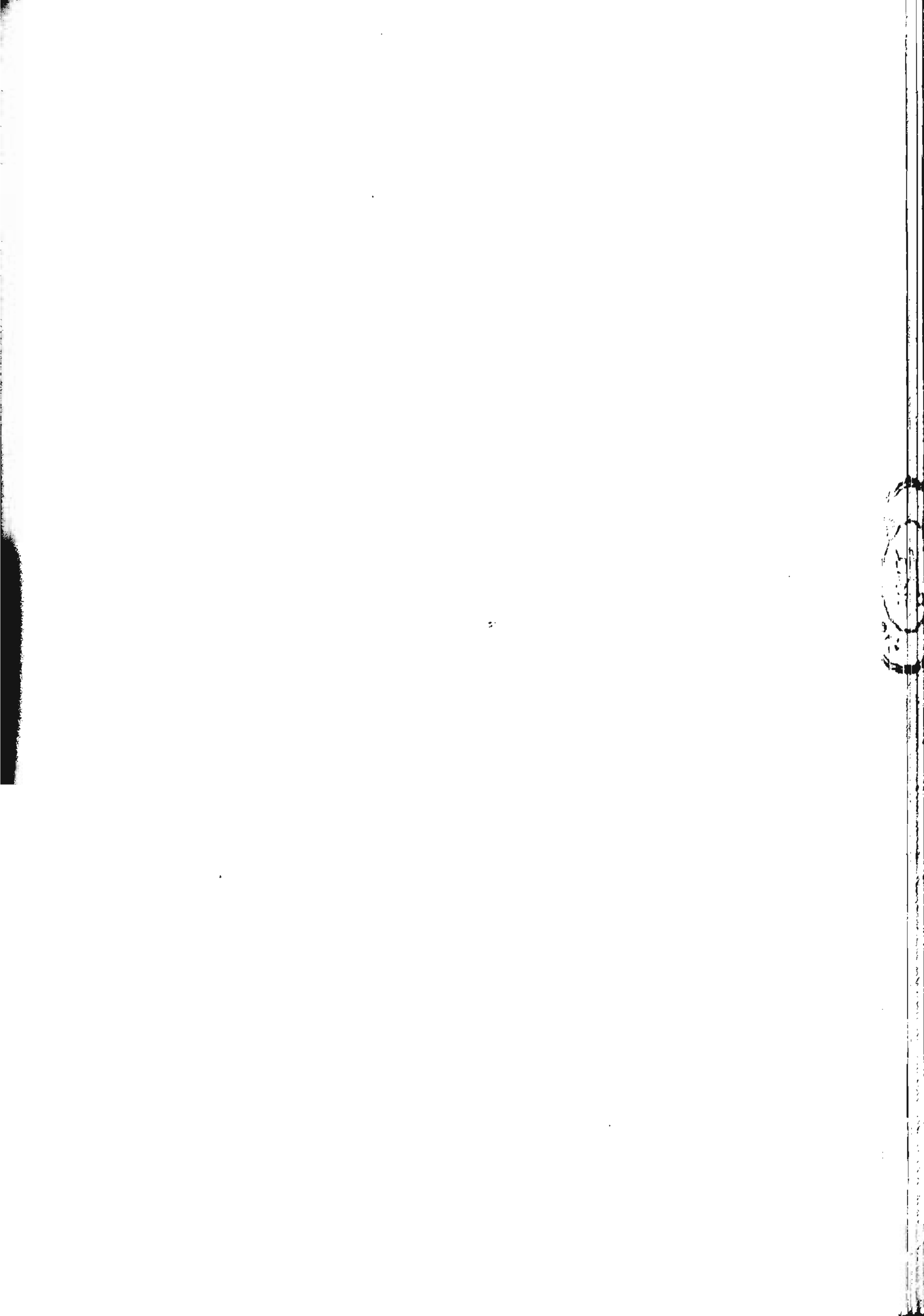
ربما يتساءل البعض لماذا لم يشغل الامير محمد منصب ولاية العهد في الاردن ـ طوال العقود الماضية ـ بدلاً من اخيه الامير الحسن ، الذي يصغره عمراً؟! ويفوت هؤلاء المتسائلين بان الامير محمد مريض نفسياً ، تسبب في حوادث سياقة ، لكنه وفي نفس الوقت خفيف الدم ، جذّاب ، محبوب ، مبادر . جاءني يعزيني بوفاة زوجي الشريف حسين في تموز ١٩٩٨م ، قبل ان نقيم مجلس الفاتحة على روحه الطاهرة .

الأحاديث عن الأمراء والأشراف كثيرة ، ولا أريد الاسترسال فيها . ولكن بودي أن أنوِّه الى مسألة مهمة ، أتمنى على الباحثين والمؤرخين أن يحاولوا ـ قدر الإمكان ـ تجنبها وعدم الوقوع فيها مستقبلاً . وهي أنهم يشتبهون في بعض الأسماء ، ويخلطون بين أدوارها .

فعلى سبيل المثال ـ لا الحصر ـ ما يزال كثيرون لا يفرقون بين زوجي الشريف حسين بن علي بن عبد الله ، الذي انحصر دوره السياسي خلال الخمسينات فقط في العراق ، وبين الشريف حسين بن ناصر ، الذي سبقه في الأربعينات .

والأخير هو ابن عم والدي (الملك علي) وأخو كل من الشريف علي بن ناصر والملكتين حزيمة ومصباح (زوجتَي عمَّيَّ الملكين فيصل الأول وعبد الله) . أغدق عمي الملك فيصل الأول عليه وعلى أخيه (الشريف علي) لقب الأمير ، بيد ان هذا اللقب اشتهر به الأمير عبد الاله ـ تحديداً ـ في العراق الملكي .

وفـي اطروحة دكـتوراة رائـدة ومـهـمـة قُـدِّمت بالعراق عن أخي الأميـر عـبـد الاله ، وطُبـعت في خـارجه عـام ٢٠٠١م بعنـوان «الأمـيـر عـبـد الاله ١٩٣٩ ـ ١٩٥٨» لعبد الهادي الخماسي ، تصور الباحث بأن الشريف حسين بن ناصر هو زوجي في معرض حديثه عن أحداث عام ١٩٤١م ، بينما فاته بأنني تزوجت من الشـريف حسين بن علي عـام ١٩٥٠م . وبغضّ النظر عن هذا الخطأ الفظيع البسـيط! فـإن مـجـرد الكتـابة عن ملوك وأمـراء بني هاشم بموضـوعـيـة ، وفي ظل هذه الظروف القـاهرة ، هو أمر يُشكر عليه البـاحـثـون والمؤرخون والصحفيون .





الشريف حسين بن علي والى يساره ولده الشريف علي بن الحسين، وقد وقفت هالة بين ابيها وجدِّها ـ لندن ١٩٩٥م.



رة بديعة في الحجاز عام ١٩٢٢م

الأميرة بديعة سنة ١٩٤١م، ترتدي (كرداناً) على صدرها، يعود الى أمها الملكة نفيسة،
سرقه الضبّاط الأحرار في ١٤ تموز ١٩٥٨!

صورة نادرة للأميرتين جليلة (ترتدي نظارة) وبديعة، وهما تشربان القهوة في احدى مقاهي باريس سنة ١٩٤٨م.



صورة قديمة ملتقطة في عمان عام ١٩٢٥م.
من اليسار: الاميرة بديعة في الخامسة من عمرها، مع اختها الاميرة جليلة في الثالثة من عمرها.



الأميرتان بديعة وجليلة (تمسك قطة صغيرة)
بغداد ـ كرادة مريم ١٩٢١م.



صورة فريدة جمعت بين الملكة زين الشرف (ملكة الاردن) والاميرة بديعة (الى اليمين)
في احد مطاعم سويسرا أواخر السبعينات.



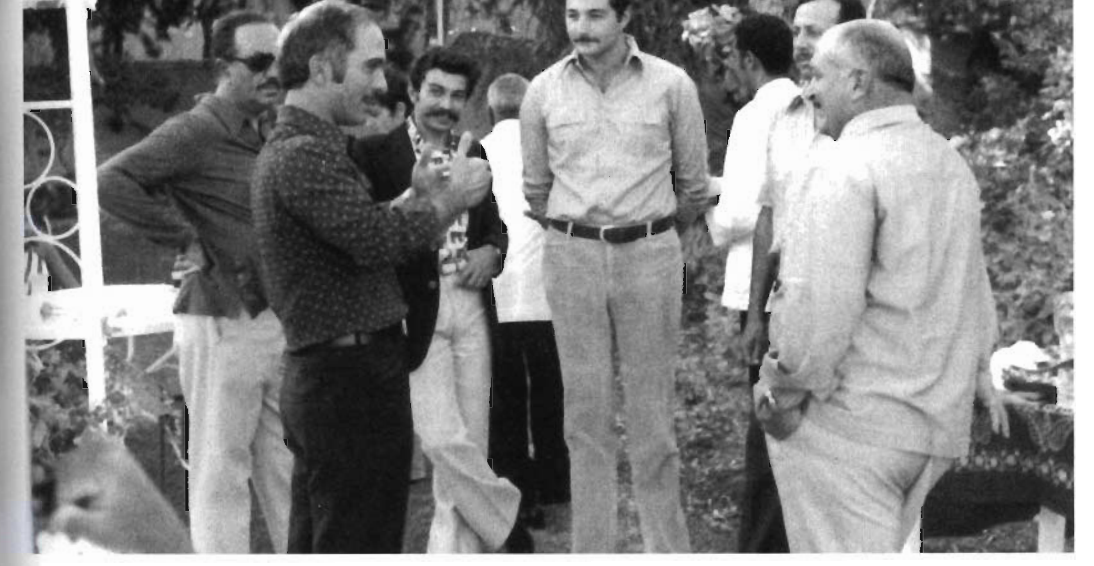
الملكة نفيسة تحضن حفيدها الشريف
محمد بن الحسين (لندن ١٩٥١م)



من اليسار: ١ ـ الأميرة منيرة ابنة الملك عبد الله. ٢ ـ الأميرة بديعة ابنة الملك علي.



ملكة الحجاز نفيسة، وخلفها
صورة الملك فيصل الأول.



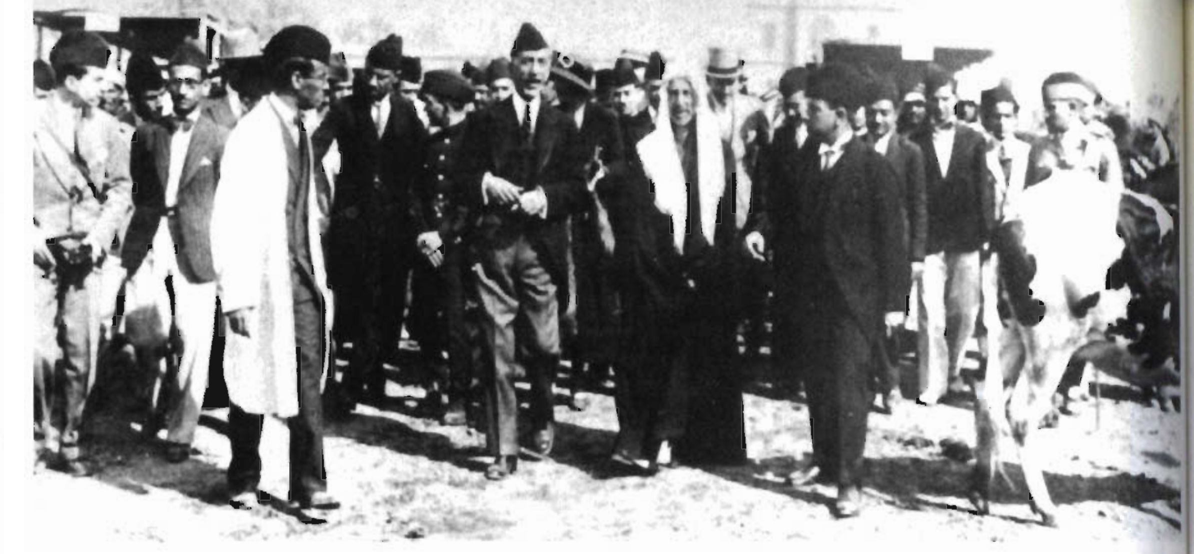
الملك حسين بن طلال في حديث خاص مع بعض اقربائه.
بدا خلفه الى يساره: ١ ـ الشريف حسين بن علي (زوج الاميرة بديعة). ٢ ـ الأمير علي بن نايف بن عبد الله. ٣ ـ تيمور غازي الداغستاني (زوج اخت الملك حسين بسمة سابقاً، وسفير الأردن في لندن حالياً). ٤ ـ الشريف زيد بن شاكر. ٥ ـ الشريف ناصر بن جميل.



من اليمين: ١ـ الشريف حسين بن علي. ٢ـ الشريف حسين بن ناصر ٣ـ الامير الحسن بن طلال. ٤ ـ الشريف علي بن الحسين. أخيراً: السيدة رفيقة الجميل. الكل يلوحون بأيديهم في توديع الأميرة بسمة وزوجها تيمور الداغستاني.



من اليسار: ١ ـ الشريف علي بن الحسين. ٢ ـ الاميرة بديعة ابنة الملك علي. ٣ ـ الاميرة بسمة ابنة الملك طلال (اخت الملك حسين). ٤ ـ السيدة مديحة الداغستاني. ٥ ـ وندة غازي الداغستاني



ملك الحجاز علي بن الحسين (بالزي العربي) وعلى يمينه اخوه الملك فيصل الاول، يحيط بهم رجال الدولة والحاشية والبلاط، في زيارة لهما الى احدى المزارع في اواخر العشرينات من القرن الماضي بالعراق.



علي بن الحسين (ملك الحجاز) بالزي العربي، والى يمينه اخوه فيصل الاول (ملك العراق) ثم جعفر العسكري ونوري السعيد. وبدا خلف الملكين الامير (الملك) غازي بن فيصل الاول (بالزي العسكري) مرافقاً لأبيه. أما الثاني من اليسار (الى الخلف) تحسين قدري، وخلفه شاكر الوادي.



من اليمين: الملك فيصل الاول (ملك العراق) يستقبل اخاه الملك علي (ملك الحجاز) في مطلع عام ١٩٢٦م، في محطة قطار بغداد، وبينهما تحسين قدري.



الملك عبد الله بن الحسين
ملك المملكة الاردنية الهاشمية، بالزي العربي



عبد الله بن الحسين (ملك المملكة الاردنية الهاشمية) بالعمامة، يتمشى الى يمينه رئيس وزرائه سمير الرفاعي، والى خلفه من جهة اليسار ولده الأمير نايف



من اليسار عبد الله بن الحسين (ملك المملكة الاردنية الهاشمية) بالزي العسكري يُقلِّد احد رجاله شارة عسكرية



(من اليمين) عبد الله بن الحسين ملك المملكة الاردنية الهاشمية، بالزي العسكري، متحدثاً الى أحد الشخصيات، فيما وقف امامه الجنرال كلوب باشا (أبو حنيك)



الملك طلال بن عبد الله (ملك المملكة الاردنية الهاشمية) للفترة (١٩٥١ ـ ١٩٥٢م) حكم الاردن بعد استشهاد والده الملك عبد الله في القدس الشريف عام ١٩٥١م. مات الى رحمة الله عام ١٩٧٢م.



الملكان حسين بن طلال (بالزي العسكري) وفيصل الثاني.



الملك عبد الله (ملك الاردن) وخلفه ثلاثة من رجاله البدو.



جنازة الملكة عالية ـ بغداد ١٩٥٠

الملك عبد الله بن الحسين (بالعمامة) ـ الملك فيصل الثاني ـ الأمير نايف بن عبد الله ـ الأمير رعد بن زيد.

جنازة الملك عبد الله في عمّان، تموز عام ١٩٥١م.
يقف لأداء صلاة الميت عليها كل من:
١ـ الملك حسين
٢ـ الامير نايف بن عبد الله
٣ـ الامير عبد الاله بن الملك علي.
٤ ـ (الأمير) الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود
وبدا خلفهم من اليمين:
١ ـ كاظم ضاحي (انضباط الحرس الملكي العراقي) بالزي العسكري.
٢ ـ الشريف حسين بن علي (بالسدارة الفيصلية والنظارات).



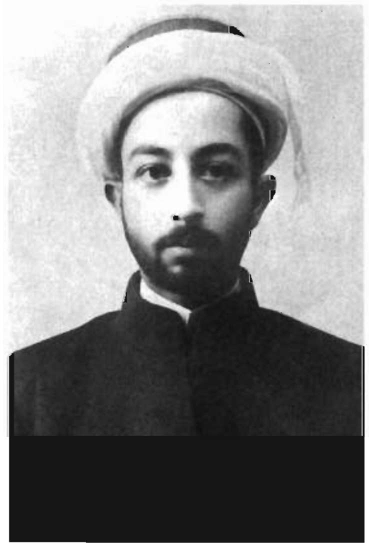


(ملك العرب) قائد الثورة العربية الكبرى الشريف الحسين بن علي (١٨٥٣ ـ ١٩٣١م) والد الملوك علي، عبد الله، فيصل الاول، والامير زيد، وجدُّ الاميرة بديعة (آخر حفيدة له باقية على قيد الحياة) والامير رعد بن زيد (آخر حفيد له باقٍ على قيد الحياة).



صورة أخرى للشريف الحسين بن علي في شبابه.

علي بن الحسين ملك الحجاز (١٩٢٤ ـ ١٩٢٦م) بالزي العربي. مكتوب عليها «٣٠ كانون..» من دون اكمال التاريخ.





صورة أخرى للملك علي بن الحسين في شبابه. اسطنبول ١٩٠٧م



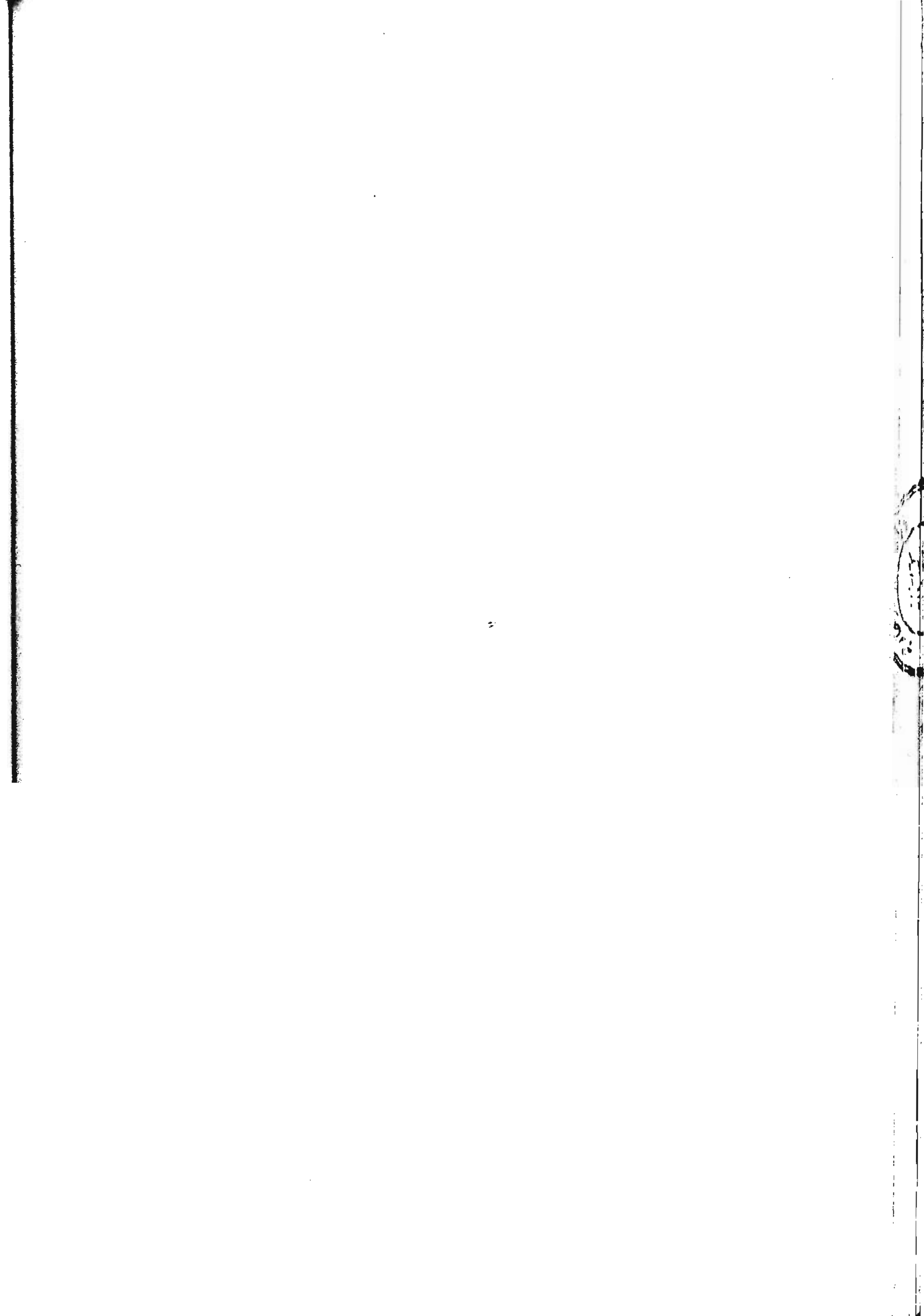
أمير مكة المكرمة (١٩٠٥ ـ ١٩٠٨م) الشريف علي پاشا. صورة شخصية له يرتدي وشاح الامارة.



الشريف ناصر بن علي (أخو الشريف حسين بن علي)

الفصل الخامس

الوصيّ وعرش الملك اليتيم



قصر الرحاب

في اواخـر سنة ١٩٣٦م (ربما مطلع عـام ١٩٣٧م) اهدى ابن عـمي الملك غازي اخي الامير عبد الالـه ، قطعة ارض قريبة من قصر الزهور . بنيـناهـا كـ «ڤيللا» لا كقصر .

احترنا في تسميتها أول الأمر ، واذا بأحد الاشراف المسنين ممن جاؤوا معنا من الحجاز الى العراق ، اقترح تسميتها «رحاب» مُذَكِّراً بأن لأجدادي قـصراً بهـذا الاسم ، بُنيَ في قـرية تحـمل نفس الاسم بـ «الطائف» . حـيث اغلب الاشـراف يسكنون «الطائف» او «وادي فـاطمـة» ولا يسكنون «مكة المكرمة» الاّ اذا كانوا في مهمة عمل ، او اذا ما أُمِرّوا عليها .

استلطف اخي فكرة الشريف «ناصر بن ناصر» ذي اللحية البيضاء والقدم العرجاء (رحـمـه الله) وسمّـاها «رحاب» . . بدأت فكرة انتـقالنا الى سكن جديد ، بعـد وفاة والدي الملك علي عام ١٩٣٥م مباشرة . ربما لاكـتناف الدار بالوحشة جرّاء فراق ابي ، أو ربما لأسباب اخرى .

في ذلك الوقت كـان السفـير المصري ببغداد صـديقاً لاخي عـبد الاله ،

عندما عرض عليه فكرة البناء الجديد ، واعجابه بـ «القلل» المصرية وتصاميمها ، اقترح السفير الصديق ان يُعِدَّ الخريطة مهندس من أبناء بلده .

وبالفعل أُعِدَّت الخريطة وشُرع في البناء . ويوم مات الملك غازي عام ١٩٣٩م ، كان البناؤون لتوِّهم انجزوا «ڤيللا رحاب» التي ستصبح فيما بعد «قصر الرحاب» باكتمالها ، وتعيين اخي وصياً على عرش العراق .

اثاث القصر عُرضة للغبار

أُثِّثَ القصر في البداية من بيروت ، حيث فرشه احد اللبنانيين ، ولكنه لم يكن بالمستوى المؤمل ، ولذا بعد احداث مايس (مايو) ١٩٤١م ومغادرتنا اياه ، ومن ثم عودتنا اليه ، سافر اخي الامير عبد الاله الى «فلسطين» واشترى اثاثاً جديداً ، وجاء بأحدهم من هناك ليفرشه .

أكملناه نحن من «مصر» خلال سفراتنا المتكررة اليها ، وغَيَّرنا ستائره ، التي تباينت الوانها وخاماتها من غرفة الى اخرى . وبعد سنين لمّا بنى اخي مكتباً اضافياً له ، فرشه من اسواق «هارودز» في لندن ، وأتَمَّه من «اس . اس . بري» . حيث كان اخي «ابو بيت» يستذوق الفرش الانيق والاثاث الجميل والجلسات الحلوة .

للقصر بوابة حديد خارجية رئيسة واحدة ، لا يتعدى ارتفاعها متراً وربع المتر ، تُفتح على ذراعيها وسط السياج الخارجي ، وقد نُقِشَ على جهتيها تاجان ملكيان جميلان . على امتداد البوابة ممر خاص يوصل لبناء القصر ، يتسع لقيادة سيارة فارهة فيه . ظل سنين غير معبَّد ، مكسواً بالحصى فقط . امتنعت «امانة العاصمة» عن اكسائه بالقير والاسفلت ، بدعوى انه لا يدخل ضمن نطاق مهمّات وأعمال امانة بغداد!

مازالت مشاهد تطاير الغبار من تحت عجلات السيارات ، عالقة في مخيلتي ، حين تمر سيارة من عند واجهة القصر الامامية ، تنفذ ذّرات الرمال الى الداخل ، لتكسوَ الصحون والاواني والفرش ، حتى اضطر اخي الامير عبد الاله اخيراً ، الى الصرف على الطريق من جيبه الخاص لاكسائه!

حدائقه ومرافقهُ

على جانبي البوابة الرئيسة غرفتان ، واحدة لاستراحة الحرس الملكي ، والاخرى لبدالة القصر الهاتفية . ظُلِّلَت احدى الغرفتين بطارمة ، يجلس او يتواجد تحتها الحرس . حيث تُستبدل يومياً سرية كاملة لهذه المهمة .

في «قصر الرحاب» حديقتان ، واحدة أمامية (مربعة) والاخرى خلفية (مثلثة) اكبر منها ، يربط بينهما ممر خاص للمشاة وليس للسيارات ، اذ لم تكن هناك ضرورة في التصميم ، لالتفاف السيارات حول بناء القصر . زُرِعَت الحديقتان بالورود والازهار والياسمين والرياحين ، ولعل تنظيمهما كان اجمل من تنظيم حديقة «قصر الزهور» الاّ انهما خاليتان من اية كراسي ، او موائد للجلوس حولها .

لشدة ولع اخي بالحدائق ، فانه ما كان يُفوِّت موسماً زراعياً ، الاّ وسارع الى اقتناء شتلات ذلك الموسم ، ليغرسها الى جانب اشجار السرو والزينة .

زُيِّنت حديقة القصر الامامية بحوض من المياه ، نُصبت في داخله «نافورة» تقذف الماء الى اعلى ، لتضفي جمالاً ورونقاً على مدخل القصر . قابلها قَفَصان حديديان ، خُصصا للورود والاشجار المتسلقة ، إتكئا على دعامتين عريضتين ، تمثلان واجهة القصر . رفَعْنَ اطاراً بخمسة اقواس كحذوة الفرس ، استندت الى اربعة اعمدة مرمرية وسطية رفيعة .

تخللتها مداخل يُصعد اليها من خلال بضع درجات عريضة ، امتدت على طول المدخل المرتفع عن ارض القصر بدكات ، تقود الى الرواق الأمامي ، ذي الطارمة الامامية الكبيرة (هناك طارمة خلفية اخرى) . توسطت فيها ثلاث بوابات من الخشب ، أُغلقت اثنتان منها وفُتحت الوسطى للدخول والخروج منها .

وقف على جانبيها حرسان ملكيان ، يقبضان على سلاحيهما (غير المحشوّين) يستقبلان ويودعان زوّار القصر وساكنيه . ارتديا زيّاً عسكرياً عادياً (اللون الخاكي) في الايام العادية ، ولا يغيِّرانه الاّ في المناسبات ، الى السترة الحمراء والبنطال الاسود والخوذة البيضاء .

عند بداية المدخل يقع «هول» واسع يقابله «الصالون» ثم «كوريدور» بممر طويل ، يؤدي الى مكتب اخي الأمير عبد الاله (من الجهة اليمنى) ومن ثم الى المطبخ . بعدهما «طاق» جميل ندخل من تحته لتواجهنا غرفتان ، واحدة على اليمين والاخرى على الشمال ، بينهما حمّام ، ثم السلالم المؤدية الى الخدم والطابق الأول .

يجلس المرافقون في «الكوريدور» قرب السلالم ، ويتناولون طعامهم في غرفة بُنيت خصيصاً لهذا الغرض .

صالات القصر

أما بالنسبة لصالة الطعام الرئيسة في القصر ، فقد توسطتها مائدة مستطيلة كبيرة كقطعة واحدة ، احاطها (١٨) ثمانية عشر كرسياً ذات شكل واحد ، عدا كرسيين انفردا بأيدٍ جانبية ، خصصا للملك والأمير . يجلس اخي على احدهما في صدر المائدة ، باعتباره صاحب البيت (والاكبر سناً

من الملك وهو بمثابة والده) وعلى يساره المرافقون ، بينما يجلس الملك على الكرسي الآخر ، في زاوية جانبية بمحاذاة الامير . وتأخذ امي مقعدها في الوسط ، في حين نجلس نحن البنات في الجهة الأخرى .

غُطّيَت ارضية صالة الطعام (والطابق الأرضي) بالخشب الفرنسي «الپاركيه» وفُرِشت بالسجاد الايراني . واخترقها بابان ، يؤدي احدهما الى «الهول» والآخر الى «صالة الجلوس» او الاستقبال (كما نسميها بالعراق) .

تطلُّ «صالة الجلوس» ذات الشبابيك الثلاثة على الحديقة الأمامية لقصر الرحاب ، وقد وُضعت فيها طواقم متشابهة من الكنبات ، ولم يتميز او يُخصص اي كرسي فيها ، لجلوس الملك او الأمير عليه . انما وُضعت في بعضها ازرار منبه ، يُضغط عليها عند الحاجة لاستدعاء الخدم .

زُيِّنت الصالة ببعض الموائد الجميلة ، وتوسطتها «فاير بليس» مدفأة تعمل بالفحم الحجري . ارتفع فوقها «بخاري» يطرد الدخان والغازات المنبعثة منها الى سطح القصر . عُلِّقت على جدرانها صور جُدي (ملك العرب) الحسين بن علي وابي الملك علي وعميَّ الملكين فيصل وعبد الله وابن عمي الملك غازي . رُسِمَت بالألوان الزيتية على قطع قماش ١,٥٠سم X ١,٢٥ سم وأُطِّرت باطارات ذهبية رائعة .

تبقى «صالة الجلوس» مفروشة بالسجاد الايراني «القاشاني» طوال مواسم السنة ، من دون ان تُطوى حتى في موسم الصيف . ولتجنُّب حرّ صيف العراق القائض ، جاء اخي بـ «ايركُلر» جهاز تبريد من الولايات المتحدة في الاربعينات ، يعمل بالماء والكهرباء . حتى غيَّره في الخمسينات بـ «ايركُندشن» مكيِّفات ، وقد بدأ تصنيعها في ذلك الوقت ، وبادر العراق الى استيرادها .

تدفئة بدائية

أما تدفئته فكانت بدائية تماماً ، وكل ما يحتوي عليه القصر ، هو اربع صوبات نفطية (اثنتان من الزجاج واثنتان علاء الدين) ننقلها من مكان لآخر ، وإن شغلت معظمها الطابق العلوي . فمن الطريف ان اخي الامير عبد الاله لم يكن «مبْراداً» او ممن يتأثرون او يشعرون بالبرد القارس ، ولهذا لم يفكر يوماً في تدفئة صالة الجلوس ، بينما مرافقوه وزواره يرتجفون من شدة برد العراق ، فيضطرون الى عمل «احماء رياضي» وهم يبتسمون من بلوتهم مع الامير!

من المستغرب ان اقول بأن مكتب الملك فيصل الثاني ، كان امتداداً لصالة الجلوس ، وليس منعزلاً عنها ، حتى أُغلق من جهتها فيما بعد ، وفُتح على جهة «الهول» تجنباً للحرج ، الذي كان يقع فيه الملك من جانب ضيوف «قصر الرحاب» .

مكتبهُ عبارة عن غرفة جلوس له ولأصدقائه ، من ابناء الايوبي والمدفعي والشوربچي وغيرهم ، خالية من اي «مكتب» خاص به ، انما زُوِّدت ببعض الكراسي وهاتف وكتب ومجلات!

ومثلها كانت غرفة (مكتب) اخي الامير عبد الاله صاحب القصر ، لم تتميز بشيء عنها سوى مكتب ، وُضع عليه جهازا هاتف ، أحدهما خارجي مباشر ، والآخر داخلي تتم الاتصالات من خلاله عبر البدالة . زُوِّدت بعدد من الكتب العربية ، التي فاقت على الانكليزية ، لكنه نادراً ما كان يجلس فيها ، لأنه يُفضل دائماً ان يكون مع الأصدقاء وبصحبة آخرين .

هناك غرفتان أخريان ، ذكرتُ ان احديهما خصصت لتناول طعام المرافقين والحرس فيها . اما الأخرى فكانت لأولادي الاشراف قبل ان نتحول الى بيتنا الجديد في «منطقة المنصور» .

الطابق العلوي

بالقرب من السلالم نصف الدوّارة هناك فُسحة دائرية ، وضعت فيها بعض الكراسي والطاولات ، تتميَّز بجلستها المريحة الرائعة . ثم تستمر السلالم بالدوران لتقود الى «الهول» في الطابق الاول (العلوي) .

يكاد يكون تصميم هذا الطابق شبيهاً بالطابق الأرضي ، فمساحة الهول العلوي هي نفس مساحة الهول السفلي . اذ يأتي بعده «صالون النساء» الذي تَقَدَّمه «طاق» جميل ، كنا نجلس فيه نحن نساء القصر .

مجموع غرف النوم هنا (٦) ست غرف ، شغل اخي الامير عبد الاله اثنتين منها ، له ولحرمه . الاّ انه اعطاهما للملك فيصل الثاني ، بعد وفاة امه الملكة عالية عام ١٩٥٠م وانتقاله للسكن معنا في «قصر الرحاب» . فاستقل الملك بواحدة ، ونقلت اختي الاميرة عبدية فراشها الى الثانية لتسكن بجواره ، كي تسهر على راحته وتربيته .

لذا اضطر اخي الى ان يبني له غرفة اخرى ، ليرتفع عدد غرف النوم الى (٧) سبع غرف ، توزعت على جهتي القصر ، مع «كوريدور» وثلاث حمّامات غربيّة (حمام وتواليت معاً) .

السرداب

تحت «قصر الرحاب» سرداب كبير بقدر مساحة بناء القصر ، مفتوح على بعضه من الداخل كقطعة واحدة ، لا تقطعه او تفصله مداخل او مشتملات ، سوى أعمدة من الطابوق ، انتصبت فيه لتحمل البناء .

لم نستفد منه شيئاً ، ولم نَنَمْ فيه يوماً ، ففي الصيف (موسم الفيضان) تغمره المياه ، لارتفاع منسوبها في دجلة ، والقصر يحاذي النهر بالقرب من

«جسر الخِر» . وقد يصل ارتفاع المياه فيه الى أكثر من متر احياناً ، وكنا نسمي ذلك بالعراق «نزيز»! اما في الشتاء حين تغور المياه ، فان الرطوبة تبقى عالية في السرداب ، ما تحول دون دخول احد اليه .

ومن الفظاعات والشناعات التي يهتزُّ لها البدن ، ان الحكومات التي جاءت بعدنا ـ سيَّما الحكومة الحالية في العراق ـ استخدمت سرداب «قصر الرحاب» لتعذيب وتعليق ضحاياها ومعتقليها في سقوفه وعلى جدرانه .

عادات ملكية

حالتان فقط كنا فيهما ـ نحن النساء ـ ننزل الى الطابق الأرضي من «قصر الرحاب» . الأولى : عندما يحين موعد تناول الطعام ، ما ان ننتهي منه حتى نصعد الى الطابق العلوي ، ولا نمكث او (نتعلل) في الصالة الارضية ، حتى وإن خلا القصر من الرجال وجنَّ الليل .

الثانية : اذا ما زارنا عدد من النسوة في يوم (قبول) او استقبال ، عندها نستضيفهن في الطابق الأرضي . اما صديقاتنا الخصوصيات ومعارفنا ، فكنا نستقبلهن في الطابق الأول .

لم يحصل اي احتكاك بين نساء القصر وزوّاره ، ربما لوجود بعض التنسيق غير المعلن ، بيننا وبين أخي الأمير عبد الاله ، في استقبال الضيوف وتوديعهم ، حال دون وقوع الاحتكاك . لم يكن مطلوباً من أيٍّ منا ، ان يُخطرَ الآخر بوجود ضيوف لديه ، لكننا كنا نتحاشى ـ لاشعورياً ـ ان نُرَتِّب مواعيدَ تتضارب ، او تتزامن مع مواعيد الطرف الآخر .

وعلى فرض ان شيئاً من هذا القبيل قد حصل ، فان اخي في هذه الحالة يستقبل زوّاره في مكتبه ، تحاشياً للاختلاط . كما اننا كنا نتجنب

(نحن النسوة) اعطاء اية مواعيد للقاءات مع آخرين ، خصوصاً حينما نشعر بأن هناك ثمة ظروفاً غير طبيعية تمرُّ بالبلد ، من استقالة وزارة وتعيين أخرى ، او اضطرابات وتظاهرات . . أو ما الى ذلك من مشاكل .

حيث نرى حركة الداخلين والخارجين الى القصر ، بشكل دائب ومكثف . حتى ضيوفنا انفسهم كانوا يتحاشون زيارتنا في تلك الأوقات العصيبة ، ويبقون في انتظار ان تنجلي الغمّة ، ويعود الاستقرار ، فيعاودوا الاتصال ثانية .

سيستغرب البعض لو عرف بأننا ـ نحن نساء قصر الرحاب ـ كنا ندخل ونخرج من نفس البوابة ، التي يدخل ويخرج منها الرجال المسؤولون والضيوف ، لكنه لم يصادف ابداً ان التقينا بأحدهم يوماً ، اثناء دخولنا وخروجنا! ربما لندرة خروجنا من القصر ، وقلة طلعاتنا ، او لعدم تزامن الوجودين معاً ، او اذا ما علمنا بوجود زوّار لأخي نمتنع عن الخروج في ذلك اليوم ، ونؤجله الى وقت آخر .

ربما حصل مرة او أكثر ، ان هممنا بالخروجٍ من القصر ، واذا بالخدم يومئون الينا ، لوجود بعض الرجال في الطابق الأرضي ، فننتظر على السلالم ، او يعود بعضنا الى الطابق العلوي ، حتى يسلكوا الطريق فنخرج .

لا حماية للقصر

ليس العجب ان لا تكون هناك في «قصر الرحاب» باب خاص لنا (نحن النساء) ندخل ونخرج منه ، بل العجب كله ان يكون القصر مكشوفاً ، غير محميٍّ من جهة حديقته الخلفية ، ذات الشكل المثلث ، التي لم يفصلها عن «دجلة» سوى سدة ترابية . كان باستطاعة كل مَنْ يريد التسلل عبرها الى

غرفنا ، ان يفعل من دون ان تواجهه اية عوائق! بيد ان شيئاً من هذا القبيل لم يقع ، ولله الحمد .

حينما كان الضجر والملل يدبّان في اوصالنا ، نخرج قليلاً لنُرفِّهَ عن نفوسنا . نتمشى في الحديقة الخلفية ، ولا يحرسنا سوى حارسين طيبين ، وقفا بعيدين عنّا ، تحت مظلة لتقيهما حرَّ الصيف .

* * *

لا أتذكر اننا في «قصر الرحاب» اقتنينا قاصة من حديد ، عدا قاصتي الصغيرة . اودعتُ فيها بعض مقتنياتي وحاجاتي ، كبنت مدللة تعتزُّ بأشيائها الخاصة . لقد كنا نشعر دائماً بأمان ، واننا بين أهلنا وأحبابنا ، ولسنا بين سرّاق وأرباب سوابق ، نخفي عنهم ما نحوز وما نملك .

. . غير ان هذا الشعور الذي بقي يلازمني الى اليوم ، لم يتبدد الاّ في يوم واحد ، هو يوم الانقلاب المشؤوم ، حين هجم القتلة والسُرّاق على «قصر الرحاب» صبيحة ١٤ تموز ١٩٥٨م ، وراحوا يلعقون دم أهلي الشهداء ، بعد ان ذبحوهم ، ويدنّسون حرمة غرفهم ، بحثاً عن كنوز وأموال لم يجدوها . . لأنها ببساطة لم تكن موجودة أصلاً ، الاّ في عقولهم المريضة ونفوسهم الدنيئة .

الوصي على عرش العراق

لم يعتد اخي الأمير عبد الاله على تناول طعام الفطور في قصر الرحاب ، فحينما يستيقظ من نومه صباحاً ، يشرب اللبن العراقي (ليس الحليب ، انما اللبن الرائب) ثم يرتشف فنجان القهوة بعده ، ويذهب الى القصر الملكي لممارسة عمله الرسمي .

يعود نحو الساعة (٣,٠٠) الثالثة من بعد الظهر ، فنكون نحن في انتظاره على الغداء ، وقد اخذ الجوع منا مأخذاً ، لأننا ـ نحن الآخرين ـ مثله ، لا نفطر صباحاً . نجلس على مائدة الطعام كلنا (الملك والامير ومرافقاهما وامي واخواتي وانا) نتغدى . بعدها يسترخي على الأريكة قائلاً : «اريد ان أريّح دماغي» . ثم يبدأ بقراءة التقارير وبعض المقالات والمواضيع المهمة . لا من عادته ولا من عادة الملك فيّصل الثاني النوم ظهراً وقت القيلولة .

تصلنا الصحف والمجلات الى القصر ، لكن الملك والامير لا يقرآنها فيه ، انما يكونان قد اطلعا عليها في «البلاط الملكي» . حيث تُقدم اليهما الموضوعات المهمة وبعض المقالات في قصاصات ، لأنه ليس لديهما الوقت الكافي لمطالعة كل ما ينشر . اما نحن البنات فلم نكن نهتم بالسياسة ، ولا نقرأ شيئاً مما يكتب فيها ، الاّ ما ندر . فاهتماماتنا غالباً ما انحصرت ـ على العموم ـ بالقضايا النسائية ومجلات التفصيل والموديلات .

لكننا نتحسس الاختلال في الميزان السياسي العام بالعراق ، من خلال كثرة الداخلين والخارجين الى القصر ، من السياسيين والمسؤولين والوجهاء والشيوخ في البلد . نعرف انهم بصدد الحديث عن مظاهرات ، او اضطرابات ،

او مشاكل سياسية معينة ، يتعرض لها العراق . بحيث يقضون ساعات في التداول بشأنها ، من خلال اجتماعات طارئة ، او حتى اعتيادية يعقدونها .

نلحظ معاناة الامير السياسية في وجهه ، فعندما تكون هناك ازمة او مشكلة كبرى ، تحمرُّ وجناته ، ويبدأ يدخن بشراهة ، تكاد السيكارة لا تنطفىء في يده . ليس من عادته البوح لنا بما يحدث ، او ما يعانيه من مضايقات ومنغِّصات في عمله اليومي . امي هي الوحيدة التي كانت تسأله عمّا يلمُّ به ، من دون ان تلحَّ عليه بالسؤال ، لانها تعرف طبيعته مثلنا . حنانها وحرصها على ولدها ، هما اللذان يدفعانها الى سؤاله احياناً ، لكنه لا يطلعها على ما يجري ، ولا يقول لها سوى ان هناك بعض الامور التي لا تريحه ، ولا يطيل الحديث .

اما نحن اخواته فلم نكن نسأله عمّا به ابداً ، لان تقليداً تواطأنا عليه منذ زمن ، هو عدم التدخل في الشؤون السياسية والشخصية له ، كي لا نحرجه ، الاّ اذا تطوَّع هو وكشف لنا عمّا يجول في صدره ، وهو لا يلجأ الى تلك الحالة ، الاّ اذا فاض به الصبر .

ان شيئاً واحداً يستوقفني اليوم ، ليس في أخي الأمير عبد الاله ، وإنما في بعض مَنْ كانوا يتوددون اليه بشتى الطرق والأساليب ، ليحظوا بمكانة عنده . لا أدري هل لأن أخي لم يكن محظوظاً في علاقاته وصداقاته؟ أم أن الآخرين لم يكونوا أهلاً للثقة والاحترام؟

. . ناصر الدين النشاشيبي مثلاً ، كان يزوره في العراق ، ليأتيه ببعض اللوحات الزيتية لأحد سلاطين آل عثمان ، لهواية أخي في جمعها واقتنائها ، فيبيعها عليه . يشتريها منه ويكرمه بأكثر مما يستحق ، وهو يدرك تماماً القيمة الحقيقية لها .

بعد رحيله راح ناصر الدين يشتمه في بعض كتبه! لماذا يا نشاشيبي؟ هل لأن أحداً أغراك بثمن أغلى ، مما كان يدفعه لك الأمير عبد الاله؟!

رأيه بسياسيّي العراق

كان لاخي الامير عبد الاله مستشارون سياسيون واصدقاء ، يطلب رأيهم عند الضرورة ، في معرض الحاجة الى الاستشارة في المواضيع المهمة والحسّاسة . ومن ناحية «العائلة المالكة» لم يكن يعتمد الاّ على اختي الملكة «عالية» بالدرجة الاساس ، فيستشيرها في كثير من الامور .

قال مرة امامنا ضاحكاً : «انا حتى حينما اذهب الى المقبرة ، سأبقى اكلّم اختي عالية من هناك» . فهو يُعِزُّ ويحترم اخته كثيراً ، ويعتقد بأنها ذكية جداً ، وهي تبادله نفس المشاعر الاخوية . أنها اكبر منه ببضع سنوات ، تحبّه حباً ، لعله يساوي حبّها لأبنها فيصل ، لا بل كانت متولعة فيه .

اخبرنا يوماً بأنه قال للوزراء : «أنكم مع الاسف لا تعرفون ملكتكم ، ولا تستطيعون رؤيتها ، اتمنى لو انكم تلتقون بها ، لتتعرفوا عليها» . كان الحجاب المضروب علينا نحن النسوة ، يمنعنا من مخالطة الرجال والحديث معهم ، ولم تكن من عاداتنا مجالستهم ، او الحرص على رؤيتهم .

قسَّمَ اخي عبد الاله سياسيي العراق الى صنفين : السياسيين الاذكياء والسياسيين الاغبياء ، وهؤلاء هم الذين جاؤوا الى الحكم بالصدفة . وفي احيان قليلة جداً ونادرة يتمتم بكلمات ، تعبِّرُ عن اشمئزازه ومعاناته من تصرفات الوزير الفلاني ، او رئيس الحكومة (العلاّني) .

ينتقد بعض الوزراء او اصحاب القرار في البلد ، من الذين يمانعون من صرف اموال العراق على الدولة ومشاريعها ، او اولئك الذين يثيرون المتاعب ويضعون العراقيل في وجه المشاريع ، لأسباب تافهة وبسيطة ، فيتسببون ـ من حيث يدرون او لا يدرون ـ في ايذاء الناس وحرمانهم من بعض الحقوق والامتيازات .

كان يميل ميلاً ظاهراً الى الباشا نوري السعيد ويحترمه ، وهو على رأس

قائمة السياسيين العراقيين الاذكياء (حسب تصنيفه السابق) اذ لديه طرق فنية وخفيَّة في التأثير على الحكم ، سواء كان في داخله ام خارجه ، وهذه هي السياسة ـ كما يبدو ـ وفن ادارتها .

اذكر في صيف عام ١٩٥٤م كنّا بـ «الاسكندرية» فاتصل بي اخي عبد الاله من مقر السفارة العراقية بـ «القاهرة» وقال لي : «قَدِمتُ لمصالحة (عجوزنا) لأنه زعلان علينا ، ترك العراق الى لندن ، لكني سأغادر الى باريس ، وهناك سألتقيه» .

(زعل) الباشا بسبب بعض الاجراءات السياسية التي اتخذها أخي في البلد ، وتجنباً للمشاكل ابدى مرونة معينة وذهب لمصالحته . ولكنه ظل محتفظاً بكبريائه ، فلم يذهب اليه في لندن مباشرة ، انما سافر الى باريس ، وهناك التقى به . . لم يقدر على زعله ، فهو يكاد يكون الباشا الوحيد المهم في العراق وقتذاك .

شمائل سليل الملوك

لم يكن اخي عبد الاله ميالا الى العنف ، او ايذاء احد من الناس . كان مسالماً ، عفوّاً ، عطوفاً ، محباً للآخرين ، وليس من طبيعته الانتقام ، حتى من اولئك الذين يسيئون اليه .

اتذكر بعد وصايته على عرش العراق ، دخل علينا يوماً وقت الغداء وكان متألماً جداً ومحبطاً ، سألتهُ امي عمّا به؟ فقال : «هذه هي المرة الاولى في حياتي أوقِّعُ فيها على اعدام انسان ، فمنذ اسبوع وانا متردد وأماطل في التوقيع على القرار . انه قاتل ، وقد حكمت عليه المحكمة بذلك الحكم ، لينال جزاءه العادل ، والحكومة تطالبني بانفاذ القرار . اليوم امضيتُ عليه ، انني اشعر بالذنب ، لأنني سأكون السبب في انهاء حياته» .

كان اخي حنوناً ، رقيقاً ، دافئاً ، طيب القلب ، لا يقبل بإسالة الدماء . لم يبادر الى معاقبة حتى الذين يتآمرون عليه . . وما اكثرهم!

اتذكّر في ليلة اعدام بعض المتورطين بحركة رشيد عالي الگيلاني في «تل الملح» ممن ارتكبوا جرائم مروعة بحق الشعب والوطن . كان عصبياً منزعجاً للغاية ، لأنه يعلم بأنهم سيشنقون في اليوم التالي . لم يُرد ان يكون سبباً في قتل انسان ، حتى وإن كان مجرماً مداناً ، ولكن لم يكن من بُدٍّ امامه ، ولم يكن بيده اي شيء .

انني سيدة من بيت عفوٍ ذي رحمة ، ابشع ما أراه في حياتي ، هو مشهد انسان يُقتل او يُعدم . ادينُ القتل بكل اشكاله وصوره ، لكنني اؤمن أيضاً بان القاتل العمد يجب ان يُقتل ، جزاءً بما فعل ، وحفاظاً على سلامة الناس . لذا اعتقدُ ان هؤلاء الضباط نالوا جزاءهم العادل ، وحوكموا محاكمة شرعية ، لانهم هم الذين بدأوا بقتل الناس .

انهم تآمروا على الدولة ، وعَبَثوا بمصالحها ومقدّراتها ، وتسببوا في مقتل الابرياء ، وورطوا المساكين في حرب لم يكونوا بحاجةٍ اليها ، واطاحوا الحكومة في البلد ، وشردوا المسؤولين ، وارادوا انهاء اخي عبد الاله ، وساقوا العائلة المالكة اسيرة الى كردستان العراق . ارادوا ان يلحقوا العراق بالمانيا النازية . . بهتلر ، ولهذا اوقِفوا عند حدِّهم .

لم يحكم العراق الملكي نظام ديكتاتوري مستبد ، ولا يجرؤ احد على وصفه بهذا الوصف ، انما حَكَمَهُ بداية نظام ديمقراطي وطني ، له هواجسه ومخاوفه المشروعة ، فهناك ملك وولي عهد أو وصي ، وحكومة وبرلمان ومعارضة واحزاب وصحافة حرة ، وقضاء فيه محاكم عادلة .

لم يكن العراق مثل بريطانيا العظمى ، او فرنسا ، او الولايات المتحدة الاميركية ، من حيث الديمقراطية او نزاهة الانتخابات ، ولكن لم تكن فيه

محاكم ثورة او محاكم شعب، تحكم باسمه وهي غير مخولة من قبله، او محاكم تفتيش او غستابو . ولا حرس خاص، او جهاز امن خاص، او اجهزة حماية، او فِرَق اعدام جماعي . لم تكن كل أدوات القتل والسحل والابادة والاذلال هذه موجودة في عهدنا .

في اية دولة في العالم، حينما يتآمر العسكر على السلطة الشرعية المدنية، ويهددون بلدهم ووحدة شعبهم، تكون عقوبتهم الاعدام . لم يقتصر العمل بهذا المبدأ، أو القانون على العراق فقط، وعليه فليس من المنطقي او العدالة ادانة اخي عبد الاله، ولا حتى مجرد لومه، او العتب عليه فيما آل اليه مصير محاربي ١٩٤١م . الكل يتحملون مسؤولياتهم وواجباتهم ـ كل حسب موقعه ووظيفته ـ لقد تسبب هؤلاء الضباط في قتل الابرياء، واستباحة ارواح واموال واعراض العراقيين .

انه لأمر عجيب حقاً أن تِقوم الدنيا ولا تقعد، من أجل أربعة ضباط حوكموا محاكمة عادلة ـ في عهدنا ـ ونالوا جزاءهم العادل، جرّاء ما اقترفوه بأيديهم من جرائم بحق الشعب والوطن . بينما لم يحصل الأمر نفسه مع عبد الكريم قاسم، حينما أقدم في العشرين من أيلول (سبتمبر) ١٩٥٩م، على اعدام (١٣) ثلاثة عشر ضابطاً عسكرياً من رفاقه الانقلابيين، في ساحة «أم الطبول» . . لا بل لم نسمع من هؤلاء الى اليوم صوتاً شاجباً أو مستنكراً واحداً لحملات الاعدام المستمرة، تلك التي يشنها صدام حسين منذ أكثر من عشرين عاماً، في صفوف الضباط العراقيين من دون هوادة!

اظن اذن من حقي ان اتساءل : ماذا فعل هؤلاء الضباط في تأريخ العراق بعد رحيل النظام الملكي، لا بل حتى ابانه، غير التآمر والقتل والسحل والنهب؟ أوَ ليس مكان هؤلاء هو ثكناتهم العسكرية، بعيداً عن السياسة والسياسيين؟!

وبالرغم من هذا كله ، كان اخي يتودد اليهم ويسترضيهم وينزل عند رغباتهم ، ولكن لم ينفع ذلك كله معهم ، فخانوه وتآمروا عليه ، وارادوا تدمير العراق ـ من حيث شعروا أو لم يشعروا ـ لهذا كان لا بد من ايقافهم عند حدهم وانهاء تمردهم .

ولكن السؤال الذي بودي ان اسأله اليوم ايضاً هو انه ، بعد نحو ستة عقود كاملة انقضت على حركة رشيد عالي الگيلاني ، هل ترك الضباط العراقيون التدخل في الشؤون السياسية؟

. . اذن من المسؤول عمّا حلَّ من خراب بالبلد؟!

زيجات الأمير عبد الاله

لم يتزوج الأمير عبد الاله أية شريفة من الاشراف ، ربما لأنه لم يجد من بينهن مَنْ تناسبه ، او لأنهن لم يكنَّ بذلك المستوى من الجمال ، على رغم انه كان يفضّل السمراء على الشقراء ، وهن أكثرُ وفرة من غيرهن .

وبهذا لم تتحقق أي من رغبات أبي واعمامي ، في تعيينهم لأبنائهم وبناتهم مَنْ يتزوجون . رشحوا الاميرة مقبولة ، ابنة عمي الملك عبد الله للأمير عبد الاله ، ولم تحصل القسمة ، ربما لأنها شقراء وبدينة بعض الشيء ، وهو لا يحبذ هذا النوع من السيدات .

حصل ان رأى مرة «نسرين» ابنة علي كمال (أحد الاكراد الذين شغلوا منصب مدير الشرطة العام بالعراق) في مصيف «سرسنك» فأعجب بها واراد ان يتزوجها ، ولم يحصل النصيب . فتزوجت فيما بعد من شخص اخر ، تعيش معه الآن في الامارات .

كنتُ (أنا) موضع اتهام دائم من قبل زوجات أخي ، او مَنْ ينوي الاقتران بهن ، لأنه يحبني جداً ، فيتصورون في خيالهن بأن الأمر والمشورة بيدي ،

بحيث اؤثّر في قراره سلباً او ايجاباً ، فيحملنّني مسؤولية خصوماته ومشاكله معهن . بينما الحقيقة على العكس من ذلك تماماً ، اذ كان هو الذي يأمرني ، وليس عليٌّ الاّ الطاعة!

اشاعوا وقتها بأنني انا التي اقنعته بعدم الاقتران بنسرين . زعل اهلها مني ، وهم لا يدرون بأنهم ظلموني ، لأنني كنت يومها في «الاسكندرية» ولا أعرف الموضوع . وللتاريخ أقول بأن «احمد مختار بابان» هو الذي اقنع أخي الأمير بأن لا يتقدم اليها ، لسرٌّ ظل بينهما خافياً ، ولا أحد يعلم به الى اليوم .

مَلَك فيضي

بينما نحن في الاسكندرية عام ١٩٣٦م بادر أحد اصدقاء أخي الأمير عبد الاله (منذ أيام الدراسة في فكتوريا كولدج) الى تعريفه على مَلَك فيضي ، وكان قد اعرب من قبل عن نيته للاقتران بسيدة مصرية .

خطبناها له ، واتينا بها مع اختها في الباخرة الى العراق ــ عن طريق الاردن ــ بعد ان أجريا العقد الشرعي ، فاستقبلنا الملك غازي والملكة عالية قرب «الفلوجة» استقبالاً تكريمياً لهما .

بعد أيام تبعنا ابوها وامها الى بغداد ، لحضور حفل الزواج ، أقمنا حفلة العرس في «قصر الزهور» للنساء فقط . كنا تركنا بيتنا في «كرادة مريم» على نهر دجلة ، وانتقلنا الى سكننا الجديد في «بيوت الالمان» كما سمّوها ، بمنطقة «السكك الحديد» .

خلال السنوات الاربع من عمر زواجهما ، اقتصرت علاقات فيضي بثلاث سيدات فقط ، سيدة عراقية ، وابنة السفير التركي ، والمدرِّسة الانكليزية ، حتى توفي الملك غازي ، فانتقلنا جميعنا الى «قصر الرحاب» .

ضجرت «مَلَك فيضي» من رتابة الحياة في بغداد ، فهي تختلف تماماً عنها في مصر ، اذ ليس باستطاعتها ان تصحب زوجها الى صالة سينما مثلاً . فإن خرجت كنا نحن (النسوة) معها ، ترتدي العباءة العراقية مثلنا ، وإن لم تتعود على تغطية وجهها «بالبوشية» .

لا توجد اماكن لهو او ترفيه ببلدنا وقتذاك ، فمتعتنا تنحصر في الجلوس بالشرفة لقراءة المجلات ، او الذهاب الى السينما ، او زيارتنا من قبل بعض المعارف والاصدقاء . لذا كان من الصعب على سيدة مصرية ، ان تعيش مثلنا في ضيق ، او تتكيف معنا للعيش في حياة شبيهة بالسجن . لا تستطيع ان تفعل شيئاً ، ولا تمتلك الحرية الكافية في الحركة . ولهذا حصلت المشاكل بينهما ، ما ادى الى انفصالهما فيما بعد .

في عام ١٩٤٠م قبل حركة رشيد عالي تمَّ طلاق «مَلَك فيضي» بمصيف «صلاح الدين» . لقد كانت سيدة طيبة وجيدة ، تتمنى السفر دائماً الى مصر ، بينما أخي الامير من الصنف الملول ، السريع الضجر .

«مَلَك» ما تزال حية ترزق الى اليوم ، لكنها لم تسأل عني او تتفقدني ، كما فعلت «فائزة طرابلسي» ولذا ما من علاقة بيننا ، الاّ ان صديقتي «مديحة الداغستاني» أخبرتني بأنه في آخر اتصال حصل بينهما ، شعرت من «مَلَك» بأنها تَعِبة الآن .

فائزة طرابلسي

بقي الأمير عبد الاله مُطَلِقاً من عام ١٩٤٠م الى ١٩٤٨م . وفي شهر ايلول (سبتمبر) من عام ١٩٤٨م ، اي بعد انتهاء الحرب مع اسرائيل ، وتوقيع اتفاق الهدنة مع العرب ، زار أخي مصر . وفي الفندق الفخم الذي ينزل فيه الاغنياء والباشوات بالاسكندرية ، عَرّفَت المطربة «ام كلثوم» الأمير على

«فائزة طرابلسي» التي كان لها اخت اسمها «اعتماد» متزوجة من «الازدي» أحد ضباط الجيش المصري .

ولما عاد الأمير الى العراق ، أخبرنا بعزمه على الزواج منها ، فطلب مني ومن اختي الأميرة عبدية السفر الى مصر ، للالتقاء بها والتعرف عليها ، كي نعطيه رأينا فيها . طرنا بطائرته الخاصة مع طيّاره «جسام محمد» الى مصر والتقينا بها . رأينا «فائزة» جميلة الوجه ، باسمة الثغر ، حلوة المعاني .

صارحناه برأينا فيها ، فركب طائرته وعاد الى القاهرة . أجرى مراسم العقد الشرعي في السفارة العراقية ، ثم حملها مع اختها وامها الى بغداد . أقمنا لها حفلة كبيرة ، عرّفناها فيها على النساء العراقيات .

كانت «فائزة» سعيدة ومحظوظة في زواجها ، الاّ انها ــ كغيرها ــ كثيرة التبرم والشكوى ، من عدم تمكّنها من الاختلاء بزوجها . هي تريد منه ان يكون معها دائماً ، بينما هو دائم الشغل والاهتمام بمشاكل الدولة ومسؤولياتها .

كثيراً ما رددت : «اتمنى ان اجلس واتعشى معه لليلة واحدة على انفراد» . ولكن هذا لم يحصل ، لأننا كنا كلنا دائماً ما نأكل ونشرب ونتحدث معه على طاولة واحدة! اينما يذهبان فثمة مرافقون واتباع وضيوف معهم .

جئنا كلنا مع فائزة الى لندن في سفرة لها ، وتمتعنا كثيراً ، لكنها ظلت تشعر ، بأنها ليست وحدها مع زوجها ، كما يفترض بين الازواج الآخرين . لهذا لم يستمر زواجهما طويلاً ففي عام ١٩٥٠م وقبل ان تتوفى اختي الملكة عالية بفترة وجيزة ، كانت فائزة عند اهلها في مصر ، فبعث اخي اليها ورقة الطلاق من بغداد .

لم تنقطع اتصالاتي بفائزة منذ خمسين عاماً ، وفي احد اتصالاتها

الهاتفية بي عام ١٩٦١م ، اخبرتني بان مرض السرطان قد داهم امها . كنت يومها لا اطيق زيارة مصر بسبب عبد الناصر ، ولكن بعد وفاة والدتها ، اضطررت الى شد الرحيل الى هناك لتعزيتها . بينما انا في مجلس الفاتحة ، واذا بي اسمع همس ووشوشات تقول : «الست جاءت» . قمتُ من مجلسي كي أعتذر من فائزة ، لعدم قدرتي على البقاء ورؤية ام كلثوم في بيتها . . وخرجتُ مستاءة ساخطة من تلك المصادفة المُحبطة .

لم اكد استسلم الى النوم ، حتى سمعتُ بان عُرى الوحدة بين مصر وسوريا قد انفصمت ، فقمتُ من فراشي (اهوِّس) . نظر اليَّ ولدي الشريف محمد وقال : «ما هذا يا أماه . . اراكِ ترقصين (الكان كان)»؟! قلت له : «نعم . . ليس حباً بانفصام الوحدة ، فانا عروبية وحدوية ، ولكن نكاية بعبد الناصر ، كي لا يكون زعيماً برؤوس العرب»!

ما تزال «فائزة طرابلسي» حيَّةً ترزق الى اليوم ، وهي على علاقة طيبة بـ «مزينة» ابنة أخ زوجي الشريف حسين . زارتني للمرة الثانية ببيروت في الستينات ، غير ان الزيارة التي ما برحت عالقة في ذهني ، تلك التي زارتني فيها للمرة الأولى بمصر بعد انقلاب ١٩٥٨م المشؤوم مباشرة . . وفيها تعانقنا ورحنا نبكي على ما حلَّ بنا من فجيعة .

هيام الحبيب

روى لي زوجي الشريف حسين ، بأن الأمير عبد الاله أخبره ، بأنه رأى «هيام» لأول مرة في «قصر الرحاب» يوم جاءت (مع امها) لزيارة اختي الأميرة عبدية . فظن الأمير بأن «هاجر ومديحة الداغستاني» مع الأميرة في غرفتها ، فدخل كعادته ليسلم عليهن ، ولكنه فوجئ بهيام وامها .

كانت حرم محمد الحبيب «امير ربيعة» كثيرة التردد على بيت عمتي

«صالحة» واغلب الظن عندي ، هو لتزويج ابنتها من أخي . بحيث تكفلت عمتي امر جمعهما ببيتها في أحد الأيام ، لكي يراها عن قرب . وقد اقنعته فعلاً بتزوجها . فهيام سمراء طويلة ، ذات وجه جميل وشعر طويل حلو ، عدا انفها الكبير بعض الشيء .

رأينا «هيام» اول مرة ، يوم كانت ما تزال صغيرة ، عندما دعتنا امها الى «الحسينية» ـ وهو قصر والدها أمير ربيعة في لواء الكوت ـ فلبّينا (امي واخواتي وانا) دعوتها تلك . وقد توطدت العلاقة أكثر بيننا فيما بعد .

في عام ١٩٥٥م ذهب زوجي الشريف حسين واحمد مختار بابان وآخرون الى «الحسينية» نفسها ، لخطبة «هيام» من والدها للامير عبد الاله . يقال انه (والدها) لم يكن راضياً في نفسه من زواج الأمير لابنته ، لأنه كان ينوي تزويجها من ابن عمها «قيس بن علي الحبيب» بينما هي ترفض التزوج منه . لكنه في النهاية لم يرفض طلب الأمير ، فوافق وتزوجته .

موقف الأب هذا ، تكرر في ابنته معكوساً . فقد عادت هيام بعد استشهاد زوجها الأمير في انقلاب ١٩٥٨م ، وتزوجت من قيس (على رغم رفضها السابق له) . وهما منذ ذلك التاريخ عاشا في كنف الملك حسين (رحمه الله) ومن بعده الملك عبد الله الثاني بالاردن ، ولذا فانني لم اكلمها ابداً .

مطلع العام ٢٠٠١م ، اتصل بي كبير الامناء في القصر الملكي بعمّان ، ابن عمي الامير رعد بن زيد ، بعد اكثر من اربعين عاماً من القطيعة بيني وبينها ، ونجاتها من مجزرة قصر الرحاب ، ليفاجئني بخبر وفاتها!

هيام الحبيب لم تُقتل في ١٤ تموز ١٩٥٨م ، ولكنها اصيبت في ساقها بطلق ناري ، فسقطت في احدى السواقي ، وجاء احد الجنود المهاجمين ليسحبها الى خارج القصر . ولذا فَهي المرأة الوحيدة التي بقيت حيّة ، والتي شهدت وشاهدت بأم عينيها مذبحة اهلي في «قصر الرحاب» .

الملك فيصل الثاني ذبيح تموز

عندما توفي ابن عمي الملك غازي (رحمه الله) سنة ١٩٣٩م، ترك ولده ولي العهد فيصل الثاني طفلاً في الرابعة من عمره، لدى أمه الملكة عالية. معروف كم هو تعلق الاطفال ـ ممن هم بهذه الاعمار ـ بأبويهم، لذا شعر الملك الصغير على الفور، بأن ثمة تغييراً ما طرأ على حياته، فأخذ يسأل عن ابيه، ويبكي ويتحسس ويتنحس لأبسط الاشياء وأتفهها.

بينما نحن نعتصر الالم في قلوبنا، لا ندري أحزناً على ابيه الشاب، الذي رحل عنّا قبل اوانه، ام حزناً على هذا الطفل اليتيم، الذي لا يستطيع ان يعبِّر عمّا في داخله من مشاعر الوحدة والانكسار؟ لذا حاولنا ان ندخل (بعض ما في وسعنا ان ندخله) الى حياته من وسائل اللهو واللعب، التي من شأنها ان تُضفي شيئاً من البهجة والسرور على قلوب الاطفال ووجوهم. يُقابل هذه، شدة في التربية، واعداد صارم (لاهوان فيه) للملوكية.. كلُّ ذلك تجنباً من أن تتكرر فاجعة الملك غازي في ابنه الملك فيصل الثاني، الذي تركه أمانة ثقيلة في أعناقنا.

إعداد صارم للملوكية

غير ان هذا الاسلوب الاخير (الصرامة في التربية) غالباً ما تحكمه ضوابط وضغوط، تارة تكون «خارجية» من دون ارادة منا، كما حصل لنا ايام المحنة في حركة رشيد عالي عام ١٩٤١، وما عكسته من تأثير على نفسية الملك الطفل..

واخرى «داخلية» بارادتنا ، حيث اننا كعائلة مالكة قررنا قراراً قطعياً ، بعدم السماح لفيصل الثاني ، ان يكون نسخة طبق الاصل عن ابيه غازي . لذا تكفَّل خاله (اخي الأمير عبد الاله) تربيته والاشراف عليه ، ووَضَعَهُ تحت رقابته ، بحيث لم تزغ عينه عنه لحظة .

لم يطق الامير مجرد التصوُّر ، ان يرى غازياً يتكرر في ابنه فيصل الثاني . . أسفاً على ابن عمه (غازي) الذي رحل قبل أوانه ، وخوفاً على ابن اخته (فيصل الثاني) من أن يحصل الشيء نفسه معه ، لهذا يجب أن يفهم أصحاب الانتقادات بأن الأمير اراد اعداد الملك الصغير اعداداً مستقبلياً جيداً للعراق . ولو كنا تركناه وشأنه ، بحجة انه «ملك» يفعل ما يريد ، من دون رقيب او حسيب ، لالتفّ حوله اولاد الحرام وضيّعوه ، كما ضيّعوا اباه من قبل ، وحوَّلوه الى صديق للخمرة والنساء!

بودي أن أتحدث عن أشياء كثيرة هنا ، غير ان المقارنة ستكون بين ملكين عزيزين عليَّ (أب وابن) الأول ابن عمي والثاني ابن أختي! وان أي رثاء أو نقيضه لأي منهما سيكون على حساب الآخر ، وعلى حسابنا كعائلة مالكة أيضاً . . وهذا ما لا أرتضيه .

حرصنا اشد الحرص ، على ان يكون فيصل الثاني ملكاً عراقياً حقيقياً ، وسياسياً مُحَنَّكاً (كجده الملك فيصل الاول) لعراق المستقبل . وهو كذلك فعلاً ـ كما توسمنا فيه ذلك ـ لكن المنيَّة عاجلته ، فخسره العراق والعراقيون على حد سواء . هذا الحرص وهذه المشاعر كافية ، لأن تردَّ على كل ما أُشيع من لغط واتهامات مُرجفة ، بحق أخي وحقنا كعائلة مالكة ، في تعاملنا وتربيتنا للملك اليتيم .

سمع اخي الامير عبد الاله احداهن مرةً ، تكلِّم فيصل الثاني (وهو ملك صغير) باللهجة الحجازية ، فقال : «لا تخاطبوا فيصل بلهجة غير عراقية ، لأنه عراقي ، وُلِدَ في العراق ، وهو ملك العراق» .

كان الملك فيصل الثاني (رحمه الله) ذكياً ، عاقلاً ، رزيناً ، محباً لأهله وناسه ، هادئ الطباع ، وقوراً ، خجولاً ، ليس متهوراً ولا طائشاً طيش الشباب . لم اره يوماً منفعلاً ابداً ، على عكس والده تماماً ، الذي كان عصبياً وحاد المزاج لدرجة لا تصدق .

عشق الملك فيصل الثاني شعبه ، وهامَ به العراقيون هياماً . . بعد تتويجه ملكاً على العراق قام بجولة تفقدية في الالوية الجنوبية ، فاستقبلته العشائر هناك استقبال الواعدين ، لا بل الفاتحين .

ذبحوا بين قدميه الاضاحي ، حتى تكَوَّمَت تلالاً من اللحم ، فرحاً وابتهاجاً بمقدمه . صَوَّرَ زوجي الشريف حسين تلك الاحتفالات واللقاءات ، على شريط سينمائي طوله (٣٠٠) ثلاثمائة قدم . استولى عليه الضبّاط بعد انقلابهم علينا وأتلفوه ، كي لا تطّلع الاجيال القادمة على حقيقة المشاعر المتبادلة بين الشعب ومليكه المذبوح ظلماً!

عندما توفيت والدته الملكة عالية سنة ١٩٥٠م ، تركت فيصل شاباً يافعاً ابن خمسة عشر ربيعاً ، يدرس في بريطانيا . وبالرغم من انه لم يكن في حاجة منّا الى رعاية امومة خاصة ، تعوِّضه فقدانه حنان الام ، الاّ ان اختي «الاميرة عبدية» تكفلت تربيته وسهرت على راحته ورعت شؤونه . لهذا وصفوها بـ «مربية الملك فيصل الثاني» . اما انا فوصفوني بخالته وصديقته ، وقد كنت فعلاً كذلك .

عندما كان فيصل الثاني صغيراً يناديني بـ «بَعَهْ» (يعني بديعة) . ويوم كبر ، اصبح يسرّني بكل ما ينوي فعله ، أو انجازه ، أو تقديمه للعراق من مرافق وخدمات . . كانت احلام فيصل الثاني كمهنته ، ملوكية ، مخملية ، وردية ، رائعة ، غير ان المتآمرين اختطفوها معه ، وحولوها الى كوابيس مفزعة ، أرعبت العراق وأثقلت كاهل شعبه!

هَوَس في بناء العراق

كان مهووساً باعمار العراق ، يريد ان يبنيه ويطوِّره . هل سمعتم بـ «الجسر المعلَّق» هذا الذي نسبوا تشييده الى الآخرين؟ وهل كان لهؤلاء الآخرين الذوق ، في ان يبنوا جسراً معلَّقاً بالعراق؟! ان ابن اختي فيصل الثاني هو الذي اعدَّ وتحمّس لتخطيطه ، ومن ثم امر بتشييده .

دخل عليَّ يوماً واخبرني بأن الخبراء ذكروا له ، بأن هذا الجسر سيكلف خزينة الدولة مبلغاً طائلاً (ربما ٧٥٠,٠٠٠ سبعمائة وخمسين الف دينار في ذلك الوقت ، لا اتذكر الرقم على وجه الدقة) واضاف :

«قلت لهم يجب ان يُشيِّد هذا الجسر ، لأنه جميل ومهم ، ولا اظن كلفته عالية كما تدَّعون» . وحينما أُفتتح الجسر بعد مقتله ، لم يُصرِّح احد في العراق بأنه هو الذي اصرَّ على تشييده! بل جعلوه من منجزات انقلابهم في سنتهم الأولى ، مثلما جَعلوا القصر الملكي (الذي بناه ليسكنه بعد زواجه) من انجازاتهم أيضاً . استولوا عليه ، وسكنوه بدلاً منه ومن عروسه .

حدثني عن «سدّ الثرثار» وذكر لي بأنه سينقذ بغداد وعدداً من الالوية من الغرق ، في مواسم الفيضانات ، وان طاقته الاستيعابية من المياه كذا متر مكعب في السنة ، وان فوائده جمّة ، وهو مصمم على بنائه مهما كلفه ذلك .

وبالفعل فقد حقق مشروع «سدّ الثرثار» للبلد كل ما كان يتأمله منه الملك فيصل الثاني ، غير ان كثيرين يحاولون ان ينكروا ، او يتنكروا لأدواره ، على صغر سنّه في اعمار العراق .

* * *

ولعل مجلساً واحداً من المجالس العراقية ـ وما أكثرها ـ سيبقى خالداً في تأريخ وادي الرافدين ، وشاخصاً يُشار اليه بالبنان ، اضطلع باعمار العراق

وبنائه ، انشئ في عهد فيصل الثاني ، غير انه ولسوء الطالع لم يأخذ فرصته الكافية ، ليحقق كل ما خطط واعدَّ له .

.. بالطبع إني لا اقصد مسميات «مجلس السيادة» او «مجلس قيادة الثورة» او غيرهما من المجالس المُخجلة والمُخزية بحق العراق .. اني اقصد «مجلس الاعمار»!

هوايات ليست حكراً على ملك

من هواياته الصيد ، كان يقتني بنادق صيد خاصة ، مختلفة الاشكال والاحجام ، منها ما ورثها عن ابيه وجده ، ومنها ما كان يشتريها او تهدى اليه . يخرج برفقة خاله الأمير عبد الاله والحاشية وبعض رفاقه والاقارب ، الى مناطق صيد قرب بغداد ، ويصيد الدرّاج والحبارى والطُّبَنْ . فالغزال والطيور متوفرة في العراق ، على عكس هوايته الإخرى «التزحلق على الجليد» التي كان لا يستطيع ممارستها ، الاّ حينما يكون في اوربا او الخارج .

العراق احد البلدان التي لا يسقط فيها الجليد في فصل الشتاء ، الاّ بمناطق كردستان في شماله ، التي لم تستثمر سياحياً الى اليوم ، بينما هي من اجمل المناطق على وجه الارض . كانت الدولة لتوِّها التفتت اليها ، وبدأت بالترويج لبعض المصايف فيها .

ولو تُرك العراق ينفِّذ خططه وبرامجه ، كما اعدتها حكوماته وملكه ، لكان الآن قبلةً يحجُّ اليه الناس من كافة انحاء العالم ، ليتأملوا آثاره العريقة ، وليتمتعوا بمناظره ومناطقه السياحية وطبيعته الخلابة ، ولينعموا بخيراته الوفيرة .

احدى احب هوايات الملك فيصل الثاني الى نفسه ، هي «water ski»

التزحلق في النهر على خشبتين ، خلف زورق بخاري يجره بسرعة فوق الماء . ولشدة تعلُّقه بهذه اللعبة ، اوصى احدى الشركات الاميركية المُصنِّعة للزوارق ، بعمل زورق بخاري له ، كلَّفه نحو (٨٠,٠٠٠) ثمانين الف دولار اميركي على الارجح .

وبعد استشهاده جُمِّدت تلك المبالغ لدى الشركة المتعهدة ، وزعمت امرأة اميركية بأنها زوجة الملك فيصل الثاني ، وان هذه امواله الخاصة وهي ترثها . . وقد استولت عليها فعلاً!

* * *

يقولون ان نظام صدام يمنع ـ منذ سنين ـ التنزه في مياه دجلة وسط بغداد ، لانه صادر ضفتي النهر ، واقام فيها حرسه الخاص واجهزة حمايته الامنية واقاربه ، وبنى عليهما قصوره ومنشآته ومؤسساته . بينما كان في عهدنا ، احد اجمل المناظر التي نتمتع لرؤيتها ، حينما نرى الزوارق والسفن ، تشق صفاء دجلة الخير رواحاً ومجيئاً ، والناس فيها يغنّون ويزغردون ويرقصون ، وهم خارجون ، او عائدون من نزهة ، او رحلة نهرية .

إدعاء زواج كاذب

لهذا الموضوع قصة طريفة ، تبدأ منذ كان الملك فيصل الثاني صغيراً ، في الثانية أو الثالثة عشر من عمره ، يدرس في بريطانيا عام ١٩٤٧م . ففي احدى سفراته الى سويسرا ـ خلال العطلة ـ لممارسة هوايته في التزحلق على الجليد ، تعرّف الى مجموعة من الاطفال كانوا يلعبون معه ، بينهم اميركية ابنة أقل من عشر سنوات .

ومن طبائع الاميركيين المنبوذة ، انهم اذا ما شمّوا رائحة شخص مهم ،

يلتصقون به ويحاولون التقرب اليه بأية صورة . من البديهي انني لا اقصد الطفلة التي تعرفت على الملك الصغير ، انما أعني مَنْ كان وراءها ، ممن استغل براءتها ، وراح يدفعها بأساليب خفيَّة الى تمتين العلاقة مع الملك .

وحصل فجأة ان انزلقت ساق الملك فيصل الثاني على الجليد وانكسرت ، فرقد على اثرها في مستشفى المنتجع السياحي السويسري بضعة ايام ، ظلت الطفلة تتردد عليه وتسأل عنه .

عاد فيصل الثاني الى مدرسته في لندن ، ومنها الى بغداد ، وبقيت الطفلة على اتصال به بتخطيط وتحريض من اهلها ، من خلال رسائلها التي تبعثها اليه ، من الولايات المتحدة الاميركية الى لندن وبغداد . لم يكن بوسعنا ـ كعائلة مالكة ـ ان نحرمه من رسائل «عبثية» تعكس طفولة بريئة في حياة الملك اليتيم .

قبل حفل تتويجه عام ١٩٥٣م بسنة ، زار الملك الولايات المتحدة ، فعرفت بذلك والدة الطفلة ، لذا زارته في القنصلية العراقية بنيويورك ، بحجة ان ابنتها صديقة الملك . ثم دعت الملك والامير عبد الاله وعبد الله بكر وزوجته وعراقيين آخرين ، الى مأدبة غداء في بيتها ، فلبّى الملك الدعوة وزارها ، ولعب مع ابنتها «كرة الطاولة» بحضور الجميع . فما كان من الام ، الاّ ان التقطت لهما صورا تذكارية ، ظهرا فيها يلعبان مع بعضهما ، يتقاذفان الكرة بالمضارب ، الملك الشاب ابن (١٧) السابعة عشر والابنة الشابة ذات (١٤) الأربعة عشر ربيعا .

في حفل التتويج في ٢ مايس (مايو) ١٩٥٣م قَدمَت الام الى العراق برفقة ابنتها واحدى الشركات التجارية ، لتحظى بعقود تبرمها مع الدولة . ولتحقيق هذا الهدف ، تمكنت من اقامة علاقات معينة مع كل من تحسين قدري واحمد عجيل الياور .

سألتني في احد الايام اختي الاميرة عبدية : «هل تعلمين مَنْ سيأتي اليوم الى قصر الرحاب على الشاي»؟ قلت : «لا» . قالت : «هذه المرأة الاميركية مع ابنتها»!

. . جاءت المرأة وشربت الشاي مع الملك فيصل الثاني ، بعنوان ان ابنتها تعرفه ، منذ انكسرت ساقه في المنتجع السويسري . كان لقاء مجاملة وتشريفات لا اكثر ولا اقل .

وبعد انقلاب ١٤ تموز ١٩٥٨م المشؤوم ، فوجئنا بتصريحات عجيبة لهذه السيدة في الصحف الاميركية والبريطانية ، مفادها ان الملك فيصل الثاني كان متزوجاً من ابنتها ، وان ابنتها يسمونها «ست الملكة» وزعمت ، ان من حقها ان ترث اموال الملك المغدور .

وبالرغم من هول النكبة وفداحة المأساة التي تعرضنا اليها في ١٩٥٨م ، حاولنا الرد عليها وتكذيب ادعاءاتها في الجرائد ، لكن البعض اشار علينا بان لا نهتم لهذا الموضوع ، كي لا نعطيه اكثر مما يستحق .

اخذنا بهذه النصيحة ، واذا بنا نفاجأ في احد الايام بأن فخر النساء زوجة عمي الامير زيد (والدة الأمير رعد) ادلت بشهادتها لمصلحة البنت المدَّعِيَة ، وأيَّدَت بأنها زوجة الملك فيصل الثاني فعلاً . حصل ذلك مقابل (١٥,٠٠٠) خمسة عشر الف دولار اميركي ، من مجموع (٨٠,٠٠٠) الثمانين الفاً التي حجزتها المحاكم الاميركية .

اننا ومنذ ذلك اليوم الذي ادلت فيه فخر النساء زيد الحسين بشهادتها المزيَّفة تلك ، تخاصمنا معها ولم نعد نحدثها . . لم أنوِ كشف هذا السرِّ ، ولا التحدث عنه بهذه الصراحة ، ولكني اتساءل ما قيمة هذا المبلغ التافه ، امام الاساءة الى سمعة ملك شاب أُغتيل ظلماً ، وسمعة عائلة مالكة ، حكمت العراق ردحاً من الزمن؟!

خطوبات الملك فيصل الثاني

انني وبعد نحو اربعين سنة من الصمت ، على تلك الزيجة المزعومة الكاذبة ، لا بد لي من ان اكشف حقيقة كل ما يتعلق ، بحياة الملك فيصل الثاني النسائية .

فهو لم يتزوج في حياته قط ، لا هذه الاميركية ، ولا الاميرة فاضلة التركية خطيبته (كان على وشك الدخول بها) ولا غيرهن . وهذا الذي اشيع عنه محض اختلاق واكاذيب .

لم يكن فيصل الثاني من عاشقي النساء ، ولم نلحظ عليه في بغداد ان لديه علاقات نسائية ، من اي نوع كان . لا اريد اخراجه من صنف البشر ، لأضعه في مصاف الملائكة ، كما لا أقبل للآخرين ان يقرنوه ، او يضعوه في موضع المقارنة والمفاضلة مع ابيه «غازي» ولا حتى مع جده «فيصل الاول» من هذه الناحية .

ربما كانت لفيصل الثاني علاقة ما بامرأة ما، أثناء فترة مراهقته ودراسته في بريطانيا ، فمن حق الناس ان يتساءلوا عن حياته الخاصة ، في تلك الفترة الحرجة من حياة الانسان .

أنا لا أجزم بأمر لا أعلمه ، ولكني اعرف تماماً بأن ذلك لا يمكن ان يتم ، من دون معرفة اخي عبد الاله ، لأن عينه كانت دائماً عليه ، لا تفارقه ولا تغفل عنه . وان اخي لم يبح لأحد بمثل هكذا علاقة ، لانه لم يُرِد من فيصل الثاني ـ كما ذكرت ـ ان ينغمس في اللهو والملذات والعلاقات النسائية . كان ينوي ويعمل على اعداده اعداداً متميزاً ، كملك يستحق عرش العراق حقا .

ولكي يكمل الانسان نصف دينه ـ كما يقولون ـ فاننا قررنا تزويجه منذ تُوِّج رسمياً ملكاً على العراق ، في الثاني من مايس (ايار) عام ١٩٥٣م ،

بعد ان اكمل الثامنة عشر من عمره ، وهي الفترة التي يتغير ويضطرب فيها كيان الانسان ، النفسي والجسدي ، وما يصحب ذلك من عواطف وانفعالات .

وبالرغم من ان ابن اختي من نمط يختلف عن الشباب بعض الشيء ، بحكم تربيته الصارمة ، اذ عُرِفَ بهدوئه ورزانته وأدبه الجم ، وقد كنّا نحن مطمئنين له من هذا الجانب ، فاننا شرعنا نبحث له عن «بنت الحلال» زوجة المستقبل ، وملكة العراق القادمة .

سأروي هنا كل محاولات الخطوبة للملك فيصل الثاني (محاولتين خائبتين وثالثة ناجحة) وكل ما يقال عداها غير صحيح . لقد سمعنا اشاعات بأنه كان يرغب بالزواج من فلانة (أو علاّنة) وان فلاناً اقترح عليه التزوج من ابنة فلان . . وما الى ذلك من حكايات . ارى ان سبب ترويجها ، هو انطباق مواصفات زوجة المستقبل لدى الملك على بعض البنات ، فذهبن ضحية تكهنات ، او احلام ليس إلاّ .

شاهناز الاميرة الايرانية المتحررة

لا استطيع ان اتذكر شروطاً او مواصفات معينة وضعها الملك فيصل الثاني لزوجة المستقبل ، سوى انه كان يفضِّلُ الشقراء البيضاء ، ذات العينين الزرقاوين ، او الملونتين على غيرها ، ولا اقول يشترطها . اي بمعنى ، لو ان القسمة حصلت فرضاً مع امرأة ذات مواصفات مختلفة ، لا اظنه كان سيمانع من التزوج منها . ولهذا حصلت محاولات خطبة من نساء اخريات لا يتمتعن بالمواصفات المطلوبة ، ولم توفق .

كما انه ولكثرة ما تقدَّم اليه الناس ببنات ، احتار في اختيار اية واحدة

منهن . واعني بهذا التقديم ، مقدِّمات الخطبة ، أي المحاولات غير الرسمية ، التي تسبق الخطبة الاصولية المعروفة .

وحصل ان فاتَحَ «السيد محمد الصدر» زوجي الشريف حسين ، بان يقترح على الملك التزوج من (ابنة رضا خان ، اخت شاه ايران الراحل محمد رضا پهلوي) الاميرة شاهناز . ففاتحه ، وابدى الملك قبوله الاولي بالفكرة ، فسافرنا (الملك والوصي وانا وزوجي وتحسين قدري وبقية المرافقين) الى مدينة «كان» الفرنسية عام ١٩٥٥م .

جاءت امبراطورة ايران ثريا اصفنديارى بختياري (ثريا پهلوي) ونزلت في فندق فخم بنفس المدينة ، اما الاميرة «شمس» اخت الامبراطور محمد رضا پهلوي وعمة «شاهناز» فقد نزلت بمدينة «نيس» .

دعتنا «ثريا» الى مأدبة عشاء ، فلبينا الدعوة . دخلنا صالوناً كبيراً في الفندق ، واستقبلتنا الامبراطورة في حفل «كوكيتل» اول الأمر . بعد السلام وتبادل التحايا ، جلسنا في صفين متقابلين ، واذا بأخي الامير عبد الاله يلتفت عليَّ ، ويكلِّمُني بالتركية قائلاً : «انظري اليها . . انها تشرب»!

. . رمقتُ «شاهناز» بنظرة خاطفة ، واذا بالكأس بين راحتيها ، ترتشف منه جرعات الخمرة بتلذذ ، فقلت في نفسي : «ما هذا؟ نحن عائلة اشراف محافظة ، ونساؤنا لا تشرب الخمرة ، محجَّبات حتى في بيوتنا ، فكيف سنعيش مع اميرة تشرب»؟!

كان يفترض بالاميرة الايرانية الاّ تتجرع الخمرة في حضورنا ، ومن اول لقاء لنا بها ، وهي لا تدري ما اذا كنا نشرب ام لا؟ كان يفترض بها ان تراعي مشاعر الآخرين ، سيَّما الملك الجالس امامها ، القادم للتعرف عليها وخطبتها . ولكنَّ الافتراض شيء والواقع شيء اخر ، فالاميرة شاهناز متمدنة ، او بتعبير ادق متحررة من اية قيود او اعتبارات ، وهذا ما لا يلائمنا بالطبع .

انتقلنا الى مائدة الطعام ، وجلست الامبراطورة ثريا والأميرتان (شمس وشاهناز) وحاشية البلاط الشاهنشاهي امامنا ، ورحنا نلوك الطعام مغموساً بأحاديث الخطيبة المزمعة ، التي لم نستطع مضغها وابتلاعها ، فضلاً عن هضمها .

رحنا نستمع الى مغامراتها ، وكيف انها كانت تهرب ليلاً مع صديقاتها من «مدرسة» تحظر عليهن الخروج في تلك الاوقات!

بلا شك كانت احاديثها غريبة علينا ، تسمّرتُ في مقعدي وانا استمع اليها ترويها بكل فخر واعتزاز . لهذا ولَّدَت عندي قناعة ، بأنه ليس من المعقول ان نخطب لمليكنا فتاة ، تتحدث معنا بهذه اللهجة من اول لقاء .

. . صحيح ان اللغة التي جمعت بيننا هي «الانگليزية» ولكنها ـ كما يبدو ـ لم تستطع ان تقارب بيننا ، فالمجتمعون عراقيون وايرانيون في مدينة فرنسية ، يتفاهمون بالانكليزية ، وهي لغة غريبة على الجميع ، تماماً كالتركية التي نتهامس بها انا واخي عبد الاله ، بين فينة وأخرى .

خرجنا من ذاك اللقاء ، الذي تمَّ بحُجَّة التعارف بين العائلتين المالكتين (العراقية والايرانية) وليس بحجة الخطبة ، وَعُدْنا الى بغداد ، ولم ننبس ببنت شفة . غير ان زوجة سفير العراق بايران «بهاء الدين نوري» ظلت تحاول انجاح مساعيها ، لاتمام الخطبة من «شاهناز» وترغِّبني في لقاء الاميرة الايرانية مرة اخرى ، بذريعة ان شكلها قد تغيَّر جذرياً . فلشاهناز انف كبير ، وهي من عائلة اشتهرت بانوفها الكبيرة!

في احد الايام عادت حَرَم السفير العراقي من طهران الى بغداد ، واخبرتني بأن «شاهناز» اصبحت جميلة ، لأنها اجرت عملية تجميل ناجحة لأنفها البارز ، مما غيَّر من شكلها ومنظرها .

فقلت لها انني لا استطيع التدخل في مثل هذه الامور ، لأنها تخص الملك وحده ، وهو الذي يقرر بمن يتزوج ، واذا ما قرر الاقتران بها ، فنحن لا نمانع .

كنت ادرك ان الملك صرف النظر عنها كلياً ، ولكنه كما يبدو كانت هناك اطراف عدة ، تنطلق من مصالح مختلفة ، تسعى الى عقد الزواج بين الاسرتين المالكتين . فأسرة الشاه رغبت في مصاهرتنا ، خاصة بعد موقفنا من الشاهنشاه محمد رضا پهلوي ، خلال ثورة مُصدّق عليه في ايران ومجيئه الى العراق . وحَرَم السفير العراقي فهي إذا نجحت مساعيها في هذا الشأن ، فانها كانت ستنال الحظوة لدى الاسرتين .

اما السيد محمد الصدر ، فكان ينوي ربطنا بمصاهرة عائلية ، لحسابات سياسية خالصة ، من شأنها ان تخفف (إن لم اقل) تمنع اية مشاكل سياسية مستقبلية بين البلدين الجارين .

فقد كانت هناك بعض خلافات وتدخلاتٍ سياسية في الشؤون الداخلية بين العراق وايران ، ربما سببت او ستسبب عداوات دائمة بينهما ، فأراد الصدر الحد منها او انهاءها ، ولكن «القِسمة» لم تحصل ، ولو حصلت لربما تغيرت امور كثيرة في البلدين .

عائشة الاميرة المغربية السمراء

في هذه الاثناء تمنّى علينا رئيس تحرير صحيفة «الحياة» (البيروتية سابقاً) المرحوم «كامل مروّة» ان نزوِّج الملك فيصل الثاني ، من احدى ابنتي ملك المغرب محمد الخامس (أُختَي الملك الحسن الثاني) رحمهما الله .

كانت تربطنا بمروّة علاقة وطيدة وطيبة ، وهو (رحمه الله) من الموالين لـ «بني هاشم» ولاءً مطلقاً ، ولهذا اراد ان يجمع بين ملوكهم ويربطهم بوشائج محكمة ، ذلك من شدة اخلاصه لنا . ولعل هذا ما دفع جمال عبد الناصر

الى اغتياله ، لتصبح جريمة اسكات صاحب الكلمة الحرة والنزيهة والجريئة ، لعنة على كل الطواغيت والقتلة فيما بعد .

زار «كامل مروَّة» العراق ، والتقى بأخي عبد الاله وحاول اقناعه برأيه ، فوافق الامير على ان نَراهُنَّ اول الامر ، وكلفني شخصياً بهذه المهمة . غير ان زيارة مروَّة ، صادفت في وقت عصيب كنا نمرُّ فيه ، حيث حلَّت بنا فاجعة جديدة ، اذ اقدمت اختي الاميرة جليلة على الانتحار (كما مرّ ذكره) .

لم يكن الظرف مناسباً ابداً ، للحديث عن زواج وفرح وسرور ، غير انه كان لا بد من سعينا لإتمام زواج الملك ، فهو قد بلغ العشرين من عمره ، يمارس مهامه الدستورية بشكل كامل منذ سنتين ، وليس من المعقول ان يبقى اعزباً . لذا سافرتُ سراً الى باريس مروراً بلندن ، ولم يعرف احد بتلك السفرة (التي استغرقت ثلاثة ايام) تذرعتُ بأنني كنت مريضة خلالها ، امكث في بيتي .

دخلتُ بيت الملك محمد الخامس في باريس ، وسلَّمتُ عليه وعلى ولي عهده الحسن الثاني ، وبعد قليل جاءت ابنتاه «عائشة» الكبيرة ، واظنها كانت اكبر من الملك فيصل الثاني ايضاً ، و«زهوة» اصغر منها ، وجلسنا نتجاذب اطراف الحديث . لاحظتُ «عائشة» تتكلم باسلوب مترفع متعالٍ ، ولم اتأكد ما اذا كانت هذه من عادتها ، او انها اصطنعت ذلك الاسلوب . وشعرتُ بأنها فقدتْ السيطرة على اعصابها ، في التصرف امامنا ، بينما كانت «زهوة» اهدأ منها وأجمل وأصغر .

لم أُطل المكوث عندهم ، لأني كنت في عجلة من امري ، وعليَّ ان اعود الى بغداد في اليوم التالي . حينما عدت ، طلب مني اخي عبد الاله ان أصف الاميرتين للملك ، فوصفتهما له ، وصارحته بأنهن لم يستملن قلبي ، خاصة الكبيرة منهما . ولكني ذكرتُ له ان الأمر متروك اليه ، واقترحتُ عليه ان يَراهُنَّ بنفسه ، فذلك افضل واجدى .

في صيف عام ١٩٥٦م رأى الملك فيصل الثاني «عائشة محمد الخامس» في مدينة «كان» الفرنسية ، ولم تحصل القسمة . احسب ان السبب الرئيس وراء ذلك ، هو ان أختَي الملك الحسن الثاني كانتا سمراوين مثله ، وفيصل الثاني يُفضّل البيضاء الشقراء على السمراء .

. . تخيلوا ماذا كان سيحصل لو ان ملك العراق تزوج «عائشة» مثلاً؟ هل سيقبل العراقيون؟ من المحتمل انهم سيقبلون بـ «زهوة» ملكةً عليهم! ولكن لم يحصل النصيب ، لا مع عائشة ولا حتى مع زهوة .

فاضلة الاميرة التركية الشقراء

بعد هاتين المحاولتين الخافقتين ، تمّت محاولة موفقة ثالثة ، حيث تعرفنا على اميرة تركية ابنة احدى اميرات آل عثمان ، وهي الاميرة فاضلة (ابنة الاميرة خانزادة ابنة الامير عمر الفاروق بن السلطان العثماني عبد المجيد) . اما والدها فهو الامير محمد علي بن محمد وحيد الدين .

عرّفَنا على الاميرة «فاضلة» احد امراء الاتراك ، جاء بيخته من «اسطنبول» التركية الى «كان» الفرنسية ، واقام حفلة راقية على ظهر يخته الراسي على الريڤيرا الفرنسية ، فدعانا اليها ، ولبينا الدعوة مع الملك فيصل الثاني . ما ان وقعت عينا الملك على عينيها الملوّنتين حتى أُعجب بها ، ودخلت مزاجه ، لأنها كانت طبقاً للمواصفات التي يبحث عنها ، بيضاء شقراء ذات عينين خضراوين .

انتهت الحفلة وسافرنا الى «باريس» . هناك دعتنا (والدة الأميرة فاضلة) الأميرة «خانزادة» الى مأدبة غداء ، اقامتها على شرف الملك في بيتها ، ولبّينا الدعوة ايضاً ، ولكن هذه المرة بنية «الخطبة» . تحدثنا في الموضوع ، وحصلت موافقات مبدأية من الطرفين (على ان يتم استكمال الحديث بشأنها لاحقاً) ثم عدنا الى بغداد .

بعد عام على لقاء اليخت الاميري ، سافر الملك فيصل الثاني في ١٩٥٧م الى «اسطنبول» والتقى بالاميرة «فاضلة» عن قرب ، وقضّيا اوقاتاً ممتعة معاً ، يتزحلقان فيها على مياه بحر مرمرة .

وفي «اسطنبول» اعلن الملك خطبته منها ، وألبسها خاتم الخطوبة ، ثم سافرا معاً الى فرنسا . كانت اللغة التي تتفاهم بها معنا الاميرة الخطيبة ، هي اللغة التركية ، اما مع الملك فباللغة الانكليزية ، ولكننا حاولنا تدريبها على التحدث بالعربية .

وفي العام ١٩٥٧م نفسه زارت الاميرة «فاضلة» بغداد مرتين . كانت الاولى مع امها وابيها ، واقمنا لها حفلة نساء خاصة ، لتتعرف على العراقيات وعاداتهن وتقاليدهن . بينما كانت الثانية مع جدتها ، في شهر مايس ، بمناسبة عيد الجلوس على العرش .

* * *

سكنت فاضلة خلال زيارتيها في قصر الزهور ، لأنه لا يجوز لنا ان نُسكنها مع الملك في قصر الرحاب ، وهي ما تزال خطيبته ، لذا قالت لها والدتي (جَدَّةُ الملك) ستسكنين ان شاء الله مع الملك في العام القادم .

. . لم تكن امي ولا فاضلة ، تعلمان ماذا سيحدث لنا في العام القادم!

قررنا السفر الى لندن صباح الرابع عشر من شهر تموز عام ١٩٥٨م ، لغرض التجهيز لحفلة العرس ، لكنَّ عسكر العراق ارتأوا ان يحتفلوا على طريقتهم الخاصة ، فوأدوا حُلم الملك الشاب مع اهلي ، في مجزرة ذلك الصباح الدامي . . والى الابد!

ابناء مزعومون للملوك

ليت الاشاعات انتهت بنهاية اهلي ، لِيَدَعوهم يرقدون في قبورهم بسلام آمنين . فبين فترة واخرى يطلع علينا دعي ، يزعم مرة انه ابن عمي الملك فيصل الاول ، واخرى انه ابن (ابن اختي) الملك فيصل الثاني ، ولا ادري إن كان في الطريق مَنْ سيزعم بأنه ابن (ابن عمي) الملك غازي ، وإن كنت لحد الآن لم اسمع بدعي يدّعي ، انه ابن احدى اميرات العائلة المالكة في العراق!

ولا غرابة من «الادعياء» انما الغريب في مَنْ يصدِّقهم ويقدِّم لهم اموالاً ، بحُجَّة انهم ابناء ملوك ، أو حتى مَنْ يستغلهم للتشهير بسمعة العائلة العراقية المالكة!

فوجئنا في احد الايام باتصال هاتفي من كردستان العراق ، تحدَّث معي شخص ، زعم انه ابن الملك فيصل الثاني من «فاضلة» فأهنته ، وقلتُ له : «الا تستحي على نفسك؟ لماذا لا تترك الموتىٰ يرتاحون في قبورهم»؟ تناول زوجي الشريف حسين السماعة من يدي ونهره ، ثم اغلقها بوجهه ، ومن يومها لم يعد الى مهاتفتنا ثانية .

بعد فترة زار الدكتور «كمال السامرائي» لندن واخبرني بأن «صدام حسين» ارسل له هذا الدعي ، ليتأكد منه ما اذا كان فعلاً ابناً لفيصل الثاني! فقال له السامرائي : «هل تعترف انك ابن حرام؟ ان الملك فيصل الثاني لم يدخل بفاضلة ، فمن اين اتيت انت ياشريف»؟!

بديهي لم يعرف هذا الدعي كيف يجيب على سؤال طبيب . لا بل تبين انه لا يدري بأن «فاضلة» ما تزال على قيد الحياة ، ولا يملك أية معلومات عنها . بينما هي تعيش الآن في اوربا ، تزوجت (بعد مقتل الملك فيصل الثاني) تركياً ومات ، فتزوجت يونانياً بعمر ابيها . وعلى اثر ذلك انقطعت

اتصالاتنا بها ، لكننا ارسلنا اليها خبر هذا «الدعي» عن طريق زوج خالتها (نسلي شاه) الامير عبد المنعم بن الخديوي عباس حلمي .

ذكرنا لها بأن ما سمعناه ، ليس فقط يلطِّخ سمعتنا كعائلة مالكة ، انما يُسيءُ الى سمعتها ايضاً . فلذا يترتب عليها ان تعلن موقفها صراحة ، ان كانت حملت فعلاً من الملك فيصل الثاني . استشاطت فاضلة غضباً لتلك الفرية ، واصدرت بياناً وقَّعتْهُ عائلتاها (العثمانية والمصرية) ونُشِر في بعض الصحف ، يبين كذب ادعاء ابن الحرام هذا .

. . لا انسى حينما رأيت صورة الدعي البائسة تلك ، بحثت عن شخص يشبهه في هذا الكون الرحيب ، فلم اجد سوى صدام نفسه ، الذي تبنّى قضيته وأرسله الى السامرائي ، كي يتحقق من نسبه الجديد!

* * *

قبل سنوات خرج علينا «دعي» آخر ، زعم انه ابن عمي الملك فيصل الاول! قطعاً ليس لي اي ابن عم آخر من فيصل الاول ، سوى واحد ، هو الملك غازي ، مات قبل اكثر من ستين عاماً!

ولا عجب ، انما العجب هو سكوت هذا الدعي كل تلك العقود الستة ، وعدم مطالبته بالملوكية ، أو بالوصاية على عرش العراق! فأي صبر وطول اناة يملكهما هذا المخلوق ، ومن اي طينة خُلِقَ؟

غريب ان يرتضي انسان (في سبعينات عمره) لنفسه ان يكون «ابن حرام»! ولكن الاغرب منه ، هو مَنْ يصدقه في دعواه ، ويقدِّم له الاموال بدعوى انه ابن الملك فيصل الاول!

سمعتُ انه يعيش في الشام ، وقد ذهب الى اشخاص وشركات وبنوك ،

ليستقرض منها اموالاً ، واحتال على كثيرين ، حتى أُعلِم يوماً ولدي الشريف محمد (كان يعمل حينها في احد البنوك الكويتية) بموضوعه ، فانكر معرفته بهكذا شخص ، او حتى سماعه به من قبل .

ولكثرة ما استخدم هذا «الدعي» من وسائل اعلامية للترويج لنسبه الجديد ، وخشية من ان تصدق الناس مزاعم هؤلاء الادعياء ، اضطر القصر الملكي بعمّان ، الى نفي وجود اي ابن لفيصل الاول ، عدا غازي .

* * *

ان شيئاً واحداً يستوقفني في هذه المزاعم ، وهو انني اتخيَّلُ مقدار الحقد الذي حمله الانقلابيون في صدورهم ، يوم هجموا على أهلي في قصر الرحاب ، ولكني لا استطيع ان استوعب او أُخمِّنَ حجم البُغض ، الذي اكنّوه لهم بعد مقتلهم ، وإلاّ لماذا يحاولون مستميتين زعزعتهم والاساءة اليهم ، وهم يرقدون في قبورهم منذ سنين؟!

ميراث الملوك

انتهى ميراث آبائي واجدادي ملوك العرب الي ، عن طريق جدتي عبدية . فعندما توفيت سنة ١٨٨٧م ، وهي في السابعة والعشرين من عمرها ، تنازل جدي (ملك العرب) الشريف الحسين بن علي عن حقه في الميراث منها ، ووزِّعَت حصته على اولاده الملوك الثلاثة منها (علي ، عبد الله ، فيصل) .

كانت اموالاً لا بأس بها ، لم تصادرها حكومة المملكة العربية السعودية ، انما صادرت اموال جدي ، ووضعت يدها على اموال والدي الملك علي الخاصة ، واعتبروها اموال الدولة . وبعد وفاة ابي بدأت اموال جدتي (من الميراث) تصل الينا مباشرة .

ما تزال عائدات زوجي الشريف حسين تأتينا من مكة المكرمة والمدينة المنورة ، وبالرغم من ان اموالي الخاصة هي الاخرى ما تزال تأتيني من هناك ، الاّ ان زوجي لا يتدخل بشأنها ، وقد ظل الى آخر حياته يكرمني بما عنده .

غير ان عائلة زوجي الشريف حسين اغنى منا بكثير ، لأن جدهم الشريف عبد الله كان اميراً على مكة المكرمة ايضاً ، كانت عنده أموال طائلة ، تقاسمها ورثته بعد وفاته فيما بينهم ، فأصاب زوجي قسماً لا بأس به منها . وكذلك اموال امي الملكة نفيسة ، كانت اكبر بكثير من غيرها ، ورثتها عن ابيها عبد الاله باشا . تمثلت في اراضٍ زراعية شاسعة بمصر ، ولهذا لم تحتج يوماً ، الى ان تمد يدها الى ابي .

بيد ان عبد الناصر صادر اموالهما واملاكهما (امي وزوجي) معاً ، ولم نعد نملك شيئاً منها اليوم .

كم تمنيت ان يرثني . .

لم اتصور ، او اتمنى ، أو حتى خطر في بالي ـ ولو للحظة ـ بأنني سأرث اخي الامير عبد الاله ، ولا يعلم الناس كم آذاني وأفزعني الحديث عنه في هذا الخصوص . ولولا الالحاح في السؤال المشفوع بارادة الله ، التي شاءت ان يلبي نداء ربه قبلي ، لما تحدثت عن هذا الموضوع ابداً .

كان للملك فيصل الثاني والامير عبد الاله قصر في «ستانويل» ببريطانيا ، يملكانه شراكة (مناصفة) . بعد انقلاب ١٩٥٨م المشؤوم ، اراد الانقلابيون بإسم حكومتهم الجديدة الاستيلاء عليه ، غير ان الطبيب «ديكسن فيرث» طمأننا بقوله ، ان هذا البلد حر ، وسيادة القانون فيه فوق سيادة الجميع . يصون حقوق الناس ، وليس باستطاعة ايٍّ كان ان يستولي على املاك الآخرين .

بيع قصر ستانويل بحوالي (٢٥,٠٠٠) خمسة وعشرين الف جنيهاً استرلينيا ، وكان ثمناً بخساً في الستينات . ثم اجروا التصفية على الفرش والاثاث ، بالاضافة الى ثمن اضافي للارض والمرافق الاخرى .

على اية حال ، توزَّع الميراث بيني وبين ورثة (ابنة عمي الملك فيصل الاول) الاميرة راجحة المتوفاة عام ١٩٥٩م ، لأنها عمة الملك فيصل الثاني ، وأيضاً الامير رعد ابن عمي الامير زيد ، وكذلك هيام الحبيب زوجة اخي الامير عبد الاله . كان نصيبي من مجموع الميراث نحو (١٥,٠٠٠) خمسة عشر الف جنيه استرليني .

اقترح اخي (رحمه الله) مرة ، ان نستثمر بعض ما عندنا في شركة النسيج العراقية ، وقد فعلنا ، فقيل بأننا جنينا ملايين منها ، واشيع لغط كثير حولها . وانا اليوم حينما اختلي مع نفسي ، اسخر من تلك الدعايات ومطلقيها ، لأنني لا اتذكر بأنها درَّت علينا ارباحا كتلك التي زعموها .

لقد كان اخي الامير عبد الاله متعففاً ، نزيهاً ، لا يمد يده الى اموال الغير . هذه الحقيقة اعترف بها اعداؤه قبل اصدقائه ، وباستطاعة مَنْ يريد الوقوف عليها ، أن يعود الى محاضر جلسات مجلس النوّاب ، ليرى بأُمٍّ عينيه كيف نادى بعضهم ، بتضييق الخناق على الامير ، من خلال المطالبة بقطع الرواتب والمخصصات عنه ، وعن العائلة العراقية المالكة!

كان باستطاعته ان يستولي على اموال طائلة ، لكنه لم يفعل . قضّى حياته مديناً الى الدولة ، حتى وصل الدَيْن الذي ترتب بذمته قبل استشهاده ، قرابة (٤٠,٠٠٠) الاربعين الف دينار عراقي ، لم يوَّفِ الى يوم مصرعه ، الاّ النزر القليل منها!

يحكمون بلا مقابل

ربما يتصور بعض الناس ، بأن العراق اضاف الى اموالنا شيئاً ، وهذا تصور ليس واهماً فقط ، انما يحتوي على الكثير من التجني والافتراء بحقنا . لا أدري كيف سيكون ردُّ فعل هؤلاء المُتصَوِّرين ، فيما لو عرفوا بأن ملكة العراق نفسها (الملكة عالية) لم يكن لها راتب من الدولة . لقد ظلت ما يربو على (١٦) ستة عشر عاماً تشارك في حكم العراق مجاناً من دون مقابل ، مرة الى جانب زوجها الملك غازي ، واخرى الى جانب اخيها الوصي على عرش العراق ، الأمير عبد الاله .

لا بل حتى ابنها فيصل الثاني ، لم يكن له اثناء ولايته للعهد (في حياة ابيه) اي راتب او مخصصات ، بخلاف كل دول العالم الملكية ، التي تخصص رواتب ومخصصات لأولياء عهود ملوكها ، وإن كانوا صغارا .

الانكى من هذا وذاك ، ان الرواتب عينها كانت محدودة ومقتّرة . فحينما

اعتلى فيصل الثاني عرش العراق ، خصصت له الحكومة راتباً ، يعيش منه ويصرف من جيبه الخاص ، على خدم القصر الملكي والسفرجية الذين فيه .

بودي ان اتساءل اليوم : فلصدام اكثر من اربعين قصراً حتى الان ، في اجمل مناطق بغداد والمدن القريبة منها ، على شاطئي دجلة والفرات ، مليئة بالحرس واجهزة الحماية والخدم والسفرجية ، كلها تطبخ يومياً وترمي الزاد في المزابل ، اغاضة للشعب العراقي .

فمن اين يصرف عليها؟ أمِن بيت ابيه او امه او مَنْ ينتسب اليهم ، وقد قضوا اعمارهم يتحسرون على لقمة خبز هنيئة حلال؟ ام من اموال هذا الشعب المقهور؟! ولماذا لا يفتح نوّاب اليوم أفواههم بوجهه؟ ألهذا الحد اخرسهم الظلم والجبروت والطغيان؟!

لقد بلغت الصلافة والوقاحة بهذا الطاغوت حداً ، لا يمكن السكوت عليه ، يسمي هذه القصور الاربعين بـ «قصور الشعب» ومَنْ يمرُّ من امامها مستطرقاً (ان كان هناك مجال للمرور من امامها فعلاً) يُردى قتيلاً ، قبل ان يرتدَّ اليه طرفه .

بينما كانت قصور اهلي الملوك مفتوحة المصاريع امام الناس ، يعبث بحدائقها اطفال الحي وصبيانه ، يدخلها الجائع والمحتاج ، يطرق ابوابها البائع والمستعطي . وعلى رغم هذا كله لم يسمِّها احد بقصور الشعب ، كانت وما تزال وستبقى تسمى «القصور الملكية» وهي ليست قصوراً بالمعنى الحقيقي لها!

* * *

تحدَّثوا عن قصة تهريب العائلة العراقية المالكة ، مجوهراتها ونفائسها الى الخارج بيد طيّار انگليزي ، سقطت طائرته في مياه الخليج وغرق الكنز!

ولم تكن الحقيقة كذلك ، انما كل ما حصل هو ان اخي الامير عبد الاله ، كان في زيارة له الى «عمّان» فطلب ان نبعث له اوسمته ونياشينه العسكرية والمدنية في حقيبة . ربما ليرتديها في استعراض او مناسبة ، لا اتذكر ، واذا بالحقيبة والطائرة تهويان فوق مياه الخليج!

فأيَّةُ نفائس وأيَّة مجوهرات هذه التي تحدَّثوا عنها؟! ولماذا نهرِّبها الى الخارج؟ لا بل لماذا نُخرجها من بلدنا بأيدي اجانب ، وليس بأيدينا نحن؟ أوَ لم نكن نحن واخي الامير عبد الاله دائمي السفر ، وما من احد يفتِّشُنا ، او يسألنا عمّا نحمل او ننقل معنا؟!

كم من الافتراءات والتُهَم ، يتعيَّنُ عليَّ ردُّها في هذا الكتاب؟ وكم منها سيُطلق بعد صدوره ، بحيث لا اظن سيمتدُّ بي العمر الى ان أُوفَّق الى ردِّها من جديد؟!

يسمونه ميراثا!

حينما خرجنا من العراق بعد انقلاب ١٩٥٨م المشؤوم ، لم نحمل معنا الاّ القليل من اموالنا ، بهيئة صكوك بسيطة مثلاً ، بينما تركنا طلبات لنا معلَّقة في اعناق البعض . وهكذا بقيت عائدات مزرعة «النعمانية» هناك ، من دون ان يسأل عنّا احد ، او يوصل الينا درهماً واحداً من طلباتنا!

ومن الطريف والمؤلم معاً ان ارض «النعمانية» الزراعية هذه ، كانت تدرُّ علينا عائداً مالياً معيناً ، ولكنها في بعض الاحيان تتعرض الى الغرق والخسران ، خاصة حينما يفيض نهر دجلة في موسم الربيع ، او عندما يتعرض العراق الى مواسم هجرة الجراد والحشرات المتلفة للمحاصيل الزراعية ، او في مواسم القحط . . او ما الى ذلك .

ويوم شرعنا في بناء السدود والقنوات، والتخطيط لمواجهة الكوارث والازمات التي تنكب العراق، وقع الانقلاب وجاء غيرنا ليحصد ما زرعنا.

فصودرت مزرعة «النعمانية» وغيرها، ولم يبقَ لنا الاّ ما يأتينا (انا وابن عمي الامير رعد بن زيد) من ارض او بيت يباع لنا في الحجاز! وعلى رغم هذا، ما يزال البعض يتحدث عن ميراث ملوك العراق، ويتساءلون اين حلَّ به الدهر، والى مَنْ آلَ وانتهى!

أنا بدوري اتساءل: لماذا يسمونه ميراثا؟ وهل ابقى لنا القتلة من ميراث؟! حتى القلادة التي ترتديها اختي الملكة عالية (في صورة مشهورة لها) سرقها «الضباط الاحرار»!

لقد نبشوا «قصر الرحاب» نبشاً، ورفعوا البلاطة من أرضيته، وحفروا حوله، بذريعة اننا اخفينا الذهب والجواهر والماس تحته. لو كان الذي فعل كل ذلك جنوداً، لقلنا ربما كان من حقهم ان يفعلوا ما فعلوا، لأنهم فقراء وبسطاء.. لكنهم كانوا ضباطاً واحراراً ـ كما يزعمون ـ فهل هذه الدناءة من شيم الضباط والاحرار؟!

مرافقو العهد الملكي

على مدى (٣٧) سبعٍ وثلاثين سنة من عمر العهد الملكي في العراق (١٩٢١م ـ ١٩٥٨م) مرَّ العديد من المرافقين على ملوكه والأمير عبد الاله ، سيّما على أخي الذي قاسمهم بنحو نصف الفترة من الحكم ، كوصي وأمير وولي للعهد (١٩٣٩م ـ ١٩٥٨م) .

لا أستطيع ان اتذكرهم واحداً واحدا ، أو أن أروي قصصاً كثيرة عنهم ، فمنهم مَنْ رافقهم لفترة وجيزة ، ومنهم مَنْ رَحَل ، ومنهم ما يزال على قيد الحياة . ولعل أطولهم رفقة وعمراً ـ اذ ما يزال حيّاً الى اليوم ـ المرافق الأقدم لعمي الملك فيصل الأول ، ولمن بعده من الملوك ـ منذ مطلع الثلاثينات ـ عبيد عبد الله المُضايفي!

أذكر من هؤلاء المرافقين «علي الصانع» مثلاً ، كان مؤدباً ولطيفاً وطيباً معنا . «جواد گناوي» ظلَّ مخلصاً ومحترماً ورائعاً على تواصل معنا ، زارنا في بيروت في الستينات ، ويوم علم بوفاة زوجي الشريف حسين في تموز ١٩٩٨م ، بعث لي رسالة تعزية من العراق .

«طه ياسين» ذهب بعد انقلاب ١٩٥٨م الى ايران ، لاقى عذاباً شديداً هناك ، فطلب وساطة الشريف حسين ، فاستجاب له وتوسّط عند الملك حسين . وخلال زيارة الأخير لشاه ايران ، طلب منه ان يأخذ «ياسين» معه الى «عمّان» فوافق الشاه . عاش طه ياسين بقية عمره في الأردن ، ومات في لندن إثر مرض عضال .

«أمين سعيد» الذي لا ننسى بأنه هو الذي أيقظ الأمير عبد الاله ليلة حركة مايس عام ١٩٤١م من نومه ، وأخبره بوجود تحركات عسكرية غير

طبيعية في بغداد ، وبناءً على هذا الإخبار غادر أخي قصره الى منزل عمتي الأميرة صالحة بنت الحسين .

من مرافقي الامير عبد الاله «حسن جواد» من اهالي البصرة ، وعبد القادر ، كانا مخلصَيْن محبَيْن محترمَيْن ، يودهما اخي وداً كثيراً ويحترمهما احتراماً كبيراً .

مازلت اتذكر اثنين آخرين ، ربما لا يُحسَبان على المرافقين ، نسيتُ اسمَيْ والديهما . احدهما «ماجد» يُلقب بـ «جمبو» طويل فارع ، قوي البنية ، مفتول العضلات . والآخر «سليم» ضعيف وقصير وناعم . كانا يرافقان الملك فيصل الثاني ، خاصة في سفراتنا الى مصايف العراق . يلعبان معه العاباً رياضية ويسابقانه ، وهو يحبهما ويتفقدهما .

* * *

لقاؤنا كنساء (في العائلة العراقية المالكة) بالمرافقين ، غالباً ما كان يتم أثناء تناولنا طعام الغداء على مائدة واحدة ، حيث يأتي المرافق الخافر الى البلاط بصحبة الملك ليتغدى ، ثم يغادر القصر . أو خلال خروجنا للتنزُّه في الحديقة الخلفية ، حيث نتحاشى التواجد في الحديقة الأمامية ، كي لا يتحتم علينا ارتداء العباءات ، تجنباً من مشاهدة الداخلين والخارجين من والى القصر إيّانا .

كنا نعتبر المرافقين كاخوتنا ، كأهلنا ، كأنهم جزءٌ من افراد عائلتنا ، وهم أغلبهم كذلك فعلاً ، طيبون ، مخلصون . قاسمناهم الزاد والملح ، وأشركناهم في أفراحنا وأحزاننا ، واطمأننا اليهم ، واحترمناهم ، واطلعناهم على كل جزئيات حياتنا . لم يخفَ أو نُخفِ عليهم شيئاً ، لهذا يحزُّ في نفسي ويؤلمني أن أذكر بعضاً من هؤلاء وقد خاننا في الاخير .

كيف طاوعتهم نفوسهم على خيانتنا؟! كيف قَبِلَتْ لهم ضمائرهم

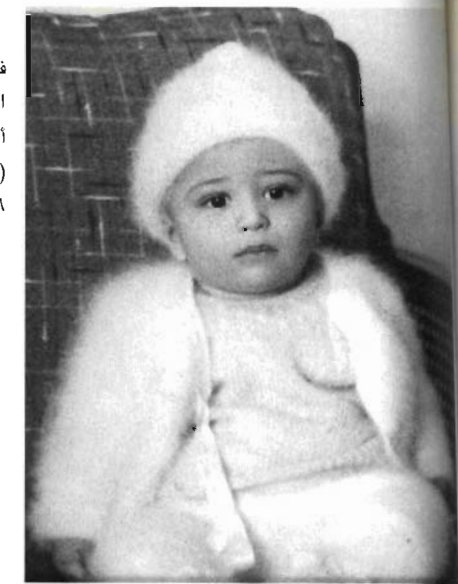
وشرفهم بالتآمر علينا؟! ما هو المقابل الذي عرضه عليهم رفاقهم العسكريون وطمعوا فيه ، أكثر مما كانوا يتمتعون به في ظل حكم أهلي؟!

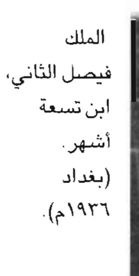
لقد سمعت قصصاً ونهايات لبعض المرافقين الذين خانونا لاتنضب ، كنوري مرافق الملك فيصل الثاني ، الذي عَيَّنَهُ عبد الكريم قاسم سفيراً له في احدى الدول! أو جسّام محمد طيّار الملك الذي كان على علم بالانقلاب ، أو آخرين ، لا أودُّ سردها ، لكن بودي أن أذكر هنا قصة اثنين منهم ، لأنَّ فيها عبرة اكثر من غيرها من القصص .

الاول : وصفي طاهر ، لم يكن مرافقاً للعائلة العراقية المالكة ، انما كان مرافقاً لنوري السعيد . خانَ الباشا وتواطأ مع الانقلابيين على الغدر به ، ولم تقف في بلعومه تلك اللقمة التي كان يأكلها معه ، فأطلق على سيده النار جبناً وخسةً ، بعد ان رآه جثة في احد شوارع بغداد . مستعرضاً بطولة فارغة ، كي يحظى بمكانة عند أسياده الجدد . لكنه بعد عدد من السنين ، لا تتجاوز في أحسن الأحوال عدد أصابع اليد الواحدة ، ذهب ــ وبالطريقة نفسها ــ الى ملاقاة ربه ، ذليلاً حقيراً تلاحقه لعنات الله والتأريخ .

الثاني : عارف عبد الرزاق ، مرافق أخي عبد الاله وطيّاره الخاص . جاء به الأمير الى قصر الرحاب ليحظى بحمايته ، بعد أن خلَّصه من عداء أقرانه العسكريين له . ما أكثر الطيارين غيره ، وما أكثر ما جلس معنا على نفس المائدة ، نأكل سوياً في حلّنا وترحالنا . . في بغداد وسرسنك . . في العراق وخارج العراق .

. . خاننا في نهاية المطاف واشترك في قتل أهلي وأولياء نعمته! . . لماذا يا عارف؟ أمِنْ أجل عشرة أيام فقط ، تكون فيها رئيساً لوزراء العراق الجمهوري؟! أهذه هي النتيجة ، تقضي أكثر من نصف عمرك لاجئاً (مثلي) في بلدان العالم ، بعيدين عن أهلنا ووطننا؟!



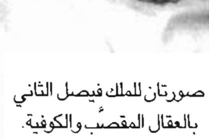


الملك
فيصل الثاني،
ابن تسعة
أشهر.
(بغداد
١٩٣٦م).



الملك
فيصل الثاني
منكبّاً على
ورقه يكتب
بعض
الافكار.





صورتان للملك فيصل الثاني
بالعقال المقصَّب والكوفية.

الملك
فيصل الثاني
(كردستان العراق
- مصيف سرسنك
١٩٤٢م).



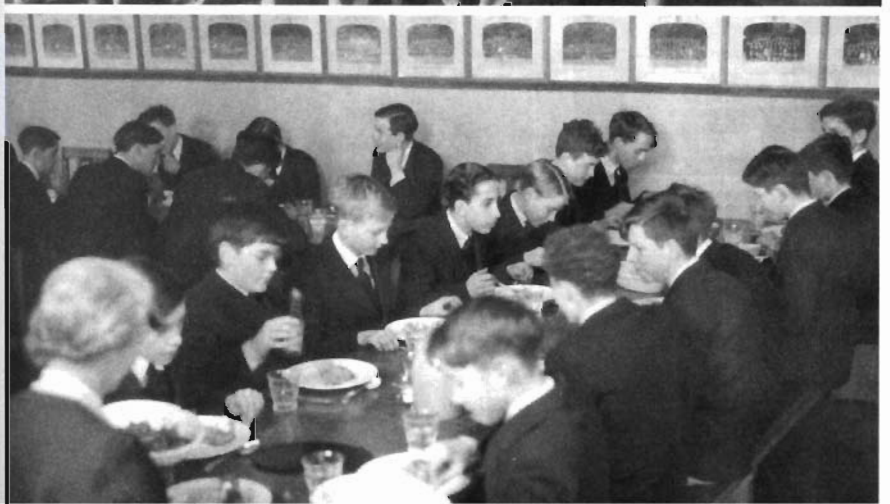
الامير عبد الاله
يحمل على ظهره
ابن اخته وربيبه
الملك فيصل
الثاني.

الملك فيصل الثاني (في الصف الثاني بالوسط) بين عدد من طلاب صفه في كلية «هارو» ببريطانيا، وقد انهى سنته الدراسية الاولى بنجاح. أُخذت اللقطة اثناء تلاوة تقييم الاستاذ لكل طالب من الطلاب واعلان درجاته.

الصورة التقطت مع مجموعة من الصور له بتاريخ ٢/٥/١٩٥٠م، وهو في عمر الخامسة عشرة. يجلس الى يمين الملك فيصل الثاني الامير مكرّم جاه، وهو حفيد (نظام حيدر آباد) كما جاء في تعريفه من قبل مركز المعلومات، الذي أرفق تعريفاً بكل صورة من هذه الصور.



لقطة اخرى للملك فيصل الثاني في كلية هارو بتاريخ ٢/٥/١٩٥٠م، يمسك بيده كاميرا ويراقب تمارين إحماء اللاعبين، قبيل البدء برياضة سباق الساحة والميدان، كأحدى العاب كلية هارو التي تتميز بها.



الملك فيصل الثاني (في الوسط) يتناول طعامه مع طلبة كلية هارو في مطعم الكلية عام ١٩٥٠م.



لقطة نادرة جمعت بين الامير عبد الاله وابن اخته الملك فيصل الثاني وابن عمه الامير رعد بن زيد . في العراق «تل الملح» مطلع الخمسينات.

الملك فيصل الثاني يتحدث من دون تكلُّف مع استاذه مستر باولبي في منزله، فيما تصغي حرمه السيدة ليندا باولبي الى الحوار بانصات. الصورة اخذت في بريطانيا عام ١٩٥٠م.

ن اليمين: ١ ـ نوري القره غولي. ٢ ـ الشريف حسين بن علي.
ـ الامير عبد الاله. ٤ ـ الملك فيصل الثاني.
ـ حسام الدين جمعة (وزير الداخلية). ٦ ـ عبد الرحمن جودت.



الملك فيصل الثاني (في الوسط يرتدي قبّعة ونظّارة) في رحلة صيد بمنطقة الحسينية، والى يمينه الشريف حسين بن علي والأمير رعد بن زيد. وقفوا جميعهم أمام حيوان اصطيد للتوّ.

لقطة اخرى للصيد، الملك فيصل الثاني متنكباً بندقيته، وأمامه الشريف حسين بن علي (الى اليسار) مستلقياً على الارض وقد وضع بندقيته بين رجليه، بينما لاح الانضباط حميد في أقصى الصورة بملابسه العسكرية.
(الصورة في يوم شتوي غائم، وقد جلس الجميع على ارض موحلة).

الامير عبد الاله (الأول من اليمين) واقفاً ويده في جيبه، ينظر الى مرافقه كاظم ضاحي، محدودباً يحصي صيدهم من الدرّاج، بينما وقف الشريف حسين بن علي ينظر الى الكاميرا وبيده قبعته. في حين لم يظهر الملك فيصل الثاني (الثاني الى يسار الشريف) واضحاً في الصورة، وقد بدا خلفه مباشرة الانضباط طه.
(الصورة في يوم شتوي مشمس) في الخمسينات بمنطقة الحسينية لمحمد الحبيب (أمير ربيعة).



الامير عبد الاله (من اليسار) في زيارة له الى احدى الدول الاوربية، والى يساره مُضَيِّفه. بدا خلف الامير مباشرة مرافقه الطّيار عارف عبد الرزاق الكبيسي (الذي اصبح رئيساً لوزراء العراق الجمهوري لمدة عشرة أيام، في عهد عبد السلام محمد عارف ١٩٦٣ ـ ١٩٦٦م) والى يساره الطّيار جسام محمد.



الملك فيصل الثاني وخاله الامير عبد الاله اثناء صعودهما طائرة K.L.M في سفرة لهما الى اوربا.

الملك فيصل الثاني يمارس هوايته (التزحلق على الجليد) في احد المنتجعات السويسرية لوحده، من دون حماية او حراسة مشددة.

الملك فيصل الثاني يتسلم خطاب القسم من قبل (رئيس وزراء العراق ورئيس مجلس الاعيان) السيد محمد الصدر اثناء حفل تتويجه ملكاً على العراق في ٢/مايس/١٩٥٣م.
ويظهر الثاني من اليمين (في اقصى الصورة) الدكتور محمد فاضل الجمالي (يرتدي نظارة) الذي شكّل اول حكومة بعد تسلم الملك فيصل الثاني مهامه الدستورية.



الملك فيصل الثاني في زيارة له الى احدى المناطق الزراعية القريبة من بغداد. فيما لاحت جماهير الفلاحين من الجانب الآخر تقف في وداعه.
بدا خلفه كل من الامير عبد الاله والشريف حسين بن علي، وبينهما (بالزي العسكري) مرافق الملك الاقدم عبيد عبد الله المضايفي.

الملك فيصل الثاني والى يمينه خطيبته الأميرة فاضلة، والى يساره والدة خطيبته الأميرة خانزادة، ابنة الأمير عمر الفاروق بن السلطان العثماني عبد المجيد. وقف خلفهم الأمير عبد الاله، ووالد خطيبة الملك فيصل الثاني الأمير محمد علي بن محمد وحيد الدين.



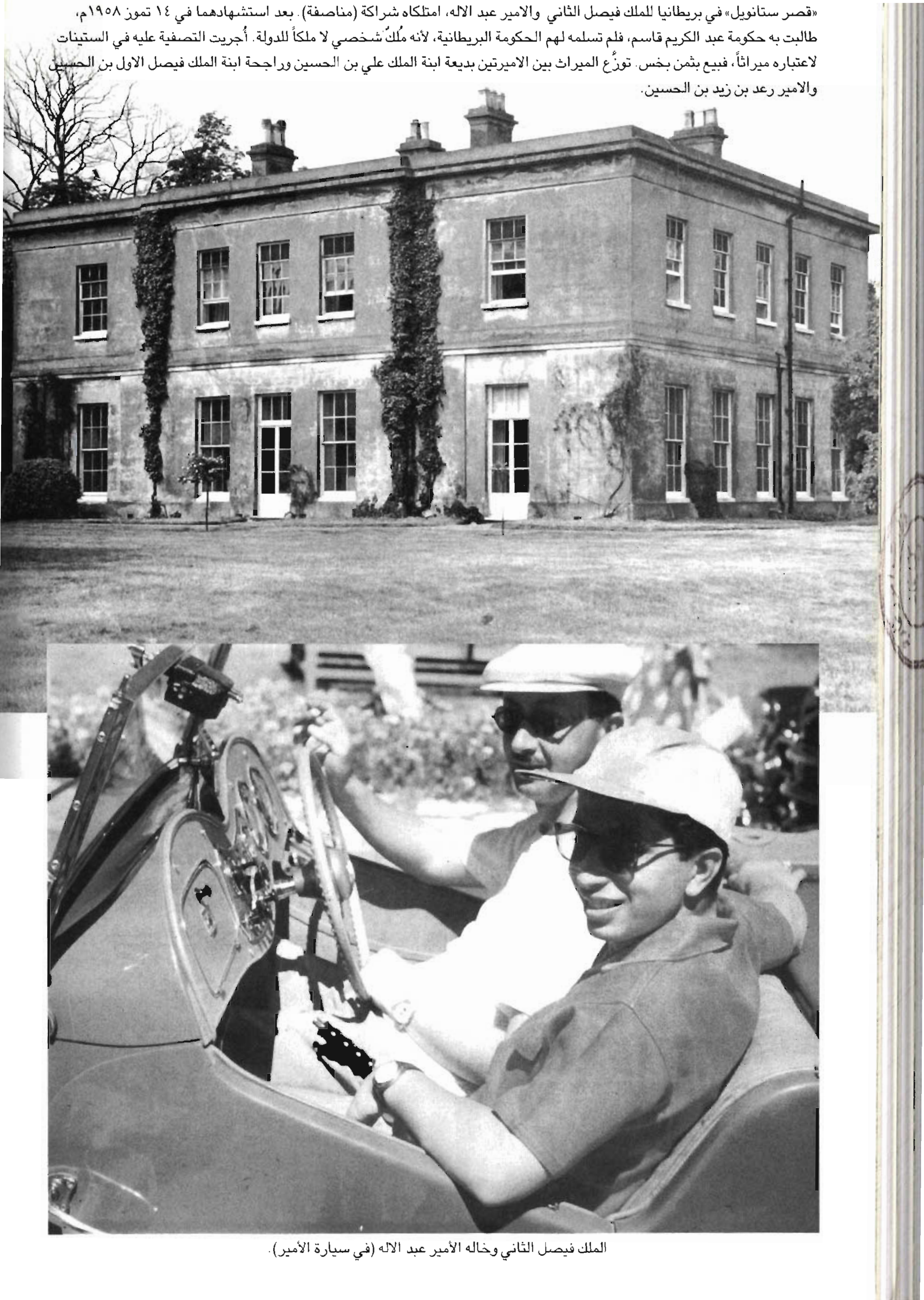


صورة نادرة التُقطت بعدسة المصوّر ارشاك عام ١٩٣٦م، بمناسبة زواج الامير عبد الاله (الاول) من مَلَك فيضي، وقد جمعت كلاً من:
اولاً: الجالسات في الصف الامامي (من اليمين): ١ـ الاميرة بديعة ٢ـ العروس ملك فيضي (تجلس على كرسي) ٣ـ الاميرة جليلة.
ثانياً: الصف الوسط (من اليمين): ١ـ روحية فيضي (اخت العروسة) ٢ـ الاميرة عبدية ٣ـ الامير عبد الاله (العريس) ٤ـ الملك غازي ٥ـ الملكة نفيسة (تقف خلف ابنتها الاميرة جليلة مباشرة) ٦ـ الاميرة صالحة ابنة (ملك العرب) الحسين بن علي (عمة الامير عبد الاله). ٧ـ الاميرة راجحة ابنة الملك فيصل الاول (اخت الملك غازي).
ثالثاً: الصف الاخير (من اليمين): ١ـ الملكة عالية (وقفت خلف اخيها وزوجها) ٢ـ صلاح الدين بك فيضي (والد العروسة) ٣ـ بهيَّة فيضي (والدة العروسة، واقفة خلف الملكة نفيسة مباشرة).



الاميرة التركية «فاضلة» خطيبة الملك فيصل الثاني، في صورة نادرة لها. والى يمينها الامير عبد الاله. التقطت هذه الصورة عام ١٩٥٧م.

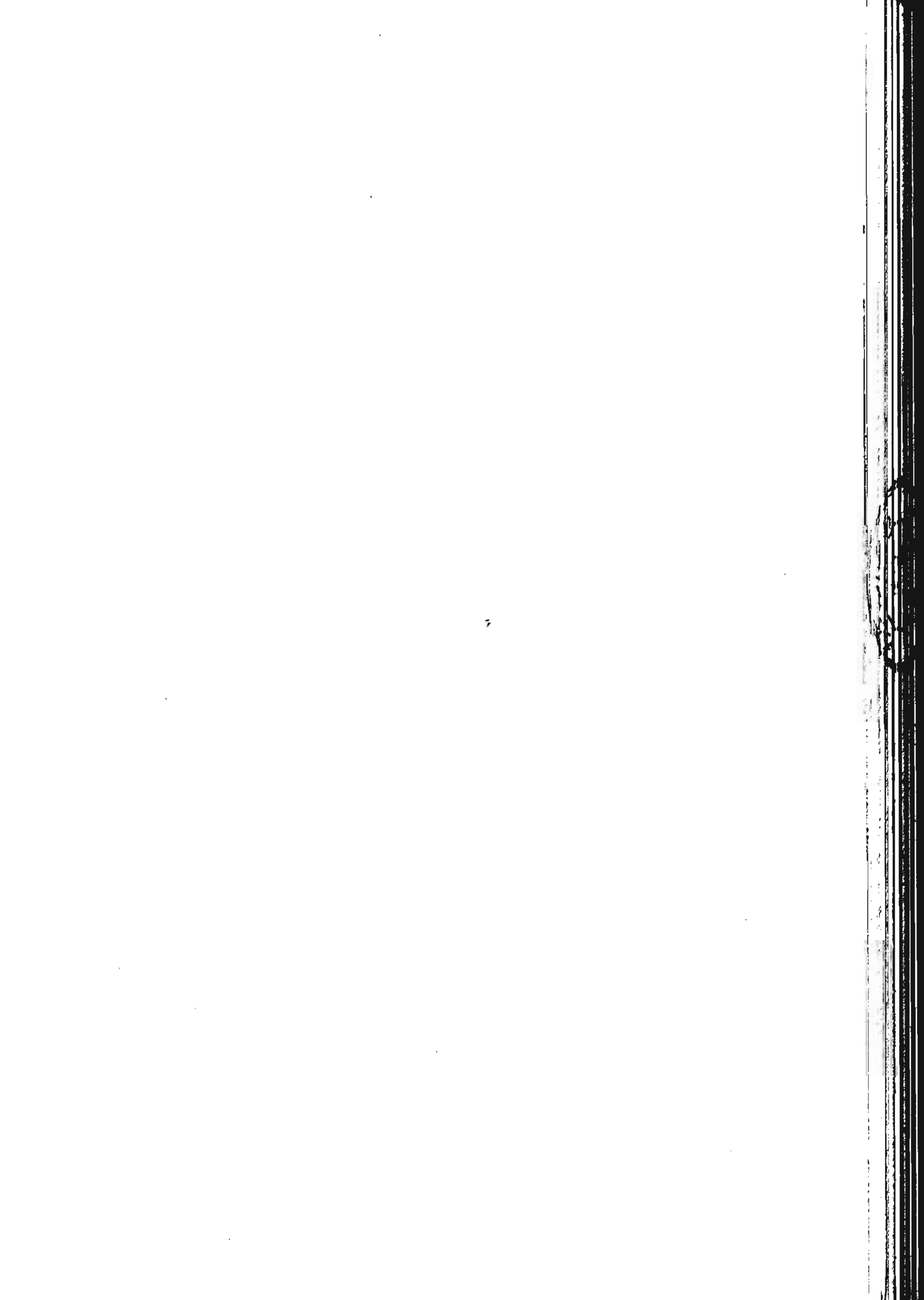
«قصر ستانويل» في بريطانيا للملك فيصل الثاني والامير عبد الاله، امتلكاه شراكة (مناصفة). بعد استشهادهما في ١٤ تموز ١٩٥٨م، طالبت به حكومة عبد الكريم قاسم، فلم تسلمه لهم الحكومة البريطانية، لأنه مُلكٌ شخصي لا ملكاً للدولة. أُجريت التصفية عليه في الستينات لاعتباره ميراثاً، فبيع بثمن بخس. توزّع الميراث بين الاميرتين بديعة ابنة الملك علي بن الحسين وراجحة ابنة الملك فيصل الاول بن الحسين والامير رعد بن زيد بن الحسين.



الملك فيصل الثاني وخاله الأمير عبد الاله (في سيارة الأمير).

الفصل السّادس

النهاية المفجعة : دماءٌ في قصر الرّحاب



الانقلاب الدامي

كانت العائلة العراقية المالكة قد قررت السفر الى تركيا صبيحة يوم ١٩٥٨/٧/٩م ، ومنها الى لندن لغرض تجهيز نفسها ، والاستعداد لزواج الملك فيصل الثاني . وايضاً لقضاء العطلة الصيفيّة هناك ، حيث انهى الاولاد عامهم الدراسي . اما نحن ـ اعني عائلتي الصغيرة ـ فقد استأجرنا شقة مستقلة في لندن ، لننزل فيها بعيداً عن «ستانويل» حيث سيقيم الملك ومَنْ كان في معيَّته . . غير ان طارئاً تسبب في تأخير هذا البرنامج .

. . لا ادري ماذا اقول ؟ وكيف أعبِّرُ عمّا في نفسي؟ ومَنْ احمِّله مسؤولية تأخيرنا في العراق ، حتى صباح ١٤ تموز المشؤوم؟!

كل ما اعرفه ، هو ان توفيق السويدي كان قد اشار على الملك ، بضرورة تأخير سفرته المزمعة تلك (نحو اسبوع او اكثر) حتى يعود اخي عبد الاله الى بغداد ، من سفرته الى اسطنبول ولندن ، متذرعاً بأن هناك امراً مهماً يتطلب وجود الملك في العراق .

وحيث ان غياب الرأسين (الملك والوصي) من الدولة في تلك الظروف ،

كان من شأنه ان يخلق حالة من الفراغ السياسي ، يُحتمل ان يشغله الملك حسين بن طلال ، كونه نائباً للملك في «الاتحاد الهاشمي» فيعمل على استمالة العسكريين العراقيين ، من خلال زيارات سيقوم بها لهم ، وهو ما لا تحبذه الحكومة العراقية .

لذا فان وجود احد الرأسين في بغداد ، سيقطع هذا الطريق على الملك حسين . ولهذا طلب السويدي من الملك فيصل تأجيل سفرته ، لحين عودة الامير عبد الاله . . فكان هو السبب في ذلك التأخير .

عاد اخي عبد الاله الى العراق وقررنا السفر صبيحة يوم ١٤ تموز . كانت عادتنا ان نتعشى ليلياً على مائدة «قصر الرحاب» سوياً ، بعد مشاهدتنا لأحد الافلام السينمائية . في تلك الليلة المشؤومة قال لي الملك : «اننا سننتظركم على العشاء» فقلت له : «لا تنتظروننا ، لأننا سنكون مشغولين بحزم حقائبنا ، استعداداً للسفر صبيحة غد» . ثم ذهبت لوداع اخي الامير عبد الاله ، لأنني توقعت في نفسي ، بأنه سيكون مشغولاً هو الآخر في اليوم التالي ، وسوف لا يكون باستطاعتي توديعه ، حيث مهام الدولة الرسمية ، واللقاءات بالمسؤولين والوزراء ، وما الى ذلك .

الوداع الأبدي

جلب لي اخي معه هدية من سفرته الاخيرة تلك ، عبارة عن زوج من «التراجي» قِرطَيْ الاذن ، مرصعة بحجر بنفسجي «Amethyst» فحضنتُه وضممتُه الى صدري بحنان وشوق ، كأمٍ تحامي عن وليدها الرضيع ، ورحت أُقبّله بما لم يعهد من قبل . . وهكذا بقيت اتأمله واحدِّقُ في وجهه طويلاً ، كي ترتسم قسماته وتعابيره في ذهني ومخيلتي ، واتحسس جسده ، لأتأكد

منه هو كذاك الذي ودعته قبيل سفرته الاخيرة ، لم يتغير او يطرأ ايٌ عارض عليه .

وقفت صديقتنا «مديحة الداغستاني» الى جانبنا تراقبنا ، وتتأمل في ذلك المشهد المعبِّر (والملفت عن غير قصد) باندهاش وحيرة ، فقالت لي : «ما هذا؟ كأنك سوف لا ترينه غداً»! فأجبتها : «نعم . . لا اعتقد انني سأراه غداً» .

نظر اليَّ اخي الامير نظرة ملؤها العطف والمحبة ، ثم رمقني بابتسامة دافئة وهادئة لم تستمر طويلاً ، حتى اشحتُ بوجهي عنه . فملتُ الى وداع امي . كنا نناديها «أنّة» باللغة التركية ، فرأيتها ليست على ما يرام ، منزعجة ومهمومة ، وكادت نفسها ان تنقبض ، وكأن جبلاً من الهموم والاحزان قد تراكم على صدرها . تتأمل طويلاً وتستعبر ، سألتها : «ما الخبر أنّة»؟ قالت : «وصلتني بالبريد اليوم صورة لعبد الاله ، وقد لطَّخَ مرسلوها وجهه اوساخا» .

تصرُّف هؤلاء الحمقى جعلني ، أُخمِّن حجْم ما في نفوسهم من قذارات ، ارادوا القاءها على اخي . انتابتني حالة من الانفعال النفسي ، بدت وكأنها هستيريا مفتعلة وليست رَدَّ فعل تلقائي ، وإن كانت الى الطبيعية أميل .

في بعض المواقف المحرجة التي يحاول فيها الانسان ، ان يهدِّئ من روع انسان عزيز عليه يراه حزيناً ، فيبدد أو يقلل من شأن ما يخالجه ، قد يَتَصَنَّعُ ويسترسل في تصرف ، يبدو في نظر الآخرين ليس طبيعيا .

هذا ما حصل معي امام والدتي ، فضحكتُ ضحكةً مدويةً ، وقلت لها : «لا تهتمي ، هؤلاء شيوعيون واعداء مغرضون . . لا تزعلي» . كان الشيوعيون الجهة الاكثر عداءً ونشاطاً ، في معارضة الحكم الملكي حينذاك ، ولذا لم ينافسهم احد من حيث جهة الترشيح ، عندما ألقيتُ التهمة عليهم .

رسالة سرية

بيد ان «مديحة الداغستاني» التي بقيت ساهرةً مع اهلي في تلك الليلة ، روت لي فيما بعد ، بأنهم اثناء تناولهم طعام العشاء ، جاء احد الحرّاس برسالة لأخي ، وسلَّمَها بيده ، فقرأها وهو على المائدة ، واذا بوجهه يحمَرُّ بشدة ، فنهض ثم عاد مرة اخرى من دون ان يتفوَّهَ بكلمة . ولهذا فان احداً لا يعرف الى اليوم ، ما هو مضمون تلك الرسالة ، ومَنْ الذي ارسلها .

في تلك الليلة جاء اخي الامير «بحاوٍ هندي» يقوم بألعاب سحرية وبهلوانية ، يمارس الخداع والتضليل بخفة وسرعة فائقتين ، فيموِّه على مشاهده ويجعله يرى اشياءً لا تُرى ، او لا يرى اشياء اخرى تُرى . ثم يُرَقِّصُ ويُلَعِّبُ الحيوانات بطريقة مضحكة ومفرحة ، وقد التفَّ حوله أطفالي وبقية الأطفال يلهون ويضحكون .

اراد أخي عبد الاله ادخال الفرح والسرور الى نفوس أطفال قصر الرحاب ، كي لا يضجروا من حياتهم الرتيبة والمقيدة بعض الشيء ، مقارنة بحياة اقرانهم الطليقين من الأطفال الآخرين .

* * *

غادرنا (أنا وزوجي وأطفالي الثلاث) القصر لنبيت ليلتنا في بيتنا بالمنصور . حزمنا حقائبنا وهيأنا احتياجاتنا ، ونهض زوجي الشريف حسين يسدل ستائر المنزل ، كي يخيِّمَ الظلام علينا ، واستسلمنا لنوم قلق ، على ايقاع صوت جهاز التكييف ، الذي اعتدنا تشغيله طوال ليالي صيف العراق القائض .

صبيحة اليوم الاسود

استيقظتُ فجأة في صباح الاثنين ١٤ تموز (يوليو) ١٩٥٨م الباكر، على سماع دوي متقطع، شبيهٍ بأصوات اطلاقات، تأتي من مكان ليس ببعيد عنّا. وبين لحظات خفوتها العابر تأملتُ برهة، لأتأكد من حقيقتها ومصدرها. وما ان عاد الرمي، حتى أيقظتُ زوجي بفزع ملحوظ، وسألته: «أتسمع.. ما هذا»؟ فأجابني اجابة الغافي النعسان، باطمئنان ولامبالاة: «لا شيء، أظن انه (صادق) يطرق الباب، جاء يوقظنا للفطور»!

لم أقتنع برد الشريف حسين كلياً، إذ بقي الشك يساورني، ولذا ظللتُ متيقظةً، ولم تسلم عيناي للنوم. طار النعاس من رأسي، وتحفّز جسدي للوثوب والحركة، واذا بالضرب يزداد، وأصوات الاطلاقات تتوالى وتتعالى.

وثبتُ من مخدعي، وسحبتُ ستائر غرفة نومي المطلّة على الشارع الرئيس، ورحتُ أتأمل وأتتبع عبر النوافذ مصادر الأصوات والنيران، واذا بها تأتينا من جهة قصر الرحاب. كان باستطاعتي أن أرى القصر عن بُعد من بيتي، فلا يفصلنا عنه سوى نهر دجلة وجسر الخِر الذي عليه، ولكنني لا أستطيع أن أتيقّن مما يجري هناك.

قمنا من الفراش، ولم نعرف ماذا نعمل للوهلة الأولى. تداولنا بالامر ـ أنا والشريف ـ قليلاً وطال صمتنا، لأننا لم نكن ندري ماذا يجري هناك بالضبط. لقد كان حوارنا مجرد تخمينات. اتصلتُ بقصر الرحاب هاتفياً، واذا بالخط مشغول، والرمي يتكاثف، والأصوات ترتفع، ومعهما يزداد قلقي، وترتفع درجة الحرارة في جسمي.

كانت الساعة المعلقة في صالة منزلي تشير الى ما بين (٥,٤٥ ـ ٦,٠٠) السادسة الاّ ربعاً والسادسة صباحاً. عاوَدْتُ الاتصال هاتفياً بالقصر مرة

اخرى ، واستطعت التحدث مع مسؤول البدالة فيه ،فأوصلني بوالدتي . أمسكَت الملكة نفيسة السماعة في يدها ، وما ان سمعت صوتي حتى تكسرت الحسرات في صدرها ، واختنقت بعبرتها ، وهدرت الآهات ، ولم تستطع اكمال حديثها معي . كانت نامت ليلتها تلك مكدرة حزينة ، بما شاهَدَتْهُ من صورة مشوهة لأخي عبد الاله .

لم أفهم من هذا الاتصال ما كان يجري هناك . بعد قليل اتصل الملك فيصل الثاني بي هاتفياً ، لأن مسؤول البدالة أخبره بنيتي في التحدث اليه ، فسألتُه بارتباك وقلق : «ماذا يحصل عندكم»؟ أجابني : «هل تريدين حرساً»؟! قلت له : «لا ، لا شيء عندنا ولا أحتاج الحرس ، أنتم ربما تحتاجون اليهم» . فردَّ عليَّ : «طيب . . افتحي المذياع اذن وستعرفين ما حصل»!

رجولة ملك شاب

لم يكن الملك الشاب خائفاً أو مرتبكاً ، انما كان صلداً ومطمئناً ، يتحدث بثقة ورجولة . كلَّمهُ زوجي الشريف حسين ، من دون أن يقول له أكثر مما قاله لي .

أغلقنا سماعة الهاتف ، ورحنا نتنقل في بيتنا مستطلعين الأمور بحيرة وتوجُّس ، من شرفة الى أخرى ، ومن سطح لآخر ، ومن غرفة الى ثانية ، كَمَنْ ينتظر مصيراً يجهله . لا نبغي سوى أن نعرف ما يحصل في قصر الرحاب ، وما من أحد يخبرنا ، والهواتف لا ترد .

وبمرور الوقت أصبح الحصول على اتصال مع القصر مستحيلاً ، في حين دبّت حركة غير طبيعية في شوارع بغداد ، وتضاعف الرمي ، وتراكمت لدينا جهالتنا بالمصير المحتوم .

في تلك اللحظات العصيبة ، طرق رئيس الديوان الملكي «عبد الله بكر» وحرمه الباب علينا . جاء ليعرف منا ما يحصل في قصر الرحاب ، بعد ان ذهب الى هناك ، ومنعه الانقلابيون من الوصول اليه ، غير انه شاهد النيران بدأت تلتهم أروقة القصر ، وأعمدة الدخان ترتفع في كبد السماء .

أعلمناه بمكالمة الملك معنا ، وما دار من حوار بيننا . استدركنا بأنه لم يكن باستطاعتنا عبور الجسر ، للوقوف على ما يجري في الضفة المقابلة ، واننا لم نرغب في فتح المذياع بعد ، لأن انقلاباً عسكرياً ـ كما خمّنا ـ ربما وقع بالعراق . ولذا ليس في ودّنا أن نسمع عياط الانقلابيين وزعيقهم ، وما سيستتبع ذلك من تحريض فجٍّ وظالم ضد أهلي .

بعد مداولات سريعة ، اقترح زوجي الشريف حسين أن نترك بيتنا ونخرج ، على أمل أن نلتقي بأهلي ، حيث توقع بأنهم هم الآخرين قد تركوا «قصر الرحاب» وانهم يبحثون عنّا الآن .

غيَّرنا ملابس نومنا التي كنا ما زلنا فيها ، وارتدينا ما وقع بايدينا ، وجلسنا في انتظار ان تنجلي الغبرة لنعلم ما حصل . لم نرزم او نحزم اية حقائب صبيحة الانقلاب ، لأنها كانت معدة ومهيأة منذ الليلة الفائتة ، سيَّما ونحن على وشك مغادرة المنزل ، والسفر في الساعة (٩,٠٠) التاسعة صباحاً . لم نفطر او نشرب شاياً او شيئاً ، بالرغم من شعورنا بعطش حاد .

جلسنا برهة اخرى ننتظر حيث هدأ الرمي ، لكنَّ ألسِنة اللهب والدخان ارتفعت في الافق ، نراقبها من شرفة دارنا . . فجأة سمع زوجي احدهم يصرخ ويبكي ، ويلطم على رأسه ووجهه ، وينادي بصوت عالٍ ومسموع ، قادم من الجهة الاخرى للشارع : «اخرجوا سوف يأتون اليكم» .

لقد قتلوهم كلهم

لم يكن المرافق ثامر خالد الحمدان خافراً بقصر الرحاب ، في ذلك اليوم المشؤوم ، لكنه ما ان سمع خبر الانقلاب وهو في منزله ، حتى أسرع الى القصر بسيارته الخاصة ، ليستطلع الامر ، واذا بالانقلابيين يهجمون عليه ويحرقون سيارته . أفلت منهم باعجوبة وجاءنا مشياً وزحفاً على قدميه ، في حال يرثى له . يرتدي سروالاً وقميصاً ، كأنهما إستُخدِما في تنظيف مدخنة قديمة .

* * *

ما الخبر يا ثامر؟! اجاب : «يا ستي اخرجوا من الدار فوراً ، سوف يأتون لقتلكم» . قلت : «لماذا»؟! . . ردَّ بصوت نحيب ونحيف : «لقد قتلوهم كلهم»!

. . سقطت تلك الكلمات الخافتة على مسامعي ، سقوط القذائف على رأسي . لم اعرف ما افعل ، لم تطاوعني قدماي على الحركة . لقد انهار جسدي ، وتثاقل لساني ، ولم اتمالك اعصابي ، واعترتني مشاعر غريبة ، ما كان من شأنها ، الاّ ان تُمَزِّقَ جدار الخوار والانهيار فجأة ، لتطلق العنان للساني وحنجرتي وعيوني ، ورِحْتُ أصيحُ وأنتحبُ وألطم .

همنا بالخروج من الدار ، سألتني مربية اطفالي الانكليزية : «ماذا حدث»؟ فلم أقدر على الجواب عن سؤالها . واذا بجرس الهاتف يرِنُّ ، الدكتور صالح البصام يخبر الشريف حسين ، بأن الوضع سيء للغاية ببغداد ، وانه سيأتي لينقلنا الى مكان آمن . كرر الاتصال ثانية ً ليعتذر عن عدم قدرته في الوصول الينا بسبب الظروف ، فارسل لنا (الناني) الالمانية .

بعد قليل دخلت علينا المربية الألمانية (كانت تعمل عند عبد اللطيف آغا جعفر) حَمَلَتْ على متنها ولدي الصغير الشريف علي ، وامسكتُ انا بيد

ابني الكبير الشريف محمد ، وحملتُ ابني الوسط الشريف عبد الله على صدري ، وخرجنا مُكرَهين مفزوعين من منزلنا .

* * *

كان اطفالي بجواري يلوذون بي والوذ بهم ، يؤدون مشهداً مفجعاً في الحركة والتعبير ، يتفطَّرُ قلب مَنْ يشاهِدُهم بتلك الحال . لقد ناموا ليلتهم تلك ، وهم على امل ان يستيقظوا في الصباح الباكر ، فرحين مسرورين متأهبين لسفرة جميلة ، يعقبها عرس اجمل منها . غير انهم فتحوا عيونهم على اصوات القذائف والرصاص ، مرعوبين لا يدرون ما يدور حولهم .

اتركوا كل شيء خلفكم

لم احمل معي اي شيء ، تركتُ كل شيء ورائي ، وخرجتُ بعباءتي السوداء من بيتي ، لا اعرف الى اين ، ولم اتخيَّل بأن ذلك الخروج الاضطراري هو آخر عهدي بمنزلي ، ذلك الذي لم اهنأ فيه ، الاّ لفترة وجيزة .

ولذا لم ارمقه بنظرة وداع اخيرة ، ولم اتأمَّل ما فيه ، ولم اتحسس جدرانه وشبابيكه ، ولم أتأكد من إقفال ابوابه . لقد تركته كمن يترك مكاناً ، مرَّ من امامه مروراً عابراً ، وهو لا يعني له شيئاً .

لا ادري ، الله ربي هو الذي يدري ، ربما سيبقيني حتى اعود له يوماً ، لألقي عليه نظرة الوداع الأَبدية . أو ربما سأموت ويبقى هو وغيره من قصور أهلي حسرة في قلبي . . مَنْ يدري؟

اراد زوجي الشريف حسين اثناء خروجه ان يحمل معه رشاشاً ، فَمَنَعْتَهُ

المربية الالمانية قائلة : «no gun» لا سلاح ، تفضل وحدك . . جرجرونا من الدار بهمّة لتثاقلنا وتباطؤنا ، واركبونا بالسيارة . نقلونا الى منزل من طابق واحد يعود لعبد اللطيف آغا جعفر (كان نائباً في البرلمان ، ومتزوجاً من احدى بنات عبد الهادي الچلبي ، وهو في زيارة الى لندن يومها) .

ما ان وضعنا اقدامنا في المنزل ، حتى طرق علينا احد الجيران الباب ، ليخبرنا بأن جاره الآخر قد عرف بنا ، من خلال لوحات السيارة العائدة الى البلاط الملكي ، وعليه فانه يتوجب علينا الخروج الآن ، قبل ان يفتضح امرنا ، فيأتوا لالقاء القبض علينا .

رفعنا لوحات البلاط وغادرنا بيت عبد اللطيف آغا جعفر ، لا نعرف الى اين نتجه والى اين نذهب . كنا نبحث عمّن يأوينا فلم نجد . قاد زوجي الشريف حسين سيارته وانا معه واولادي الثلاثة ومربيتهم الانكليزية والحاج سالم (كاتب والدي الملك علي وصديقه منذ ايام الحجاز) .

اتجهنا صوب «منطقة المنصور» فرأينا ازدحاماً هناك . غيّرنا خط سيرنا . ظللنا نلّفُ وندور حول المكان نفسه ، من دون ان نستقر على قرار ، حتى قرر زوجي ان نواصل سيرنا نحو الاردن .

ما ان وضعت السيارة دواليبها على اول الطريق ، حتى بدأ الشريف علي بالبكاء طالباً «كوكا»! يبدو ان ولدي الصغير لا يريدنا أن نغادر العراق!

بغداد بين المغادرة والبقاء

كانت الكوكا عنده تعني الحليب ، او الماء ، او اي سائل آخر ، يطلبه عندما يعطش أو يجوع . وقد فتحت جهنم ابوابها من سماء بغداد ، في ذلك اليوم الساخن الغاضب من شهر تموز عام ١٩٥٨م . لم نحمل معنا ماءً ولا زاداً ، ومن غير المعقول ان نقطع الصحراء الى «عمّان» من غير متاع . لهذا

استدرنا وَعُدْنا من جديد الى بغداد ، عاصمة الانقلاب ، حيث قَتَلوا أهلي ، وهم يتتبعون أيَّ أثرٍ بقي لهم فيها!

ربما في عودتنا مخاطرة أكيدة على حياتي وحياة زوجي ، ولكن ما ذنب طفل ابن سنتين ، سيبقى يصرخ من شدة الجوع والعطش طوال الطريق؟! واذا بالحاج سالم يقترح علينا أن نذهب الى بيت «عبد القادر عبد العزيز رانية» بمنطقة المنصور . كان مهندساً كهربائيا ً، كرديا ً، طيباً ، شريفاً وكريماً ، يعزنا كثيرا . وفي المقابل كنا نحن نحترمه ، وقد عمل في بيتنا الجديد بالمنصور ، وأكرمناه وساعدناه .

ذهبنا اليه فرحّب بنا واستقبلنا واستضافنا بمنزله . كان باستطاعته أن يتخلى عنّا في تلك اللحظات العصيبة من تاريخ العراق الدامي ، بذريعة خشيته على نفسه من الحاكمين الجدد ، سيّما وهو صاحب عائلة . وكنا سنقدّر له ظرفه وتمنّعه ، فيما لو أبدى ذلك ، لكنَّ غيرته منعته عن ذلك ، فكان نِعمَ الحامي والمحامي عنّا .

أعطانا غرفة مبردة مستقلة تأوينا ، وأغلق ستائرها علينا . ظلَّ الرمي مستمراً الى ان هدأ . بتنا ليلتنا تلك فيها ، لكنَّ عيني زوجي لم تغمضا الى الصباح ، تأهباً وتحسباً لئن يهجم الانقلابيون علينا في أي وقت .

قضى «رانية» ليلته يتسمع أخبار الانقلاب وتطوراته . في الصباح (١٥ تموز ١٩٥٨م) اقترح زوجي الشريف حسين ، أن نلجأ الى سفارة المملكة العربية السعودية ، كآمن مكان لنا ، لأنه لم يكن باستطاعتنا اللجوء الى اي مكان آخر . فلا سفارة اردنية ، والانقلابيون دخلوا السفارة البريطانية ، ولا ندري ماذا حلّ بالسفارة الاميركية؟! سمعنا فيما بعد بأن أحد الأميركيين العاملين في سفارتهم ببغداد ، من أصدقاء زوجي الشريف حسين ، قد ذهب الى بيتنا لانقاذنا ، لكنه ـ كما يقول ـ وجد الدار مغلقا .

شكراً عبد القادر رانية

اقتنعنا باقتراح الشريف حسين ، ولم يكن أمامي أي خيار آخر ، واتفقنا على ان ينقلنا عبد القادر رانية من بيته بسيارته في وجبتين ، الى سفارة المملكة العربية السعودية في منطقة الوزيرية ــ على ما أتذكر ــ ببغداد .

خرجتُ في الوجبة الأولى مكرهةً مع ولديَّ الشريفين محمد وعبد الله ، وتركتُ ولدي الصغير الشريف علي مع أبيه ومربيته ، حمايةً لهما . ارتديتُ عباءتي ولم أتمكن من ارتداء حذائي ، حيث تورمت احدى قدمي فجأة ، لأسباب ما زلت أجهلها الى اليوم . كانت الشوارع التي مررنا بها (من منطقة السكك الى منطقة الوزيرية) هادئة نسبياً ، لكن الانقلابيين ما يزالون يبحثون عن نوري باشا .

حينما اعتلينا أحد جسور نهر دجلة ، انتابتني هواجس غريبة ، واختلجت بين جوانحي مشاعر متناقضة ، اذ خطر ببالي ان أقذف بنفسي الى النهر وانتحر . لكنني ترددت وتساءلت في داخلي : «مَنْ هذا الذي سيربي أطفالي من بعدي؟! ما زال ولدي الشريف علي طفلاً صغيراً ، يحتاج الى حناني وعطفي ، ومن الظلم له ان أُيتمه صغيراً» . فعزفتُ عن هذا القرار المفاجئ ، وتعوذّتُ بالرحمن من الشيطان الرجيم .

وصلنا الى السفارة وكانت قد أوصدت أبوابها ، وأوقف «رانية» سيارته بعيداً عنها ، ثم أمسك بولديَّ وراحوا يسيرون أمامي . تبعتُهم ولم أقوَ على المسير مثلهم . كان ولدي الكبير الشريف محمد ابن أقل من ثماني سنوات ، يُبطئ من سيره متلفتاً اليَّ بين لحظة وأخرى ، ليتأكد من انني أقتفي أثرهم . لقد انتابته مشاعر محزنة ، فظنَّ اني سأتركهم ، وسيأخذهم «عبد القادر» الى مكان بعيد عني!

ضغط «رانية» جرس السفارة ، فخرج البوّاب وأمسك بالباب ، ثم بادرني الى السـؤال عـن هـويتي ، قلت لـه : «دعـني ادخل ، اني اريـد أن أرى السفير . .» . هذا الطارق الغريب ، وما خاضه من حوار على باب السفارة ، أثار فضول حرم السفير السعودي ، وجعلها تتسـاءل في نفسها ، مَنْ هـذه السيـدة الزائرة في هذا الصباح الثقيل؟!

أطلّت برأسـها من الشبـاك في الطابق العلوي من مـقرّ سكنهـا ، تراقـبنا وتتمعن في مشهدنا . كانت تلك المرأة طيّبة ومثقفة ، تربّت في مصر ، فنالت الشيء الكثير من الادب والوقار .

احسّت بان شيئاً ما غير طبيعي يجري عند الباب ، لا ادري ان كانت قد أومأت للبواب ، بالسماح لنا بدخول السفارة ام لا ، غير اننا دخلنا من دون اي اعتراض في نهاية المطاف .

مَنْ أنتِ يا سيدتي ؟!

قادني بوّاب سفارة المملكة العربية السعودية ببغداد الى الصالة ، فجلستُ منكسرة منحنية على احد المقاعد ، ثم أستقمتُ واعتدلتُ في جلستي . رفعتُ رأسي واذا بي قبالة صورتين ، لم يخطر في بالي مطلقاً ، بأنني سأجلس أمامهما يوماً (واحدة للملك عبد العزيز آل سعود وأخرى لولده الملك سعود بن عبد العزيز) . دخل الخادم وسألني قاطعاً عليَّ كل أفكاري ، وما راح يجنح به خيالي من تصورات : «مَنْ أنتِ يا سيدتي»؟!

طأطأتُ رأسي حرجاً ، كان من حقه ان يطرح عليَّ هكذا سؤال ، فهو الآخر لم يخطر في باله ان تلجأ الى سفارته ، سيدة هاشمية علوية شريفة ، هي البقية الباقية من العائلة العراقية المالكة . . لكنها منكوبة تطلب حماية ممن يعمل في خدمتهم . ما وددتُ ان اجيبه على سؤاله ، لكنني رفعتُ رأسي ورحتُ أحدِّقُ في وجهه ملياً . تنهّدْتُ واستنشقتُ نفساً عميقاً ، ثم زفرتُ زفرةً طويلة .

لم أعرف كيف أردّ ، خانتني التعابير ، استعصت عليَّ الاجابات . . بعد هنيهة تمتمتُ بكلمات متقطعة وبتردد : «أنا . . أنا خالة الملك فيصل الثاني ، وأخت الأمير عبد الاله» . ارتبك الخادم ، ارتعدت فرائصه ، اضطربت معاني محيّاه وبانت تقاطيعه بوضوح ، حملق في وجهي بوجل برهة ، ثم فرَّ ينادي على السفير .

نزل «ابراهيم السويّل» من الطابق العلوي لاهثاً ، احسبه لم يصدق بما سمعه من خادمه ، لكنه ما ان وقع بصره عليَّ حتى هدأ . احتار بأمري لم يدرِ ما يقول . لم يتفوه بكلمة ، ولم يسألني أي سؤال ، لأنه كان يدرك حجم ما

جرى ببغداد يوم أمس من مأساة . أخبرتُه متطوعة ، بأن زوجي الشريف حسين هو الذي أرسلني الى هنا ، وأنا الآن في انتظاره ، حيث ذهب «عبد القادر رانية» ليأتيني به . هزَّتهُ كلماتي ، اغرورقت الدموع في عيينه وهو ينظر اليَّ بتأمل ، بلع ريقه ، ثم تركني وذهب الى غرفته ، ربما ليتصل بحكومته ، أو لأمر آخر . . لا أدري!

بقيتُ أدور في صالة السفارة وحدي . لم أهتم بولديَّ الشريفين محمد وعبد الله ، ولم أنظر لهما . ربما كانا يلعبان ، أو يجلسان على الكراسي ، يبكيان ، أو يسكتان . . لا أدري ماذا كانا يفعلان!

ليست الفترة التي تركني فيها «رانية» طويلة بحساب الزمن الحقيقي ، الاّ انها مرَّت عليَّ كأيام مفزعة ، كادت خلالها أن تزهق روحي . أخذتني الوساوس والتخيلات ، الى ما هو أبعد مما كان يجري على أرض الواقع . خشيتُ أن يقع مكروه لزوجي وطفلي ، أو حتى المربية . . أقوم وأقعد ، أروح وأجيء في الصالة . أضع رأسي بين يديَّ برهةٍ ، ثم أتطلع من الشباك الى الشارع .

فجأة لمحتُ زوجي الشريف حسين ، وفي يده ولدي الشريف علي . افتعل طريقة في السير بترهل ، لا تدلل على اهتمامه بما يجري ، كأنه شخص غير معني بكل ما حدث ويحدث .

كانت معه المربية الانكليزية ، وقد البسوها عباءة نسائية عراقية ، لتغطي ملامحها الاوروبية . ومن الطريف انها كانت قد اقترحت علينا أن نلجأ الى سفارة بلدها! فقلنا لها عن أية سفارة تتحدثين؟ لم تكن «ناني» تدرك حقيقة ما حصل في العراق!

حينما رأيتُهم صرختُ بصوت عالٍ ، ضغطتُ على الجرس ، صحتُ على مَنْ بداخل السفارة : «افتحوا لهم الباب ، ها قد أتوا» . عندما دخلوا الى

الصالة واطمأننتُ الى اننا كلنا سالمون ، خارت قواي ، انهارت أعصابي ، خوى جسدي ، فسقطت .

غبت عن الوعي فترة تحت تأثير وقع الصدمة ، وضغط الأحداث ، وهول المصيبة التي حلَّت بنا . لا شك في ان اموراً حصلت ، ولكني لا أتذكر منها شيئا .

في هذه المرة حينما جاءني «رانية» بَمنْ بقي معه من عائلتي الناجية ، اوقَفَته مفارز الانقلابيين التي انتشرت في شوارع بغداد ، وسألوه اكثر من مرة : «من اين انت قادم»؟ اجابهم دائماً : «من الحلة»!

خلال لحظات استفسارهم ، كان يستمع الى احاديثهم وكلماتهم ، يرددون : «أمسَكوه . . وجدوه . . القوا القبض عليه . . واخيراً سقط بأيدينا»!

. . بعد ان فرغوا من ذبح اهلي ، واصلوا بحثهم عن العديد من رجالات العهد الملكي ، ولم يهدأ لهم بال ، الاّ بعد ان عثروا على الباشا نوري السعيد .

المكوث في السفارة السعودية

تكلَّم زوجي الشريف حسين مع السفير السعودي ابراهيم السويّل ، فهيأ لنا غرفة في الطابق العلوي من السفارة . جهزها بأربع أسرّة نوم «قريولات» مفردة وفرش وأغطية . مكثنا فيها نحو شهر من الزمان . كنا ننام كلنا فيها (زوجي وأطفالي ومربيتهم وأنا) فيما اتخذ «سالم» مكاناً له في الطابق الأرضي ينام فيه (كان التحق بنا متأخراً في نفس اليوم ١٥ تموز ١٩٥٨م) .

ليست سفارات الأمس كسفارات اليوم ، فهي لم تكن سوى بيوت عادية ، لا تمتاز على غيرها بشيء . فما في الغرفة سوى مكيِّف واحد ، لم يكن كافياً لتلطيف جو العراق ، في ذلك التموز اللاهب .

حرص السفير السعودي وخاف علينا ، تحسباً من أن يتسرب خبر وجودنا في سفارته الى الانقلابيين ، عن طريق أحد العراقيين العاملين عندهم ، فيأتي البعض ويهجم علينا ، وهو لا يستطيع حمايتنا أو الدفاع عنا . لقد هاج الناس وتوتروا ، احبّوا أن ينتقموا من كل فرد ، ويدمروا كل شيء ، كي يسيطروا على البلد .

خلال مكوثنا في السفارة ، لا شك في ان شريطاً من الذكريات عنها يمرّ أمامي الآن . أول ما فعله الانقلابيون ، ان جاؤوا بحارسين أوقفوهما عند الباب الرئيس ، بدعوى حمايتها ، والحيلولة دون تعرضها الى اعتداء . لم يكونوا يعلمون بوجودنا في داخلها ، والاّ إقتحموها وأخرجونا ، كما أخرجوا غيرنا من أماكن أخرى .

في هذه الأثناء مرروا «نوري باشا» جثةً يسحلونها من أمامنا ، مرددين شعارات لم أحفظها ، ولكن ما علق في ذهني منها ، هتاف يقول : «تعال وشوف يا ناصر» وكأنهم يؤكدون علاقة جمال عبد الناصر بكل ما جرى!

موقف سعودي لا يُنسى!

واصل زوجي لقاءاته بالسفير السعودي ، وعلمتُ بعد ايام بأن الملك سعود بن عبد العزيز ، قد جعلنا كلنا على عاتق سفيره ببغداد . أمره أن يحافظ علينا بأي ثمن ، فنحن في ذمته (وبرقبته) وإن وقع لنا أي مكروه ، فسوف يتحمل هو مسؤولية ذلك .

موقف الملك سعود الانساني والمشرِّف معنا هذا له قصة ، تعود الى ما قبل انقلاب ١٩٥٨م ، يوم زار العراق في حفل التتويج في مايس عام ١٩٥٣م ، وأقام له الملك فيصل الثاني مأدبة كبرى . حضرها زوجي الشريف

حسين ، اذ كان يعرفه منذ أيام الحجاز ، وله به علاقة وطيدة . وبالرغم من ان لا أحد يستطيع أن ينكر ما هو معروف ، من تأريخ متأزم بين العائلتين (الأشراف وآل سعود) من عداوات وثارات ومعارك . . وما الى ذلك ، الاّ انه عندما تواجهت الوجوه ، قال الملك سعود ، مخاطباً الملك فيصل الثاني وأخي الأمير عبد الاله وزوجي الشريف حسين :

«حينما تقع العيون على العيون ، ننسى ما بيننا من عداوات ، ونطوي صفحات مؤلمة من الماضي» .

تبودلت الزيارات بين مَلِكَيْ البلدين ، وفي زيارة الملك فيصل الثاني وخاله الامير عبد الاله ، الى المملكة العربية السعودية في الشهر الاخير (كانون اول/ ديسمبر) من عام ١٩٥٧م ، احتفى الملك سعود بن عبد العزيز بضيفيه احتفاءً كبيراً . وقد عبَّر عن ودِّه وتقديره لهما ، حين امسك بالسيف ، وراح بنفسه يؤدي رقصة العَرِضة البدوية المعروفة امامهما ، تكريماً لهما . فما كان من الامير الاّ ان مال على ابن اخته الملك ، ليهمس في اذنه بضرورة ان يقوما ليقفا ، احتراماً لوقفة الملك سعود . هذه الوقفة السعودية تكررت مرتين ، مرة في بغداد واخرى في الرياض .

تجنَّسَ الشريف حسين بالجنسية العراقية يوم تقدَّمَ لخطبتي ، نزولاً عند رغبة أخي عبد الاله ، حيث كان الامير يُفضِّل تزويجنا بعراقيين ، او ممن يحملون الجنسية العراقية . ربما لاعتبارات سياسية ، أو لأسباب أخرى لا أستطيع البوح بها . وبعد الانقلاب سافر زوجي من «جنيف» الى «الرياض» ، لمقابلة الملك سعود والتشكر منه ، على ما أبداه من اهتمام ورعاية لنا في سفارته ببغداد .

في الوقت نفسه ، طلب منه منحه جوازاً سعودياً ، لأنه أحد أبناء تلك الدولة . واذا بالملك سعود يتطوَّع لإِبداء موقف مشرف آخر ، فيتعهد لزوجي

بأنه على استعداد لتعويضه عن كل ما خسره كاملاً! فشكره الشريف على مشاعره الصادقة ازاءه ، وعرضه السخي ذاك .

وبالرغم من ان امكانات المملكة العربية السعودية عام ١٩٥٨م ، هي ليست كامكاناتها اليوم ، الاّ انهم وقفوا ذلك الموقف المشرف معنا ، بينما لم يقف مثلهم وموقفهم ، آخرون من أقرب الناس الينا!

شماتة ناصرية ولَّت

حينما كان يجنُّ علينا الليل ، وينام الأطفال ، نخرج أنا وزوجي الى الشرفة ، لنتهامس بهمّنا ، أو نتأمَّل في قدرنا . نسمع قهقهات الضبّاط (الثوار الاشاوس) وأصواتهم العالية ، وهم يتسامرون على كؤوس الخمرة وموائد الرذيلة . ومَنْ يجرؤ على ان يعربد في تلك الاماسي غيرهم؟!

يتحدثون عمّا جرى لنا وبنا وكأننا أعداؤهم ، يتشفون ويتلذذون برواية جريمتهم الشنعاء التي ارتكبوها بحقنا . ثم يستمعون الى ما تذيعه محطات الراديو ــ سيمّا اذاعة صوت العرب من القاهرة ــ من أخبار وموضوعات ، فيتندرون بتحليلاتهم الساذجة ، ويتطوعون لتقديم توقعات خائبة عن مستقبل العراق .

كان بعض هؤلاء الضباط العراقيين ، يسكنون بالقرب من مقر السفارة السعودية ، فكنت افتح صدري وارفع رأسي الى السماء وادعو ربي ، ان لا يريح هؤلاء في حياتهم وقد قتلوا اهلي وظلموهم .

وفي احدى الليالي الكئيبة من ذلك التموز الحزين ، ربما في الثالث والعشرين منه ، الذي تصادف فيه ذكرى انقلابه المشؤوم . . لست متأكدة ، تنَصَّتُ مرغمة الى خطابه المقرف ، عبر جهاز المذياع الذي يفتحه الضباط

بالحي ، فراح «أحرقه الله بنار جهنم» ينبح شاتماً مستبشراً شامتاً بقوله : «لقد ذهب عبد الاله ونوري السعيد»!

قضّيتُ ليلتي تلك حتى الصباح ، أدعو على جمال عبد الناصر من كل قلبي وجوارحي واقول : «الهي أريد منك أن ترينى اياه مقتولاً أو ميتاً» . وأقسمتُ برب العرش العظيم ، لو انني سمعتُ بخبر نهايته حتى وإن كنتُ في وسط الزحام بلندن ، لسجدت على الأرض ثلاث مرات ، شكراً لله على عطفه وفضله .

لقد كان عبد الناصر يطعن قلبي بخناجر كلماته المسمومة والحاقدة تلك ، ضد أخي وأهلي ، بينما دماؤهم لم تَجِف بعد . يسألني ولدي الشريف علي بعد كل هذه السنين : «اماه هل رضيتِ بما حصل لكل هؤلاء؟ إنهم بين ميت او مقتول او تابع ذليل»؟ انظرُ اليه تارة بابتسام واخرى بتجهم! ربما لانني اريد ان اقاصصهم بين يدي جبّار عنيد .

مغادرة العراق الجمهوري

يبدو ان مساعٍ دبلوماسية حثيثة ، قامت بها حكومة المملكة العربية السعودية مع حكومة الانقلاب ، من وراء الكواليس ، هدفت الى تأمين اخراجنا من سفارتها (وبالتالي من العراق) بأمان الى بلد آخر . لمسنا ذلك الحرص من خلال الدور الذي لعبه «ابراهيم السويّل» ببغداد .

خشيتُ ان يتقرر تسفيرنا الى احدى دولتين (سورية او مصر) فيحجزنا عبد الناصر فيها ، لأن هاتين الدولتين كانتا في وحدة وقتذاك ، ومذكور في جواز سفري الملكي بأني من مواليد دمشق عام ١٩٢٠م ، ما سيبرر لعبد الناصر حجزه لنا ، كوني احدى رعايا دولة الوحدة! ولهذا عندما سألنا السفيرُ السعودي ما اذا كان بحوزتنا جوازات سفر ام لا ؟ اجبنا : كلا .

زوّدونا بجواز سفر عراقي جديد ، أُدرجت فيه جميع اسمائنا (باستثناء «سالم» رفضوا السماح له بالالتحاق بنا ، فبقي بالسفارة ، حتى غادرها الى ايران لاحقاً) . ذكرتُ فيه بأني من مواليد المدينة المنورة عام ١٩٢٢م ، وهو ما يزال الى اليوم يحمل تلك الولادة المزوَّرة .

خلال فترة مكوثنا في السفارة ، وبعد ان هدأت الامور نسبياً ، طلبنا من «ناني» ان تلتحق بسفارتها البريطانية ببغداد ، لأنها انگليزية ، وباستطاعتها ان تصل الى بلدها ، بدلاً من ان ترهن مصيرها بمصيرنا المجهول .

لم يسرق الضباط الانقلابيون كل ما كان موجوداً في البيت ، وهذا امر تنافى مع اخلاقهم ، وما فعلوه عند اقتحامهم بقية البيوت والقصور الملكية . غير انهم صادروا كل ما وقعت عليه اعينهم وايديهم ، من غرفة عرسي الى اسلحة الصيد ، تلك التي كان زوجي الشريف حسين يحتفظ بها في غرفة خاصة . ولهذا ظلّ «عبد القادر رانية» يواصل تردده علينا ، فكان يأتينا كل يوم بحقيبة ، او اغراض من بيتنا خفية .

في احد ايام شهر آب (اغسطس) ١٩٥٨مً ، اخبرنا «السويّل» بأن حكومة الانقلابيين ، وافقت على السماح لنا بمغادرة العراق ، شرط ان نُسفَّر الى احدى الدولتين (سورية أو مصر) وليس امامنا اي خيار آخر!

خيار الرحيل . . اعني ان لا خيار!

اخترنا الرحيل الى مصر . . الى الدولة التي يحكمها ذلك الفرعون ، الذي طالما حرّض على قتل اهلي وتشفى بمقتلهم . . أيُّ قَدَرٍ تعيس هذا ، وأيُّ خيار لا مفرّ منه؟!

جَهَّزْنا حالنا واعددنا حقائبنا . وفي صباح الثاني عشر من شهر آب (اغسطس) عام ١٩٥٨م وقفت سيارة اجرة (تاكسي) عند باب السفارة السعودية لتنقلنا الى المطار .

غادرنا السفارة بعيون دامعة وقلوب مرتابة ، لا اعرف وصفاً دقيقاً لتلك المشاعر التي اعترتني . تشكَّرْنا من السفير وحرمه ، على حسن استقبالهم واهتمامهم بنا ، وانطلق السائق يقود سيارته بصمت مطبق نحو المطار .

وصلنا المطار ودخلنا الصالة الرئيسة فيه ، جلسنا في انتظار ساعة الاقلاع . واذا بصورة (. . .) زعيم الانقلاب عبد الكريم قاسم معلَّقةً فوق رأسي ، بدلاً من صور اهلي!

اي زمن رديء هذا؟! فبدلاً من ان آتي بسيارة البلاط ، اتيت بسيارة اجرة . وبدلاً من ان اشعر بالاطمئنان حينما كنت انظر الى الآخرين ، اشعر اليوم بالفزع ، وانا انظر الى حرابهم واسلحتهم موجهة الى صدري . وبدلاً من صور كانت تمنحني الأمان ، عُلِّقت صور تنفث منها رائحة البارود والدم .

رمقني احد شرطة المطار بنظرة مُعزِّية منكسرة . كان من الحرّاس القدماء ، وله ذكريات ولقطات مع الملك ومسؤولي الدولة . تمنى ان يعبِّر عن مواساته لنا ، لكنه لم يستطع .

لا ادري هل كان مقصوداً ام لا ، تواجد عبد السلام عارف معنا في المطار بتلك اللحظات؟ ماذا اراد هذا المجرم ان يقول لي؟! أليخبرني بأنه هو الذي أمر بقتل اهلي؟! ام ليشعرني بأنه هو الذي وافق على ترحيلي الى مصر عبد الناصر؟! تلك الدولة وذلك الحاكم الذي كثيراً ما كان عارف عبداً ذليلاً لهما .

لم تكن حركة المطار في ذلك اليوم طبيعية ، فقد شهدنا ازدحاماً غير معهود فيه من قبل . صعدنا الى الطائرة المصرية بحضور السفير المصري ببغداد ، الذي ودعه لتوِّه عبد السلام ، واذا بأحد ضبّاط الشرطة العراقيين يخبرنا ، بأنه مأمور بمرافقتنا في هذه الرحلة ، حتى وصولنا الى مطار القاهرة .

حــينمــا حطت الطائرة على ارض النيل ، سلَّم الضــابط المرافق على الشريف حسين ، وقال له بأن مهمته قد انتهت عند هذا الحد . . لقد أدى ذلك الضابط المهمة التي كُلِّف بها بأمانة واخلاص ، طاعةً لضبّاط خونة ، غير امينين وغير مخلصين . . للاسف!

المشهد الاخير

عندما كنا نطير في السابق من بغداد ، نُحلِّقُ فوق «قصر الرحاب» لنلقي عليه نظراتنا ، كآخر ما يعلق في اذهاننا من مشاهدَ عن العراق ، نتذكرها ونحن في الخارج . . ولكنني في المرة الاخيرة ، يوم غادرت بغداد الى يومنا هذا ، تمنيتُ لو ان الطيار يرحمني ويتّبع نفس المسار ، لألقي على قصر اهلي ربما آخر نظرة في حياتي .

هيأتُ نفسي لمشاهدة آثار الدماء والحرائق والعبث ، تماسكتُ واستعددتُ لاستحضار ذكرياتنا الحلوة والمُرَّة ، فقصر الرحاب يحكي قصة آمال وآلام ، افراح واحزان عائلة هاشمية حكمت العراق عقوداً من الزمن ، غير ان الطيّار خيَّبَ ظني ، فغيَّر اتجاهه ومالَ على الجهة الاخرى لبغداد بعيداً عنه!

* * *

لم أرَ «قصر الرحاب» بعد المذبحة ، ولهذا ظلّت مشاهد المذبحة تدور في مخيلتي ، وهي لا تعدو عن كونها مجرد لقطات ، او تصورات أُركِّبُها وأُقلِّبُها كيفما شئت . . غير انها مشاهدُ مليئةٌ بالحسرات والآهات . . لقد بخلوا عليَّ حتى في مشاهدة قصر محترق!

* * *

تحوَّلَ «قصر الرحاب» فيما بعد الى سجن رهيب ، ومقر للاعتقالات والتحقيقات ، يعذبون فيه الناس ، ويعلِّقونهم في سقوفه ، ويقتلونهم على جدرانه وبين أروقته ، ويذوِّبونَهم في احواض التيزاب (الاسيد) . . لقد اطلقوا عليه اسم «قصر النهاية»!

لا شك في انها تسمية موفقة ، فالداخل اليه ـ في عهدهم ـ لا يخرج منه . وهم إن لم يقصدوا ذلك من تسميتهم اياه ، فهو قصر شهد نهاية احدى اشرف واكرم العوائل التي حكمت العراق . . ومن يومها لم يشهد العراقيون سوى القهر والاذلال والإبادة . . يا للفجيعة!

مذبحة قصر الرحاب

نجا سائقنا «عمران» من مذبحة قصر الرحاب صبيحة ١٤ تموز (يوليو) ١٩٥٨م ، فانهزم الى «طهران» ومنها الى «عمّان» وهناك التقى الملك حسين ، وطلب اليه ان يلتحق بنا في «لندن» . فجاءنا عام ١٩٦٠م ليروي لنا :

«كنتُ في القصر ، فشاهدتُ الملكة نفيسة اول من تخرج من بوابته الامامية ، يمشي خلفها الآخرون . واذا بالكلب (الذي انتحر فيما بعد) عبد الستار العبوسي ، ينهال بالشتم على الامير عبد الاله ، فردَّ عليه مرافقه ثابت يونس (وكان طيباً من أهالي الموصل) :

ألا تستحتي ، ألا تخجل ، ما هذا الكلام؟ فما كان من (العبوسي) الاّ ان اطلق عليه النار ، وارداه صريعاً . صاح الامير عبد الاله : لا ، لا ، لا . فلم ينصع له ، واذا به يطلق عليهم كلهم النار ، قربَ احدى الاشجار في حديقة القصر الامامية ، ليرديهم قتلى»!

وهم كل من : امي الملكة نفيسة ابنة عبد الاله باشا ، اخي الامير عبد الاله بن الملك علي ، اختي الأميرة عبدية بنت الملك علي ، ابن اختي الملك فيصل الثاني بن الملك غازي . هؤلاء هم من العائلة العراقية المالكة المقتولين .

اما المقتولون الآخرون ، فهم كل من : ربيب اختي عبدية من الخدم اسمه عبد الرزاق ، هندي صاحب مكوى ـ لا اتذكر اسمه ـ جاء يحتمي بأهلي فقُتِل معهم ، مرافق اخي الامير عبد الاله ثابت يونس ، وآخرين .

الناجون من المذبحة ، وهم كل من : الاميرة بديعة ابنة الملك علي واولادها الاشراف الثلاثة (محمد وعبد الله وعلي) وزوجها الشريف حسين

بن علي ، لأنهم كانوا يوم الانقلاب في بيتهم بالمنصور . عمتي صالحة ابنة (ملك العرب) الشريف الحسين بن علي ، لأنها كانت في «اسطنبول» . ابنة عمي الاميرة راجحة بنت الملك فيصل الاول (عمة الملك فيصل الثاني) وابنتيها الاثنتين حزيمة ونفيسة ، وزوجها الطيار عبد الجبار محمود ، لأنهم كانوا يصطافون في لندن . هؤلاء هم من العائلة العراقية المالكة الناجين ، باستثناء الناجي الاخير .

اما الناجون الآخرون ، فهم كل من : زوجة اخي الامير عبد الاله ، هيام الحبيب (توفيت في كانون الثاني/يناير ٢٠٠١م) اصيبت في ساقها . ربيبة الاميرة عبدية ، اصيبت في ساقها ايضا . الخادم حسن المصري ، كان متجنساً بالجنسية العراقية ، لكنه خرج يصيح : انا مصري ، انا مصري (حسب رواية عمران) وللناصرية مكانها في ذلك الوقت ، وآخرون .

بعد سنين من الانقلاب المشؤوم ، جاءنا احد رجال الانضباط العسكري ، من المقربين لأخي الامير عبد الاله «كاظم ضاحي» الى بيروت ، فسأله زوجي الشريف حسين : «انت كنت لآخر لحظة في (قصر الرحاب) ما الذي حصل بالضبط»؟ .

اجاب ضاحي : «طلب سيدنا عبد الاله الحرس ، فجاء (طه البامرني) آمر الحرس ودخلنا (انا واياه) معاً الى الصالون ، فسأله سيدنا : ماهو الموقف؟ وماذا يجري؟ ردَّ بامرني : ان الحرس رأوا ان لا يقاوموا»!

اضاف ضاحي معلقاً : «لم نعرف حينها مغزى جوابه ، وما اذا كان صادقاً ام كاذباً في ما زعمه ، لكننا سمعنا بعد ذلك مباشرة بعض الحرس يبكون . لذا وكما يبدو ان بامرني كان متواطئاً مع الانقلابيين» .

لو صحَّ اتهام ضاحي للبامرني (وهو قطعاً صحيح) فان هذا هو ديدن معظم الضباط العسكريين في منطقتنا للاسف الشديد .

اخفى الحقيقة عني اربعين عاماً!

في تموز ١٩٥٨م ، حينما فُجِعتُ بمقتل اهلي ، لم اسأل عن كيفية قتلهم ، وماذا فعلوا بهم ، واين دفنوهم؟ لم اسأل عن التفاصيل ودقائق المجريات . لم تطاوعني نفسي على السؤال . انما بمجرد ان تيقّنتُ مما جرى ، توقعتُ بأن القتلة دفنوهم دفناً جماعياً ، من دون اي اكتراث بهم ، او اجراء المراسيم والاصول المتبعة في دفن الموتى .

* * *

هذه هي الصورة التي رسمتُها في ذهني ، وتراكمت لديَّ على مر السنين . . لم يتجرأ احد على فتح الموضوع معي . لم يخبرني احد بحقيقة ما جرى في «قصر الرحاب» وخارج «قصر الرحاب» . . مَنْ هذا الذي لديه الجرأة على مصارحتي بما حدث؟!

لم استمع الى جهاز الراديو في صبيحة الانقلاب وعبد السلام ينهق نهيقاً ، محرضاً على قتل اهلي ، وكأن بينه وبينهم ثارات . لنفترض انني اصغيت مرةً ، او اكثر مجبرة الى المذياع ، فانهم لم يتطرقوا الى تفاصيل المذبحة ، وماذا جنت ايديهم الآثمة .

* * *

زارنا في أحد الأيام الدكتور صالح البصّام في السفارة السعودية ، بذريعة انه يعود مريضاً ، وقد علّق سماعة الفحص على رقبته ، كي لا يمنعه الحرس من الدخول عند البوابة .

دخل علينا باكياً متألماً مما جرى لنا ، وقد حمل معه صكّاً أخفاه في حذائه ، حتى لا يعثر عليه أحد . كان زوجي قد وقّعَهُ وسلّمهُ الى البصّام ،

قبل أن نزمع السفر الى لندن صبيحة ١٤ تموز ١٩٥٨م . وهو ثمن عمارة اشتراها الشريف حسين في بيروت ، بوساطة عبد الهادي الچلبي ، فحسب الدكتور انه لن يرانا بعد كل ما حدث ، ورجح اننا سنحتاج الى الأموال ، فأعاده الينا .

روى لنا انه بينما كان في منطقة «الصالحية» متجهاً الينا في سيارته (صبيحة الانقلاب المشؤوم) كي يخلينا من بيتنا الى منزل عبد اللطيف آغا جعفر ، والى جانبه حرمه ، منعه مجموعة من المتظاهرين . فما ان رأوهما حتى صاح أحدهم محرِّضاً (كان يعمل خادماً في بيتهم) :

«هذه ابنة سارق أموال الشعب ، عبد الهادي الچلبي»! فاوقفوهما وأمسكوهما وراحوا يقطِّعون ثياب «ثمينة» . واذا بآخر يعرفهم أيضاً ، أنكر انها ابنة الچلبي ، فخلَّصهم من موت محقق .

. . لم يواصل «البصّام» حديثة معي ، انما انفرد بزوجي الشريف حسين وراح يحدِّثهُ عن أمور كثيرة . حكى له كل شيء ، ولم يُخفِ عنه خافية أو سرّاً .

وعندما سألت زوجي ـ فيما بعد ـ عمّا قاله له البصّام ، وما حدث لأهلي ، لم ينبس بكلمة ، سوى انه نسب الى عبد القادر رانية قوله ، انه شاهد صورة للامير عبد الاله وهو نائم ووجهه مخربش!

. . بينما كان هو على دراية كاملة من ان الانقلابيين القتلة ، قتلوا أهلي ، ومثَّلوا بأخي الأمير عبد الاله ، وسحلوه في شوارع بغداد ، وعلقوه مشنوقاً امام الناس لأيام ، وقطَّعوه ارباً اربا ، في مشهد تقشعّر له أبدان غير بني البشر!

سوف لا يصدِّقُ الناس بأن هذه الحقيقة ، التي يعرفها الجميع ـ وسمع بها حتى الاطفال ـ بقيت خافية عليَّ نحو اربعين عاماً .

مـارس زوجي الشـريف حـسين خـلالهـا مـعي دور الرقـيب الاعـلامي المتيقِّظ ، واعاق وصول الحقيقة اليَّ ، وصادر كل ما من شأنه ان يرويها ، من كتب ومجلات وجرائد .

ظلَّ (رحمه الله) يـراقـب ويتتبع ويتحقـق مـن كل مـا يـدخل بيتـي ، ولـم يسمح لي بقـراءة او مشـاهدة او سـمـاع ، كل ما من شـأنـه أن يثيـرني ويـؤجـج احـزاني واشـجـاني . . كـل ذلك من اجل ان لا يصـدمني بالفجيعة .

ولهـذا بقـيـتُ غـيـر عـارفـة بالامـور ، حـتى وقـع بيـن يـديَّ كـتـاب «التأريخ يُكتب غداً» لعبد المجيد حسيب القيسي ، قرأته ، واذا بي امام رواية مـقـتل اهلي واخي عـبـد الاله . لم اصـدِّق عـينيَّ اول وهلة . أعَـدْتُ قـراءة الرواية ، فلم اتمالك نفسي . سألتُ زوجي الشريف حسين عمّا اذا كان ما أقرأُه صحيحاً ام لا؟ اجاب : لا ، لا ، هذا مجرد كلام!

* * *

اخـذتُ الكتاب الى ولدي الشريف محـمـد وسـألتُـه : «قل لي يا بُنَيَّ بصدق ، هل ان ما يذكره هذا الكاتب ، بشأن مقتل اهلي واخي صحيح ، ام لا»؟ . . نظر اليَّ بنظرة الوجِل المرتاب ، تردد ، بلع ريقه ، تلعثم ، ثم اومأ برأسه واجاب بهمس : «نعم صحيح»!

لَعنة تموز تُطارِد الفراعِنَة

اعتقد ان الفارق بين اهلي واعدائهم ، ظل بسيطاً على مدى التاريخ ، وهو ان اهلي يُقتَلون مظلومين ، ولا يَقتِلون ظالمين ، ولهذا يُخلَّدون . بينما اعداؤهم يَقتِلون ظالمين فيُقتَلون ، او يموتون ممسوخين ، ولهذا يُلعَنون!

ما من قاتل لاهلي او مُطَبِّلٍ او راضٍ بقتلهم ، الاّ ولاقى مصيراً مهيناً ، وراحت لعنات السماء والأرض تلاحقه ـ بعد موته ـ الى مثواه الاخير!

إعدام الزعيم الاوحد!

بعد حوالي اربع سنوات ونصف السنة فقط على انقلاب ١٤ تموز الاسود ، شاهدتُ «عبد الكريم قاسم» من على شاشة التلفزيون البريطاني ، وقد تدلَّت رقبته على كرسي الاعدام ، كأنه ذبيحة بأيدي جزّارين!

قاده رفاقه ممن تآمروا معه على خيانة عرش العراق ، في التاسع من شهر شباط (فبراير) عام ١٩٦٣م ، الى مقر الاذاعة والتلفزيون بمنطقة «الصالحية» ليحاكموه على جرائم ، ربما لم يرتكب بعضها ، انساهم الله (جلَّت قدرته) بانهم ، انما يحاكموه على جريمته الكبرى في قيادته الانقلاب على اهلي!

تلقى رصاصات العار والشنار من زُند مَنْ تحالف معهم بصدر مفتوح ، وهو يعلم في قرارة نفسه ، بأنه انما يتلقى حكم الحق والعدل الالهي ، جرّاء جريمته النكراء تلك .

* * *

حقيقة اني لأَتساءل : كيف سمح له شرفه العسكري وضميره ، ان يخون عرش العراق ، بعد ان اقسم اغلظ الايمان ، واعطى اوثق العهود ، بانه من اكثر الناس اخلاصاً ووفاءً له؟!

كان يفترض في مَنْ زعم لنفسه ، بانه هو الزعيم الاوحد ، وباني المساكن والبيوتات للفقراء والمعوزين ، او بالاحرى كان يفترض في مَنْ زعموا بانهم رأوا صورته في القمر ، ان يبنوا له قبراً في الارض!

بيد انه ليس لمن وُصف بانه منقذ العراق وشعبه ، من قبر ، ولا هم يحزنون . . ما السرّ يا ترى؟!

* * *

سمعنا خبر اعدامه ، ورحنا نرفع سماعات الهواتف ، ليهنئ بعضنا البعض الآخر(نحن وآل الداغستاني وآل السعيد وغيرنا) . لم يكن بودنا ان نحتفل ، ربما لاننا كنا في بلد اجنبي (بريطانيا) لا يفقه شعبه كُنه احتفالنا!

وربما لاعتقادي بأنه لم يكن يريد قتل اهلي . . هكذا سمعتُ من الناس ، وهذا هو شعوري الداخلي تجاهه . بخلاف احاسيسي عن (. . .) عبد السلام عارف ، الذي خطط وأمر بقتل اهلي . لا بل حتى اللعين ناجي طالب ، الذي علّق على مقتلهم قائلاً : «حسناً فعلوا قتلوهم ، بدلاً من ان يعودوا ثانية كما عادوا عام ١٩٤١م» .

* * *

يروي مرافق ملوك العراق الاقدم عبيد عبد الله المضايفي ، بان عبد الكريم قاسم دخل عليهم في السجن يرتجف ، وهو يكلِّم رجالات العهد

الملكي (من الذين القي عليهم القبض بعد الانقلاب) بخوف ملحوظ ، لانه كان مايزال قلقاً ومتوجساً من التحرك المضاد ضد انقلابه .

هذه الشخصية الانطوائية ، المنعزلة ، القلقة ، المرتبكة ، ذكّرتني بها الشريفة رتيبة المهنّا ، عندما زارتني في بيروت بعد الانقلاب . جَلَسَت معي نستعيدُ ذكرياتنا عن حرب ١٩٤٨م مع اسرائيل ، وتطوّعنا لمعالجة جرحى الجيوش العربية . كانت «رتيبة» تشرف على معالجة ثلاثة ضبّاط عراقيين ، جُرِحوا في احدى المعارك .

زرناهم انا وامي ثلاث مرات ، للسلام عليهم ، والاطمئنان على صحتهم ، ورفع معنوياتهم . ولم أُكلَّف انا بتطبيبهم ، كي لا يُقال بان الاميرات المتطوعات ، يُطببن الضباط ولا يهتمنّ بالجنود!

لفت نظري منظر احدهم الكئيب . كان عابساً ، حانقاً على الدنيا ، مكتئباً ، مصفرّ الوجه ، على عكس رفيقيه الضاحكين البشوشين بوجه الاطباء والممرضات . عَزَلَ سريره في احد اركان الردهة التي يرقد فيها ، وأدارَ وجهه الى الحائط

. . سألتني رتيبة : «أتذكرينه»؟ قلت : «نعم» . ردَّت : «لم يكن ذلك المريض ، سوى عبد الكريم قاسم» .

* * *

لعل أمراً مُسِرّاً واحداً ـ بالنسبة لي ـ فعله عبد الكريم ، سأبقى اتذكره ما حييت ، هو انني سمعت من بعض القادمين من العراق (الى الخارج بعد الانقلاب) بانه سمح بتركيب رأس جمال عبد الناصر على جسد سامية جمال ، وجعلها صورة راقصة ، علَّقها في «شارع الرشيد» ببغداد!

. . فبعد كل الطبول التي قرعها عبد الناصر ، في دعوته للقضاء على اهلي بالعراق ، لم يرقص في حفلته . . سواه . . وبجسد عارٍ مستعار!

إحراق بطل الثورات!

بعد ثلاث سنوات وثلاثة اشهر فقط على اعدام قاسم ، احترق رفيق دربه وقاتله عبد السلام عارف في السماء . وردد العراقيون اهزوجتهم المعروفة «صعد لحم ونزل فحم» تشفياً بقتلته البشعة ، وقرفاً من سياساته الرعناء المخزية .

كنا ببيروت في الثالث عشر من شهر نيسان (أبريل) عام ١٩٦٦م ، يوم احرق البارئ (جلت عظمته) عبد السلام في الدنيا قبل الاخرة .

* * *

في اليوم التالي على احتراقه (الخميس ١٩٦٦/٤/١٤م) بعد أن أُذيع الخبر من بغداد ، أخذتُ ولدي الشريف محمد الى السوق ، واشترينا كل ما وقع عليه نظرنا من صواعق متفجرة «صعّادات» . وأتينا بها في سيارة اجرة الى شقتنا ، والتي كانت تقع من حسن الحظ ، أو من سوئه لا أدري بالقرب من السفارة العراقية .

دعوتُ نحو عشرين ولداً وبنتاً من اعمار اولادي ، من آل الباشاعيان والدامرچي والچلبي والبصّام وغيرهم ، ورحنا نشعل النيران في الصعادات والصواعق المتفجرة ، حتى دوّت اصواتها بين جدران السفارة العراقية وحيطانها ، فزعوا من تلك الأصوات ، ما اضطرهم الى استدعاء الشرطة اللبنانية .

جاء احد الشرطة وسأل احمد برهان الدين باشاعيان : «ماتفعلون»؟ اجاب : «لاشيء ، اننا نحتفل بعيد ميلاد احدنا»!

. . أخطأ الشرطي بسؤاله أحمد ، لو كان سألني لقلت له : «اننا نحتفل باحتراق عبد السلام» .

سألتني احداهن : «أليست هذه الكمية من الصواعق كبيرة»؟ اجبتها بأعصاب باردة : «كلا ، لا اعتقد ذلك ، لأَنَّ عبد السلام لا يموت يومياً . . انه ـ كما تعلمين ـ يموت مرة واحدة فقط»!

لم يكتفِ هذا العقيد الاهوج ، بنهيقه يوم انقلابه على اهلي من دار الاذاعة ، انما ظَلَّ ينهق بخطب بائسة ، تثير شفقة مستمعيه عليه ، كلما زار لواءً من الوية العراق .

ولم يكتفِ بترقية نفسه (من عقيد الى مشير) خلال بضع سنوات فقط ، ولا بتزييفه للحقائق ، بحيث سمّى انقلابه ثورة ، وزعم بانه بطل ثلاث ثورات ، وهي (إن صحَّت أعدادها ، أو صحَّ دوره في جميعها) ليست سوى خيانات ومؤامرات ودسائس ، يندى لها جبين الشرفاء من الرجال .

لقد ظنَّ في نفسه بأنه يستطيع ان يسخر من التأريخ والعراقيين ، ونسي بأن التاريخ والعراقيين ، كاناومازالا وسيبقيان يسخران منه ، ومن القدر الخائب الذي جعل منه رئيساً للعراق في يوم من الأيام!

* * *

ثمة زاوية أخرى ، يمكن النظر من خلالها الى الأدوار ، وهي إنَّ أجمل ما في حياة هؤلاء الانقلابيين القتلة ، من ادعياء البطولة الفارغة والانتصارات الوهمية والانجازات الزائفة ، هي انهم انقلبوا بعضهم على بعض ، وقتلوا واحرقوا وسحلوا بعضهم البعض الآخر ، على فترات متقاربة .

. . لقد انتهوا وانا مازلت حيَّة الى اليوم اتفرَّجُ على نهاياتهم المخزية ، التي غالباً ما تتم بأيدي رفاقهم ، لا بأيدي اعدائهم . . اذن أليس من حقي ان اتساءل : لماذا ومن اجل ماذا قتلوا اهلي؟!

إماتة طاغوت

بعد اقل من اربع سنوات ونصف السنة على احتراق عبد السلام ، في «النشوة» القريبة من (البصرة) جنوب العراق (ربما بعدد السنين والاشهر التي حكم فيها عبد الكريم قاسم العراق) تشاء الصدف ان اكون بمصر ، الدولة التي يحكمها فرعون القرن العشرين . كنا في آخر شهر ايلول (سبتمبر) من عام ١٩٧٠م ، مدعوين لتناول طعام العشاء في بيت الشريف علي (ابن اخ زوجي الشريف حسين) .

يومها خرجت «عالية» ابنة اخت زوجي ، برفقة زوجها ، لحضور احد الافلام في السينما . فجأة دخلا علينا يلهثان ، جاءا راكضين ليخبرانا بان . . «عبد الناصر مات»!

لم اصدق الخبر . نزلتُ الى الشارع مسرعة ، لاتطلّع في وجوه الناس ، ضاحكةً ، مستبشرةً ، مسرورة . تجمّعَ الناس حولي ، كما يتجمعون حول معتوهة او مسلوبة عقل ، ورحتُ اخطبُ فيهم صارخة : «مالكم مستغربون؟ الم يمت احد من قبل؟ وهل عبد الناصر أول الميتين؟ كل الناس يموتون ، ولن يبقى الاّ وجه ربكم ذو الجلال والاكرام» .

لحقني زوجي الشريف حسين وجرّني بقوة الى الدار ، قائلاً : «ماذا دهاكِ؟ هل جننتِ؟ ان الناس سيهجمون عليكِ»! ناديتُ بنات عمي صائحة : «آتينني بثوب احمر ، بأي شيء احمر ، بكل شيء احمر ، ارتديه فرحاً بوفاة فرعون مصر» .

لبستُ الاحمر لثلاث ليالٍ متتالية . سجدتُ على الارض شكراً لله على عطفه وكرمه ، اراني موتة عبد النّاصر ، ولم يمهله طويلا .

* * *

لا يعلم الناس ولا يمكنهم ان يقدِّروا ، كم نغَّص وكدَّر عبد الناصر على اخي (وعلينا كعائلة) وعليَّ حياتنا . كنا نهرب من حرِّ الصيف ببغداد ، لبضعة ايام نقضيها في مصيف «سرسنك» بعيدين عن مشاكل العراق وهمومه . هناك يجلس اخي ناصتاً لاذاعة «صوت العرب» من القاهرة ، يستمع الى شتائم عبد الناصر بحقه!

كنت اسأله دائماً : «لماذا يا اخي تستمع اليها؟ هل هناك انسان في هذه الدنيا ، يرضى لنفسه ان يستمع لآخر يشتمه؟! وهل جئنا الى هنا لكي نرتاح من همومنا ، ام لنزداد همّاً ونتنغص»؟! فكان يجيبني باستمرار : «انني اريد ان اعلم بما يجري حولي ، اريد ان اعرف ماذا يقولون» .

يقع مصيف «سرسنك» في منطقة جبلية مرتفعة من كردستان العراق ، قرب الحدود التركية بمحافظة دهوك الحالية . تُلتَقَط فيه اذاعة «صوت العرب» بوضوح ، لا يعترض موجاتها القادمة عبر الاثير ، سوى الصوت النشاز لعبد الناصر والنابحين معه ، تحريضاً على العراق وحكامه .

هذه هي مواقف عبد الناصر واذنابه من العراق ، ومع اخي الامير عبد الاله ، الاّ ان موقف اخي معه ومع مصر ، على النقيض من مواقفه تماماً . . اتذكَّرُ يوم وقع العدوان الثلاثي (البريطاني ـ الفرنسي ـ الاسرائيلي) على مصر سنة ١٩٥٦م بعد تأميم «قناة السويس» .

كنا نجلس في صالة الطابق الارضي من «قصر الرحاب» واذا بأخي الامير ينزل من فوق بتثاقل عبر السلالم ، دامع العينين ، محمَّرَ الوجنتين ، يخطُّ برجليه الارض خطاً ، يبلع ريقه بين هنيهة واخرى . نظرنا اليه كلنا باستغراب ، فبادَرَنا الى القول : «لقد ماتت القاهرة ، فاذاعتها لا تُسمع للاسف»!

* * *

ليس من عـادتنا (نحن بني هاشم) الشـمـاتة بالاعـداء ، ولا هذه هي اخلاقنا ، فنحن بيت رحمة وإباء ، لكنني إمرأة ، أيتمني عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف وجمال عبد الناصر ، وابقوني وحيدة ، من دون أم أو اخ أو اخت أو ابن أخت . . هم الذين قتلوا أهلي . ولم يكتفوا بذلك ، انما شمتوا بي ، وسخروا مني ، واسمعوني كلاماً لو أُسمِع للحجر لتفجَّرَ وتفتت . فكان لا بد من معاملتهم بالمثل ـ ولو بالشماتة فقط من دون القتل ـ ولا حتى من باب العين بالعين والسن بالسن والبادئ اظلم .

لقد شَمَتَ جمال بمقتل اهلي ، اولئك الذين لم يفعلوا له شيئاً ، وآن الاوان ان اشمت بشامتي . . فقد صمت الصوت النشاز ، الذي غنّى طويلاً لمذبحة اهلي في «قصر الرحاب» . . والى الابد .

وماذا قالوا عنهم؟!

يقولون اليوم بان هؤلاء الحكام وطنيون ، ودليلهم هو انهم رحلوا عن هذه الدنيا ، ولم يجدوا في حساباتهم اموالاً ، ولم يرهنوا بلدانهم للاجنبي! اقول ليس بهذا المنطق المقلوب نحاكم التاريخ ، فهؤلاء حكام دكتاتوريون قتلة ، أياديهم ملطخة بدماء الأبرياء . متآمرون ليس عندهم ذرّة من شرف أو أخلاق . صادروا الحريات ، واستولوا على اموال الناس ، وسكنوا في قصور وبيوت اغتصبوها . خاضوا حروباً وهمية مع اعداء مزعومين ، إدَعَوْا انهم انتصروا عليهم ، بينما هم سببوا افظع الهزائم واشنع الانكسارات لبلدانهم .

ربما لم يجد البعض اموالاً في حسابتهم ، ولكن ماذا عن حسابات غيرهم ، من ذويهم ورفاقهم؟! ماذا عن بلدانهم التي تركوها خلفهم ، بعد

ان كانت دائنة ومكتفية اكتفاءً ذاتياً بما عندها ، حوّلوها الى مدينة ، تعتاش على ما تترحم به عليهم الدول العظمى ، من اعانات ومساعدات ، ناهيكم عن ارتهانهم لها!

* * *

نصف قرن من الزمان انصرم على الحكام الملكيين السابقين ، فهل استطاع احد خلال هذه السنين ، ان يجد دليلاً واحداً على عمالتهم للاجنبي ، كما كان يزعم اعداؤهم هؤلاء؟!

قارنوا بين الحياة في مصر خلال الثلاثينات والاربعينات ، وبينها في الخمسينات والستينات . او بين الحياة في العراق خلال الاربعينات والخمسينات ، وبينها في الستينات والسبعينات الى يومنا هذا .

فهل الانسان في ظل حكم الجبابرة والطغاة ، آمن على دمه وعرضه وماله ، كما كان آمنا في السابق؟! ام ان دولة المخابرات والرعب والاجهزة السرية (الجمهورية) هي التي حلت بديلاً ، عن دولة القانون والمؤسسات واحترام الانسان (الملكية)؟!

. . يقولون انهم رحلوا عن هذه الدنيا ولم يجدوا لهم اموالاً في حساباتهم . فمن قبلهم رحل جدي علي بن ابي طالب ، ولم يترك خلفه ديناراً ولا درهما . ومن بعده اقتفينا نحن اثره ، فحملنا اموالنا معنا من الحجاز الى العراق ، وخرجنا من العراق بملابسنا التي على اجسادنا ، بعد ان ذُبحَ اهلونا!

رحلة العذاب بعد الانقلاب

مصر

في اليوم التالي لمغادرتنا العراق في ١٩٥٨/٨/١٢م ، اذاعت اذاعة «اسرائيل» في ١٩٥٨/٨/١٣م خبر وصول خالة الملك فيصل الثاني الى مصر! انني مازلتُ الى الآن اتساءل مستغربة : كيف عرفوا بهذا الخبر؟ مَنْ الذي سرَّبه اليهم؟ تكاد تكون رحلتنا تلك من بغداد الى القاهرة سرية ، فكيف علموا بها؟!

استأجرنا سيارة اجرة الى منزل أُناسٍ حجازيين في القاهرة «آل نصيف» . ماتزال علاقتنا بهم قائمة الى اليوم ، تفاجؤوا بوصولنا ، وكانوا توقعوا باننا مقتولون ايضا .

دخلنا عليهم فاستقبلونا بالبكاء والعويل . بقَينا عندهم بضعة ايام ، حتى جاءتنا الملكة دينا عبد الحميد (زوجة الملك حسين بن طلال الاولى ومطلَّقَتَه من الاشراف) بقينا عندها حوالي اسبوع .

بعد مكوثنا في «القاهرة» سافرنا الى «الاسكندرية» لننزل في بيت «حماي» الشريف حسن بن علي . لكننا ارتأينا ان ننتقل من عندهم الى الفندق ، لضيق المكان ، فنزلنا في فندق «ST. STAVEN» لليلة واحدة . لم احتمل البقاء فيه لفترة اطول ، بسبب اصوات الموسيقى الصاخبة ، والرقص الذي لا ينقطع ليلاً ولا نهاراً! بينما انا في حالة حزن شديد ، ابكي على اهلي واحبابي .

عدنا في اليوم الثاني الى بيت اخ زوجي ، مفضلين البقاء كلنا في غرفة صغيرة ، على الاستماع الى الرقص والموسيقى . بقينا عندهم حوالي اربعين

يوماً ، رأيتُ خلالها في مصر ما لا يحتمله انسان ، لديه ذرة من مشاعر واحاسيس سوية .

أُحِبُّ مصر ولا أُحِبُّها ، احبها لطيبة اهلها ومائها وترابها ، ولا احبها بسبب جمال عبد الناصر . ارى الناس يصفقون له وهم لا يدرون ما يفعلون . لم يقتصر الهتاف له على الشوارع ، انما دخل بيتنا ايضاً ـ كما سأروي الآن ـ ولهذا لم احتمل هذا الهراء .

* * *

ففي سفرة تالية لنا ، عدنا بها الى مصر بعد مغادرتنا اياها (لأغراض تصفية بعض املاك زوجي هناك) سمعت ولدي الشريف علي ، يهتف ويصيح «يعيش عبد الناصر»! لم يكن هذا الطفل يدرك بأن الذي ينادي لحياته ، قد تادى لموت اهله ، وحرَّض على قتلهم وتشفى بنهايتهم .

لم يفهم علي الصغير معنى شماتة عبد الناصر ، بمصرع خاله الأمير عبد الاله وجدته الملكة نفيسة وخالته الأميرة عبدية وابن خالته الملك فيصل الثاني . لا ادري من اين التقط ابني ذلك الهتاف السخيف الممجوج الاستفزازي ، وراح يصدح فيه داخل بيت عمه؟!

لقد جنَّ جنوني بسماعي اياه ، سيَّما كانت قد جالت في نفسي بعض الخواطر ، عند ترحيلي الى مصر اول مرة . وهي ان اطفالي سيلتحقون بالمدارس المصرية عمّا قريب ، وسينادون مجبورين كما ينادي اقرانهم ، مما تُلَقِّنهم المدارس ، باوامر من اجهزة المخابرات والامن والمباحث ، هاتفين لحياة عبد الناصر . . لهذا لم اطق العيش في بلد ، يحكمه هكذا متجبرٍ . كان بودي الخروج منه ساعة قبل اخرى .

فيما كان البسطاء والمساكين من الناس ، يهتفون ويحتفلون بعبد الناصر ، انظر انا اليهم ، والى انفعالاتهم البادية على قسمات وجوههم ، والسكاكين تقطِّع احشائي . اتساءل ماذا يفعل هؤلاء الفقراء؟ أيدرون انهم يصنعون فرعوناً جديداً من فراعنة مصر ، سيلقي بهم الى التهلكة؟!

* * *

ما زال صدى كلماته يرنُّ في اذنيَّ ، وهو فرح مسرور بمقتل اخي . ماذا فعل عبد الاله لك ياهذا؟ فهل قتل اباك ، حتى تثأر منه؟!

لقد قُتِل اخي عبد الاله مظلوماً ، بسبب دعايات عبد الناصر التحريضية عليه ، ولكن لابُدَّ للتأريخ من ان ينصفه يوماً ، ليردَّ اليه اعتباره ومكانته . ومات عبد الناصر موتاً ، بعد مجد زائفٍ خدّاعٍ تركه وراءه .

واليوم حينما اسأل عن قبر الزَّعيم الخالدً! يقولون لي : «لم يعد له قبر ، لقد جرفته بالوعات القاهرة مع القاذورات والنجاسات ، اثر انفجار حدث فيها ، الى حيث لا يدرون» . . ولكنّي ادري ، الى حيث جهنم وبئس المصير .

سويسرا

يحصل احياناً ان بعض الامور ، تجري بيسر وسهولة ، بتوفيق من الله (سبحانه وتعالى) فبعد قرارنا مغادرة مصر ، اخذنا نبحث عن طرق مختصرة ومتاحة لتحقيق هذا الهدف . جرَّبنا حظَّنا بإرسال مدير «العزبة» العائدة للشريف حسن بن علي ، الى السفارة العراقية ، لاننا نحمل جواز سفر عراقياً ، نطلب مساعدتنا للحصول على «ڤيزا» تأشيرة دخول الى سويسرا . ساعَدَنا رجال موظفون في السفارة منذ ايام العهد الملكي ، فحصلنا عليها في وقت قياسي .

ولكننا بعد حصولنا على التأشيرة ، خشينا من ان يمنعنا عبد الناصر من السفر الى خارج مصر ، غير أننا في الثلاثين من ايلول (سبتمبر) ١٩٥٨م غادرنا القاهرة الى جنيف ، من دون اية عراقيل او منغصات!

نزلنا في احد فنادق جنيف ، وزارنا على الفور سفير المملكة العراقية في سويسرا «نجيب الراوي» الذي اقالته الحكومة الجديدة من منصبه ، لكنه آثر البقاء هناك على العودة الى بغداد . اقترح علينا تأجير شقة ، كان قد هيأها لنا من قبل . استأجرناها وبقينا فيها نحو تسعة اشهر .

من جنيف اتصلتُ بحرم المرحوم نوري السعيد هاتفياً في لندن ، وبقينا على الخط فترة من الزمن نبكي ، من دون ان نتحدث بشيءٍ آخر ابدا!

لم يهتم بنا السويسريون طوال فترة مكوثنا في بلدهم ، انما عاملونا كما يعاملون الآخرين .

زارنا يوماً أحد الأميركيين بتكليف من الملك حسين ، ليزودنا بجوازات سفر أردنية ، فردَّ زوجي الشريف حسين بأننا لسنا في حاجة اليها ، وكان هو قد حصل على جواز سفر سعودي . أما انا فانني أحمل اليوم جواز سفر اردنياً ، مدوَّنٌ فيه ولادتي المزوَّرة نفسها عام ١٩٢٢ بالمدينة المنورة . صحيح ان عبد الناصر قد ولّى ، ولكنني لا أجد ضرورة لتصحيحه بعد هذا العمر الطويل ، الذي لم يبقَ منه شيء .

كانت عادة الملكة زين (والدة الملك حسين بن طلال) ان تصطاف وتعالج في «لوزان» كل عام ، واثناء فترة وجودنا في «جنيف» جاءت لتعزيني ، فلذا رددنا عليها الزيارة في الفندق . قال لها زوجي الشريف حسين : «انه لمن الظلم بمكان ان تحرموا ابنة الملك حسين (عالية) من رؤية أمها (الملكة دينا) . كما ان الملك حسين قد وعدني في آخر زيارة له الى بغداد ، بأنه سيسمح بذلك» .

ردَّت «زين» بأن والدها يرفض ان ترى زوجتُه ابنتَها .

ظلّت «عالية» عند جدتها «زين» لا تدعها ترى أمها «دينا» ولهذا حاولت الأم اختطاف ابنتها ، وتهريبها عن طريق «اسطنبول» . الاّ ان الخطة فشلت ، وتجدّد الخصام بين الطرفين . . تزوَّجت «عالية» مرتين ولديها أطفال .

زارتني شيرين اخت الامير رعد بن زيد (من امه فخر النساء لأنها متزوجة من تركي) فأعربتُ لها عن تذمري وتأثري الشديد ، من عمي الامير زيد بن الحسين ، لأنه منذ الانقلاب المشؤوم لم يسأل عني ، ولم يتفقدني ، وكأنه لم يكن له ابنة أخ جرى ما جرى عليها!

صحيح انني لست في حاجة اليه ، مادام زوجي الشريف حسين موجوداً ، ولكنه على الاقل كان يفترض فيه ان يتصل بي هاتفياً ، ليسألني ان كنا احياءً ام امواتا؟!

يبدو ان ابنة حرمه اوصلت اليه عتابي ، فبادر الى الاتصال بنا هاتفياً في جنيف ، ثم جاء بعد ذلك لزيارتنا في لندن .

ظلَّ الشريف حسين يراجع السفارة البريطانية في سويسرا ، للحصول على تأشيرة دخول اليها ، غير ان الانگليز لم يمنحونا «الڤيزا» ربما لأنهم لم يرغبوا في ان (يُزَعِّلوا) الزعيم الاوحد عليهم!

بعد مماطلات وتأخير ، رفعوا الحظر علينا ، ومنحونا تأشيرة الدخول البريطانية ، فغادرنا «جنيف» الى «لندن» .

كانت «ناني» المربية الانگليزية قد التحقت بسفارتها البريطانية ، ايام تواجدنا في السفارة السعودية ببغداد ، فقد سرَّحها زوجي الشريف حسين ، خشيةً عليها من ان يصيبها مكروه . كما اننا لم نكن (وقتها) نعرف مصيرنا ، بينما هي احدى رعايا دولة عظمى ، تستطيع دولتها ان تطالب بها .

طارت الى «قبرص» ومنها الى «لندن» . أخلوا الرعايا البريطانيين الموجودين بالعراق في طائرات عسكرية خاصة . وفي لندن لاحَقَتْها وسائل

الاعلام البريطانية ملاحقة حثيثة ، وطلبوا اليها ان تروي لهم ما حصل في العراق . . فَرَفَضَتْ .

أغروها بـ (١٠٠٠) ألف جنيه استرليني (وهو مبلغ يسيل له اللعاب عام ١٩٥٨م كثمن لمقابلة صحفية) على ان تتحدث ، فرفضت قائلة : «انني لا أدري ما الذي سيحصل لهم ، فيما لو أبحتُ لنفسي حق الحديث عنهم . ان حياتهم ماتزال في خطر ، ولذا فاني أرفض البوح بأي شيء» .

ومرت الأيام ووصلنا الى «جنيف» فالتحقت بنا «ناني» المربية من جديد . وفي يوم شتوي مشمس ، كان ولديَّ الشريفان محمد وعبد الله يلعبان قرب الدار ، فجاء رجلان محترمان يرتديان بدلتين راقيتين ، وسألاهما عن بيتهما باللغة الانكليزية ، فدلاّهما عليه . طرقا الباب وطلبا اجراء مقابلة صحفية مع «ناني» المربية فوافقت .

. . ولكن متى وافقت؟ بعد ان اطمأنت علينا ، ولم يعد أحد منا باقياً في العراق . نشروا المقابلة في صحيفة «ديلي اكسبرس» على ما أعتقد مع صور لولديَّ الشريفين .

* * *

اخبرتني «ناني» المربية بانها ، بعد ان طارت بها الطائرة العسكرية البريطانية من قبرص ، سألَتْ ضابطاً انكليزياً من افراد الطاقم العسكري : «لماذا هذا الذي حصل في العراق؟ ولِمَ لم تحرك بريطانيا ساكناً ضد حكومة عبد الكريم قاسم؟ فقد لوحظ سكوتها عليه»! ردَّ ضابط الجو الانكليزي : «انه البترول . . البترول يا عزيزتي»!

تجوال لا ينتهي

جئنا الى لندن لأول مرة بعد الانقلاب ، لنرى ماذا كان باستطاعتنا العيش فيها ام لا ، فوجدنا من الصعب علينا البقاء فيها .

حَجَزَ لنا الشريف حسين جناحاً فخماً في فندق «دورچستر» نزلنا فيه . سألتني حرم عمي الأمير زيد (والدة الأمير رعد) : لماذا هذه الأبهة والبذخ غير المبرر؟! أجبتها : «ان زوجي يقول ، بأن العراقيين سيأتون لتعزيتنا ، بمصاب العائلة العراقية المالكة ، وأنا أريد أن أُريهم ، بأننا مازلنا أولاد رسول الله (ص) في عزنا وكرامتنا ، لم نفقر ولم نتبهذل» .

اول ما وصلتُ التقيتُ بحرم نوري السعيد ، ورحنا نبكي اكثر مما بكينا في مكالمتي الهاتفية من «جنيف» . في اليوم التالي اتَصَلَتْ بي «عصمت» زوجة صباح نوري السعيد .

ودَّت ام صباح وكنَّتُها ان تسمعا مني ما جرى في العراق ، لأنهما لم تشهدا ما حصل ، كانتا في لندن ، واستقيتا معلوماتهما من الصحافة فقط . حدثتُهما عمّا اخبرنا به الدكتور صالح البَصّام ، اثناء زيارته لنا في السفارة السعودية ببغداد ، من ان «نوري باشا» استخدم زورقاً نهرياً للوصول الى بيت البصّام ، فَأنقَذَتْهُ «ثمينة» اول الامر ، لكنه اصرَّ على الذهاب الى منزل «الاستربادي» بالكاظمية ، فَوَضَعَتْهُ في صندوق السيارة وَنَقَلَتْهُ اليه . الاّ انه لم يبقَ فيه ، فخرج . . والى نهاية القصة المعروفة .

لنوري باشا حفيدان من ولده صباح وعصمت ، مات «عصام» بالقلب ، بينما كان «فلاح» طيّاراً خاصاً للملك حسين ، تصوَّف متأثراً بالاخوان المسلمين ، مطلَّقتُه قريبته من آل العسكري ، تزوَّج شركسية وله منها ابنتان . انقلبت فيه السيارة عند عودته من مطار عمّان ، ومات .

امهما «عصمت» مفكرة ومثقفة مبدعة ، اصيبت بمرض فقدان الذاكرة ،

فرقدت فترة طويلة في احدى مستشفيات بريطانيا . . حتى ماتت مؤخراً .

في لندن زارني عمي الامير زيد بن الحسين ، وهو شخصية متميزة عن اخوانه من ابيه الملوك (علي ، عبد الله ، فيصل الاول) . امه تركية وثقافته تركية قديمة ، يواجه صعوبة في التحدث باللغة العربية ، ولهذا تملّكته عقدة مستعصية من هذه الامور .

ففي احد الايام وبينما انا اتحدث مع «ام صباح» بحضوره ، فاذا به يردُّ باثارة واستفزاز : «آيه . . يسموني البدو ابن التركية» . قضّى شطراً من حياته في العراق . مارس مسؤوليات في الدولة كنائب للملك ، وعُيِّنَ سفيراً غير مرة ، وفي اكثر من بلد ، لكنه ارتأى ان يقضي بقية عمره في عمّان .

كان عتبي عليه شديداً ، لانه العم الوحيد الذي بقي لي من بين اعمامي الراحلين . حسبتُ انه الوحيد الذي نساني ، لكن كما يبدو ان ابن عمي الامير رعد ، هو الآخر لم يسأل عني .

حاول عمي زيد بعد هذه القَطيعة ، ان يتودد اليَّ ويتقرب مني ، واخذ يدلل اطفالي ويتفقدهم . دعانا مرة الى بيته في جزيرة «إِسكيا» في ايطاليا ، فَعَلَ بعض ما من شأنه ان يقلل من حدة العتب عليه .

بينما نحن في ضيافة عمي الامير زيد في ايطاليا ، بدأ عبد الناصر بأجراء ما يسمى بالتأميمات والاصلاح الزراعي ، وما الى ذلك من قرارات حاقدة مجحفة اصدرها ، استولى من خلالها (وتحت ستارها) على اموال الناس وحقوقهم ، وانتقم من اشخاص لدوافع ذاتية مَرَضِيَّة .

الامر الذي حدا بالشريف حسن ان يدعو اخاه الشريف حسين ، لزيارة مصر على عجل ، وتدارك الامور من خلال إجراء بعض المعاملات الرسمية والحكومية ، بشأن املاكنا هناك . فَعُدْنا مضطرين مرة اخرى الى بلاد النيل ، تلك التي ما فتئنا ان غادرناها سابقاً (ولاحقاً) على عجل .

عواصم : حيرة الاستقرار

روما

سافرنا من جديد الى روما ، بقينا فيها حوالي اربعة اشهر ، لنتأكد ما إذا كان بإمكاننا الاستقرار فيها ام لا؟! لم يلائم الجو اولادي الأشراف هناك ، فبدأوا يمرضون ويضعفون واحداً تلو الآخر .

استأجرنا شقة تعود لكونتيسة في «پريول» أحد ارقى احياء العاصمة الايطالية . دخلنا البناية واذا بصورة معلَّقَة على الحائط لفاروق ملك مصر! تساءلنا ما هذه المصادفة؟ فتبين لنا بأنه يسكن في العمارة نفسها التي سَكَنّا فيها ، وفي الشقة التي تحتنا بالضبط!

بعد هذه المفاجأة غير المتوقعة ، قلنا في أنفسنا ماذا سيفعل عبد الناصر بنا ، فيما لو علم بهذه الجيرة؟ وهو سيعلم بكل تأكيد ، ومن المحتمل أن يبتزَّ زوجي الشريف حسين من خلال أملاكه في بلده .

احاط بملك مصر السابق بعض المرافقين من الألبان (الأرناؤوط) كنّا نراهم ، ولكن لم يصادف أن التقيناه طوال فترة سكننا فوق شقته ، كأن يدخل أو يخرج من البناية .

* * *

في أحد الأيام وبينما أنا جالسة في شرفة شقتنا ، داهمت أنفي رائحة دخان سيگار متصاعد . بحثتُ عن مصدره ، فوجدتُه ينبعثُ من الشقة التي تحتنا . ألقيتُ نظرة خاطفة الى أسفل ، واذا بي أرى الملك فاروق واقفاً متكئاً على سياج شرفته ، يتأمل روما العظيمة من علوٍ شاهق ، ينفثُ دخان سيگاره من أنفه بهدوء .

. . ارتجفتُ وكادت أعصابي أن تنفلت ، ولكنني سيطرتُ عليها بقوة . لم يكن في نيتي ، سوى القاء التحية عليه ، غير اني خشيتُ من زوجي أن يلومني على فعلتي . ولو كنتُ فعلتها ، لما قلتُ له أكثر من «السلام عليكم يا جلالة الملك»!

غادرنا «روما» الى «لندن» عام ١٩٦٠م ، وبقينا فيها حتى عام ١٩٦٤م . رأينا لغة الاطفال العربية بدأت بالضعف والنسيان . خشينا عليهم ، فقررنا الرحيل الى بلد عربي ، لكي يستعيد اولادي لغتهم الاصلية .

فانا وزوجي الشريف حسين ، من المتشددين ازاء قيمنا الاسلامية والعربية ، ولا نسمح لأنفسنا ان نتساهل فيها . نريد من اولادنا واحفادنا ، ان يحافظوا على تراث آبائهم واجدادهم ، ويدرسوا تأريخهم بعمق ، ليفهموا ماذا فعلوا وماذا انجزوا . لذا شددنا العزم على الرحيل الى بيروت .

بيروت

اخترنا «بيروت» هذه المرة لنحطَّ فيها رحالنا ، فكانت لنا فيها قصص طوال عقد من الزمان . بقينا من عام ١٩٦٤م الى عام ١٩٧٥م ، وبدأ اولادي يلتحقون بالجامعات البريطانية تباعاً . جاء ولدي الشريف «محمد» الى «اوكسفورد» فتبعتُه لقضاء اجازة الصيف عام ١٩٧٥م في لندن ، واذا بالحرب الاهلية المدمرة تشتعل في لبنان ، فرفضتُ العودة اليها . . وانا منذ ذلك التأريخ ، اعيش بقية عمري في لندن .

* * *

أحببتُ بيروت واللبنانيين كثيراً ، فطوال فترة وجودي عندهم ، لم اسمع

منهم كلمة خدشت أذني ، أو زعَّلتني من كبير أو صغير . لقد عاملونا معاملة رائعة . لم أشعر بأني غريبة بينهم ، كنت وكأني بين أهلي وفي بلدي . بيد ان الأمر اختلف قليلاً مع زوجي الشريف حسين ، فقد ارتاح بلندن أكثر من ارتياحه ببيروت . كان (رحمه الله) ما إن يكاد يخرج ليشرب فنجان قهوة في احدى المقاهي ، حتى تتجه الأعين والأنظار اليه .

كانت تربطنا علاقات طيّبة مع لبنانيين ، كاظم الخليل مثلاً ، فهو نائب كميل شمعون ، وهو من أهل الجنوب . بقينا على اتصال بالمرحوم كامل مروّة (مؤسس ورئيس تحرير صحيفة الحياة) صديق اخي الأمير عبد الاله ، وظلَّ زوجي يزوره في مكتبه باستمرار . زرناه مرةً في منزله فاستقبلنا بحفاوة ، واجْلَسَنا في حديقته .

قبل أعوام قليلة ، بعدما عرفتُ بحقيقة ما جرى لأخي عبد الاله ببغداد عام ١٩٥٨م ، أخبرني زوجي الشريف حسين قبيل وفاته (رحمه الله) بعد تمنّعٍ شديد ، بأنه في احدى زياراته لمروّة في جريدته ، بدا الألم والتأثر واضحين على وجهه ، وهو يُخرج من درج مكتبه صورة للأمير ، مشنوقاً ومعلقاً على احدى البنايات ، في احد شوارع بغداد .

لندن : نهاية المطاف

بعد نشوب الحرب الأهلية اللبنانية عام ١٩٧٥م ومغادرتي بيروت ، زارنا محامينا الخاص «ميشيل خطّار» في لندن . هذه المدينة التي اعيشُ فيها منذ ربع قرن من الزمان . أخبره الشريف حسين بأنني (زعلانة) ومتأذية ، مما يجري من عبث ودمار ، ليس له معنى بلبنان . نظرتُ الى خطّار واذا بالدموع تسيح على وجنتيه .

عشر سنوات من الاقامة قضيتُها ببيروت ، ولم أهنأ في شقتي الجديدة ، الاّ في الثلاث سنوات الأخيرة منها ، لكني غادرتُها مسرعة . . يبدو ان الله كتب عليَّ أن لا أهنأ في سكن ، فكلما بنيتُ بيتاً ، سرعان ما أغادره مضطرة!

* * *

بعد خروجنا من العراق احترنا الى اين نتجه ، وفي اي بلد نعيش ونستقر ، فنحن لم نفكر في يوم من الايام ، سيجري علينا ماجرى في ١٤ تموز عام ١٩٥٨م ، لأننا كنّا ــ ومازلنا وسنبقى ــ نعتبر العراق بلدنا ومأوانا ومثوانا . لهذا وعلى رغم الدماء والتضحيات التي قدمناها فيه ، حينما جاءنا عدد من العراقيين عام ١٩٩٣م ، وطلبوا منا الموافقة على ترشيح ولدي الشريف علي بن الحسين ، لتولي عرش العراق ، لم نمانع .

فالعراق بلد اجدادي واهلي الشهداء والصدّيقين ، علي بن ابي طالب والحسين ، وائمة الهدى والرحمة من آل البيت (عليهم السلام) . فيه دفن ابي وامي واخواتي وعمي وابن عمي وسائر ارحامي ، واليه سأعود او ينقل رفاتي ، لأسجّى بين اهلي واحبابي . . فكيف نُذبحُ فيه؟ وكيف نُطرَد منه؟ وكيف سوَّلت للطغاه القتلة نفوسهم ، ان يبيدوا شعبه ، ويذلّوا اهله ويستعبدوهم؟ الاّ يكفيهم ما سفكوه من دمائهم ، وما نهبوه من خيراته وثرواته ، وما جروه عليه من كوارث ومحن؟!

لا بد ان ينتهي هذا العبث ، ولا بد للعراق بلد الانبياء والائمة (ع) ان يعود بإذن الله ــ كما عهدناه ــ موطن الحضارة والخير والعطاء والاستقرار . . انه سميع مجيب ، ولاحول ولاقوة الاّ بالله العلي العظيم .



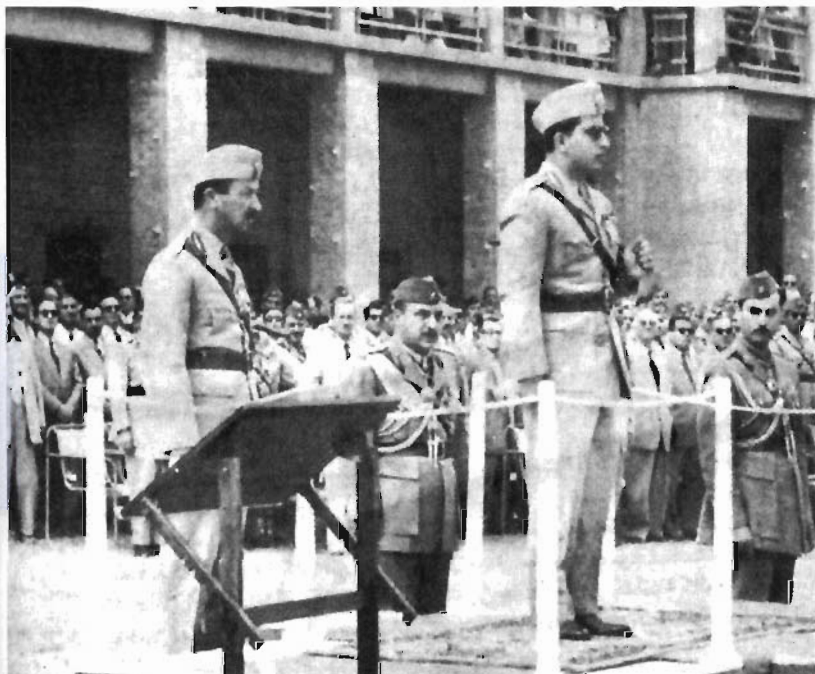
قصر الرحاب بأثاثه العادي، اذ ليس في صالته الرئيسة ما يلفت النظر. عُلِّقت على جدارها في الوسط صورة (ملك العرب) الشريف الحسين بن علي، والى جانبيها صورتا حفيديه الملك غازي والملكة عالية. فيما سُطرت صور آخرين على المدفأة مع (سماوري شاي ايرانيين).
الشريف حسين مع حرمه الاميرة بديعة وولديه محمد وعبد الله عام ١٩٥٤م.

الاميرة بديعة في لقطة تأمل حزينة، في منزلها بلندن (تموز ٢٠٠١م) خلفها صورة والدها ملك الحجاز علي بن الحسين، ثم الشريف علي باشا (أمير مكة المكرمة) جد أولادها الأشراف، واخيراً صورة جدها (ملك العرب) الشريف الحسين بن علي.

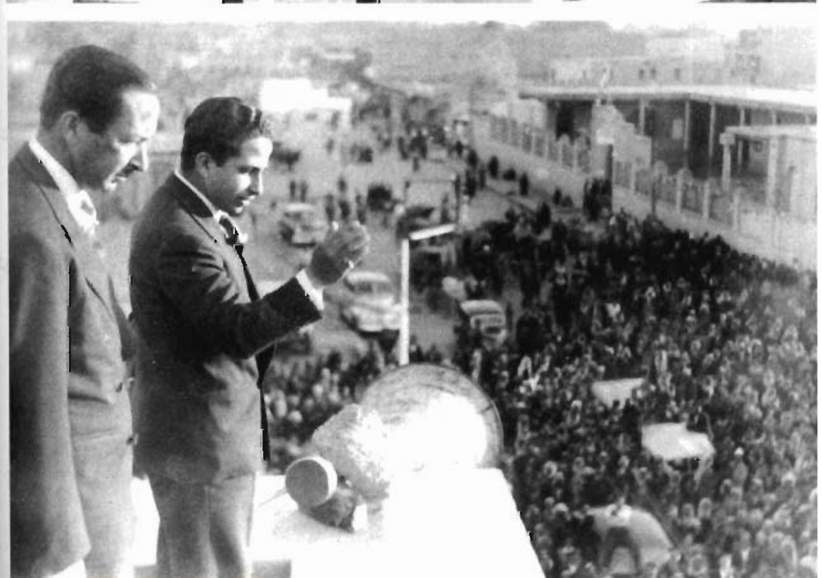
هذه هي كل محتويات «قصر الرحاب» اخرجها الانقلابيون من داخله، ليعرضوها في حديقة القصر الامامية، لغرض حصرها تمهيداً لمصادرتها. الاّ ان معظمها آلَ مصيره في بيوت الضبّاط والمسؤولين الجدد في البلد! هذه الصورة المخزية تُعبِّرُ عن الهمجية والدناءة والحقد المقيت في نفوس المصادِرين القتلة.
قصر الرحاب
بعد انقلاب ١٤ تموز ١٩٥٨م.



الملك فيصل الثاني يلقي
خطاباً له امام الجماهير،
قبل ان يتسلم عرش
العراق، والى يساره خاله
الامير عبد الاله.



الملك فيصل الثاني
يستعرض القوات
المسلحة العراقية. يقف
خلفه خاله الامير عبد الاله.
بدا في الصورة بينهما
(تحت المنصّة)
رفيق عارف رئيس اركان
الجيش العراقي



بعد تتويجه ملكاً رسمياً على
العراق في ٢ مايس ١٩٥٣م،
خرج الملك فيصل الثاني
برفقة خاله الامير عبد الاله
الى شوارع بغداد، فاستقبلته
الجماهير العراقية استقبالاً
معبِّراً، ووقف هو بدوره
يحييهم ملوحاً لهم بيده.



الملك فيصل الثاني (في الوسط) مع مسؤول مصري والى يمينه خاله الامير عبد الاله.



الملك فيصل الثاني واللواء محمد نجيب قائد انقلاب ٢٣ يوليو ١٩٥٢م على فاروق ملك مصر.



صورة اخرى لهما، وهما ينظران الى البحر.

الملك فيصل الثاني (بالزي العسكري) والملك سعود بن عبد العزيز (باللباس العربي) يقفان على السجاد الاحمر في حفل استقبال لزيارة رسمية.





الملك سعود بن عبد العزيز آل سعود (ملك المملكة العربية السعودية) ممسكاً بيد الشريف حسين بن علي. بدا خلفه (على يمينه) ملك المملكة العربية السعودية الحالي فهد بن عبد العزيز وسائر أمراء آل سعود.



من اليمين: (ملك المملكة العربية السعودية) سعود بن عبد العزيز والامير عبد الاله بن الملك علي.

من اليمين:
١ ـ الأمير عبد الاله. ٢ ـ الملك سعود بن عبد العزيز. ٣ ـ الملك فيصل الثاني.
الأول من اليسار: الشريف حسين بن علي.



صورة تحت يافطة «شركة مصر للطيران»
من اليمين: ١ـ نوري السعيد (بالسدارة الفيصلية يُكلّم الملك فيصل الثاني)
٢ـ الملك فيصل الثاني ٣ـ الامير عبد الاله ٤ـ (...) ٥ـ الامير نايف بن الملك عبد الله ٦ـ الامير علي بن نايف.



السفير نجيب الراوي يكلّم الامير عبد الاله

مطار بغداد الدولي.. صورة جمعت مدنيين وعسكريين، ويظهر الرابع من اليمين (بالزي العسكري) طيّار الامير الخاص جسّام محمد. بينما بدا اول المدنيين الامير عبد الاله ثم الملك فيصل الثاني والامير نايف بن الملك عبد الله والامير علي بن نايف (الطفل الصغير) ثم نوري السعيد والشريف حسين بن علي (خلفه)...





الملك فيصل الثاني يهمُّ بالصعود الى الطائرة الملكية بصحبة خاله الامير عبد الاله.



الموكب الملكي العراقي متجولاً بعربات الخيول وسط شوارع بغداد، وقد احتشدت الجماهير العراقية تحيي مليكها الشاب فيصل الثاني بعد تتويجه عام ١٩٥٣م.



الشريف حسين بن علي في بيته بمنطقة المنصور، مع اولاده الاشراف الثلاثة: محمد (الى يمين والده) وعبد الله (الى يساره) وعلي (في حضنه). بغداد ١٩٥٨.



الملك فيصل الثاني (جالس في الوسط) بين مستشاريه واعوانه. الى يمينه الشريف حسين بن علي وموفق فتاح باشا. والى يساره سعد جميل المدفعي وفاروق فتّاح باشا.

الواقفون من اليمين، وهم كل من المرافقين: ١ـ ثامر خالد الحمدان.

٢ ـ جواد كناوي. ٣ ـ عبيد عبد الله المضايفي. ٤ ـ علي الصانع.

٥ ـ رئيس المرافقين نوري (...)

في منزل الأميرة بديعة (دعوة غداء) ـ بغداد ١٩٥٨

بيت الاميرة بديعة (تحت الانشاء) في شارع الاميرات بمنطقة المنصور. جاءت الاميرة تتفقده (ترتدي العباءة العراقية) فيما عمّال البناء يواصلون عملهم فيه.
بغداد ١٩٥٤

الأمير عبد الاله يُقدِّم عصا المارشالية هدية الى ابن اخته الملك فيصل الثاني في يوم تتويجه ملكاً بحضور السيد محمد الصدر.
(٢ أيار / مايس ١٩٥٣م).



الملك فيصل الثاني يقف الى جانب خالته الاميرة بديعة في احتفال عائلي خاص، وبدا الشريف حسين بن علي (زوج الاميرة) في الغرفة الداخلية.



قصر الزهور ١٩٥٠م.
من اليسار: ١ ـ الملك فيصل الثاني ٢ ـ الملكة دينا عبد الحميد (ملكة الأردن) حرم الملك حسين بن طلال ٣ ـ الشريف حسن بن عبد العزيز (عمُ الملكة دينا) ٤ ـ الشريف حازم بن سالم (زوج الأميرة جليلة).



الاميرة بديعة ابنة الملك علي في منزلها بلندن، تموز ٢٠٠١م تتأمل في صور كل من:
١ـ الشريف علي بن عبد الله امير مكة المكرمة (والد زوجها الشريف حسين، وجد اولادها الاشراف محمد وعبد الله وعلي) ٢ـ الملك فيصل الثاني بن غازي (ملك العراق، ابن اخت الاميرة بديعة) ٣ـ الملك غازي بن فيصل الأول (ملك العراق، ابن عم الاميرة بديعة) ٤ـ الامير عبد الاله بن الملك علي (اخو الاميرة بديعة، الوصي على عرش العراق) ٥ـ الملك فيصل الاول بن الحسين (ملك العراق، عم الاميرة بديعة) ٦ـ الشريف علي بن عبد الله (أمير مكة المكرمة) صورة اخرى له في شبابه ٧ـ الملك عبد الله بن الحسين (ملك الاردن، عم الاميرة بديعة).

الانقلابيون بعد هجومهم على «قصر الرحاب» صبيحة ١٤ تموز ١٩٥٨م، وانتهائهم من ذبح العائلة العراقية المالكة العزلاء. وقف بعضهم وجلس آخرون مشهرين اسلحتهم بتحدٍ فارغ امام بوابة القصر الحديد. فيما آثار الحرائق والدخان ظهرت واضحة (خارجة من منافذ القصر) لتلتصق على واجهته وحيطانه!

الفهرست

ـ انتهى بعون الله تعالى ـ

